

٧٢٢
٥٥٤

٤١
٤٤٠

"بسم الله الرحمن الرحيم"

الجامعة الأردنية

كلية الدراسات العليا

مكتبة الدراسات العليا

رسالة دكتوراه

الشعري في بلاد الشام والجزيرة من قيام الدولة العباسية

حتى نهاية القرن الثالث الهجري

إعداد

ياسين يوسف عايش خليل

إشراف

الأستاذ الدكتور محمود السمرة

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات نيل درجة الدكتوراه

في اللغة العربية بكلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية

١٩٩٠ م / ١٩٩١ م

”نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ٢٠/٤/١٩٩١ وأجيزت ”

التوقيع

محمد
عبد الله
عبد

الأستاذ الدكتور محمود السمرة رئيساً
الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد عضواً
الأستاذ الدكتور احسان عباس عضواً
الأستاذ الدكتور نصرت عبد الرحمن عضواً

إهداء

إلى من حملوا معي مشاق حروف هذه الدراسة.....
صابرين أو مكرهين على الصبر.....
إلى زوجتي وأبنائي.....
أهدي إليهم جهدنا المشترك.....
فرحة لعلها تحو التعب.....

شكر وتقدير

صاحب هذه الدراسة مدين للأستاذ العلامة الدكتور

إحسان عباس دينا يطوي به عنقه على مدى الاهتمام على

ما أسفنه عليه من أيادي فضله ورعايته وتوجيهاته

السديدة حتى استوث على هذا النحو

فلمك يا شفي الشكر كله والتقدير.

فهرس المحتسوى

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
٩ - ١	مقدمة
٦٦ - ١٠	<u>الباب الأول</u> : الحياة السياسية والإدارة والعمران والثقافة في الشام والجزيرة
٣١ - ١١	الفصل الأول: الحياة السياسية في بلاد الشام والجزيرة:
٢٢ - ١١	أ - الفتن والثورات الداخلية
٣١ - ٢٣	ب - الحروب الخارجية
٣٩ - ٣١	الفصل الثاني: النواحي الإدارية والمالية
٤٥ - ٤٠	الفصل الثالث: في النواحي العمرانية
٦٧ - ٤٦	الفصل الرابع: الحياة الثقافية
٣٣٤ - ٦٧	<u>الباب الثاني</u> : ميادين الشعر في الشام والجزيرة
٧٦ - ٦٧	تمهيد
١٣٧ - ٧٧	الفصل الأول: الشعر والصراع الداخلي:
٨٩ - ٧٧	١ - الشعر والصراع بين الأمويين والعباسيين
١٣٧ - ٩٠	٢ - الشعر والفتن والثورات الداخلية:
١٠٢ - ٩٠	أ - ثورة أبي العميط
١٠٣ - ١٠٢	ب - حركة الغديني
١٠٥ - ١٠٣	ج - ثورة المبرقع اليماني
١٠٨ - ١٠٥	د - الفتن في حمص
١٢٠ - ١٠٨	هـ - فتنة أبي الميذام
١٣٧ - ١٢١	و - ثورات الجزريين
١٤٨ - ١٣٨	٣ - الشعر في الصراع بين العباسيين والطولونيين

١٧٨ - ١٤٩	الفصل الثاني : الشعر والصراع الخارجي :
١٥١ - ١٥٠	أ - بين المسلمين والروم في القرن الثاني الهجري
١٧٨ - ١٥٢	ب - بين المسلمين والروم في القرن الثالث الهجري :
١٥٤ - ١٥٢	١ - المظهر الديني للصراع
١٥٩ - ١٥٤	٢ - مشكلات كانت تعرقل حركة الجيش الفعّازي
١٦١ - ١٥٩	٣ - حماية الثغور
١٧٢ - ١٦١	٤ - الاعلاء من شأن القيادات الإسلامية وتصوير المعارك
١٧٥ - ١٧٣	٥ - مفاداة الأسرى وتبادل الرسائل
١٧٨ - ١٧٥	٦ - السبايا
٢٤٩ - ١٧٩	الفصل الثالث : ميادين الشعر الوجداني :
١٩٨ - ١٧٩	١ - الوصف والحنين
٢١٨ - ١٩٩	٢ - الرثاء
٢٣٢ - ٢١٩	٣ - الغزل
٢٤١ - ٢٣٣	٤ - الفخر
٢٤٩ - ٢٤٢	٥ - النقد الاجتماعي والهجاء
٢٦٥ - ٢٥٠	الفصل الرابع : الشعر في نظرة المذاهب :
٢٦٢ - ٢٥٠	١ - التشيع في الشعر الشامي
٢٦٥ - ٢٦٣	٢ - الزهد والتصوف في الشعر الشامي
٣٢١ - ٢٦٦	الفصل الخامس : دراسة لبعض شعراء الشام :
٢٨٣ - ٢٦٦	أ - ديك الجن الحمصي
٢٩٠ - ٢٨٤	ب - عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي

الصفحة

الموضوع

٢٩١ - ٣٠٤	ج - محمد بن يزيد الحصني
٣٠٥ - ٣١٠	د - الحسين بن علي التميمي الانطاكي
٣١١ - ٣١٥	هـ - محمد بن أبي زرعة الدمشقي
٣١٦ - ٣٢١	و - الحلبي
٣٢١ - ٣٢٤	خاتمة : هل يمكن بناء مذهب شامي في الشعـر ؟
٣٣٥ - ٣٥٨	المصادر والمراجع :

الشعرني بلاد الشام والجزيرة
من قيام الدولة العباسية حتى نهاية
القرن الثالث الهجري

المقدمة

لطالما استوقفتني في أثناء إعدادي لبحوثٍ كنت أكلّف بها في دراساتي الجامعية عبساراً تتحدث عن طريقة الشامين في الشعر، فأتساءل بيني وبين نفسي: هل تميز الشعراء الشاميون بطريقة خاصة بهم؟ وإذا كان الأمر كذلك فما تلك الطريقة؟ ولعل هذه العبارة المبهمة كانت من أكثر الحوافز في توجيهي لدراسة الشعر الشامي في الحتبة الممتدة من سنة ١٣٢ هـ / ٧٤٩ م - ٢٩٢ هـ / ٩٠٤ م. وثمة عامل آخر أغرائني بدراسة هذا الشعر وعوأن الدارسين المحدثين لـم يولوا الأدب في الشام والجزيرة في هذه الحقبة عناية تذكر، وظل مدار اهتمامهم منصباً على دراسة بعض الأعلام كدراستي خليل مردم بك التعريفيتين "شعراء الشام في القرن الثالث الهجري" (١)، و"الشعراء الشاميون" (٢)، إذ عرف في الأولى بأربعة من شعراء الشام هم العتابي وديك الجسن الحمصي وأبو تمام والبحتري، في حين عرف في الثانية بعدد آخر من شعراء الشام عاشوا في أزمان متباعدة، ولم يكن بينهم من شعراء الحقبة الأولى بعد تولي العباسيين للحكم سوى عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي. ومثل هذا يقال أيضاً عن دراسة عمر موسى باشا التعريفية في كتابه "الأدب في بلاد الشام من العصر الإسلامي وحتى نهاية العصر العباسي" (٣). فقد أتى فيه على التعريف ببيضة وأربعين شاعراً وكاتباً شامياً، ناقلاً كثيراً من مادة كتابه في حديثه عن شعراء الشام فسي القرنين الثاني والثالث الهجريين عن دراستي خليل مردم بك السابقتي الذكر، ولم يضاف إلى مسا جاء به خليل مردم بك شيئاً يذكر. وقد انصرف فريق آخر من دارسي الشعر الشامي إلى إفراد دراسات مستقلة قائمة في ذاتها تتناول كل دراسة علماً واحداً من أعلام الشعر الشامي، ومنهم يوسف بكار في دراسته عن ربيعة الرقي (٤)، وناصر حلاوي في دراسته للعتابي (٥)، والطيب العشاش في دراسته لمنصور النميري (٦).

- (١) خليل مردم بك: شعراء الشام في القرن الثالث الهجري، مجلة المجمع العربي بدمشق، المجلد الخامس، ١٩٢٥.
- (٢) خليل مردم بك: الشعراء الشاميون، تحقيق عدنان مردم بك، دار صادر، بيروت.
- (٣) عمر موسى باشا: الأدب في بلاد الشام والجزيرة من العصر الإسلامي وحتى نهاية العصر العباسي، ط ١، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٨٦.
- (٤) يوسف بكار: شعر ربيعة الرقي، جمع وتحقيق ودراسة، ط ٢، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٤.
- (٥) ناصر حلاوي: العتابي حياته وما تبقى من شعره، المريد، السنة الثانية، العدد الثالث، ١٩٦٩.
- (٦) الطيب العشاش: شعر منصور النميري، دار المعارف للطباعة، دمشق، ١٩٨١.

أما الطائيان الكبيران أبو تمام والبحثري فالدراسات عنهما كثيرة قديمة ————— و حديثة ، وهي دراسات تنصب في مجملها على الموازنة بين مذعبيهما في الغالب الأعم ، وقلما أعار الدارسون اهتماماً خاصاً بشأنيتهما وأثرهما فيهما ، وما ورد في بعض تلك الدراسات عن أثر البيئة الشامية في شعرهما ، لم يكن يزيد على التعمات جزئية عابرة. ومن تلك الدراسات كتاب نجيب محمد البهيتي : "أبو تمام الطائي حياته وحياة شعره" ^(١) ، ودراسة عبد القادر الرباعي "الصورة الفنية في شعر أبي تمام" ^(٢) ودراسة أحمد بدوي عن البحثري ^(٣) .

ولكي يتحقق لي ما أريد من رصد للمؤثرات السياسية والثقافية والعمرانية في الشعر الشامي بعمومته لا بخصوصية أفرادها كما صنع جل أولئك الدارسين ، ولكي يتحقق لي النظر أيضاً في أشعار شامية أخرى كثيرة تولدت في البيئة الشامية ونوّه بها كثير من القدامى وأغفلها المحدثون كلهم أو جلهم ، كان لا بد من أن تكون مساحة الدراسة أفقية وعمودية في آن معاً ، فكان أن اتخذت "الحياة الأدبية في بلاد الشام والجزيرة من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الثالث الهجري عنواناً لموضوع صالح للدرس الأدبي الأكاديمي ، ثم عرضت أمر ما توضح لدي عن شعر هذه الحقبة وشعرائها والتصاقهما — أعني الشعر والشعراء — بمجمل أحداث العصر والبيئة وتفصيلاتها في كثير من الأحيان ، على أستاذي الدكتور محمود السيرة ، فتلطف مشكوراً بقبول الإشراف على البحث وصاحبته ، وقد عمداني بفكر العالم وعدو الباحث إلى كثير من مصادر الدراسة ، وبصري بمحاذيرها ، وبخاصة ما يتعلق منها بقضية عدم ارتباط شعراء الأمصار الإسلامية في تلك الحقبة بمصر دون مصر ، ومن ثم صعوبة استيضاح أثر البيئة الواحدة في الشاعر . وبعد أن توضحت الجوانب التي ستشملها هذه الدراسة أنن — حفظه الله — بأن أجعل البيئة الشامية والجزيرة وشعرهما هي المنطلق لدراسة الشعر الذي نظمه شعراء نصّ القدماء بدقة على شأنيتهما ، ولذلك نحيت جانباً الشعر الذي لزم يرتبط بالبيئة الشامية والجزيرة وأحداثهما ، وإن قاله شعراء شاميون أو جزيريون أصلاً (إذ قالوه خارج بيئتهم) إلا ما كان من هذا الشعر يمثل الشوق والحنين إلى الشام وربوعها ، أو ما كان في وصف

(١) نجيب محمد البهيتي : أبو تمام الطائي حياته وحياة شعره ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٨٢ .

(٢) عبد القادر الرباعي : الصورة الفنية في شعر أبي تمام ، ط ١ ، جامعة اليرموك ، إربد ، ١٩٨٠ .

(٣) أحمد أحمد بدوي : حياة البحثري وفنه ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة .

معارك المسلمين مع الروم في ما وراء الدروب ، لأن الاغتراب كان يحفز القرائح على استحضار صور
مراع الصبا والشباب إلى النفوس الشاعرة ، فظلوا وعم البعيدون عنها ، يحيون فيها بخيالاتهم ، وكذلك
يقال عن الشعر الذي نظم في وصف معارك المسلمين مع الروم في الثغور ، إذ الثغور جزء من الشام
والجزيرة ، وما كان لأولئك الشعراء أن ينظموا فيها لولا إحساسهم بخطر يهدد المسلمين بعامية
وأهل الثغور بخاصة .

وقد كان من حق هذه الدراسة أن تتناول النثر الشامي والجزيري إلى جانب الشعر ، ولكن بعد
حين من النظر المستأنى الدقيق في مصادر الدراسة الأدبية والتاريخية والثقافية تبين لي أنني لست
أجمع مادة نشرة كافية للدرس ، إذ لم يتجمع لدي غير بعض رسائل الإمام الأوزاعي ^(١) ، وبعض مواعظ
لبعض الزهاد ليست بذات غناء ^(٢) ، وغير نثف من بعض رسائل العتّابي في الحياة والنقد ^(٣) ، وغير
نصيحة - لعلها مصطنعة - منسوبة إلى أبي تمام وجهها إلى البحري ^(٤) ، وأطول تلك المواد النثرية
وأصلحها ، وهي رسائل الإمام الأوزاعي ، لا تعدو أن تكون مجموعة من النصائح والوصايا والمواعظ
التي تغلب عليها الصبغة الفقهية ، والتوجيهات العامة في شؤون شامية كرسالته في حث المنصور
على مفاداة أسرى المسلمين من الروم ، ونصيحته له وقد استدعاه إلى بغداد ليفيد من توجيهاته ،
ورسالته إلى صالح بن علي العباسي ينهيه فيها عن الإساءة إلى نصارى لبنان .

وبما أن مقدار هذه المواد النثرية مجتمعة غير كاف لتقوم عليه دراسة أدبية فقد وجدت تناسي
مضطراً إلى أن أحصر البحث في الشعر وحسب ، ولهذا غدا عنوانه : " الشعر في بلاد
الشام والجزيرة من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الثالث الهجري .

- (١) انظر جملة هذه الرسائل في : الإمام الرازي : الجرح والتعديل ، ط ١ ، طبعة مجلس دائرة
المعارف العثمانية ، حيدرآباد الدكن ، الهند ، ١ : ١٨٧ ، ٥ : ٢٦٦ ، اليسوي : المعرفه
والتاريخ ، تحقيق أكرم ضياء العمري ، ط ٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨١ ، ٢ : ٣٩١ ، ابن
الجوزي : صفة الصفوة : تحقيق محمود فاخوري ، ط ١ ، دار الوحي بحلب : ١٩٧٣ ، ٤ : ٢٥٦ ،
أبو نعيم الأصبهاني : حلية الأولياء ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٦ : ١٣٥ - ١٤١ .
- (٢) حلية الأولياء ، ١ : ٢٨٢ .
- (٣) انظر طائفة منها في : أحمد زكي صفوت : جمهرة رسائل العرب ، العصر العباسي الأول ،
ط ١ ، البابي الحلبي ١٩٣٧ ، ٣ : ٤٧٤ - ٤٧٨ .
- (٤) انظر : ابن رشيقي القيرواني : العمدة ، ط ٥ ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار
الجيل ، ١٩٨١ ، ٢ : ١١٤ - ١١٥ .

أما المصادر التي عولت عليها فهي كثيرة متنوعة وأبرزها في الأهمية "تاريخ مدينة دمشق" للحافظ ابن عساكر الدمشقي ، وقد أفدت من هذا السفر الضخم بأجزائه كلها المطبوع منها والمخطوط ، كما أفدت من تهذيبه ، فهو قد أمدني - على أشواك قتاده في المنهج وفي الخط - بمعلومات غزيرة وفريدة لم أكن لأقع عليها في غيره من المصادر الأخرى ، وبخاصة ما تعلق منها بأحداث بلاد الشام الداخلية ، وما ارتبط بتلك الأحداث من شعر نظم الشعراء الشاميون مادحين ورائين وهاجين ورازقين ، ويلييه أهمية بغية الطلب " لابن العديم الحلبي الذي كان مصدراً لكثير من الأشعار والأحداث التي ارتبطت بمنطقة حلب وما جاورها من كور ، والذي قدم للدراسة فائدة جلّى في درّس بعض الشعراء الذين لم يرد لهم ذكر في غيره من مصادر الدراسة ؛ ثم كانت دواوين الشعراء الشاميين ومجاميع أشعارهم هي المصدر الثالث التي عولت عليها مستقرباً في دراسة ميادين الشعر الوجداني والمذهبي ، والشعر في الصراع مع الخوارج والـروم .

ومن المصادر المبيعة الأخرى التي اعتمد عليها البحث كتب التاريخ العام ، والطبقات ، والوفيات فأفدت منها فوائد جلّى في دراسة الحياة السياسية والثقافية ، وأبرز تلك الكتب "تاريخ الرسل والملوك" للطبري ، و "وفيات الأعيان" لابن خلكان ، و "الولاة والقضاة" للكندي .

وظلّ لكتب الأدب الدامة ككتايب "الأغاني" و "العقد" ، وكتب الاختيارات لكتب الحماسات ، و "الأنوار ومحاسن الأشعار" للشهيد شاطبي ، و "جمهرة الإسلام" للشيزي ، أهمية واضحة في الوقوف على الكثير من الدقائق الخاصة بحياة بعض شعراء الشام ، أو لتضمنها كثيراً من الشعر الشامي مما لم يرد في مجاميع بعض الشعراء الشامييين .

اشتملت هذه الدراسة على مقدمة وبابين وخاتمة ، وقد تضمن الباب الأول منها أربعة فصول تحدثت في الفصل الأول منها عن الحياة السياسية في بلاد الشام والجزيرة ، وكان التركيز منصّباً فيه على ما شهدته الشام بأجنادها وشعورها من أحداث دامية ، وفتن مروعة من لدن الانقلاب العباسي حتى نهاية الدولة الطولونية في مصر والشام سنة ٢١٢هـ / ٩٠٤م . وقد تبين في هذا الفصل أن الشام والجزيرة كانتا قليلاً ما تمرّان الهدوء والاستقرار بسبب عدم رضا الشاميين عن العباسيين وولاتهم الذين كانوا في الغالب من البيت العباسي في أول الأمر ، ومن الترك والفرس في الفترة اللاحقة . كما تبين أن الثغور كانت تشهد حروباً طاحنة بين المسلمين والبيزنطيين ، ولذلك شاعت

سياسة العفاداة بين الطرفين التي أدت إلى أن يكون لهذه السياسة رسوماً الخاصة .

وتحدثت في الفصل الثاني عن النواحي الإدارية والمالية في بلاد الشام والجزيرة فتبين أن الخلفاء العباسيين ظلوا على منهج الخلفاء الأمويين في تقسيم الشام إلى خمسة أجناد حتى عصر الرشيد الذي أفرز العواصم عن قُسرين ، دلالة على اهتمامه بحماية حدود المسلمين فسي وجه الهجمات الرومية المتلاحقة . وقد اقتضت سياسة تحصين الثغور ، وتزويدها بالمقاتلين والمرايطين وبناء المسالج فيها أن يتشدّد العباسيون وجبة خراجهم في التحصيل ، وفي فرض قوانين إضافية لذلك ، وهي قوانين كان فيها مقدار غير قليل من العسف أرعقوا معها الناس .

وسقت الكلام في الفصل الثالث على النواحي العمرانية ، وقد لوحظ أن العباسيين لم يولوا العمران في بلاد الشام والجزيرة اهتماماً كافياً ، فهم لم ينشئوا مدناً جديدة غير الرافقة ، ولكنهم اهتموا اهتماماً زائداً بتحصين الثغور ، وبنائهم أو ترميمها لخايات عسكرية .

وخصت الفصل الرابع للحديث عن الحياة الثقافية وألوانها التي كانت سائدة في بلاد الشام ، وقد ظهر أن الثقافة الشامية كانت ثقافة نابغة من القرآن الكريم والحديث الشريف دائرة حولها ، وهي على وجه الإجمال ثقافة لا تغترق عن الثقافة الإسلامية التي كانت سائدة في الأمصار الإسلامية الأخرى آنذاك ، فمُني الشاميون بعلوم الإقراء والتحديث والمنازي والسير والفقه والتفسير على اختلاف في درجات الاهتمام بهذه العلوم ، وكانت علوم المنازي والسير ألصق بهم ، وعم بها أبرز . كما عني الشاميون ببعض الضروب الثقافية الأخرى من فلك وتنجيم وطب . وبرزت دمشق وحمص وبيروت والرقّة وأنطاكية وطرشوس من بين أشهر المراكز الثقافية في بلاد الشام . ولم يظهر لمدن جندي الأردن وفلسطين مقام يذكر ، بل بدت الأردن وفلسطين كأنهما كانتا بمعزل عن التأثيرات الثقافية المعاصرة .

لقد كان اهتمامي بهذا الباب بفصوله جميعها ضرورياً للدراسة الأدبية لأن الشعر لا يدرس بمعزل عن المؤثرات السياسية والاجتماعية والثقافية والعمرانية ، بل إن كثيراً من الشعر الشامي لا يمكن درسه منقطعاً عن تلك المؤثرات .

ودرسنا في الباب الثاني ميادين الشعر في الشام والجزيرة ، وقد جعلته في تمهيد وخمسة فصول ، فرصدت في التمهيد حركة الشعر في بلاد الشام والجزيرة ملاحظاً أنه بينما كان الشعراء في العصر الأموي يقدون إلى قصور الخلفاء الأمويين حتى زاحوا أقرانهم من الشعراء الشاميين المقيمين ، إذا بالشعراء الشاميين في العصر العباسي يهاجرون إلى العراق يرتادون قصور الخلفاء العباسيين وأمرائهم ، فمن تعلق من هؤلاء الشعراء بأولئك الخلفاء والأمراء اشتهر وحفظ شعره ، وأما من أثر البقاء في الشام والجزيرة أو من لم يغادرها إلا لماماً فإنه قليل الشعر . ومع أن عدد الشعراء الشاميين المقيمين كان كبيراً فإن من لمع اسمه منهم وطار ذكره قليل ، وأوضح دليل على هذا الفرق من الشعراء شعراء فتنة أبي الهيثم المزي الذي زاد عددهم على الأربعة والعشرين شاعراً وراجزاً لم يظفر أي منهم بشهرة تذكر .

ثم تناولت في الفصل الأول من هذا الباب دراسة الشعر الذي قيل في الصراع الداخلي ، وجعلته في ثلاث شعب كانت الأولى في الشعر الذي نظم في الصراع بين الأمويين والعباسيين بعد مجيء الحكم العباسي ، وظهر أثر هذا الصراع جلياً في أشعار أنصار هؤلاء ، وأولئك قد حُصِّوا أو مدحوا أو رثوا ، وتفرَّعوا .

وتناولت في الأخرى درس الشعر في الفتن والثورات الداخلية ، إذ فجر ثورة أبي العميط السفياي ، وحركة الفديني ، وثورة البرقع اليماني ، وفتن أهل حمص وفتنة أبي الهيثم المزي وثورات الجزيريين الطويلة طاقات أعداد كبيرة من الشعراء الذين بدا مقدار من التميز في الرصانة والجزالة في شعرهم على الرغم من أن الكثيرين منهم لم يرو له شعر آخر غير هذا الشعر المرتبط بهذه الفتنة أو بتلك الحرب ، كأبي الهيثم نفسه وأبي العميط السفياي عينه ، وقد لفت نظري في هذا الفصل أن شعراء شاميين مشهورين نسبياً لم ترو لهم أشعار في تلك الفتن ، مع أنهم عاصروا بعضها ، فربيعة الرقي عاصر فتنة أبي الهيثم ، وليس له فيها شعر ، وعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي ، عاصر تلك الفتنة أيضاً ، ولم يرو له فيها شعر ، وديك الجن عاصر فتناً عديدة ، ومنها فتن أهل حمص ولم يرو له فيها شعر . وقد قادنتي هذه الظاهرة إلى أحد افتراضين ، فإما أن يكون أولئك الشعراء ذاتيين جداً فلم تمنحهم الأحداث الدامية الدائرة حولهم ، وإما أن يكون لهم شعر آخر ولكنه ضاع ، ولا سيما أن ليس لأبي منهم ديوان مذكور في المصادر .

لقد كان لهذه الفتن الداخلية أثر في إعادة الحياة إلى فتي النفاث والرجز كما كان لها أثر في تفتح قرائح عدد من النسوة الشواعر اللواتي نظمن شعراً باكياً بكاءً حاراً صادقاً كبكاء ليلي بنت طريف الشيبانية في أخيها الوليد .

ويلاحظ أنه على الرغم من أن ثورات الجزيريين كانت ثورات خوار فإنهم لم يظهر أي شعور مذهبي للخوار ، بل ظل الظهور في هذا الصراع من نصيب بعض الشعراء الشاميين الذين ارتبطوا بالخلفاء وحسب .

وتناولت في الثالثة قضية الصراع بين العباسيين والظولونيين الذي أثمر عن مشاركة عدد غير قليل من الشعراء الشاميين بهذا المم شعورهم على الجملة شعر قليل الحظ من الغناء من الوجهة الفنية ، لا يستثنى منه غير شعر البحري .

أما الفصل الثاني من هذا الباب فهو مخصص لدراسة الشعر والصراع الخارجي ، وقد برز في هذا الضرب من الشعر الطائيان الكبيران اللذان غنيا بإثارة المشاعر الدينية لدى المسلمين ، واهتماً بقضية تحصين الشور ، وأغلباً من شأن القيادات الإسلامية ، وصوراً كثيراً من المعارك التي خاضها المسلمون ، كما لم يغفلوا عن تصوير المشائ والعقبات التي كانت تعترض سبيل المجاهدين في الشور ، ولا عن الوقوف على قضية الأسرى وتبادل الرسائل بين قادة المسلمين وحكام الروم ، وغنياً عناية طريفة بالسبايا الروميات . وقد صاغ الطائيان في هذه القضايا أجمل قصائد هم ، وكاداً يبلغسان فيها حد الملحمة الشعرية . واللافت للنظر أن عدداً قليلاً من شعراء الشام والجزيرة هم الذين عنوا بهذا الصراع وتصويره ، وتصوير فرحة المسلمين بالانتصارات ، ولعل سبب ذلك راجع إلى أن هذين الشاعرين كانا طائيين فمدحا بعض قادة الجيوش الذين كانوا من طي ، فكان ذاك لهذا من جهة ، ولأن هذين الشاعرين كانا من شعراء الخلفاء فمدحا الخلفاء ببعض ما كان يعني هو لا الخلفاء أن يظهرأ به أمام عامة الناس وعود الجهاد في سبيل الله من جهة أخرى .

ودرست في الفصل الثالث أبرز ميادين الشعر الوجداني من وصف وحنين ورناء وغزل وفخر وهجاء ، وما يمكن أن يضاف إليها توسعة من نقد اجتماعي . وقد أعملت غرض المديح هنا لأن هذا الغرض ذو امتداد في الفصول الأخرى .

وقد كان هذا الفصل عموماً أطول فصول الدراسة ، وذلك بحكم اشتراك معظم الشعراء فسي النظم في تلك الأغراض الشعرية ، ولإكثارهم من النظم في الموضوع الواحد أيضاً . وذلك يكشف عن أن ذاتية الشعراء الشاميين كانت أبرز حضوراً من الاعتماد بقضايا الناس العامة ، ولذلك غاب عن أشعارهم وصف المدن المدمرة ، والحصون المهدمة بفعل الفتن والحروب ، أو بفعل الكوارث الطبيعية من زلازل وبراكين وأمطار جارفة ، وذلك نفسه أيضاً ما غيب عن الشعر الشامي والجزري الاهتمام بوصف العمارة وال عمران ، وما جاء منهما فيه كان قليلاً برز فيه بعض شعراء أنطاكية . وعلى الرغم من هذه الأحكام فإنه يظل يسجل للشعراء الشاميين استجاباتهم لظروف الحياة ومعطيات الحضارة إن في النزل أو في الوصف أو في النقد الاجتماعي .

وخصت الفصل الرابع للحديث عن الشعر في نصرة المذاهب ، وقد انحصر هذا الفصل بدراسة بعض شعر الشاميين الشيعي والقرمطي والزعمدي ، لأنه ، فيما يبدو ، لم يكن للتيارات المذهبية الأخرى من ينظم فيها ، أو يعنى بجمعها في حال نظمها ، كالذي يمكن أن يستنتج من شعر ليلسي بنت طريف الشيبانية وأخيها الوليد ، فهما على كونهما شراة لم يؤد لهما شعر يتبدى فيه شيء من فكر الخوان .

أما الفصل الخامس والأخير من الدراسة فقد ترجمت فيه لعدد من شعراء الشام من عرفوا بالتجويد في الشعر ، ولم يدرسوا بالمرّة أو درسوا دراسات تعريفية عارضة ، وهكذا اشتمل هذا الفصل على دراسة لستة من شعراء الشام هم : ديك الجن الحمصي ، وعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي ، ومحمد بن يزيد الحصري ، والحسين بن علي التميمي الأنطاكي ، ومحمد بن أبي زرعسة الدمشقي ، وأثبت شعراً لشاعر عرف بالحلي عاصراً أبا تمام ، ولم يعرف اسمه ولا كنيته على وجه التحقيق .

أما خاتمة هذه الدراسة فقد أنرت فيها السؤال الذي بدأت به هذه الكلمة ، أعني : هل كان للشاميين مذهب أو طريقة في الشعر ؟ وخلصت إلى نتيجة غير قاطعة وهي أنه يمكن استخلاص سمات عامة لشعراء الشام ، وهي سمات يصلح أن تكون في معظمها متوافرة لدى كثير من شعراء أمصار إسلامية أخرى ، وإن ظلت ألصق بالشعراء الشاميين ، ومن أهم تلك السمات : المراوحة بين السلاسة والعدوبة والجزالة والرصانة في الألفاظ ، والابتعاد عن التكلف والميل إلى ما يبرز مسحة من الطبع ، وتجنب الألفاظ الوحشية ، والاقتصاد في استعمال البديع .

وواضح مما عرضت أن منهجي في هذه الدراسة هو منهج توفيق تاريخي واستقرائي فسي
آن معاً ، فهو يرصد الأحداث التي عصفت ببلاد الشام ، ويتبين مدى تأثيرها في الشعر والشعراء ،
وهو أيضاً ينظر في الشعر ويحاول استجلاء الظلال الاجتماعية والأحداث السياسية البارزة فسي
مسار حركة الشعر الشامي طوال حقبة الدراسة .

والحق أنه ما كان لهذه الدراسة أن تستوي على هذا النحو بغير توفيق الله أولاً ، ثم
بتوجيهات أستاذي المشرف الدكتور محمود السعرة ثانياً ، ثم بمواكبة الأستاذ العلامة الدكتور
إحسان عباس لخطوات إعدادها ، ورعايته لصاحبها ، وتوجيهاته السديدة ، ومكتبته النفيسة التي
أمدني منها بكل ما هو نفيس لازم من المصادر .

وأسأل الله سبحانه أن يكون عملي هذا مرضياً ، وأن تكون أخطائي
فيه قليلة ، والله الموفق .

٣٩٧٢٥٢

الباب الأول

- ١- الفصل الأول : الحياة السياسية في بلاد الشام والجزيرة من سنة
١٣٢ - ١٢٩٢هـ / ٧٤٩ - ١٠٤٠م :-
 - أ - الفتن والثورات الداخلية
 - ب - الحروب الخارجية
- ٢- الفصل الثاني : النواحي الإدارية والمالية
- ٣- الفصل الثالث : العمران
- ٤- الفصل الرابع : الحياة الثقافية

الفصل الأول

أ - الفتن والثورات الداخلية

كان التحول من الأموية إلى العباسية بالنسبة إلى بلاد الشام والشاميين والجزيرة والجزيريين تحولاً كبيراً خطيراً ، فعشية طرد قوة لإحلال قوة أخرى مكانها شهد سكان تلك البلاد المذابح العامة ، والتخريب الكثير الذي قد يصاحب الاجتياح الحربي أحياناً . ولم يطل الوقت حتى أدرك الشاميون أن سيادة الشام للعالم الإسلامي لم تعد قائمة ، وأنهم لم يعودوا العنصر المميز وبخاصة في الجيش والإدارة . وقد شهد ابن المقفع في رسالة الصحابة أن الشاميين حُرموا مما ناله غيرهم ، فجمعهم فيهم إلى غيرهم ، ونُحوا عن المنابر والمجالس والأعمال ، ومنعت منهم المرافق (*) . صحيح أن ابن المقفع يجعل ذلك معاملة بالمثل إذ كان الأمويون — فيما يقول — يعاملون الناس أيام سيادتهم كذلك . ولكن الشق الأول من القضية ثابت ، بينما الشق الثاني منها يحتمل المناقشة . ويضيف ابن المقفع أن هذه المعاملة للشاميين خلقت في نفوسهم عداوة مبررة للعباسيين ، وأنه تعبيراً عن هذه المرارة ، وعن إحساسهم بالظلم فقد حاولوا استرداد سيادة ضاعت ، فواجهوا الدولة العباسية بثورات متوالية بعد إفاقتهم من الصدمة الأولى .

وعلى طول حقبة امتدت من ١٣٢ — ٢٥٦هـ / ٧٤٩ — ٨٦٩ م حاول الشاميون استرداد سلطانهم فقاموا بثورات متتابعة ، وإن اختلفت أسبابها المباشرة باختلاف الأحداث والظروف .

وكانت الدعوة إلى الالتفاف حول رجل منقذ مظهرًا بارزاً من مظاهر رفض الشاميين للوضع القائم ، فحمل كثير من ثوراتهم شعار الدعوة إلى رجل من البيت الأموي ليعيد المجد العربي إلى سابق عهده ، وهكذا التف الشاميون حول "سفياني" ليحقق لهم ذلك الحلم ، وكان أهل قنشرين بقيادة أبي الورد الكلابي أول من ثار على العباسيين ، فشملت ثورته حوران والبثينة ودمشق وحمص وتدمر .

(*) ابن المقفع : رسالة الصحابة في رسائل البلغاء ، تحقيق محمد كرد علي ، القاهرة ، ١٩٤٨م ، ١٢٧ — ١٢٨ ، أحمد زكي صفوت ، جبهة رسائل العرب ، المكتبة العلمية ، بيروت ٣ : ٤١ .

ثم البلقاء والجزيرة . وقد رفع أبو الورد شعار البياض في مقابل السواد ، ولم يدع هذا الثائر لنفسه ، وإنما اختار للخلافة أحد أبناء يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، فبايعه الثائرون ، ولكن هذه الثورة على الرغم من اتساع نطاقها - أخذت بسهولة ، وقتل فيها أبو الورد ^(١) ، وكان ذلك في السنة الأولى من قيام الدولة العباسية .

ولم يمر على الشام بعد حركة أبي الورد وقت طويل من الهدوء ، ففي سنة ١٢٦هـ / ٧٥٣م انضم أهل الشام إلى عبد الله بن علي الذي أعلن أنه أولى بالخلافة من أبي جعفر المنصور ، ولعل التنازع الشامي حول حوله كان من قبيل تعلقهم بمنفذ أياً كان انتماؤه ، حتى لو كانت يده قد تلطختا بدمائهم ^(٢) .

ولما تمكنت جيوش المنصور من إلحاق الهزيمة بعبد الله بن علي وبأنصاره من الشاميين ، خشى رجالاتهم من بطش المنصور بهم ، فسيروا إلى بغداد وقد أعلن باسمهم التوبة ، ويطلب منه الصفح عنهم ^(٣) .

وبعد ما يقرب من عام من حركة عبد الله بن علي بالشام ثار الخوارج في الجزيرة بزعامه طنبـد ابن حرملة الشيباني الذي تمكن من إيقاع الهزيمة بالجيوش العباسية ^(٤) . ولعل ثورات الخوارج في الجزيرة أن تكون امتداداً لما كانت عليه حالهم في الدولة الأموية ، فقد شهدت هذه المنطقة ثورات خارجية قامت بها بكر وتغلب بين الحين والحين وعلى مدار قرن من الزمان بدءاً بثورة ملبد ، وكان من أبرزها ثورة الوليد بن حريف الشاري ^(٥) في عهد الرشيد .

- (١) انظر في تفصيل أحداث هذه الثورة الطبري تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٦ ، ٧ : ٤٤٣ - ٤٤٨ ، وابن كثير : البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ، بيروت ، مكتبة النصر ، الرياض ، ١٠ : ٥٢ - ٥٣ .
- (٢) انظر الطبري ٧ : ٤٧٤ ، ابن أعمش الكوفي : الفتوح ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ٤ : ٣٨٢ ، ابن كثير ، ١٠ : ٤٥ .
- (٣) ابن عساكر : تهذيب تاريخ مدينة دمشق ، تهذيب عبد القادر بدران ، ٣ : ٤٥٣ .
- (٤) انظر في حملة وحركته : الطبري ٧ : ٤٩٦ ، ابن كثير ، ١٠ : ٧٣ .
- (٥) انظر : الأزدي : تاريخ الموصل ، تحقيق علي حبيبة ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ٢٧٩ : المقدسي : البلد والتاريخ ، نشر كلان هوار ، باريز ، ١٩١٦ ، ١٠٢ : ٥ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء : تحقيق محمد نعيم العرقسوسي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ٨ : ٧٠٦ ، وانظر عن أسباب توالي ثورات الخوارج في منطقة الجزيرة : آدم متر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبد الهادي أبي ريدة ، ط ٣ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

وكانت أشد الثورات الشامية قسوة وأبعد عما مدى ثورة أبي المهيذام المُرِّي (١٧٦هـ/ ٧٩٢م) .
 وظاهر الحال أنها فتنة بين القيسية واليمنية ، وقد اختلفت المصادر في تحديد الأسباب التي أدت إلى
 اشتعالها (١) . غير أن الذي يبدو من سياق الروايات التاريخية ، أن السياسة العباسية تجاه
 بلاد الشام كانت هي المحرك في إذكاء نيران هذه الفتنة القبلية ، فقد قرب أحد ولاة العباسيين
 بدمشق اليمنية إليه ، وتحامل على القيسية ، بل حاول إذلالهم ، ف وقعت حرب طاحنة بطلها من
 الجانب القيسي أبو المهيذام المُرِّي . وقد دخلت هذه الثورة في مراحل متعددة ، وكان أبو المهيذام يؤكد
 في كل مراحلها إخلاصه للخليفة . ومعنى هذا انشعاب السياسة العباسية تجاه الشام في شعبتين
 متباعدتين : فعلى مستوى الخلافة كانت بغداد تجد في الفتنة معطلاً عن التنبيه للشعور ، وعلى مستوى
 الولاة المحليين كانت المكائد تستمر ، وتستمد حظها من الفرقة القبلية .

وحين بلغ الرشيد ما سفك في هذه الفتنة من دماء ، وما حرق من قرى : وما هُدم من بيوت ،
 حرص على إطفائها لئلا تمتد فتجرتاً أخرى . وقد أفلح أحد ولاته بالقضاء على هذه الثورة بعدما
 أن أصابت بالأضرار البالغة منطقة واسعة من أرض الشام هي دمشق والبلقاء والجولان والبقاع والأردن ،
 وحران وحصص فلسطين . أما أبو المهيذام الذي اقترنت هذه الفتنة باسمه فقد انتهى أمره نهاية
 غامضة ، فبعض الروايات يقول إنه اختفى (٢) ، وبعضها يقول إنه قبض عليه في مكيدة (٣) ، وتذهب
 رواية ثالثة إلى القول إنه قتل وتفرق عنه أعوانه (٤) .

وما كادت ثورة القيسية تطفأ في سنة ١٧٧هـ / ٧٩٣م ، حتى عادت لتشتعل من جديد
 معارك بين القيسية واليمنية في عام ١٨١هـ / ٧٩٦م ، وكانت حمص بوترتها (٥) ، فسير الرشيد إلى

- (١) انظر في ذلك روايات ابن عساكر عنها في : تاريخ مدينة دمشق : تراجم حرف العين المتلوة
 بالالف ، تحقيق شكري فيصل ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ٣٩٣ - ٤٢٦ ، ابن
 خلدون : العبر ، مؤسسة جمال للطباعة ، بيروت ، ١٩٧٩م ، ٣ : ٢١٦ .
- (٢) انظر : الأزدي : تاريخ الموصل ، ٢٧٩هـ ، ابن العديم : صورة بغية الطلب ، ٢ : الورقة ٢١٥ .
- (٣) انظر ابن عساكر : تراجم حرف العين المتلوة بالالف ، ٤١٥ .
- (٤) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، دار صادر ، بيروت ، ٢ : ٤١٠ .
- (٥) انظر : اليعقوبي ، ٢ : ٤١٠ ، الجهمشيري : الوزراء ، الكتاب ، حققه مصطفى السقا
 وآخران ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٣٨ ، ٢٠٨ .

العقبتلين من قيس وبن جعفر بن يحيى البرمكي الذي أفلح في إصلاح ذات البين ، ثم نزع من القوم السلاح في إجرا ، فريد من نوعه في ذلك الزمان ^(١) . ولعل هذه الفتن الشامية والجزرية المتلاحقة هي التي حفزت الرشيد مع أسباب أخرى - على الانتقال إلى الرقة والإقامة فيها ^(٢) . ويبدو أن إقامة الرشيد بالرقة قد أثمرت في التقليل من حدة الفتن ، فلم يظهر شي منها في أرض الشام إلا في سنة ١٨٧ هـ / ٨٠٢ م ، حين اقتتل اليمنيون والقيسيون مرة أخرى في دمشق ، فأرسل الرشيد أحد رجاله وأمره أن يتكفل بدفع ديات القتلى من بيت مال دمشق ^(٣) .

ومن سياق هذه الإجراءات يتضح أن الدولة العباسية كانت تقف على خلاف مواقف ولايتها في سياستهم ، فالأمر المعينون على بلاد الشام لم يحسموا خلافاً ، بل كان حسم الخلاف الناشب يقوم على عاتق مبعوثين يرسلهم الخليفة ، لا يستثنى من ذلك غير إبراهيم بن شكلة ^(٤) الذي ساوى بسين قيس واليمن فظفر برضاهم جميعاً عنده .

وإذا كانت فتنة أبي الهيثم وما تلاها من فتن بين قيس وبين قيس قد لبست زي العصبية القبلية ، فإنه لم يكن هذا هو شأن كل الثورات في الشام . بل إن البداية التي بدأها أبو الورد الكلابسي استمرت ، فقام أبو العميطر علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية (١٩٥-١٩٨ هـ / ٨١٠-٨١٣ م) يدعو إلى رفض العباسية ، وينادي بفكرة " السفياي المنتظر " ^(٥) . وكان هذا التأثير ينتسب من جهة أبيه إلى معاوية بن أبي سفيان ، ومن جهة أمه إلى علي بن أبي طالب . وقد قدر أن هذا النسب سيجمع حوله الاتباع من كل جهة . غير أنه وقع في خطأ جسيم عندما اعتمد على كلب (أو اليمانية) ، وإلا فإنه كان لديه من الخصائص ما يجمع حوله الانتصار ، فبالإضافة إلى النسب كان عالماً مسرموقلاً ،

- (١) انظر: الطبري ٨: ٢٦٢ ، اليعقوبي ٢: ٤١٠ .
 - (٢) الطبري ٨: ٢٦٦ ، ابن كثير ١٠: ١٧٥ .
 - (٣) انظر: ابن عساكر : صورة تاريخ مدينة دمشق ٨: ٧٥ .
 - (٤) هو إبراهيم بن المهدي المعروف بـ ابن شكلة نسبة إلى أمه ، انظر أخباره في : الأغاني : أبو الفرج الأصفهاني ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ١٠: ١٤٩-١٥٠ ، وانظر خبر ولايته على الشام وما رافقها من استتاب الأمن فيها مدة ست سنين تقريباً : تهذيب ابن عساكر ٢: ٢٦٩-٢٧٢ .
 - (٥) أخبار ثورة أبي العميطر في : صورة تاريخ مدينة دمشق ١٢: ٤٤٧ ، ابن خلدون ٣: ٢٣١ .
- سير الذهبية ٩: ٢٨٤ - ٢٨٦ . وانظر في فكرة السفياي المنتظر : محمد كرد علي : خطط الشام ، ط ٢ ، بيروت ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م ، ٢: ١٤٨ ، فتحي عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ٢: ١٣٧ .

وكان له تلاميذ كثيرون ، كما كانت سنه تبعده عن الخفة والطيش ، والظروف المواتية بسبب الخلاف الشديد بين الأمن والمأمون . وهكذا نجحت ثورته أول الأمر ، فوزع العمال على المدن الشامية . ولكن تفرغ المأمون للثورة ، واستبعاد أبي العميطر للقيسية ومعاداته لها عجل في نهايتها . وتمكن أحد قادة المأمون من القضاء عليها ، بعد أن أفسد على أبي العميطر الجو السياسي فنصب من المروانية خصماً لهذا السفيناني عندما قرب إليه مرواناً يدعى مسلمة بن يعقوب المرواني ، وبذلك استطاع الانتصار على هذا الثائر بعد أن كانت ثورته قد عمت أهل الغوطة وحصن و حلب والسواحل .

وبعد أبي العميطر قام بالثورة على العباسيين داعية جديد يعرف بالفدائي (نسبة إلى الفدائيين وهي قرية لعلها مدينة المفرق الأردنية اليوم) ^(١) واسم هذا الثائر هو سعيد بن خالد بن محمد ، من نسل عثمان بن عفان ، وزعم أنه السفيناني المنتظر غير أن الفدائي وقع في الخطأ الذي وقع فيه من قبله أبو العميطر ، فاعتمد على اليمنية ، وأخذ يغير على المواقع القيسية ، وانضم إليه بعض المظفانيين والأمويين ، وقلول أنصار أبي العميطر الفارين من دمشق حتى صار معه زهاء عشرين ألفاً . غير أن عسكر القيسيين المدعومين بجند العباسيين خرب حصن زيزيا ، وحصر الفدائي في حُصْبَان فتخلّى عنه أتباعه . ثم تسكت المصادر عن ذكر أية تفاصيل أخرى بعد ذلك ^(٢) ، مما قد يعني أنه اختفى ، ولم يعد له أثر يذكر .

وتعد ثورة نصر بن شبث العقيلي من ذيل الخلاف بين الأمن والمأمون ، وكان على الشام آنذاك عبد الملك بن صالح بن علي الهاشمي . وقد ولّاه الأمن عليها ليقف في وجه قائد المأمون طاهر بن الحسين . وجمع عبد الملك رؤساء الشام ، وكلّفهم إعداد جيش كبير لمواجهة طاهر بن الحسين ، فاجتمع لديه جيش كبير قوامه من الزواquil - وهم قوم بناحية الجزيرة - ^(٣) ، والأبنا ، من الجند الخراساني ، وأعراب من الشام وبخاصة من كلب . وهي عناصر من الصعب تألفها ، ولهم هذا سرعان ما افرقت واقتتل ، وانسحب أعراب الشام من الجيش بعد أن اقتتل الزواquil والأبنا ، وبعد

(١) الفدائيين : قرية من قرى حوران ، (معجم البلدان : مادة الفدائيين) .
 (٢) انظر في أخبار ثورته في : مصورة تاريخ مدينة دمشق ، ٧ : ٢٧٧ . معجم البلدان (الفدائيين) .
 (٣) قال ذلك ابن دريد ، انظر : الزبيدي : تاج العروس ، دار ليبيا للنشر والتوزيع ، بنغازي ٣٥٨ : ٧ .

أن ثبت زعيم من زعماء كلب عصم أتباعه بقوله: "يا معشر كلب، إنها الراية السوداء"، والله ما ولست
 ٠٠٠ ولا ذل ناصرها ٠٠٠ وإنكم لتعرفون مواقع سيوف أهل خراسان في رقابكم ٠٠٠ شأمكم شأمكم
 ٠٠٠ الموت الفلسطيني خير من العيش الجزري، ألا وإني راجع، فمن أراد الانصراف فلينصرف معي^(١)

ثم زاد الأمر سوءاً بموت عبد الملك بن صالح، وكان نصر بن شيب زعيماً للزواquil فأصر على
 متابعة التصدي لجند طاهر الزاحف، وكان يدفعه إلى ذلك رفضه لسياسة المأمون القائمة على تقديم
 العناصر الفارسية في الدولة، وكأنه أراد بهذه الحركة تصحيح موقف العباسيين من العرب، ويستدل
 على ذلك من قوله، وقد عرض عليه أنصاره أن يسمي لحركته خليفة: "إنما هواي في بني العباس، وإنما
 حاربتهم محاربة عن العرب، لأن بني العباس يقدمون عليهم العجـم"^(٢).

وقد استمرت ثورة نصر حتى سنة ٢٠٩هـ / ٨٢٤م، وفيها هزمه عبد الله بن طاهر بعد
 أن حصره في حصن كيئوم، وقيل بالأمان لقاء الصفح عما أسلفه^(٣).

وفي عهد المعتصم وفي سنة ٢٢٧هـ / ٨٤١م عاد أهل الشام إلى القول بظهور السفيناني،
 وذلك في شخص أبي حرب اليماني الذي لقب بالمبرقع^(٤). وتعد ثورته بحق ثورة الفلاحين، فقد
 بلغ أتباعه مائة ألف كان أكثرهم منهم. وكان أبو حرب ينيئاً لا سفينانياً، وكان يضع على وجهه برقعاً
 تشكراً، لأنه، فيما يقال، كان فاراً من الدولة لجريمة ارتكبها. وكان موطن هو "لا" النابرين هــ
 الأردن وفلسطين. غير أن القضاء على ثورة المبرقع لم يكن يحتاج إلى استعدادات عسكرية كبيرة.

(١) الطبري ٨: ٤٢٧.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) انظر في أخبار حركة نصر: الطبري ٨: ٤٢٦، وما بعدها، وانظر ٥٩٨-٦٠١ أيضاً.

(٤) ابن اعثم: الفتوح ٤: ٤٥٠، معجم البلدان (كيسوم). وكيسوم قرية مستطيلة من أعمال
 سيمساط وكان بها الحصن الذي تحصن فيه نصر بن شيب أيام حربه مع المأمون.
 أخبار ثورته في الطبري ٩: ١١٦-١١٨، ابن الأثير، الكامل، دار الفكر، بيروت ١٣٩٨ هـ /
 ١٩٧٨م، ٥: ٢٦٤، وقد وهم زكي المحاسني في كتابه شعر الحرب في أدب العرب (طبعة
 دار الفكر العربي ١٩٤٧)، فظن أن المبرقع اليماني قرمطي. انظر ص ١٣٩ من كتابه،
 حيث يقول: "وظهر من القرامطة مقنع آخر في فلسطين أيام المعتصم كنيته أبو حرب ٠٠٠٠٠ وكان
 أمياً فزعم لجمعه أنه السفيناني المنتظر.....".

- ١٧ -

إذ كان يكفي الإدراك النابه الذي أدركه رجاء بن أيوب الحضاري قائد جيش المعتصم ، إذ تـرـيـثـت ، ولم يواقع المبرقع حتى حان موسم حراثة الأرض ، فانصرف عن المبرقع أتباعه لحراثة أراضيهم ، فأطبق عليه وعلى من بقي معه رجاء ثم أسره ، وأخذه إلى سامراء ^(١) ، مع زعيم قيسي كان قد ثار في الوقت نفسه في دمشق بعد مقتل خمسة آلاف من أتباع هذا الناصر الدمشقي ^(٢) .

وفي عهد المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ / ٨٤٦ - ٨٦١ م) قامت ثورات عدة في المدن الشامية ، بدأت بحمص ^(٣) ، ويبدو أن المسلمين والنصارى كانوا يداً واحدة في هذه الثورة ، ولهذا أمر المتوكل بإخراج جميع النصارى من المدينة ، وأن تخرب كنائسهم ، ويضرب رؤسائهم حتى الموت .

ويبدو أن سبب اشتراك نصارى حمص في هذا التمرد كان من قبيل رد الفعل على الإجراءات الصارمة التي كان المتوكل قد أخذ بها النصارى في أ. خلافته كلها ^(٤) ، تلك الإجراءات التي بدى بتنفيذها سنة ٢٢٥ هـ / ٨٤٩ م .

وحدث في عهد المتوكل شغب كبير في دمشق نزل فيه الدمشقيون أميراً وعدداً من أصحابه ، فأثار صنيعهم هذا حنق المتوكل عليهم ، وتهدهم ، ثم سار إليهم جيشاً ضخماً بقيادة أفريدون التركي ، وأباح له المتوكل القتل في دمشق يوماً ، والنهب ثلاثة . ولكن هذا القائد مات على أبواب دمشق ، فانصرف الجيش راجعاً إلى العسراق ^(٥) .

كان لهذه الأحداث أثر في تخوف الدمشقيين من بطشة منتظرة سيوقعها المتوكل بهم . ولكيلا يحدث ذلك ، ولكي يستميل الدمشقيون المتوكل إليهم فقد صنف محمد بن أبي طيفور كتاباً يشتمل

-
- (١) الطبري ١١٦:٩ - ١١٨ ، البدء والتاريخ ١١٩:٥ ، ابن الأثير ٢٦٤:٥ ، سير النبلاء ٣٠١:١٠ ، ابن كثير ٢٩٥:١٠ ، خطط الشام ١٦٣:١ .
 - (٢) انظر : الطبري ١١٨:٩ ، ابن الأثير ٢٦٧:٥ .
 - (٣) انظر : الطبري ١١٧:٩ - ٢٠٠ ، ابن الأثير ٢٩٣:٥ - ٢٩٥ ، ابن كثير ٣١٩:١٠ .
 - (٤) انظر في تفصيل هذه الإجراءات : الطبري ١٧١:٩ - ١٧٥ .
 - (٥) انظر : الصفدي : تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مصر ١٩٦٩ ، ٥٢٥ .

على فضائل دمشق ، وصحة عوائدها ، وعذوبة مائها ، وفيه يحضر المتوكل على الخروج إليها ^(١) . وفعلًا
فقد دخل المتوكل دمشق ، وعزم على اتخاذها دار ملكه وأمر ببناء قصر له فيها .

وفي أثناء خلافة المستعين (٢٤٨ - ٢٥٣ هـ / ٨٦٢ - ٨٦٧ م) عاد أهل حمص إلى الثورة
وكان زعيم الثائرين أحد شيوخ كلب ، ولكن جموعه لم تصمد لجيوش بغا التركي ^(٢) .

وفي أواخر عهد المهدي وأول أيام المعتد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ / ٨٦٩ - ٨٩٢ م) تغلب
عيسى بن الشيخ أبو موسى الشيباني على إمرة دمشق ، وذلك في سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م ، فقد سارع
إلى خلع السواد - شعار العباسيين ، ورفض مبايعة المعتد ، ثم ضرب عصبا مهما في اقتصاد الدولة
العباسية عندما استحوذ على مال الشام . غير أن أماجور التركي قائد العباسيين هزمه وقضى
على حركته ^(٣) .

تلك صورة لأهم الثورات المحلية التي قام بها الشاميون . ولكن بروز أحمد بن طولون فسي
مصر قد كان ذا أثر في وضع الشام تحت عوامل سياسية جديدة ، إذ استطاع ابن طولون أن يجمع
جزءا كبيرا من الشام تحت إمرته . وبقيت مناطق قنسرين وديار مصر والعواصم تابعة لأحمد الموفق أخشي
الخليفة المعتد ، وبهذا تغيرت تبعية بلاد الشام ، وأصبحت المشكلة هي كيف تستقر هذه التبعية
على حال واحدة ، أعني : أن تكون الشام تابعة للخليفة العباسي ببغداد أم للحاكم الطولوني بمصر .
والسبب في هذا التنازع اشتداد المنافسة بين الموفق وابن طولون . فقد كان ابن طولون على مصر
منذ عام ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م ، وكان الموفق على ديار مصر وقنسرين والعواصم في سنة ٢٥٨ هـ / ٨٧١ م ، وفي

(١) انظر مصورة تاريخ دمشق ١٥ : ٤٨٥ ، ومحمد بن أبي طيفور جوجاني الأصل ، أقام في دمشق
سنتين (من المصدر نفسه) .

(٢) انظر : الطبري ٩ : ٢٧٦ ، ابن كثير ٦ : ١١ .

(٣) انظر : الطبري ٩ : ٢٧٤ - ٢٧٥ ، الكندي : ولاية مصر ، تحقيق حسين نصار ، دار بيروت ،
دار صادر ، بيروت ١٩٥٩ ، ٢٤١ - ٢٤٢ ، ابن سعيد الاندلسي : المغرب في حلسي
المغرب ، تحقيق زكي محمد حسن وزميليه ، مطبعة جامعة فؤاد الاول ، ١٩٥٣ ، « الجوز »
الاول من القسم الخاص بمصر : ٨٠ . تهذيب ابن عساكر ٣ : ١٠١ ، وكان عيسى بن الشيخ
الشيباني يتقلد جندي فلسطين والأردن في أيام الخليفة المهدي .

هذه السنة كتب الموفق الى موسى بن بغا أن يصرف أحمد بن طولون عن مصر لخشيته منه لما رأى كثرة أتباعه من السودان^(١) . فكتب موسى بن بغا الى أماجور التركي الذي كان قد هزم عيسى بن الشيخ الشيباني في دمشق وتولى أعماله ، أن يخرج إلى ابن طولون ، ولكن عجز أماجور عن ذلك ، فخرج موسى بن بغا بنفسه لملاقاة ابن طولون ولكنه أقام في الرقة وخرج ابن طولون من مصر في سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٧ م قاصداً الشام لملاقاة موسى ، فخضعت له الرملة ودمشق وحمص ، ولم يتأب عليه إلا سيما الطويل بأنطاكية ، فحصره ابن طولون فيها ، فاشتد ذلك على أهلها مما دفعهم إلى قتل سيما ، فخضعت المدينة له ، ثم سار ابن طولون بعد ذلك إلى طرسوس ، فارتد عنها بعد أن ثبتت له بقيادة أميرها المجاهد المحبوب يا زَمَان^(٢) .

وكانت المرحلة الثانية في هذا النزاع بين الموفق وابن طولون هي إعلان الموفق خلع ابن طولون وتولية إسحاق بن كُداج على مصر ، فقام ابن طولون باستتغار الرأي العام في الشام ومصر على الموفق ، وكتب الفقهاء والقضاة والأشراف في الشام والدور بأن الموفق خلع بيعة المعتمد مستغلاً في ذلك محاولة المعتمد اللجوء اليه بعد أن استأثر الموفق بمقاليده الحكم لما رأى أخاه الخليفة منكباً على اللهو ، فأفتاه الفقهاء بخلع الموفق^(٣) .

وفي سنة ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م توفي ابن طولون ، فخلفه ابنه خمارويه ، وتجدد بعده النزاع بين الطولونية وأحمد المعتضد بن الموفق الذي أسرع في القدوم إلى الشام ، فانضم إليه أهل الرقة وقنسرين والعواصم ، كما ملك دمشق ، فخرج إليه خمارويه بجيش عظيم في سنة ٢٧١ هـ / ٨٨٤ م ، والتقوى الجيشان عند نهر أبي فطرس قرب الرملة من أرض فلسطين في مكان يقال له الطواحين ، وقد انهزم في هذه المعركة جيش أبي العباس أحمد بن الموفق ، فكرر راجعاً بفلول جيشه إلى دمشق ، فامتنعت

(١) انظر البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق محمد كرد علي ، مطبعة الترقى ، دمشق ، ١٩٣٩ هـ ، ٥٦ ، أمينة البيطار : الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام (١٢٢ - ٣٥٨) ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، ١٩٨٠ هـ ، ١٠٣ .
(٢) انظر البلوى : ٣١٠ - ٣١٢ هـ ، وانظر : المغرب في حلى المغرب ، القسم الخاص بمصر ٨٠ - ٨١ هـ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، ٤٠ : ٣ .

(٣) انظر : البلوى ٢٨٦ هـ ، ٢٨٩ هـ ، ٢٩٠ هـ ، ٢٩٤ هـ ، ٢٩٦ هـ .

عليه . ثم سار خمارويه إلى الرافقة فهزم فيها جيش إسحاق بن كنداج الذي فر إلى سر من رأى . فعادت معظم أرض الشام والجزيرة والعواصم إلى حكم الطولونيين ^(١) .

وفي سنة ٢٨٦هـ / ٨٩٩م تنازل هارون بن خمارويه عن قنسرين والعواصم بعد أن طرد أهل طرسوس زعماء الطولونية فيها ، فأقر المعتضد هارون بن خمارويه على مصر بعد أن أصهر إليه .

وفي عهد المكتفي (٢٨٩ — ٢٩٦هـ / ٩٠١ — ٩٠٨م) كانت نهاية الطولونية ، وذلك ففي سنة ٢٩٢هـ / ٩٠٤م ، وكتب الخليفة المكتفي إلى قائده الذي هزم الطولونيين ألا "يترك أحداً منهم بمصر ولا بالشام" وأن يبعث بهم إلى بغداد ^(٢) .

وكانت الشام في عهد المكتفي قد دخلت مرحلة سياسية خطيرة جديدة ، إذ ظهرت الدعوة القرمطية فيها على شكل حركة حربية سياسية على يد رجل عرف بـ "صاحب الناقة" ظهر في منطقة حمص ، وأقبل الأعراب من جند حمص على مشايعته ، وبخاصة من كلب ، وكان صاحب الناقة قد أخفق في أن يمكن لثورته في سواد الكوفة ، فانتقل إلى الشام . وهذا تحول جذري في طبيعة الثورات في بلاد الشام في فترة الدراسة ، فبعد أن كانت الثورات يقودها سفيانيون ، إذا بثورة القرامطة يقودها شخص ينتسب إلى علي بن أبي طالب ، ويبدو أن الفترة التي مرت ، بعد القضاء على الثورات السفيانية وما أشبهها ، قد فتحت المجال لانتشار دعوات علوية استجاب لها الناس في البوادي ^(٣) ، الذين أغرامهم بعدد من مراكز القوة بذلك .

واستطاع صاحب الناقة أن ينتصر على الجيوش التي وجهها حاكم الشام ، وهو يومئذ طغج بسن جف من قبل الطولونية ، بل حاصر أتباعه دمشق ، ولكن الأمداد التي أرسلت من مصر صدتهم عنها ،

(١) انظر في تفصيل ذلك : الكندي ، ولاية مصر ٢٥٨ — ٢٥٩ ، ابن كثير ١١ : ٥٧ .

(٢) الطبري ١٠ : ١١٩ ، وانظر ابن كثير ١١ : ٩٩ .

(٣) انظر في : تثبيت دلائل النبوة "للقاضي عبد الجبار من كتاب : سهيل زكار : أخبار القرامطة ط ٢ ، دار حسان ١٩٨٢ ، ١٤٧ .

وقتل طنج صاحب الناقصة^(١) . فخلفه أخوه الذي عرف بـ "صاحب الشامة"^(٢) ، وأحرز صاحب الشامسة النصر في الجولات الأولى ، وكسر سائر عساكر الشام ومصر التي خرجت إليه ، وتلقب بأمير المؤمنين ، ودعي له على المنابر في حمص ، وأخذ يستولي على المدن الشامية مستعرضاً الناس بالقتل الجماعي ، في حماة ، ومعرة النعمان ، وعلبك ، وسلمية .

وفي هذه الأخيرة قتل حتى صبيان الكتائب^(٣) . واستنخ الناس الخليفة العباسي ، فأرسل جيشاً زاد في أعطياته ليرغبهم في القتال بعد أن صار أمر القرامطة مربكاً مخوفاً ، وانتقل الخليفة نفسه إلى الرقة ليكون على مقربة من مسرح الأحداث ، وقام بدر الحماي صاحب ابن طولون بإنزال هزيمة كبيرة بالقرامطة قبل أن يوافي جيش العباسيين . فما أن التقى الجيش العباسي قوات القرامطة في سنة ٨٠٣ هـ / ١٤١١ م في منطقة بين الرقة وحماة حتى انهزم القرامطة مرة ثانية فروا على أثرها إلى البوادي ، لكي يعسر على العباسيين ملاحقتهم^(٤) .

غير أن القرامطة عادوا في سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٦ م يشيرون الرعب في بصرى وأذرعات والبثنية^(٥) ، ويقتلون ويستولون على الأموال ، وقصدوا دمشق ، فصدوا عنها ، فتحولوا إلى طبرية ، ونهبوها ، وكانوا حينئذ يعملون بقيادة قائد لهم اسمه نصر ، وحين ظهرت جيوش الخلافة في الشام لجأ القرامطة إلى بادية السماوة^(٦) ، ولما أحس القرامطة أنهم محاصرون ، انقض أحد الكلبين منهم على زعيمهم نصر وقتلوه .

وهكذا كتب للمكفي أن يشهد حدثين بارزين ظهرا في بلاد الشام هما : أنول الدولة الطولونية ، والقضاء النسبي على القرامطة . وكان انشغال الطولونيين بمحاربة القرامطة سبباً من أسباب ضعفهم ، فيسر ذلك على المكفي إنها حكمهم .

(١) انظر: مصورة تاريخ دمشق ٨: ٢٥٧ ، في ترجمة طنج .

(٢) انظر: الطبري ١٠: ٩٦ ، ابن كثير ١١: ٩٦ - ٩٧ .

(٣) انظر: أخبار القرامطة لثابت بن سنان من كتاب سهيل زكار ١١ - ٢١ .

(٤) انظر: أخبار القرامطة ٢٣ ، الطبري ١٠: ١٠٤ .

(٥) بصرى مدينة في جنوب سوريا اليوم (معجم البلدان : بصرى) ، وأذرعات هي درعا اليوم .

والبثنية وتسمى البثنة أيضاً قرية بين أذرعات ودمشق ، معجم البلدان .

(٦) بادية بين الكوفة والشام ، ياقوت (سماوة) .

(*)

ما تقدم نرى أن الشام توالى عليها ولاية عباسيون منذ بداية الدولة ثم وليها منذ عهد الرشيد ولاية من الفرس من أسرة آل برمك ، وتعاقب عليها ولاية كانت غالبيتهم من الترك منذ حكم الواثق ، ونسي عهد هؤلاء الولاية تعمقت الخلافات العصبية بين عرب الشام من قيسريين ، ولكن ، على الرغم من هذه الخلافات ، لم ينس الشاميون أن يلجأوا إلى الثورة باسم " السفيناني المنتظر " أو غيره لاستعادة الماضي . غير أن تباعد هذه الثورات ، وضعف قاعدة كل منها أدى إلى إخفاقتها ، فبدأ الحلم الجميل مستعصياً على التحقيق ، ثم كان دور السيادة الطولونية في مصر ، والنزاع بين الطولونيين والعباسيين واتخاذ الشام مجالاً للتحركات العسكرية ، هذا النزاع أدخل عنصراً جديداً في حياة الشام ، وصرفها عن الثورات المحلية . فكان ظهور القرامطة هو العنصر الأقوى ، إذ اقترن ظهورهم بالأعمال الدموية فصرف الناس عن كل شيء سوى التفكير في السلامة الذاتية .

(*) انظر المسرد الممثل لولاية العباسيين على الشام في : اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ٢ : ٣٨٤ ، ابن العديم : زبدة الحلب ، تحقيق سامي الدهان ، دمشق ١٩٥١ ، ١ : ٥٩ ، خطط الشام ١ : ١٨١ .
ففي هذه المصادر إشارات كافية إلى اختصاص البيت العباسي بولاية الشام فقد تولى عبد الله ابن علي على الشام ثم تلاه عليها صالح بن علي العباسي ، وتولى هذا أيضاً على قنسرين والعواصم ، وولي العباس بن محمد على الجزيرة ، وعبد الله بن صالح على حمص ، والفضل ابن صالح على دمشق ومحمد بن إبراهيم على الأردن ، وعبد الله بن إبراهيم على فلسطين والفضل بن صالح على حلب وقنسرين ، وانظر ولاية الجزيرة في عهد المهدي ، صورة تاريخ دمشق ١٤ : ٢٣٢ ، ترجمة الفضل بن صالح العباسي المتوفى سنة ١٧٢ هـ .

ب - الحروب الخارجيّة

شهدت الحدود الإسلامية البيزنطية في الفترة الممتدة من سنة ١٣٢ هـ - ٢٩٤ هـ نزاعات كانت تشتد حيناً وتخبو أحياناً أخرى ، وكان الانتصار والانكسار في هذه الحروب سجّالاً ، وكان تبادل الأسرى سياسة متفقاً عليها بين الدولتين ، كما كانت المفاداة أمراً تفرضه الحرب .

وكانت أول حملة عباسية على الروم سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م قام بها صالح بن علي على جند الشام ، والعباس بن محمد على جند خراسان ^(١) . وفي السنة التالية تمت المفاداة الأولى للأسرى بعد أن كان المنصور قد رفض أن يقوم بها ، لأن أهل الشّغور رفضوا مساعدته في ثورة النفس الزكية ^(٢) ، ولكنه عاد فوافق على إجراؤها بعد أن كتب إليه الإمام الأوزاعي رسالة يحثه فيها على المفاداة ، لأن الله استرعاه أمر الأمانة ^(٣) .

وكانت أول غزوة حقيقية للمسلمين على الروم في عهد المنصور هي الغزوة التي كان قائدها معيوف بن يحيى الحجوري ، وذلك في سنة ١٥٢ هـ / ٧٧٠ م ، فتح فيها معيوف حصناً رومياً وسبى من فيه ، ثم فتح اللاذقية واستاق من فيها من المقاتلة ^(٤) .

وفي عهد المهدي كانت أكبر حملة على الروم هي الحملة التي قادها الحسن بن قحطباسة الطائي الذي بثّ الرغب في صفوف الروم بكثرة ما فتح ، وما سبى ، حتى لقد سمته الروم بالتبسين ^(٥) .

وبرز الرشيد قائداً مرهوباً مظفرًا في خلافة أبيه المهدي ، وكانت أبرز حملة قادها فـ في خلافة أبيه غزاته التي وقعت في سنة ١٦٥ هـ / ٧٨٢ م ، إذ دخل هرون بلاد الروم حتى بلغ القسطنطينية ، واضطرت ملكة الروم أن تطلب الصلح ، وأن تعرض عليه مفاداة الأسرى ، فقبل ذلك هرون بعد أن كان

(١) اليعقوبي ٣ : ٣٩٠ ، ابن العديم : بغية الطلب ١ : ٥٩ .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي خرج بالمدينة ، وقتل في سنة ١٤٥ هـ . الطبري ٧ : ٥٥٢ - ٦٠٩ .

(٣) انظر هذه الرسالة في : حلية الأولياء ٦ : ١٣٥ .

(٤) الطبري ٩ : ٢٨٤ ، ابن الأثير ٥ : ٢٤٦ .

(٥) اليعقوبي ٢ : ٤٠٢ ، الطبري ٩ : ٣٢٦ - ٣٤٢ ، ابن الأثير ٦ : ١٥ - ٢١ .

المسلمون قد قتلوا وأسروا أعداداً كبيرة من الروم ، وبعد أن غنموا غنائم كثيرة من الدروع والبغاسال والبراذين بيعت في أسواق المسلمين بأبخس الأثمان (١) .

ولما صار الرشيد خليفة أخذ يقود الكثير من الغزوات بنفسه ، كقيادته لغزوة سنة ١٨١هـ / ٧٩٧م ، التي فتح فيها حصن الصَّفَّاف بمنطقة الصَّيْفَة (٢) .

وفي سنة ١٨٧هـ / ٨٠٢م نقض الروم صلحهم مع المسلمين ، وتهدد نقفور ملكهم الرشيد ، فسرّد عليه الرشيد بكتاب مشهور قال فيه : ٠٠٠٠ إلى نِقْفُور كلب الروم ، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون أن تسمعه ٠٠٠٠ (٣) . ثم جيش الرشيد جيشاً ضخماً ، فهاجم عِرْقَلَة (٤) ، وفتح وغنم وخرب عدة حصون ، فاضطر الروم أن يقبلوا بدفع الجزية . ولما عاد الرشيد إلى الرقة عاود نقفور النكست لأن الوقت كان شتاءً ، وعلى الرغم من كراهية المسلمين للحرب في وقت الشتاء ، فقد عاود الرشيد الغزو فغنم .

وفي سنة ١٩٠هـ / ٨٠٥م أغارت الروم على عين زُرّة والكنيسة (٥) فأسروا بعض أهلها ، فخفف لنجدتهم أهل المصيصة ، ونجحوا في تخليص أسارى المسلمين منهم . ثم كان ردّ الرشيد عظيماً على هذه الغارة ، فدخل أرض الروم في جيش بلغت عدته ١٣٥ ألف مقاتل ، استولى في أثناءها على عدد من الحصون وأخرب عِرْقَلَة .

وفي هذا العام نفسه عزا المسلمون بالبحر قبرس ، وسبوا من أهلها ١٦ ألف شخص بيعهم — بالرافقة بثمن بخس (٦) .

(١) الطبري ٨ : ١٥٢ — ١٥٣ ، ابن الأثير ٥ : ٦٥ .

(٢) الطبري ٨ : ٢٦٨ .

(٣) الطبري ٨ : ٣٠٧ — ٣١٠ ، ابن كثير ١٠ : ١٩٣ — ١٩٤ ، الأغاني ١٨ : ٢٣٩ .

(٤) الطبري ٨ : ٣٠٨ ، وهرقلة مدينة ببلاد الروم (معجم البلدان : هرقلة) .

(٥) الطبري ٨ : ٣٢٢ — ٣٢٣ ، ابن الأثير ٥ : ١٢٣ ، وعين زُرّي كما ضبطها ياقوت بلد بالشعر

من نواحي المصيصة ويقول لسترنج إنه ما يزال قائماً وعرفه الصليبيون باسم Anazarbus

انظر: بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمه وعلق عليه كوركيس عواد وشيرفانيس ، ط ٢ ، مؤسسة

الرسالة ، بيروت ١٩٨٥ ، ١٦١ ، والكنيسة ويقال لها الكنيسة السوداء ، بلد بشعر

المصيصة كذلك انظر: معجم البلدان (عين زُرّي ، والكنيسة) .

(٦) ابن كثير ١٠ : ٢١٤ .

ونمت في زمن الرشيد مفاداة كبرى للأسرى بين المسلمين والروم ، وذلك في سنة ١٨٩هـ / ٨٠٤م وقد تغنت الشعراء بهذه المفاداة بعد أن كان المسلمون قد يعيشوا من إطلاق سراح أسرارهم ، ولسان حالهم يقول معبراً عن اليأس الذي كان ، والفرحة التي تمت في آن معــــــاً : (١)

وَفَكَّتْ بَكَ الْأَسْرَى الَّتِي تُشِيدَتْ لَهَا _____
مَحْبِسٌ مَا فِيهَا حَمِيمٌ يَزُورُهَا _____
عَلَى حِينٍ أَعْيَا الْمَسْلُومِينَ فَكَأَنَّهُ _____
وَقَالُوا سَجُونَ الْمُشْرِكِينَ قُبُورُهَا _____

وتوقفت في عهد الأمين النشاطات العسكرية بين الدولتين ، لانشغال الجيوش بأمر الفتنة بين الأمين والمأمون ، ولم تُستأنف هذه النشاطات بقوة إلا في سنة ٢١٥هـ / ٨٣٠م ، وذلك بعد أن تمكن المأمون من القضاء على ثورة نصربن شَبَّك العقيلي . وقد استغل المأمون انشغال الروم قسي حروب صقلية (٢) ، فدخل عدة حصون ومطامير رومية (٣) ، ثم قتل عائدًا إلى دمشق ، فانتهزت الروم فرصة ابتعادها فهاجموا طرسوس والمصيص ، وقتلوا عددًا من سكانها ، وأسروا أعدادًا كبيرة أخرى ، فعاود المأمون في سنة ٢١٦هـ / ٨٣١م ، مهاجمة الحصون الرومية ، وافتتح أخوه أبو إسحاق ثلاثين حصنًا ومطمورة ، ثم عرض الروم عليه الصلح ، وإطلاق سراح آلاف من أسرى المسلمين ، وأن توضع الحرب أوزارها خمس سنين ، ولكنه رفض (٤) .

وفي عام ٢١٨هـ / ٨٣٣م عرض ثيوفيل الصلح على المأمون والمفاداة والتعاون في المصالح ، فرد المأمون عليه يعرض عليه الدخول في الإسلام أو دفع فدية . ثم جهز المأمون جيشًا ضخمًا قيل إنه كان ينوي به فتح عاصمة الروم (٥) ، وكتب إلى أخيه أبي إسحاق أن يفرض على أهل دمشق

- (١) هذان البيتان في شعر مروان بن أبي حفصة ، جمع حسين عطوان ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٢٣م ، ٦٠ ، الطبري ٨ : ٣١٨ ، ابن كثير ١٠ : ٢٠١ .
- (٢) انظر : ابن طيفور : كتاب بغداد ، طبعة عزت العطار الحسيني ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ١٤٢ - ١٤٤ ، فتحي عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية ٢ : ١٧٨ .
- (٣) المطامير : كهوف كانت الروم تلجأ إليها تحصنًا .
- (٤) اليعقوبي ٢ : ٤٦٥ ، الطبري ٨ : ٦٣١ ، فازيليف : العرب والروم ، ترجمة محمد عبد الهادي شغيرة ، دار الفكر العربي ، القاهرة : ١٠١ - ١٠٤ .
- (٥) اليعقوبي ٢ : ٤٦٩ ، فازيليف : ١٠٩ .

وحمص والأردن وفلسطين أربعة آلاف رجل ، ووعده بأنه سيجعل لكل فارس مائة درهم ، ولكل راجل خمسين ، وأخذ في الوقت نفسه من أهل تنسرين والجزيرة وبغداد ألفي رجل ، فسار قسم من الجيش إلى الطَّوَّانة ، حيث كان ابنه العباس يعسكر ، وسار هو إلى أرض الروم ، ولكن نهاية هذه الحملة لم تسفر عن غير فتح عدة حصون رومية مات بعدها المأمون في طرسوس سنة ٨٢١٨ / ٨٢٢ م^(١) .

وفي زمن المعتصم استؤنف الصراع الإسلامي البيزنطي في سنة ٨٢٢ / ٨٢٨ م ، وكان سبب هذا التأخر هو انشغال المعتصم بحرب الخُرَّمية . وكان سبب استئناف القتال بين الطرفين هو استعانة الخرمية بالروم ليخففوا ضغط المسلمين عنهم ، وكان الروم هم البادئين بمهاجمة الثغور الإسلامية ، إذ اجتاحت جيش رومي ضخم ثلاث مدن هي زَبْطَرَة وشمشاط وملطية ، وأحرقوا وقتلوا سكان المدينتين الأوليين^(٢) . أما سكان ملطية فقد أفلتوا من الدمار والتقتيل بفكاكهم لسراج أسرى السروم ، وفتحهم لحصون مدينتهم في وجه القوات الرومية المهاجمة .

وقد ابتهج الروم ابتهاجاً عظيماً بهذا النصر ، وآلم ذلك المسلمين أشد الألم ، وانطلقت صيحات الاستغاثة والدعوة إلى الانتقام تتردد ، وما قيل في هذا الموقف قول إبراهيم بن المهدي^(٣) :

يا غارة الله قد عاينت فانتهمكسي هتكت النساء وما منهن يُرتكسب
هَبِ الرِّجَالُ عَلَى إِجْرَامِهَا قَتَلَتْ مَا بِالْأَطْفَالِهَا بِالذَّبْحِ تُنْتَهَبُ

(١) الطبري ٨ : ٦٤٦ . التنبيه والإشراف : صححه وراجعه عبد الله الصاوي ، دار الصاوي للطبع ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص ٣٠٤ .

(٢) اليعقوبي ٢ : ٤٧٥ ، فتحي عثمان ، ٢ : ٢٠١ ، وزبطرة مدينة بين ملطية وسيمسراط والحدث في طرف بلد الروم . وشمشاط مدينة بالروم على شاطئ الفرات في طرف أرمينية ، وسلطية بلدة من بلاد الروم متاخمة للشام . معجم البلدان . وهي اليوم في الأراضي التركية . أما زبطرة فكانت تعرف عند الروم بـ ZAPETRA . وأما ملطية فسموها الروم مليتين بلدان الخلافة الشرقية : ١٥٢ - ١٥٣ . وقال لسترنج : إن شمشاط مدينة ذات شأن قد اختفت من الخارطة وهي أرسوساطا ARSAMOSATA عند الروم قديماً . انظر : بلدان الخلافة الشرقية ١٤٨ - ١٤٩ .

(٣) الجهمشاري : النوزاء والكتائب : ٣١٢ ، وانظر في ذلك أيضاً :
المسعودي : مروج الذهب ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط ٣ ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٥٨ ، ٣ : ٤٧٢ ، فازلييف : ١٢٨ - ١٢٩ .

ولم يستطع المعتصم أن يهب لنجدة أهل هذه المدن المنكوبة حتى تمكن من القضاء على حركة بابك الخرمي ، ولما أفلح في ذلك جهز جيشاً ضخماً عدة وعدداً ، ثم قصد بنفسه بلاد الروم ففتح مدناً عدة كان من بينها أنقرة وعمرية التي تزعم المصادر أن عدد من قُتل من الروم فيها أربعون ألفاً ، عدا الأسرى والتدمير في الممتلكات ، ثم رمى المعتصم بعض الحصون ^(١) . وعاد إلى سُر من رأى بعد أن أشيع أن العباس بن المأمون يفكر في نقض بيعته ، وانشغل بعدها في أمور الفتن الداخلية التي كان من بينها فتنة المبرقع اليماني في فلسطين .

وافتح الواصل عهده بعد وفاة المعتصم سنة ٢٢٧هـ / ٨٤٢ م بالقضاء على فتنة المبرقع ولكن الحدث البارز في خلافته كان مفاداته لأسرى المسلمين الذين قدر عددهم بثلاثة آلاف وخمسمائة أسيرهم وقيل بـ (٤٣٦٢) أسيراً . واشترط الواصل ، الذي كان متعصباً لمبدأ خلق القرآن ، على كل أسير مسلم يُنادى أن يقول : إن القرآن مخلوق . وكان من بين أسرى المسلمين لدى الروم ممن تعرضوا لهذا الامتحان العسير مسلم بن أبي مسلم الجرمي الذي عاش في أسر الروم سنين طويلة مكنته من أن يتعرف إلى بلاد الروم ونظمهم ، فكتب عدة كتب عن رؤسائهم وأباطرتهم وأقاليمهم ومساكنهم ، وأنسب الأوقات لخزوعهم ^(٢) ، وكانت كتبه مصدراً مهماً لابن خردادبة في الجزء الخاص عن الروم في مؤلفه الجغرافي " المسالك والممالك " .

وافتح المتوكل عهده (٢٣٢هـ / ٨٤٧ م) بتسيير صائفة بقيادة علي بن يحيى الأرمني ، خرجت في ثلاث صوائف متتالية بدءاً بسنة ٢٣٧هـ / ٨٥١ م ، ورد الروم في سنة ٢٣٨هـ / ٨٥٣ م بمهاجمة أسطولهم للشواطئ المصرية ، ونزولهم في دمياط ^(٣) . وكان لهذا الهجوم البحري الرومي أثر كبير ، إذ فتح أعين المسلمين على ضرورة الاهتمام بأمر البحر ومراكبه . ولعل ذلك هو الذي يفسر اهتمام المتوكل بترتيب المراكب في عكا وجميع السواحل ، وشحنها بالمقاتلة ^(٤) . وهو الإجراء نفسه

(١) انظر في تفصيل ما حدث : الطبري ١ : ٥٥-٧٠ ، فازيليف : ١٥٣ .

(٢) فازيليف : ١٧٥-١٧٦ ، فتحى عثمان ٢ : ٢١٨ .

(٣) الطبري ١ : ١٩٣-١٩٥ ، فتحى عثمان ٢ : ٢١٨-٢١٩ .

(٤) سيدة كاشف : أحمد بن طولون : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة : ١٣٦-١٣٧ .

الذي أخذ به أحمد بن طولون فيما بعد بينا المراكب، وإطافتها بالجزيرة^(١) . وأجرى المتوكّل
للسبب نفسه الأرزاق على جراحة لبنان لاستعانة المسلمين بهم في أمر البحر، مع ما عرف عنه من تشدّد
في معاملة النصارى على وجه العموم .

وفي سنة ٢٤٧هـ قتل المتوكّل، وتلا مقتله وقوع هزيمة شديدة بالمسلمين، قتل فيها أمير ملطية
عمر بن عبد الله الأقطع، وألفان آخران من جنوده، وذلك في سنة ٢٤٩هـ / ٨٦٣م، وهي السنة نفسها
التي فقد فيها المسلمون قائداً آخر من قادتهم هو علي بن يحيى الأرمني^(٢)، وكان لمقتل هذين
القائدين في أعقاب مقتل الخليفة المتوكّل أثر شديد في نفوس المسلمين . ويصف الطبري مشاهد من
الحزن الذي عم أهل بغداد وصفاً دقيقاً^(٣)، فتحرّك الرأي العام الشعبي، وأثر بتوجيه أنظار
الناس والدولة إلى ضرورة الاهتمام بالشؤون .

والحق أن عهد المتوكّل كان عهد انتكاسات عسكرية، ففي سنة ٢٤٢هـ / ٨٥٦م هاجم الروم
الشعور الجزيرة، وانتهبوا عدة قرى، وأسروا نحواً من عشرة آلاف إنسان^(٤) . وفي سنة ٢٤٥هـ / ٨٥٩م
غزا الروم العرب وقتلوا وأسروا أعداداً كبيرة، وقد خلّد الروم ذكرى هذا الانتصار بنقش محفور على
أسوار أنقشورة^(٥) .

ووقعت في زمن المتوكّل أيضاً مفادلتان للأسرى : الأولى في سنة ٢٤١هـ / ٨٥٥م، فسودي
فيها ثمانية آلاف أسير مسلم من أصل ٢٠ ألفاً، لأن ملكة بيزنطة كانت قد أمرت بقتل من رفض اعتناق
النصرانية منهم^(٦)؛ والثانية في سنة ٢٤٦هـ / ٨٦٠م، وأطلق في هذه المفاداة سراح ألفي
مسلم، مقابل ألف رومي^(٧) .

-
- (١) ولاية مصر : ٢٤٤ .
 - (٢) الطبري ٩ : ٢٦١-٢٦٢، واليعقوبي ٢ : ٤٩٦، سير أعلام النبلاء ١٢ : ٣٦-٣٧، فازيليف
 - ٢١٩-٢٢٥، وتذكر أن ذلك كان في سنة ٢٥٣هـ / ٨٦٧م .
 - (٣) انظر : الطبري ٩ : ٢٦٢ .
 - (٤) الطبري ٩ : ٢٠٧، ابن كثير ١٠ : ٣٤٣ .
 - (٥) فازيليف : ٢٠٧ .
 - (٦) الطبري ٩ : ٢٠٢، فازيليف : ١٩٧-١٩٨ .
 - (٧) الطبري ٩ : ٢١١، المسعودي : التنبيه والإشراف : ١٦٢-١٦٣ .

وشهدت مناطق الثغور هدوءاً كبيراً في عهود المعتز (٢٥٢-٢٥٥هـ/٨٦٦-٨٦٨ م) والمعتدي (٢٥٥-٢٥٦هـ/٨٦٨-٨٦٩ م) ، وأوائل حكم المعتد (٢٥٦-٢٥٩هـ/٨٦٩-٨٩٢ م) ، وذلك لانشغال الخليفين الأولين بالفتن الداخلية ، ولانشغال المسلمين بمحاربة صاحب الزنج بالبصرة في عهد الخليفة الثالث ، إلى جانب النزاع بين العباسيين وأحمد بن طولون (١) .

وكان أول تماس بين القوتين قد وقع بعد ذلك في سنة ٢٦٤هـ/٨٧٨ م عندما هاجم أهـل الثغور الشامية معاقل الروم ، فتعقبهم الروم وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، وأسروا في جملة من أسروا قائد الحملة الإسلامية . ثم خرجت الروم في السنة التالية فهاجموا أذنة بجيش كبير ضم خمسة من بطارتهم وتمكنوا من أسر والي الثغور ومعه ٤٠٠ أسير آخر ، وكبادرة على حسن الجوار فقد أطلق الروم سراح مجموعة من أسرى المسلمين سلموهم لأحمد بن طولون (٢) . غير أن سيما الطويل خليفة أحمد ابن طولون على طرسوس قام بنزول الروم ، ثم ظهر اسم يا زمان الخادم صاحب طرسوس بعد أن تمكن من إلحاق هزيمة شنيعة بالروم في سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣ م . وتكرر ظفر هذا القائد على الروم إلى أن كان مقتله على أيديهم في سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢ م (٣) . وظلت هذه هي حال الثغور بين شد وجذب على مدار الفترة ، تشتت حيناً ، وتخبر أحياناً ، تبعاً للظروف الداخلية لكلتا الدولتين . وظلت سياسة مفاداة الأسرى سياسة متبعة لها رسومها وإجراءاتها الخاصة (٤) .

وكان آخر صدام عنيف بين المسلمين والروم في الفترة موضوع هذا البحث الذي وقع في سنة ٢٩١هـ/١٠٣ م ، وفيه تم فتح مدينة أنطاكية التي يقول الطبري عنها إنها تعادل القسطنطينية ، ويبدو أن هذه المعركة كانت برية وبحرية ، إذ أخذ المسلمون فيها ستين مركباً ، وحرروا أربعة آلاف أسير مسلم ، وقتل من الروم خمسة آلاف (٥) . وقد تم للمسلمين هذا النصر على الرغم من انشغالهم بأمور القرامطة .

(١) انظر في ذلك مثلاً: البليسي ٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

(٢) انظر: الطبري ٩: ٥٤٤ - ٥٤٥ .

(٣) انظر الطبري ١٠: ١٠٠ .

(٤) انظر عن الأقدية بصورتها الرسمية كتاب: التنبيه والإشـراف : ١٦٠-١٦٣ .

(٥) الطبري ١٠: ١١٧ .

وهكذا ظلت الحدود الإسلامية البيزنطية مضطربة على مدار فترة الدراسة . ولم تسجل أي من القوتين نصراً حاسماً على الأخرى ، فقد ينتصر المسلمون في معركة انتصاراً كبيراً كانتصارهم في عمورية ، وقد ينتصر البيزنطيون انتصاراً مماثلاً كانتصارهم على عمر بن عبد الله الأقطع وهو الانتصار الذي عده فازيليف أكبر هزيمة لحقت بالإسلام إلى العهد الصليبي (١) .

ولكنَّ أيّاً من هذه الانتصارات لم يحسم الموقف على الثغور لإحدى القوتين ، ومن أجل ذلك ظلت المواقع الثغرية غير ثابتة . ومن أجل ذلك أيضاً كثر سكنى الثغور من فئات المتطوعة ، إلى جانب توطين أقوام آخرين فيها للمرابطة والمجاهدة . وقد ترتب على هذا الوضع المأزوم دوماً أن سكان الثغور كانوا يدفعون من دمائهم ومن أموالهم ثعناً لهذا الصمود . ولذلك وجدنا بعض الخلفاء يغسري بعض الناس بسكنى الثغور مقابل زيادة في أعطياتهم (٢) .

ولو أننا أخذنا بأقوال قدامة بن جعفر عن أزمدة الصوائف والمرايع والشواتي وأطوالها لعرفنا أن تلك السنة تقريباً كان الناس فيه مشغولين بالحرب ، فالمرايع مدتها ثلاثون يوماً غير انشغالهم بتحسين أحوال خيولهم ، والصوائف مدتها ٦٠ يوماً ، والشواتي عشرون ، ولم يكن المسلمون يحبسون الشتاء ، ولذلك لم يكونوا يوغلون في أرض الروم فيه (٣) .

(١) فازيليف : ٢٧٠ .

(٢) سبقت الإشارة إلى شي من هذا .

(٣) انظر : الخراج وصناعة الكتابة ، شرحه وحققه محمد حسين الزبيدي ، دار الرشيد للنشر ، وزارة الإعلام العراقية ، بغداد ، ١٩٨١ ، ١٩٨٢ ، ١٩٩٣ ، فازيليف : ٩١ .

الفصل الثاني

النواحي الإدارية والمالية

ورثت الدولة العباسية عن الدولة الأموية قسمة الشام إدارياً في خمسة أجناد هي : جند دمشق ، وجند حمص ، وجند قنسرين ، وجند الأردن ، وجند فلسطين ، وقد بقيت هذه القسمة على حالها حتى عهد الرشيد حين فصل الثغور عن جند قنسرين ، وجعل منها قسماً إدارياً مستقلاً وسماها العواصم ، وبقيت الجزيرة قسماً إدارياً على حدة .

وعلى هذا فمحيط الدراسة يشمل الشام بأجنادها الخمسة ، وثغورها التي يعرف بعضها بثغور الشام وبعضها بثغور الجزيرة ، لأن كل ما كان وراء الفرات فمن الشام ، وإنما سمي من ملطية إلى مَرَعش ثغور الجزيرة لأن أهل الجزيرة بها كانوا يربطون ويفزون ^(١) . كما يشمل العواصم التي تضم مَنبِج ودُلوك ورَّعْبَان وقورس وأنطاكية وِيزِينَ ^(٢) وحاضرتها مَنبِج ^(٣) : كما يشمل الجزيرة وحاضرتها الرقصة .

ولم يكن هذا التقسيم الإداري يعني أن كل جند مستقل بوال ، بل كثيراً ما عين الوالي الواحد على ما يتجاوز الجند الواحد ، ففي بداية الدولة العباسية عين السفاح عمه عبد الله بن علي والياً على قنسرين ودمشق وحمص والأردن ، أي أنه جمع له أربعة أجناد معاً ، ولم يخرج عن سيطرته سوى جند فلسطين ، وأفرد جند الجزيرة بوال هو المنصور ^(٤) .

- (١) ابن حوقل : صورة الأرض ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت : ١٥٤ ، الإصطخرى : مسالك الممالك ، مطبعة بريل ، ليدن ١٩٦٧ ، ٥٥ ، الإدرسي : نزهة المشتاق ، نشر معهد اللغات الشرقية ، نابلس ٤ : ٣٥٣-٣٧٧ ، وانظر عن الخلاف بين الجغرافيين العرب في تحديد ثغور الشام والجزيرة : فتحي عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية ١ : ٢١٣ - ٢١٧ .
- (٢) تيزين قرية كبيرة من نواحي حلب ، كانت تعد من أعمال قنسرين ثم صارت في أيام الرشيد من العواصم ، وقورس من نواحي حلب ، كانت خربت في زمن ياقوت الحموي ، ودُلوك بَلِيدَة من نواحي حلب بالعواصم ، ورَّعْبَان مدينة بالثغور معدودة في العواصم . انظر ياقوت .
- (٣) انظر : البلاذري : فتوح البلدان ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع ، دار النشر للجامعيين ، بيروت ١٩٥٨ ، ١٥٦ ، الطبري ٨ : ٢٣٤ ، لسترنج : بلدان الخلاف الشرقية ١٦٠ - ١٦١ .
- (٤) الطبري ٧ : ٤٥٩ - ٤٦٠ .

وحين استحدث الرشيد جنداً سادساً هو العواصم كان واليه عليه هو عبد الملك بن صالح^(١) وجمع المأمون الشام ومصر معاً تحت إدارة أخيه أبي إسحاق (المعتصم) كما عهد لابن العباس بولاية الجزيرة والشغور والعواصم^(٢). وكان الأمين قد جمع الشام والجزيرة لعبد الملك ابن صالح^(٣).

وفي عهد المعتد كان عيسى بن الشيخ الشيباني والياً على جندَي فلسطين والأردن، بينما كانت ديار مصر وقنسرين والعواصم من حصة الموفق أخي المعتد^(٤)، وكل هذا يعني أن القسمة إلى أجناد كانت أمراً تقليدياً اقتضته طبيعة دواوين الجند، وترتيب الجيش الخاص بكل جند من حيث الأعطيات. وهكذا فحين تراخت قبضة الدولة إدارياً كان في مقدور ابن الشيخ أن يلجأ إلى الغلبة ليضم تحت سيطرته جند دمشق. وأصبح في مقدور خمارويه الذي حكم مصر وأجزاء من الشام والعواصم أن يعقد صفقة مع المعتضد في سنة ٢٨٦هـ / ٨٩٩م تنازل له فيها عن قنسرين والعواصم في مقابل أن يقره المعتضد على الاستئثار بالديار المصرية^(٥).

ولدى اعتبار الشام وحدة إدارية واحدة، فلا بد أن نقدر أن كل مدينة وما كان يتبعها من ريف كانت تحت وال واحد، وأن النظام الإداري المتبع في تلك المدن كان يمثل صورة مصغرة مما يجري في العاصمة، وأن الدواوين كانت تتعدد وتتكاثر على مر الزمن، وأن نظاماً دقيقاً للبريد كان يربط مدن الشام بعضها ببعض كما يجعلها تحت سيطرة دقيقة من قبل أصحاب الأخيزار.

أما التنظيم المالي فقد كان من ضمن التنظيم الإداري. وكان الدخل المالي هو القضية الكبرى التي تشغل بال الدولة الجديدة بعد أن استتب لها الحكم، وقد ورثت في الشام

(١) انظر: فتوح البلدان: ٢٠٨، سير أعلام النبلاء: ٩: ٢١.

(٢) انظر الطبري: ٨: ٦٣١.

(٣) انظر نفسه: ٨: ٤٢٤.

(٤) انظر: الطبري: ٩: ٤٧٥، ولاية مصر: ١: ٨٠، (القسم الخاص بمصر).

(٥) انظر الطبري: ١٠: ٧٠ - ٧١، ابن كثير: ١١: ٨٣ - ٨٤.

والجزيرة وغيرهما - نظاماً مالياً يعتمد أكبر الاعتماد على الخراج ^(١) ، والعشر ^(٢) ، ومعنى ذلك أنه يعتمد على الزراعة ، إلى جانب الجزية على من لم يعتنقوا الإسلام . ولهذا لجأت الدولة دائماً إلى مراجعة ما تحصله لا من أجل إنصاف دافعي الضرائب ، بل من أجل التوصل إلى زيادة دخلها ، وقد عرفت هذه المراجعة بـ " التعديل " ، وهو شيء قام به عبد الملك بن مروان من قبل ، إذ أرسل الضحاك بن عبد الرحمن الأشعري إلى الجزيرة فأحصى عدد رؤوس أهل الدمة ، ثم قدر نفقة كل فرد بحسب ما يحتاج إليه من طعام وكسوة وغير ذلك ، فوجد أن كل فرد يستطيع أن يدفع أربعة دنانير سنوياً للدولة مسوياً في ذلك بين فئات الناس جميعاً ، ثم قدر الخراج على الأرض على أساس قوتها أو بعدها من الأسواق ، فالزم كل مائة جريب قريب ديناراً واحداً ، وكل مائتي جريب بعيد ديناراً واحداً كذلك ، وفرض على الزيتون ديناراً على كل مائة شجرة قريبة ، ومثله على كل مائتي شجرة بعيدة ، وسوى في ذلك " التعديل " بين الشام والجزيرة والموصل ^(٣) .

ويبدو أن الأمر استمر على ذلك ، وأن إخراج عبد الملك لقي ارتياحاً لدى الدولة ودافعي الضرائب على حد سواء .

فلما كانت أيام المنصور أحب مراجعة الخراج والجزية لكي يتوصل إلى زيادة الدخل المخصص للدولة ، فأرسل إلى الجزيرة عاملاً يطوف مدنها واحدة إثر أخرى ، ويحصى فيها الأسواق ، فصادر ذلك العامل كل حانوت ، وكل رحى لم توجد مسجلة في قوائم الخراج القديمة ، وضمها إلى ممتلكات الدولة ، كما استصفى كل حقل لم يكن مدوناً في قوائم الخراج ، ووزع ما استصفاه قطائع . وعين الخليفة عاملاً يشرف على الأعشار ، ويقول صاحب التاريخ المنسوب للتلمحري : إنه كان إذا رأى في حانوت أمتعة

- (١) الخراج هو أرض الصلح التي رضي المسلمون بما صولحوا عليه عنها في وقت فتحها ، ومنها زكاة أعشار الأرضين التي يزرعها المسلمون . قاله قدامة بن جعفر . انظر: الخراج وصناعة الكتابة : ٢٩٩ .
- (٢) أرض العشر ستة أضراب من ذلك الأرضون التي أسلم عليها أهلها وهي في أيديهم ، والذي يجب على أهلها منها العشر ، ومنها ما يستحييه المسلمون من الأرضين الموات التي لا ملك لأحد من المسلمين والمعاهد فيها ، فيلزمهم العشر من غلاتها ، ومنها ما يقطعه الأئمة لبعض المسلمين فتلزمه الزكاة عنها وهي العشر . الخراج لقدامة : ٢٠٤ .
- (٣) أبو يوسف : الخراج ، تحقيق إحسان عباس ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ١٣٩١ .

ويبدو أن شيئاً من الإصلاح لم يتم حتى عهد الرشيد الذي لجأ إلى أبي يوسف ليقوم بدراسة الوضع المالي : فكتب كتابه " الخراج " . ويستنتج من هذا الكتاب أن الرقابة على الوالي كانت ضعيفة ، وأن الوالي كان يخرج معه عددًا من بطانته للانتفاع ببركته وجاهه ، فيوليهم جباية الضرائب ليكمل لهم الإنشـراء .

ويشدد أبو يوسف على ضرورة الرقابة في كل مرحلة . وهذه الرقابة لا تتم إلا بإخراج جنـد مع الجباة ، يمنعون من ضرب المزارعين وتعذيبهم بإقامتهم في الشمس ، أو تعليق الجرار في رقابهم ، وزيادة الأرزاق المفروضة على دافعي الضرائب بأسماء مختلفة مثل : رزق العامل ، وحملة طعام السلطان ، ومن الصحف والقراطينـس (١) .

وكان من أهم اقتراحات أبي يوسف الفصل بين جباية الخراج والجزية والعشور على تجـارات أهل الذمة ، وبين جباية الصدقات والعشور على المسلمين ، بإقامة ديوان خاص لكل من الجبايتين ، وهذا المطلب يؤكد الحيف الذي كان يقع على المسلمين ، كما وصفه صاحب التاريخ المنسوب ، لأن الجباة كانوا يحصلون الصدقات وعشور المسلمين على القاعدة نفسها التي يحصلون بها الخراج والجزية من غير المسلمين (٢) .

وعلى هذا كله لم يبدأ إصلاح الأوضاع الخراجية إلا في أيام الرشيد . ولسنا نعرف المـدى الذي شمله إصلاحه في الشام والجزيرة ، غير أن البلاذري يخص فلسطين بالحديث فيقول : " وفلسطين فروز سجلات من الخلفاء مفردة من خراج المـامة " (٣) . وهذا يعني تخصيص الفلاحين هناك بسجلات تنحو نحو التخفيف ، لأن فلاحى بعض الضياع هجروها ، وامتنعوا عن زراعتها ، فتعطلت ، فتلطف الرشيد لإرجاعهم بأن بعث إليهم هرثمة بن أعين ليعيد عمارة تلك القرى ، فأغرى بعض الفلاحين بالرجوع إليها على أن يخفف عنهم ما كانوا يدفعونه من خراج ، ويعتمد في استخراجها بالمعاملة الحسنة ، فرجعوا

(١) الخراج لأبي يوسف : الفقرتان : ١١٥ ، ١١٦ .

(٢) التاريخ المنسوب للتلمـحـرى : ١٨٨ - ١٨٩ .

(٣) فتوح البلدان : (١٧) .

ووصلت الأخبار إلى والي الجزيرة العباسي فأمر الواسم بالعمـودة^(١).

بيعت في الأسواق لما زاد ثمنها على أربعة دراهم (٢).

(٢) التاريخ المنسوب للتلمحري : ١٨٧٦ و ١٨٨٦ و ٢٢٦٦ - ٢٣٠ .

ستصل إلى ذلك الحد ، ولعله أراد تهديّة الخواطر أيضاً فبعث مولاة رزينا لمعاينة الأحوال ، فطاف رزين في ميفارقين وأرزن^(١) ، ووقف على اختلاس العمال فيها ، فأمر بالقبض عليهم ، وجلد هم جلداً شديداً ، واستخرج منهم ما اختلسوه من أموال ، وتولاهم بعد العقوبة بالتعزير^(٢) .

إن هذا الإجحاف الذي كان يلم بالرعية بسبب الضرائب ، دفع بعض الناصحين النيارى إلى تقديم اقتراحات لمعالجة ذلك الوضع ، فكتب ابن المقفع في رسالة الصحابة بأنه لا بد من وجود سجل ضريبي مدون تفسر به مقادير الخراج ، ويعتمد الجباة لدى تحصيل الأموال لأن الجباة أحد رجلين: رجل متقبل^(٣) معتسف يغالي في الاستخراج ليضمن الربح الكبير لنفسه ، أو رجل معه دفتر مساحة قيدت فيه مساحة الأرض العامرة ، فهو يطبق ما يراه في دفتره دون نظر إلى واقع الأرض ، هل عطلت الأرض التي كانت عامرة ، وهل عمرت أرض كانت معطلة ، وإصلاح هذا الوضع يتطلب تقدير وظائف معلومة تفرض على الرساتيق^(٤) والقري ويرجع فيها إلى سجل مدون ، فلا يؤخذ من رجل إلا بمقدار ما قدر عليهم^(٥) .

واقترح عبيد الله بن الحسن العنبري في رسالة رفعها إلى المهدي (١٥٩هـ / ٧٧٥م) ينصحه فيها بأن يعتد مبدأ "التخفيف" في تقاضي الضرائب من في ، وصدقات ، واعتماد الاستحقاق فـسـى توزيعها^(٦) . وكتب أبو عبيد الله معاوية بن عبد الله كاتب المهدي رسالة أخرى إلى الخليفة نفسه بين فيها ما يحل بأهل الخراج من ظلم إن عم ألزمو ما لا محدوداً عن كل جريب لتقلب الأسعار بسين الغلاء والرخص ، واقترح حلولاً عملية لمعالجة الأمر^(٧) .

- (١) ميفارقين أشهر مدينة بديار بكر على ما قال ياقوت ، وذكر لسترنج أن اسمها العربي محرف عن الأرمنية ، انظر ١٤٣ ، وأرزن مدينة مشهورة لها قلعة حصينة كانت من أمر نواحي أرمينية ، كانت خربت في زمن ياقوت ، وانظر لسترنج : ١٤٤ .
- (٢) التاريخ المنصور للتلحيري : ٣٠٣ - ٣٠٤ .
- (٣) متقبل : متكفل .
- (٤) الرساتيق : النواحي ، جمع رُستاق . انظر الجواليقي : المغرب ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ١٣٦١هـ ، ٢٩ .
- (٥) رسائل البلغاء لمحمد كرد علي : ١٣٢ ، جمهرة رسائل العرب ٣ : ٤٥ - ٤٦ .
- (٦) انظر هذه الرسالة في وكيع محمد بن خلف : أخبار القضاة ، نسخة مصورة عن طبعة القاهرة ، ١٢٦٦هـ - ١٢٦٦هـ ، ٢ : ٩٧ - ١٠٧ .
- (٧) كتاب الخراج لقدامسة : ٢٢٢ - ٢٢٣ .

على هذا الشرط، وُسِّمُوا "أصحاب التخافيف"، وتأخر قوم منهم في العودة فردت إليهم أراضيهم على المقدار السابق من الخراج، وعرفوا باسم "أصحاب السرود" (١).

ويتحدث البلاذري في موضع آخر عن أن طاعوناً أصاب أرض فلسطين في أوائك حكم الرشيد، فهلكت فيه عائلات بروتها، وتعطلت الأرض، ولم يعد لها من يفلحها، فشجع الخليفة على إعمار تلك الأرض، وتآلف الأكرّة والمزارعين إليها، وأصبحت تعد من أراضي الخلافة (٢). ويظهر من كلام البلاذري أن الرشيد لم يغير ما كان قد سنّه يزيد بن معاوية في مقدار الجزية، وذلك أنه ظلّ يتقاضى خمسة دنانير عن كل واحد، وفي عهد المتوكل (٢٤٦هـ / ٨٦٠ م) شكا جماعة من السامرة في منطقة نابلس عجزهم عن دفع ذلك المقدار، فقبل المتوكل من كل واحد منهم ثلاثة دنانير (٣).

وكانت الدولة تتبع بتحويل الأرض التي هلك عنها أهلها بالطاعون إلى صواف لها، السياسة المالية التي جرى عليها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه - إذ كانت الصوافي تعني من جملة ما تعنيه: الأرض التي مات عنها أهلها دون وارث أو ورثة (٤).

ولكن الدولة العباسية اعتبرت أملاك الأمويين صوافي أيضاً، وعاملتها كما عامل المسلمون أملاك الدولة البيزنطية عند فتح الشام والجزيرة، ومن أمثلة ذلك أن باليس (٥) وقراها كانت لورثة مسئلة بسن عبد الملك، فلما قبض عبد الله بن علي على أموال بني أمية دخلت في قبضته، فأقطعها أبو العباس السفاح سليمان بن علي، وانتهى بها الأمر إلى أن أصبحت للعالمون ثم لولده من بعده (٦). كما قبض العباسيون على المهدي والمهدي التي أعمرها هشام بسن عبد الملك بالمزارع، فأصبحت قطيعة لرؤيدة أم جعفر (٧)، وصارت عين الرومية بالرقّة لأبي العباس السفاح، فأقطعها ميمون

(١) فتوح البلدان : ١٩٦.

(٢) المصدر نفسه : ٢١٦.

(٣) المصدر نفسه : ٢١٦.

(٤) كتاب الخراج لأبي يوسف : ١٦٩ - ١٧٠.

(٥) بالربلدة بالشام بين حلب والرقّة، انظر (معجم البلدان : باليس).

(٦) فتوح البلدان : ١٧٨، ١٧٩، الخراج لقدامة : ٣٠٥، معجم البلدان مادة باليس.

(٧) فتوح البلدان : ٢١٣، والمهدي والمهدي نهران يازا، الرقة والرافقة حفرهما هشام بن عبد الملك وأحدث فيهما واسط الرقة (معجم البلدان : مادة الهندي).

ابن حمزة — مولى علي بن عبد الله بن عباس — ثم ابتاعها الرشيد من الورثة ^(١) ، وكانت في أرض سَـرُوج منطقة تدعى غابة ابن عبيدة فأقطعت لبشر بن ميمون ، ثم ابتاعها الرشيد أيضاً ^(٢) .

ومن الحق أن نفترض أن هذه القطائع كانت عشرية ، وكانت الدولة تستغل دخلها ، وليس من الطبيعي أن نعدّها مكافآت لذوي الحظوة ، أو طعمة لذوي الاستئثار . على أن الفرض الثاني غير مستبعد ، إذ يحدثنا البلاذري نفسه أن الثغر حدث فيه إيغارات ، والإيغار أن يعطي الملك الأرض من غير خراج ، أو أن يؤدّي الخراج إلى السلطان الأعلى ، ولا يؤدّيه إلى عمال الخراج ، وإذا كان التفسير الأول هو المعتمد فذلك يعني إعطاء الأرض لذوي الحظوة دون مقابل ، ويعلق البلاذري على الإيغارات بقوله : «إنها قد تحيفت من يرتفع من أعشاره — أي الثغر — حتى قصرت عن نفقاته» ، فأمر المتوكل سنة ٢٤٣هـ / ٨٥٧م بإبطال تلك الإيغارات ^(٣) .

ولعل من الأسباب الداعية إلى انتهاج الخلفاء العباسيين لهذه السياسة العالية الصارمسة احتياجهم الدائم الملح إلى الإنفاق على الثغور بتحصينها ، وترميم أسوارها ، وإعادة بناء ما دمرته الحروب منها ، إلى جانب دفع أجور العيون والبريد والمسالح في الجبال ومخاضات الأنهر ، وتجهيز الحملات العسكرية وأعطيات الجند ، وحقاً فإن ارتفاع خراج جند قنسرين والعواصم على ما ذكر قدامة كان أكبر بكثير من ارتفاع خراج أي من أجناد الشام ، إذ بلغ ارتفاع خراج جند قنسرين والعواصم (٣٦٠) ألف دينار ، في حين بلغ ارتفاع خراج جند دمشق (١١٠) آلاف من الدينار ، وخراج جند الأردن (١٠٩) آلاف ، وخراج جند فلسطين (١١٥) ألف دينار ^(٤) . أما الجهشياري فذكر أن خراج جند قنسرين والعواصم بلغ (٤٩٠) ألف دينار ، وخراج جند حمص (٣٢٠) ألف دينار ، وخراج جند دمشق (٤٢٠) ألف دينار ، وخراج جند الأردن (٩٦) ألفاً ، وخراج جند فلسطين

-
- (١) فتوح البلدان : ٢١٤ .
 - (٢) سروج : بلدة قريبة من حـرّان من ديار مصر (معجم البلدان : سروج) .
 - (٣) فتوح البلدان : ٢٠٣ .
 - (٤) قدامة : الخراج : ١٧٧ — ١٧٨ .

(٣٢٠) ألفنا^(١) . وإذا علمنا أن ارتفاع خراج جند العواصم وحده كان مائة ألف دينار^(٢) ،
وإذا علمنا كذلك أن نفقات الصوائف والشواتي كانت تتراوح بين مائة ألف دينار وثلاثمائة ألف دينار ، تبين
أن العباسيين كان لهم بعض العذر في انتهاج تلك السياسة المالية الصارمسة .

(١) الجهمشياري : الوزرا* والكتاب : ٢٨٥ - ٢٨٨ .
(٢) فازيليف : العرب والسرور : ٩٠ .

الفصل الثالث

العمـران في بلاد الشام

شهدت بلاد الشام والجزيرة في هذه المدة - موضع الدرس - نشاطاً في الناحية العمرانية بعامة ، سواء في داخل البلاد أم في منطقة الثغور والسواحل ، وكان لزيارة بعض الخلفاء لبلاد الشام أثر في تنبيههم إلى بعض ما تحتاجه من العمران ، وأول مدينة استحدثها العباسيون في الجزيرة هي الرافقة ، وقد أمر ببنائها أبو جعفر المنصور إلى جوار الرقة ، على الرغم من اعتراض الرقيين على إنشاءها وكان السبب في ذلك الاعتراض خوفهم أن تتعطل أسواق بلدتهم بمنافسة المدينة الجديدة لها ، ثم لوقوع تكاليف بنائها على عواتقهم ، إذ أجبر كل مواسر في الرقة على أن يسلم بدفع أربعين درهماً لتحقيق تلك الغاية ^(١) . وقد أنشئت المدينة الجديدة على غرار بغداد في تخطيطها العام ^(٢) ، وكان ذلك سنة ١٥٥ هـ / ٧٧١ م بإشراف المهدي ولي العهد ، ثم بنى الرشيد في الرقة قصره ^(٣) .

ويذكر صاحب التاريخ المنسوب أن المنصور استشار النجمين قبل أن يقوم ببناء الرافقة فأنبأوه " أن ملكاً يبني مدينة إلى جوار فالينيتوس (الرقة) ويتوجه من ثمة إلى بيت المقدس فيشيد فيها مسجداً ^(٤) وتذكر المصادر العربية أن المنصور زار بيت المقدس فعلاً ، وصلى هناك في شهر ربيع الأول عام ١٥٥ هـ / ٧٧١ م ^(٥) ، ولكنه لم يبن مسجداً في المدينة المقدسة ، وإن زعم صاحب التاريخ المنسوب أنه بنى مسجداً للمسلمين على أنقاض هيكل سليمان ، ورّم خرائب (أورشليم) . كما ينسب عذا المؤرخ إلى المنصور قيامه بأعمال تخريبية في القدس ، مما يتنافى وطبيعة الخليفة المسلم ^(٦) .

-
- (١) ابن كثير ١٠ : ١١٣ .
 - (٢) فتوح البلدان : ٢٤٧ ؛ الطبري ٨ : ٤٦ ؛ القشيري : تاريخ الرقة ، تحقيق طاهر النعسلبي ص : ج .
 - (٣) الخراج : ٣١٥ .
 - (٤) التاريخ المنسوب : ١٧٨ .
 - (٥) الطبري ٨ : ٤٤ .
 - (٦) التاريخ المنسوب : ١١٠ .

وتم في عهد المنصور أيضاً عبارة ثغر المصيبة سنة ١١٣٩ هـ / ٧٥٦ م، وسماها المعمورة، إذ كان حائطها قد تداعى بسبب الزلازل فتم بناؤه، وأقيم فيها مسجد جامع واسع في موضع هيك كان بها^(١)، كما بنيت أذنة سنة ١١٤١ هـ / ٧٥٨ م، والقصر الذي على جسرهما بأمر من صالح بن علي العباسي^(٢)، وتم كذلك تتبع حصون السواحل ومدنها والقيام بتعميرها وتحصينها^(٣)، وأرسل المنصور عبد الوهاب ابن إبراهيم الإمام والي الجزيرة ومعه الحسن بن قحطبة لإعادة بناء ملطية وتحصينها، وقطعت البعوث على أهل الشام والجزيرة حتى فرغوا من بناء المدينة ومسجدها في ستة أشهر^(٤)، وبنى لها مسلحة، وأسكن فيها أربعة آلاف مقاتل من أهل الجزيرة لأنها ثغورهم، وشجعهم على ذلك عندما زاد فسي عطا كل رجل منهم، فضلا عن تقديم معونة نقدية أخرى. وقد ظهر أثر تحصينها واضحا عندما عجزت الروم عن اقتحامها في هجمتين وقعتا في زمن الرشيد^(٥).

وقام المشدي بمتابعة عمل أبيه في تحصين الثغور، وزاد في شحنتها^(٦)، فأمر بشح المصيبة بألفي رجل، وبنوا مدينة الحداث، ثم مدينة طرسوس، عندما أخبره الحسن بن قحطبة الطائي فسي أننا غزاه في بلاد الروم سنة ١١٦٢ هـ / ٧٧٨ م في تحصين طرسوس وشحنها بالمقاتلة من الغنا، عن الإسلام، والكبت للعهد^(٧)، فبدأ عملاً أنه ابنه الرشيد، إذ قام بتعمير طرسوس، وتحصينها وشحنها بالمقاتلة^(٨).

وزار المهدي حلب وبيت المقدس^(٩)، واتخذ الرشيد من الرقة عاصمة حربية له، ليشرف على شؤون الثغور، وعلى شؤون البلاد الشامية التي أخذت تعصف بها الفتن القبلية، وزاد فسي

- (١) قدامة : الخراج : ٣٠٨، بلدان الخلافة الشرقية : ١٦٢-١٦٣، وفيه أن المصيبة مدينة رومانية تعرف بـ *MOPSUESTIA* وهي من مدن أرمينية اليوم.
- (٢) فتوح البلدان : ٢٣٠، وأذنة بلد من الثغور قرب المصيبة (معجم البلدان : مادة أذنة)؛ وابن العديم : بغية الطلب، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، طبعة مصورة عن نسخة أيا صوفيا، فرانكفورت، ١ : ٩٩.
- (٣) فتوح البلدان : ٢٢٧، بغية الطلب : ١ : ٩٩.
- (٤) أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر، دار المعرفة، بيروت، لبنان ٢ : ٢-٣، التاريخ النسب : ١٢٥.
- (٥) قدامة : الخراج : ٣١٩.
- (٦) بغية الطلب : ١ : ٩٩.
- (٧) فتوح البلدان : ٢٣١-٢٣٢، الخراج : ٣١٠، بغية الطلب : ١ : ٢١٨-٢١٩.
- (٨) بغية الطلب : ١ : ٢٠٦.
- (٩) المصدر نفسه : ١ : ٩٩.

وزار المأمون دمشق في سنة ٢١٥هـ / ٨٣٠ م ، وترتب على زيارته لها وإقامته فيها فوائده
عمرانية متعددة ، فقد قام بتعمير دير مران بسفح قاسيون ^(١) ، وبنى القُبَيْبَةَ التي فوق الجبل ، وكان
يأمر أن توقد بالليل مجامر ضخمة تجعل في طسوت كبار تتدلى من تلك القببة بسلاسل فتضي الغوطة
أمامه ^(٢) .

وجد المأمون بعد زيارة له إلى بيت المقدس عمارة مسجد قبة الصخرة ، ولا تزال الكتابة
تشهد على ذلك بمحاولة طمس اسم منشئ المسجد ، وهو عبد الملك بن مروان ، بوضع اسم المأمون
فوقه ^(٣) .

وفي عهده بنيت أيضاً مدينة الرّحبة ، بناها مالك بن طوق ، وعرفت به ، وحالها كحال
الرافقة لم يكن لها أثر قد يسم ^(٤) .

وقد مر في موضع سابق أن المتوكل أعجب بدمشق كثيراً ، وأنه عزم على اتخاذها دار إقامته ،
وبدأ ببناء قصر له ^(٥) بدارين ^(٥) .

وفتر الاهتمام بالعمران في الشام في الفترات التالية بسبب انشغال العباسيين بالحروب
الداخلية والخارجية ، فقد شغل الخلفاء التالون بحرب صاحب الزنج والطولونية والقرامطة ، كما
اشتدت وطأة الروم في الشَّام ^(٥) .

-
- (١) ابن كثير ١٠ : ٢٦٩ ، وقال ياقوت : الذي بدمشق بضم الميم ، والذي بالحجاز يفتحها ،
(انظر : معجم البلدان مادة دير مران) .
- (٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٠ : ٢٢٨ ، النُّعَيْمِي : قضاة دمشق ، مطبوع مع الشَّامِ
البسام في ذكر من ولي قضاء الشام ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مطبوعات المجمع العلمي
العربي بدمشق ، ١٩٥٦ ، ترجمة أبي مسهر ١٥ - ١٧ .
- (٣) فيليب حنتي : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة كمال اليازجي ، دار الثقافة ، بيروت
١٣٠ : ٢ .
- (٤) الخراج : ٣١٥ ، معجم البلدان (مادة رحبة مالك) .
- (٥) انظر السيوطي : تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة
بمصر ، ١٩٥٢ ، ٣٤٨ .

والملاحظ على الحركة العمرانية في بلاد الشام والجزيرة وشغورها ما يلي : —

- ١ — نشاط هذه الحركة في عهود الخلفاء العباسيين الأقوياء وفتورها في عهود الخلفاء الضعفاء .
- ٢ — الاهتمام بأمور العمران لم يكن تجديداً في كل حال ، بل تستدعيه كثرة التخريب الذي يحدث بسبب الحروب من ناحية ، وبسبب الكوارث الطبيعية من ناحية أخرى . فمن الناحية الحربية كان الاهتمام بالشغور يمثل يقظة الدولة على حماية حدودها ، وعلى السهر الدائم لمنع الروم من التعدي عليها ورعاية أحوال السكان المقيمين في الشغور ، وقد كان الانتصار والانكسار في الحروب الثغرية سجلاً لا غير أنه من الملاحظ أنه كلما حدثت فتنة داخلية في الدولة العباسية . كفتنة الأمين والمأمون ، ضعف الاهتمام بأمور الشغور فتعرض لغزو الروم وتخريبهم لحصونهم^(١) . بل كان أمراء الشغور يضطرون إلى تخريبها لئلا تقع في أيدي الروم كما فعل بحصن زبيرة^(٢) . ولأن الشغور كانت معرضة للمعطيات العسكرية ، وللتهديد المستمر ، فقد لجأ الخلفاء والولاة إلى أسلوب الترغيب في سكناها بزيادة الأعطيات^(٣) .

أما العمران بسبب الكوارث الطبيعية فكان أيضاً مطلباً ضرورياً لترميم ما ينتج عن السيول والطواحين والصقيع في تخريب العمران الزراعي ، وبالدرجة الأولى لما ينتج عن الزلازل المدمرة . وبحسبنا هنا إيراد مثلين عن زلزال اكتسح الجزيرة في سنة ١٢٧ هـ / ٧٥٥ - ٧٥٦ م ، قدم مرثلاث قرى على نهر الخابور ، ومات تحت الانقاض من كان فيها من الناس ، واندثرت بتلك الهزة أماكن عديدة^(٤) . وعن زلزال آخر عنيف تعرضت له مدن الشام زمن المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ / ٨٤٦ - ٨٦١ م) ، وأصاب بالتخريب الرقة وحمص ودمشق وطرسوس والمصيصة وأذنة واللاذقية وغيرها من مدن السواحل الشامية ومات بسببه خلق كثير ، ويصف الطبري ما حدث بأنطاكية فيقول : " قتلت الرجة في أنطاكية خلقاً كثيراً ، وسقط منها ألف وخمسمائة دار ، وسقط من سورها نيف وسبعون برجاً ، وسمعوا أصواتاً هائلة

(١) انظر قدامة : الخراج : ٣١٧ .

(٢) نفسه : ٣٢١ .

(٣) نفسه : ٣١٩ .

(٤) التاريخ المنسوب : ١١٨ ، وانظر : السيوطي : تاريخ الخلفاء : ٣٤٧ ، ٣٤٩ .

لا يحسنون وصفها من كوى المنازل ، وهرب أهلها إلى الصحارى ، وتقطع جبلها الأقرع ، وسقط فسي البحر ، وأما اللاذقية : "فما بقي منها منــــــزل" (١) .

٣- نقض بعض المظاهر العمرانية التي كان الأمويون قد أنشأوها من ذلك نقض قصر أنيق مزخرف كان بناء سليمان بن عبد الملك ، كما نقض ما كان بمسجد حلب من الرخام والآلات ، ونقل ذلك إلى جامع أنشئ بالأنبار (٢) ، كأنهم - إن صدقت الرواية التاريخية - كانوا يريدون طمس معالم بني أمية .

(١) الطبري : ٩ : ٢١٣ ، ابن كثير : ١٠ : ٣٤٦ ، سير أعلام النبلاء ١٢ : ٣٣ .
(٢) ابن الشحنة الحلبي : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، علق عليه يوسف بن إلياس سركيس ، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٠٦ ، ٥٩ ، ٦٢ .

الفصل الرابع

الحياة الثقافية في بلاد الشام

يفزع الدارس أول ما يحاول دراسة الحياة الثقافية في بلاد الشام والجزيرة الى كتب التراجم مثل : " مشاهير علماء الأمصار " للبستاني^(١) ، وكتاب " الطبقات الكبرى " لابن سعد ، وأشباههما من كتب التراجم ، ولكن غاية ما يقف عليه في هذه الكتب هو تراجم لأعلام القراء والمحدثين ، والفسرين ، والفقه ، والمؤرخين ، وأصحاب السير ، والنحاة واللغويين ، وقد يظفر من هذه التراجم بمعلومات يسيرة تسهم في رسم معالم عامة تحدد مناحي الثقافة في بلاد الشام ، وتشير إشارات إلى أبرز المراكز الثقافية فيها . ومن هذا يتبين أن أشهر المراكز الثقافية هي : دمشق ، وحمص ، وبيروت ، والرقصة ، وطرسوس ، والمصيصة ، وبيت المقدس ، وأنطاكية ، وبعليبك ، وطبرية ، والرملة ، وعسقلان ، وأطرابلس على تفاوت بينها ، فكانت دمشق أبرزها على الإطلاق ، لأنها كانت عاصمة خلافة بني أمية ، فظل لها حضورها المتميز في العصر العباسي ، يشهد على ذلك أن المتوكل كاد ينقل مركز الخلافة العباسية إليها ، وكان المأمون قد زارها غير مرة وأقام فيها مرصداً فلنياً على جبل قاسيون^(٢) .

وكانت حمص هي المركز الثقافي الثاني البارز ، وإليها ينسب عدد كبير من العلماء في هذه الفترة^(٣) . وتحتل الرقة منزلة كبيرة من بين أبرز المراكز الثقافية في بلاد الشام ، ويعود ذلك إلى وقوعها على أطراف بلاد الشام المتاخمة للعراق من جهة ، ولقربها من مناطق الصراع بين المسلمين والروم من جهة ثانية ، فكان أن اتخذها الرشيد عاصمة ثانية لدولته ، واستقر بها بعض الاستقرار من بعده بعض خلفاء بني العباس ومنهم المأمون .

-
- (١) البستاني ، محمد بن حبان : مشاهير علماء الأمصار ، تصحيح م . فلا يشهر ، مطبعة لجنسة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م .
- (٢) انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ١ : ٢٢٨ ، قضاة دمشق : ١٥ - ١٢ .
- (٣) انظر أسما العلماء ، الحمصيين في معجم البلدان لياقوت : مادة حمص .

أما مدن الثغور ، وبخاصة طرسوس ، فكانت موئل المشطوعة والمجاهدين الذين كانوا يفدون إليها من أقطار العالم الإسلامي للمرابطة والجهاد ، وكذا يقال عن مدن الثغور البحرية من مثل بيروت وأطرابلس وأنطاكية . في حين ظلت مدن فلسطين ضعيفة التأثير والمشاركة في النشاطات الثقافية ، فعدة من برز فيها من العلماء قليلون . ولعل ذلك راجع إلى انزوائها عن المشاركة الفاعلة في صناعة الأحداث السياسية في العصر العباسي ، وإلى إهمال العباسيين لها تبعاً لذلك ، فلم تحظ المدن الفلسطينية بالرعاية والعناية الواجبة ، مما دفع بأهل نابلس إلى ترك مزارعهم وأراضيهم في زمن الرشيد ^(١) ، ثم تفجر غضب الفلسطينيين في ثورة الفلاحين الضخمة أيام المعتصم والواثق ^(٢) . وقد عبر الذهبي عن ضعف مشاركة مدن فلسطين في الثقافة الإسلامية في العصر العباسي بقوله وهو يترجم لشهاب بن خراش الشيباني : " قال ابن عدي : ولا أعرف للمتقدمين فيه كلاماً فأذكره وذلك لانزوائه بفلسطين " ^(٣) .

ولم تكن مدن الأردن أحسن حالاً من مدن فلسطين ، فقد وسمت طبرية حاضرة جند الأردن بأنها " بلدة نائية عن جادة الطريق " ^(٤) وقل من يقدم عليها من العلماء ^(٥) .

وكانت المساجد هي مواطن التعليم والتعلم منذ القرن الأول للهجرة ، وفي ذلك يقول أحد شيوخ هذا القرن : " عهدت المسجد الجامع بدمشق ، وأن عند كل عمود شيخاً ، وعليه الناس يكتبون العلم " ^(٦) . وظل هذا شأنها بعد ذلك ، ففي ترجمة أبي مسهر الغساني قيل : " لا يـُـسـَـمـَـر الغساني حلقة في جامع دمشق بين العشاء والمعتمة " ^(٧) .

- (١) سبقت الإشارة إلى ذلك في الحديث عن الحياة السياسية .
- (٢) سبقت الإشارة إلى ذلك في الحديث عن ثورة المبرقع اليماني .
- (٣) شهاب بن خراش الشيباني كوفي تحول إلى الرملة ، محدث معاد للقدرية والمرجئة ، توفي قبل سنة ١٨٠ هـ ، انظر : سير أعلام النبلاء ، ٨ : ٢٥٢ .
- (٤) انظر : صورة تاريخ دمشق ٩ : ٨٤٥ - ٨٤٦ ، ترجمة عبد الرحمن بن إبراهيم المعروف بدحيم .
- (٥) انظر الجداول التي أعدتها ملكة أبيض عن عدد العلماء في أجناد الشام اعتماداً على تاريخ ابن عساكر في كتابها : التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٠ م ، ٣٩٦ وما بعده .
- (٦) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١ : ٣١٥ .
- (٧) ابن طولون : الثمر البسام ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، بدمشق ، ١٩٥٦ : ١٥٠ .

ومن غير شك أن المساجد لم تكن وحدها دور العلم ، فقد كانت قصور الخلفاء والأمراء تشهد ألواناً من النشاطات الثقافية ، وبخاصة الأدبية منها . وفي تلك القصور كانت تلقى القصائد فيتصدى لها جمهور الحضور بالنقد والتعليق ^(١) ، على شاكلة ما كانت الحال عليه في قصر عبد الملك بن مروان في العصر الأموي ^(٢) . كما كانت لبعض الأدباء مجالس خاصة مثلما كان لأبي تمام مجلس للشعراء في حمص يعرضون عليه فيه أشعارهم لينقدها ^(٣) .

لقد كانت السمة الغالبة على المادة الثقافية المتداولة في القصور هي السمة الأدبية ، ولم تكن تلك المادة أكثر من ملاحظات عابرة ، ونصائح عارضة ، وهي جميعاً لا تشكل مادة كافية للدراسة . غير أن ذلك لا يعني أن المجالس كانت محصورة في الأدب . فقد شهدت الرقة مناظرة فقهية بين الشافعي (المتوفى سنة ٢٠٤ هـ) ومحمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة (المتوفى سنة ١٨٩ هـ) ^(٤) انتصر فيها الشافعي ، وكان لانتصاره هذا أثر في شيوع مذهبه الفقهي في الشام . فاندحر مذهب أهل الرأي الذي كان الشيباني يعمل على إشاعته في الرقة وأخذ الشاميون بعد ذلك بمذهب الشافعي السذي يتفق مع مذهب إمامهم الأوزاعي في اعتماده على الحديث النبوي ، ثم حل محله في نهاية المطاف بعد أن أشاعه أبو زرعة الدمشقي في أيام الخلاف بين ابن طولون وأبي أحمد الموفق ^(٥) .

كما شهدت الرقة مجلساً احتدم فيه النقاش بين المأمون ومجموعة من العلماء كان من بينهم بعض علماء أهل الشام حول قضية خلق القرآن . وكان عبد الأعلى بن مسهر الغساني الدمشقي ممن ابتلوا بهذه المحنة . فقد أبى أن يقول إن القرآن مخلوق ، فكان جزاؤه السجن في بغداد التي

- (١) انظر مثلاً الأغاني ١٣ : ١٤١ - ١٤٧ ، وفيه أخبار عن مثل هذه المجالس في قصر الرشيد بالرقة .
- (٢) انظر مثلاً على ذلك : إحسان عباس : " عبد الملك بن مروان ودوره في ثقافة عصره " ، مجلة دراسات ، المجلد ١٣ ، العدد الأول ، الجامعة الأردنية ، عمان ، ١٩٨٦ ، ١٠٩ - ١١١ .
- (٣) الصولي : أخبار الباحثين ، تحقيق صالح الاشتراط ، ط ٢ ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٦٤ ، ٥٥ ،
- ياقوت : معجم الأدباء (نسخة مصورة عن نسخة عيسى البابي الحلبي ١٩١٩ : ٢٤٩) .
- (٤) أصل أبي الحسن من قرية حرسية من غوطة دمشق . غلب عليه مذهب شيخه أبي حنيفة ، فعرف به ، ولما الرشيد قضا الرقة . له مؤلفات كثيرة ذكرها ابن النديم في الفهرست : ٢٨٧ (نسخة مصورة عن طبعة دار المعارف) . وانظر هذه المناظرة في ابن عساكر في ترجمة محمد ابن إدريس الشافعي ١٤ : ٢٨٧ .
- (٥) انظر : التميمي ٢٢ - ٢٣ ، ابن تغري بردي ٣ : ١٨٣ ، ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ط ٢ ، دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ٢٦ : ٢٣٩ .

أن مات . وأكبر الظن أن المأمون عرض أبا مسهر لهذه المحنة لسبيين ، فهو أولاً أراد أن يشيع فكره الاعتزالي دون أن يجد في أرض مملكته من يعارضه ، وبخاصة الفقهاء أصحاب التأثير الكبير فسي الناس من أمثال ابن حنبل وأبي مسهر وغيرهما . وهو ثانياً ينتقم من أبي مسهر لأنه - أي أبا مسهر - كان تولى القضاء في حكومة أبي العميطر السفلياني ، ولأن أبا مسهر انتقد تصرفات المأمون في المجامر الضخمة التي كانت تدلى بسلاسل وجبال من جبل قاسيون فتضي الغوطنة^(١) .

وشهدت دمشق مجلساً آخر للمأمون عقده لاختيار قاض لحمص من بين أربعة من علمائها ، وقد وقع اختياره على خالد بن خلي أبي القاسم الكلعي الحمصي لأن الثلاثة الآخرين أجمعوا على إبراز ثلاث صفات في خالد هي قراءته للقرآن ، وأخذ العلم ، وكتابته الفقهاء^(٢) .

ومثلما تحرى المأمون الموضوعية في اختيار قاضي حمص تحرى أحمد بن محمد بن المديسر^(٣) الذي ولي خراج دمشق والأردن في زمن المتوكل ، الدقة في مسألة من مسائل التاريخ ، فعقد لها مجلساً في دمشق حضره أكابر علمائها منهم هشام بن عمار ، وعبد الله بن ذكوان ، وأبو زرعة الدمشقي^(٤) وناقش الحضور مسألة فتوح الشام أغنوة تمت أم صلحاً . واستمع الإجابة عن هذا السؤال قضايها وإجرائات لها مساس وظيد بوقف أرضها على المسلمين أو تقسيمها عليهم^(٥) .

وهكذا يتبين أن مواد ثقافية متباينة كانت مدار المجالس الشامية ، أما حلقات التعلم والتعليم حول سوازي المساجد ، فكانت تتركز في العلوم الدينية ، دائرة في فلك القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، فشاعت القراءة وعلومها ، والحديث ، والفقه ، والتفسير ، والأخبار والسير ، وعلوم اللغة والنحو ، على تفاوت بينها في الاهتمام^(٦) .

-
- (١) انظر في ذلك الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، نسخة مصورة عن طبعة مطبعة دار السعادة ، ١٩٣٩ ، ١١٦ : ٧٢ ، سير أعلام النبلاء ، ١٠ : ٢٢٨ ، النعماني : ١٥ - ١٧ .
 - (٢) انظر قصة ذلك في : تهذيب ابن عساكر ٣٣ : ٥ .
 - (٣) انظر ترجمته في تهذيب ابن عساكر ٢ : ٦٢ . وقد توفي في سجن أحمد بن طولون بمصر سنة ٨٨٣ هـ / ٨٨٣ م .
 - (٤) هو أبو زرعة الدمشقي صاحب كتاب " تاريخ أبي زرعة " توفي سنة ٢٨١ هـ / ٨٩٤ م .
 - (٥) انظر تاريخ مدينة دمشق ١ : ٥٨٦ .

ففي الإقراء^(١) كان ابن عامر اليحصبي^(٢) قد أرسى قواعد قراءة أهل الشام منذ القرن الأول للهجرة، وحذقها ثلاثة من قراء الشاسيين هم عبد الله بن ذكوان المتوفى سنة ٢٤٢ هـ / ٨٥٦ م، وهشام بن عمار^(٣) المتوفى سنة ٢٤٥ هـ / ٨٦٩ م، وهارون بن موسى بن شريك الأخفش الدمشقي^(٤) المتوفى سنة ٢٩١ هـ / ٩٠٣ م، ورووها بالإسناد المتصل عنه. فإسناد قراءة ابن ذكوان عن ابن عامر كما في كتاب التيسير لابن الداني هو قوله: "حدثنا أيوب بن تميم التميمي^(٥) قال: حدثنا يحيى ابن الحارث الذمماري^(٦) قال: قرأت على ابن عامر....." (٧).

وإسناد رواية هشام إلى ابن عامر هو: "حدثنا عراك بن خالد المرِّي^(٨) قال: قرأت على يحيى بن الحارث الذمماري قال: قرأت على عبد الله بن عامر....." (٩).

- (١) ابن عامر أحد القراء السبعة المشهورين، وشيخ أهل الشام في الإقراء، توفي سنة ١١٨ هـ. انظر في ترجمته: ابن الداني: التيسير في القراءات السبع، تصحيح أوتوبرنزل، مطبعة الدولة، إستانبول، ١٩٣٠: ٥ - ٦، ابن زنجلة: حجة القراءات، تحقيق سعيد الأفغاني منشورات جامعة بنغازي ١٩٧٤ م، ١١٤ من مقدمة المحقق.
- (٢) كان ابن ذكوان إمام جامع دمشق، وشيخ الإقراء بالشام. انظر في ترجمته: ابن الجوزي غاية النهاية في طبقات القراء، شرح: برجستراسر، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٠ م، ٤٠٤: ١، ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، تحقيق شكري فيصل وزميله، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق: ٢٩٦، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب ٢: ١٠٠.
- (٣) كان هشام إمام أهل دمشق وخطيبهم ومقرئهم ومحدثهم ومفتيهم. انظر في ترجمته: طبقات القراء ٢: ٣٥٤، شذرات الذهب ٢: ١٠٩.
- (٤) كان الأخفش الدمشقي أبرز تلاميذ ابن ذكوان، وإليه رجعت الإمامة في قراءته. انظر في ترجمته: معجم الأدباء ١٩: ٢٦٣، السيوطي: بغية الوعاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٤، ٢: ٣٢٠. سير أعلام النبلاء، ١٣: ٥٦٦، طبقات القراء ٢: ٣٤٧، شذرات الذهب ٢: ٢٠٩.
- (٥) كان أيوب الدمشقي مقرئاً مشهوراً، توفي في خلافة المعتصم سنة ٢١٩ هـ. انظر: طبقات القراء ١: ١٧٢.
- (٦) كان يحيى بن الحارث الدمشقي من أعيان التابعين وشيخ القراء بدمشق بعد ابن عامر، توفي سنة ١٤٥ هـ، صورة تاريخ دمشق ١٨: ٤٨، طبقات القراء ٢: ٣٦٧.
- (٧) التيسير: ١٣ - ١٤.
- (٨) كان عراك المرِّي الدمشقي شيخ أهل دمشق في عصره. خلف في الإقراء بالشام يحيى بن الحارث الذمماري. توفي قبل سنة ٢٠٠ هـ. انظر ترجمته في: طبقات القراء ١: ٥١١.
- (٩) التيسير: ١٤.

وإسناد رواية الأُخفش إلى ابن ذكوان كما يرويه أحد تلامذة الأُخفش هو قوله : "قرأت بها بدمشق على أبي عبد الله هارون بن موسى بن شريك الأُخفش" ورواها الأُخفش عن عبد الله بن ذكوان (١) .

وعلى الرغم من أخذ ابن ذكوان وهشام القراءة بإسناد متصل عن ابن عامر ، فإنهما أضافا إلى ما جاء عنه إضافات غير يسيرة تشهد بعليهما الغزير ، واستقلالهما في الرأي استقلالاً لا يخرج عن الأسس الثلاثة المعروفة في صحة القراءة (٢) . وسائرا غيره من شيوخ القراء في بعضها ، وخالفاهم جميعاً في مواضع (٣) .

وقد ظل الإقراء بحرف ابن عامر ، وبروايتي ابن ذكوان وهشام عنه هو الشائع في حلقات الإقراء في ساجد الشام على مدار دهور عديدة حتى قرأ بها ابن الداني المتوفى سنة ٤٤٤ هـ (٤) .

وظهرت في بلاد الشام إلى جانب هذه القراءة المشهورة قراءات شاذة (٥) ، وبخاصة فسي حصص ، وقد عرف بها موسى بن عيسى أبو عمرو الحمصي (٦) ، وعمران بن عثمان الزبيدي الشامي (٧) .

(١) التيسير : ١٣ .

(٢) الأسس المقصودة هي شروط الصحة في القراءة التي صاغها علماء القراءات وهي : (أ) موافقة القراءة رسم المصحف العثماني (ب) موافقتها وجهاً من وجوه العربية مجعاً عليه ، أو مختلفاً فيه اختلافاً لا يضر مثلثه (ج) صحة السند بالقراءة إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، متواترة من أول السند إلى آخره . انظر في ذلك : حجة القراءات : ١١-١٢ من مقدمة المحقق .

(٣) انظر في إضافات ابن ذكوان وهشام ومخالفتهما لابن عامر ، الصفحات ٦٥ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٥٢ من كتاب التيسير .

(٤) انظر التيسير : ١٣ ، ١٤ .

(٥) القراءة الشاذة : هي ما صح نقله عن الآحاد ، وصح وجهه في العربية ، وخالف لفظه لفظ المصحف . ابن الجزري : النشر في القراءات العشر ، تصحيح علي محمد الضباع ، مطبعة مصطفى محمد بمصر : ١٤١ هـ ، وعرفها السيوطي بقوله : هي القراءة التي يختل فيها ركن من أركان القراءة الصحيحة ، سواء أكانت عن القراء السبعة المعروفين أم عن هو أكبر منهم ، انظر : الإتيان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، مطبعة المشهد الحسيني ، القاهرة : ١٩٦٧ م ، ١ : ٢١٠ .

(٦) انظر في ترجمته : طبقات القراء : ٢ : ٣٢٢ هـ ، وفيه أنه توفي سنة ١٨٣ هـ .

(٧) انظر في ترجمته : طبقات القراء : ١ : ٦٠٤ .

ويبدو أن أول ما كان يلقنه شادي العلم صبيًا هو قراءة القرآن ، فقد كان الأوزاعي لا يقبل في حلقة من الصبيان من لم يكن قد تعلم القرآن^(١) . كأنه يتقنى في ذلك سنن عبد الحميد الكاتب في وصيته للكتاب بقوله : " وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل ، والفرائض ، ثم العربية " .^(٢) .

وكان تعليم مواد اللغة والنحو مصاحبًا لتعليم القرآن باعتبارهما علمين يسهمان في تحفيظ القرآن وتأويل آياته^(٣) .

وبلغ من اهتمام المسلمين في هذا العصر بتحفيظ القرآن وإقراءه أن كان للجند مقرئون . ومن اشتهر بذلك يحيى بن الحارث الذمري المتوفى سنة ١٤٥ هـ / ٧٦٣ م وأيوب بن تميم التيمي المتوفى سنة ١٩٠ هـ / ٨٠٦ م^(٤) .

وصنف علماء القراءات الشاميون المصنفات التي يذكر منها كتاب " فضائل القرآن " .^(٥) لهشام ابن عماره . وكتابا " أقسام القرآن " و " ما يجب على قارئ القرآن عند حركة لسانه " لابن ذكوان^(٦) . وتبدو الصبغة التعليمية واضحة في عنوان كتاب ابن ذكوان الثاني ، مما يدل على ممارسته لحرفة الإقراء .

ويبدو هذا التكامل بين علوم القرآن قراءة وتفسيراً ، وعلوم العربية نحواً ولغة ومعانسي ، في شخص هارون بن موسى بن شريك الأخفش الذي صارت إليه الإمامة في علوم القراءة بعد ابن ذكوان . فقد أجمع من ترجموا له على إمامته في القراءات السبع ومعرفته بالتفسير وعلوم اللغة والنحو وتأليفه فيها جميعاً^(٧) .

- (١) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٠ : ٨٤ .
- (٢) إحسان عباس : عبد الحميد الكاتب وما تبقى من رسائله ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان ، ١٩٨٨ : ٢٨٣ .
- (٣) انظر أمثلة على ذلك في ترجمة عمرو بن ميمون بن مهران ، وعبد الله بن محمد الكلابي في ابن عساكر " مصورة تاريخ دمشق " ١٣ : ٦٥٦ ، ١٠ : ٧٣١ .
- (٤) انظر في ترجمة أيوب : تهذيب ابن عساكر ٣ : ٢٠٢ .
- (٥) ذكره ابن الجزري في طبقات القراء ٢ : ٣٥٤ .
- (٦) ذكرهما ابن الجزري في المصدر نفسه ١ : ٤٠٤ .
- (٧) انظر معجم الأدباء ١٩ : ٢٦٣ ، طبقات القراء ٢ : ٣٤٧ ، بغية الوعاة ٢ : ٣٢٠ .

ولا يعرف لأهل الشام في هذه الفترة نشاط بارز في التفسير ، مع أنه يذكر أن أبا علي حسين ابن دواد المصيصي المحتسب المتوفى سنة ٢٢٦هـ / ٨٤١م ألف كتاباً كبيراً في التفسير سماه "التفسير الكبير" (١) ، كما ذكر أن لآدم بن إياس المؤززي العسقلاني المتوفى سنة ٢٢٠هـ / ٨٣٥م مصنفاً في التفسير (٢) ، وأن لسعيد بن بشير الدمشقي المتوفى سنة ١٦٨هـ / ٧٨٥م جهوداً في التفسير، غير أنه كان يرمى بالقدر ، فدعا بعض علماء أهل الشام إلى ترك الرواية عنه ، في حين أجاز الوليد بن مسلم (٣) ، وسعيد بن عبد العزيز (٤) ، وهما من خيرة علماء أهل الشام ، الإفادة منه في التفسير (٥) .

وعلى ذلك يلاحظ أن المهتمين بالتفسير في بلاد الشام كانوا قلة بالقياس إلى عدد المهتمين بالآراء وعلوم الحديث ، والظاهر أن انشغال علماء الشام كان منصباً على قضايا تبعدهم عن الحرج في التأويل ، وبخاصة إذا علمنا أن التيار العام الشائع في بلاد الشام هو مسامرة ما أثير عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - من سنة . كما قد يكون للاعتماد على الحفظ باعتباره المصدر الأرقى من مصادر المعرفة الدينية أثر في دفع الناس إلى الإجماع عن حفظ التفسير مخافة الزلل ، والوقوع في الإثم ، فنقل تبعاً لذلك عدد المهتمين به (٦) .

وعني علماء الشام بالحديث النبوي عناية كبيرة رواية وتدويناً متناً وإسناداً .

-
- (١) انظر تاريخ بغداد ٨ : ٤٢ ، سير أعلام النبلاء ١٠ : ٦٢٧ ، شذرات الذهب ٢ : ٥٩ .
 - (٢) انظر : السيوطي : طبقات الحفاظ ، تحقيق علي محمد عمر ، مطبعة الاستقلال الكبرى ، القاهرة ، ١٩٧٣ . ١٦٨ .
 - (٣) كان الوليد بن مسلم أبو العباس عالم أعمل دمشق في زمانه ، توفي سنة ١٦٥هـ / ٨١٠م ، انظر في ترجمته : طبقات القسري ٢ : ٣٦٠ .
 - (٤) هو سعيد بن عبد العزيز بن أبي يحيى التنوخي الدمشقي الفقيه ، قال عنه الإمام أحمد بن حنبل : ليس بالشام رجل أصح حديثاً من سعيد ، هو والأوزاعي عندي سوا ، توفي سعيد سنة ١٦٧هـ / ٧٨٣م ، انظر : طبقات الحفاظ : ١٣ ، سير أعلام النبلاء ٨ : ٢٨ .
 - (٥) انظر في ترجمة سعيد بن بشير : ابن سعد : الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت ٧ : ٤٦٨ ، تهذيب ابن عساكر ٦ : ١٢٣ ، شذرات الذهب ١ : ٢٦٥ .
 - (٦) انظر كتاب الداودي : طبقات المفسرين ، تحقيق علي محمد عمر ، مكتبة وهبه ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، فستجد عدد القراء كبيراً جداً بالقياس إلى عدد المفسرين .

أما المتن فاشتروا في صحته شرطاً عاماً هو توافقه مع القرآن ، وفي ذلك يقول الإمام الأوزاعي : لا نقبل إلا ما صدقه كتاب الله . كما اشتروا ألا يقبل من الحديث إلا ما لا يشك فيه أصحاب العلم والدراسة ، وفي ذلك يقول الأوزاعي أيضاً : " كما نسنع الحديث فنعرضه على أصحابه كما نعرض الدرهم الزائف على الصيارفة " فما عرفوا أخذنا ، وما أنكروا تركنا . (١) .

أما سند الحديث فاشتروا في رجاله صفات الحفظ والصدق وصحة الكتب . وكان التلاميذ النابهون يتحرون هذه الصفات في من يأخذون عنه . فكان الوليد بن مسلم مثلاً يسأل الأوزاعي وسعيد ابن عبد العزيز عن سيجالهم من أهل العلم . (٢) .

وقد استوعبت رواية الحديث في بلاد الشام معظم طرق الرواية من سماع مجرد ، وكتابة ، ونسخ ، من كتاب الشيخ ، وسماع مقرون بنسخة مكتوبة في يد التلميذ ليصح نسخه على ما يسمعه من شيخه ، وعرض نسخة التلميذ على الشيخ مما سمعه عليه ليقوم بقراءتها وتصويبها . وكانوا يعدون السماع المقرون بالعرض أصح من السماع المجرد ، وفي ذلك يقول العباس بن الوليد بن مزيد البيروتي : " سمعت من أبي ، وعرضت عليه ، والعرض أصح " . (٣) .

وكانت رواية الشامي مقبولة فيما يرويه عن أهل الشام ، مردودة أحياناً فيما يرويه عن غيرهم إذا لم يكن قد دون مرويته عنهم . فقليل في إسماعيل بن عياش : " كان ثقة فيما يروي عن الشاميين " وأما روايته عن أهل الحجاز فإن كتابه ضاع ، فخلط في حفظه عنهم . . . وأنه ليس به بأس في أهل الشام ، والمعاوية يكرمونه حديثاً . (٤) .

(١) تاريخ أبي زرعة الدمشقي بتحقيق شكر الله بن نعمة الله القوجاني ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٨٠م ، ٢ : ٧٢٢ ، صورة تاريخ مدينة دمشق : ترجمة منيب الأوزاعي ١٧ : ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٢) انظر صورة تاريخ مدينة دمشق : ترجمة الوليد بن مسلم ١٧ : ٨٩٩ .

(٣) انظر تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق شكري فيصل وزميلي ، الجزء الخاص بالتراجم من عبادة بن أنس إلى عبد الله بن ثوب : ٢٧٧ ، سير أعلام النبلاء ١٢ : ٤٧١ . وقد توفي العباس بن مزيد البيروتي سنة ٢٦٧هـ / ٨٨٠م ، وانظر في بعض صور الرواية في هذه الفترة : تاريخ أبي زرعة الدمشقي ٢ : ٧٢٣ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٨ : ٢٧٧ ، ٢٨٢ - ٢٨٥ . وإسماعيل بن عياش من محدثي الشام المشهورين ، قيل فيه : ليس أحد أروى لحديث الشاميين منه ومن الوليد بن مسلم . توفي سنة ١٨١هـ / ٧٩٧م . انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ٨ : ٢٧٧ ، طبقات الحفاظ ٨ : ١٠٨ ، تهذيب ابن عساكر ٣ : ٣٩٠ .

ونشط الشاميون نشاطاً كبيراً في تدوين ما سمعوه من أحاديث عن شيوخهم فقليل إن أبا مسهر الغساني جمع مادة ضخمة من علم شيخه الأوزاعي ، فأخذ مادة ثلاثة عشر كتاباً عن إسماعيل بن عياش^(١) والباقي عن الوليد بن مزيد البيروتي^(٢) (المتوفى سنة ٢٠٧هـ / ٨٢٢م) . وذكر أن الوليد بن مسلم سبعين كتاباً كانت تدرس في مسجد باب الجابية بدمشق^(٣) .

- ويكن تصنيف مؤلفات علماء أهل الشام في الحديث النبوي وعلومه في الاتجاهات التالية:
- كتب المسانيد ، وفي هذه الكتب كانت الأحاديث النبوية المعروية عن صحابي تجمع في كتاب مستقل يسمى مسنداً كمسند أبي بكر ومسند عائشة ومسند عثمان لأحمد بن علي بن سعيد^(٤) .
- كتب ترتب فيها الأحاديث النبوية في أبواب ، وتسمى تلك الكتب بالجامع أو المجموع ، أو المصنف ومنها كتاب الديات لخالد بن يزيد الهمداني^(٥) .
- كتب مخصصة في نقد الرجال ، ومعرفة الشيوخ ، وعلل الحديث ، وذلك يتضح مثلاً في أبي زرعة الدمشقي الذي ألف في علل الرجال^(٦) .
- كتب الطبقات ، وعي كتب تعنى بتصنيف المحدثين في طبقات تصنيفاً زمنياً ، بحيث يشكّل الرجال الذين عاشوا في فترة زمنية طبقة واحدة . ويظهر أن أول مصنف اختط هذا الاتجاه في بلاد الشام هو مصنف محمود بن إبراهيم بن سميع القرشي^(٧) (المتوفى سنة ٢٥٩هـ / ٨٧٢م)

- (١) كان الوليد أحد الثقات ، روى عن الأوزاعي وغيره . قيل فيه : كان ثقة وكانت كتبه صحيحة ، لا يخطئ ولا يدلس . انظر في ترجمته : ابن ماكولا : الإكمال ، صححه عبد الرحمن بن يحيى المعلمي ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدرآباد الدكن ، الهند ، ١٩٦٢ ، صورة تاريخ مدينة دمشق ١٧ : ٨٩٣ ، سير أعلام النبلاء ٩٤ : ٤١٩ .
- (٢) انظر في ذلك : صورة تاريخ دمشق ١٧ : ٩٠٤-٩٠٥ ، سير الأعلام ٩ : ٢١٥ ، وانظر أيضاً في ترجمة محمد بن فراس أبي عبد الله العطار : صورة تاريخ دمشق ١٥ : ٨٥٣ .
- (٣) انظر في ذلك : ترجمة أحمد بن علي بن سعيد في قضاة دمشق : ٢١ ، شذرات الذهب ٢ : ٢٠٩ .
- (٤) انظر في ترجمة إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني (ت ٢٥٦هـ) : تهذيب ابن عساكر ٢ : ٣١٠ .
- (٥) انظر : ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، دار المعرفة ، بيروت ١ : ٢٠٥ ، تاريخ أبي زرعة ١ : ٥١ ، من مقدمة المحقق .
- (٦) انظر صورة تاريخ مدينة دمشق ١٦ : ٢٨٥ .

ثم على نهجه سار تلميذه أبو زرعة في كتاب له في هذا الاتجاه (١).

كتب في التاريخ المحلي لأعلام المحدثين ، ومن أمثلتها البارزة كتاب "تاريخ أبي زرعة"
 الدمشقي ، وكتاب "تاريخ الحميين" لأحمد بن محمد بن عيسى البغدادي (٢).

وعلى الرغم من شيوع ظاهرة التأليف في الحديث النبوي وتدوينه فإن بعض المحدثين ظلل
 حذراً في قبول ما يرد في هذه المدونات من أحاديث ما لم تقرن بالسماع على الشيخ ، وفي ذلك يقول
 خلف بن نعيم بن مالك (المتوفى سنة ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م) ، وقد طلب منه نسخ كتاب لحيوة بن شريح (٣)
 "لا أقبله إلا سماعاً" (٤).

وتعرضت بعض هذه المصنفات للنقد والتجريح ، لا لضعفها ، بل لما أخذ أخذت على مصنفها
 في التريث والكذب . ومن أمثلة ذلك النقد الذي وجهه ابن معين لخالد بن يزيد بن عبد الرحمن
 البغدادي (المتوفى سنة ١٨٥ هـ / ٨٠١ م) قال : "في الشام كتاب ، وفي العراق كتاب ينبغي أن يدفنا
 . . . وأما الذي بالشام فكتاب الديات لخالد بن يزيد ، لم يرض أن يكذب على أبيه ، حتى كذب على
 أصحاب رسول الله" (٥).

وعلى الرغم من تقديم العلماء المسلمين عموماً للعلم المأخوذ بالسمع (٦) فإن ذلك لم يمنع
 علماء الحديث الشافيين من الأخذ بمن لم يكن يحسن الحفظ ، إذا ثبت لديهم أنه متقن الكتب ، ومن

(١) انظر مقدمة كتاب تاريخ أبي زرعة ١ : ٥٤ .

(٢) انظر ترجمته في مصورة تاريخ دمشق ٢ : ٢٠٨ ، ولزيد من التفصيل في هذه الاتجاهات

انظر مقدمة التحقيق في تاريخ أبي زرعة ١ : ٤٨ - ٧٧ .

(٣) حياة بن شريح عو أبو زرعة المصري ، كان فقيهاً عابداً ، توفي سنة ١٥٨ هـ / ٧٧٤ م انظر

في ترجمته : ابن سعد ، طبقات ابن سعد ٧ : ٥١٥ ، شذرات الذهب ١ : ٢٤٣ ، طبقات

الحفـاظ : ٨٠ - ٨١ .

(٤) تهذيب ابن عساکر ٥ : ١٧١ .

(٥) تهذيب ابن عساکر ٥ : ١١٩ .

(٦) انظر ما قاله ابن سلام الجمحي في ذلك : طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود محمد

شاکر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٩٧٤ م ، السفر الاول فقرة (٤) : وليس لأحد . . . أن يقبل

من صحيفة ولا يروى عن صُفـفـي .

هو «العلماء الوليد بن مزيد البيروتي» فقد قال عنه أبو مسهر النساني : «ثقة لم يحفظ» وكانت كتبه صحيحة»^(١)، وقال الأوزاعي عنه أيضاً : «ما عرض علي كتاب أصح من كتب الوليد بن مزيد»^(٢).

ومن القضايا اللافتة للنظر في المدرسة الشامية أيضاً تجويز رأسها الأوزاعي إصلاح اللحن في الحديث، وحجته في ذلك «وعمي حجة منطقية» أن القوم كانوا عرباً^(٣).

وعلى الجملة فإن عناية الشاميين بالحديث النبوي كانت كبيرة «وكان لكل مدينة من مدنيهم محدثوها المشهورون» فكان لأهل حمص أبو المنيرة عبد القدوس بن الحجاج الخولاني المتوفى سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م «وله مسند أهل حمص»^(٤)، وكان لفلسطين صخرة بن ربيعة أبو عبد الله الرملسي المتوفى سنة ٢٠٢ هـ / ٨١٧ م^(٥)، وكان لأهل الثغر أبو إسحاق الفزاري المتوفى سنة ١٨٦ هـ / ٨٠٢ م^(٦)، وبرز في دمشق أكابر محدثي أهل الشام : الأوزاعي «وأبو مسهر النساني» والوليد ابن مسلم الذي اختص بحفظ الحديث الطويل «وأحاديث الملاحم» وكان محدث أهل عسقلان آدم بن أبي إياس المتوفى سنة ٢٢٠ هـ / ٨٣٥ م «وكان الوليد بن محمد الموقري من أشهر محدثي أهل البلقاء» وإن كان مرمياً بالتدليس والضعف^(٧).

وفي الفقه كتبت السيادة لمذهب الإمام الأوزاعي في الشام تقريباً من مائتين وعشرين سنة^(٨) «إذ ظل مذهبه يدرس في دمشق حتى وفاة أحمد بن سليمان بن حذلم في سنة ٣٤٧ هـ»^(٩). كما عمل به أهل الأندلس مدة^(١٠) وذلك دليل واضح على المكانة الكبيرة التي بلغها الأوزاعي في الفقه.

- (١) صورة تاريخ دمشق ١٧: ٨٩٦.
- (٢) المصدر نفسه ١٧: ٨٩٦، سير الأعلام ٩: ٤١٩.
- (٣) انظر: تاريخ أبي زرع الدمشقي ٢: ٧٢٢، صورة تاريخ دمشق ١٠: ٨٥ - ٨٦.
- (٤) انظر: سير الأعلام ١٠: ٤٢٣.
- (٥) انظر: المصدر نفسه ٩: ٣٢٥.
- (٦) انظر نفسه : ٨: ٤٧٣.
- (٧) انظر صورة تاريخ دمشق ١٧: ٨٨٨ - ٨٩١.
- (٨) انظر محاسن المساعي في مناقب الإمام الأوزاعي : ٣٤، تاريخ بيروت لصالح بن يحيى، تحقيق لويس شيخو، نشر مجلة المشرق، المجلد الأول، سنة ١٨٩٨، ١٣٢.
- (٩) انظر ترجمته في سير الأعلام ١٥: ٥١٤، الذهبي : العبر، تحقيق فؤاد سيد، الكويت، ١٩٦١ م، ٢: ٢٧٥.
- (١٠) انظر: العشري : نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ١: ٣٤٠ - ٣٤١.

وعاد مذعب الإمام الأوزاعي في الفقه قائم على منهج الاتباع . ولعل ذلك يعود إلى أنه كان قد نشأ محدثاً ، فاستتبع ذلك تخرجه من إبداء رأيه الشخصي في مسائل الحياة والناس ما لستم يكن له سند شرعي من القرآن أو الحديث .

وكان تأثير الإمام الأوزاعي في أهل الشام كبيراً ، فعندما عرض الأوزاعي بثور بن يزيد القسدي سارع أحد التلاميذ إلى محو كتابه الذي كان سمعه من ثور . كما سارع أهل حمص إلى نفي ثور من بلدهم (١) .

وقد أدرك العباسيون ما للأوزاعي من قيمة وتأثير كبيرين في أهل الشام فعملوا على التقرب منه ، والتودد إليه . وكان أول تماس بينهم وبينه في أعقاب هزيمة بني أمية على يد علي بن عيسى العباسي . فقد استحضر عبد الله الأوزاعي إلى مجلسه ثم سأله عن دماء بني أمية وأموالهم ، فقال له الأوزاعي بجرأة نادرة : " قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والشيب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة . . . إن كانت - أموال بني أمية - في أيديهم حراماً فهي حرام عليك أيضاً ، وإن كانت لهم حلالاً فلا تحل لك إلا بطريق شرعي " (٢) .

ويبدو أن هذا اللقاء كان لقاء اختبار لقوة هذا الإمام ، فلما أبصر عبد الله بن علي ما أبصر من رباطة جأش الأوزاعي تودد إليه فعرض عليه القضاء ، ولكن الأوزاعي أبى قبوله .

وكان أبو جعفر المنصور كثيراً ما يخطب ود الأوزاعي ، فكتب إليه رسالة طلب منه فيها أن يكون له ناصحاً (٣) ، ولبي الأوزاعي هذه الرغبة فكان يرسل إلى المنصور الرسائل في شؤون المسلمين . واستعفى الأوزاعي المنصور من لبس السواد - شعار العباسيين - فأعفى احتراماً ، أو خشية ، أو عما معسلاً .

- (١) انظر: تهذيب ابن عساكر ٣: ٣٨٦ .
 (٢) محاسن المساعي : ٨١ - ٨٢ .
 (٣) انظر هذه الرسالة في صورة تاريخ مدينة دمشق ١٠: ٩٧ ، سير أعلام النبلاء ٧: ١٢٥ .

وقد حاول خلفاء بني العباس الثالون أن يستودوا مذهب أبي حنيفة في الشام كما ساد في العراق ، فعين الرشيد محمد بن الحسن الشيباني قاضياً على الرقة ، وعين المأمون يحيى بن صالح الوحاظي ^(١) قاضياً على حمص ، وعين المعتمد عبد الحميد أبا حازم السكوني البصري ^(٢) قاضياً على دمشق والأردن وفلسطين .

ويستفاد من الرواية القائلة إن الأوزاعي أفتى في سبعين ألف مسألة ^(٣) شيان : أن الطريقة المتبعة في الإفتاء كانت تتم بأن يلقي التلاميذ أسئلتهم واستفساراتهم فيجيب عنها الشيخ ، ويتناقلها الناس عنه بعد ذلك ، وأن عدد المسائل التي أفتى فيها الأوزاعي كبير جداً .

ويبدو أن الأوزاعي كان يشجع تلاميذه على التصدر للإفتاء ، مثلما أباح لمحمد بن شعيب ابن شابور أن يفعل في مجلسه ^(٤) .

وشجع الأوزاعي مذهبه الفقهي بالإكثار من رواية قصص المغازي ، وبالجرأة في مخاطبة العباسيين في شؤون المسلمين بعمامة ، وفي بعض مشكلات الشاميين من مسلمين ونصارى بخاصة . وقصته مع نصارى لبنان الذين فرقهم صالح بن علي العباسي في مدائن الشام ذائعة مشهورة ^(٥) ، ومن أجل ذلك أحبه الشاميون جميعاً ، فلما مات خرج في جنازته المسلمون واليهود والنصارى ^(٦) .

ويتضح لدارس سيرة الإمام الأوزاعي أنه أتباع مذهبه الفقهي عن طريقين : -

- (١) يحيى بن صالح الوحاظي ، قيل هو من أهل دمشق ، وقيل بل حمص ، حدث عن مالك بن أنس وسعيد بن عبد العزيز وغيرهما . استفد المأمون إلى دمشق ليوليه قضا حمص . توفي سنة ٢٢٠هـ / ٨٣٥م . انظر صورة تاريخ دمشق ١٨ : ١٣٦ .
- (٢) المتوفى سنة ٢٩٢هـ / ٩٠٥م ، قيل في ترجمته : كان عراقي المذهب في الفقه ، انظر ترجمته : صورة تاريخ دمشق ٩ : ٨٠٢ .
- (٣) انظر محاسن المساعي : ٦٦ .
- (٤) انظر في ترجمة محمد بن شعيب : صورة تاريخ دمشق ١٥ : ٤٦٣ ، وكان محمد بن شعيب هذا الرابع من العشرة الذين كانوا أعلم الناس بالأوزاعي وبحديثه وفتياه . وهو من ثقات الشاميين من بيروت ، وبها توفي سنة ١٩٧هـ / ٨١٢م .
- (٥) البلاذري : فتوح البلدان ٢٢٢ ، سير الأعلام ٧ : ١٢٧ ، خطط الشام ١ : ١٥١ .
- (٦) انظر : سير الأعلام ٧ : ١٢٧ .

الأول : مجالس العلم التي يلتقي فيها الطلاب فيسألونه ويجيبهم .
 الثاني : كتابة الرسائل إلى ذوي السلطان وإلى أشخاص معينين ، كتابته رسالة إلى قـدري يعظه فيها (١) .

ويظهر أن فقه الأوزاعي كان يركز على ائتلاف الصف الإسلامي ، ولذلك كانت معاداته لأهلـهـمـm

إن محاربة الأوزاعي وتلامذته للقائلين بالقدر تدل دلالة قطعية على كثرة اتباع مذهب القدرية ، وذلك يعني أيضاً أن قتل غيلان الدمشقي (٥) ، في زمن هشام بن عبد الملك المتوفى سنة ١٢٥هـ / ٧٤٣م لم يجتث آثار القدرين في الشام . فقد عرفني فترة الدراسة من المشهورين بالقول بالقدر غير ثور بن يزيد ومحمد بن عائذ الدمشقي جماعة أخرى منهم سعيد بن بشير الدمشقي (٦) المتوفى سنة ١٦٨هـ / ٧٨٥م ويحيى بن حمزة الحضرمي (٧) المتوفى سنة ١٨٣هـ / ٨٠٠م .

- (١) انظر: تهذيب ابن عساكر ٦: ٤١٣ .
- (٢) انظر: تهذيب ابن عساكر ٦: ٣٤٤ ، ابن حجر العسقلاني : ميزان الاعتدال ، تحقيق علي محمد البجاري ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦٣ : ٢ ، ٣١٠ ، سير النبلاء ٧: ٢١٥ .
- (٣) كان شيخاً عالماً من أهل دمشق ، توفي سنة ١٦٥هـ / ٧٨١م ، انظر ترجمته في : البخاري ، التاريخ الكبير ، دار الكتب العلمية ، بيروت ٥: ٢٦٥ ، مشاهير علماء الأمصار : ١٨١ ، تاريخ بغداد ١٠: ٢٢٢ ، سير الأعلام ٧: ٣١٣ - ٣١٤ .
- (٤) انظر هذه الرسالة في : البسوس ، المعرفة والتاريخ ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، ط ٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨١م ، ٢: ٣٩١ ، سير الأعلام ٧: ٣١٤ .
- (٥) هو غيلان بن مسلم الدمشقي تنسب إليه فرقة النبلانية القدرية ، كان عمر بن عبد العزيز استتابه عن القول بالقدر فتاب ثم رجع إلى مذهبه في خلافة هشام بن عبد الملك فاحضر الإمام الأوزاعي لسنأظرفه فأفتى الأوزاعي بقتله فقتل بدمشق بعد سنة ١٠٥هـ . انظر: الشهرستاني : الملل والنحل ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٨٤ : ١ : ٤٧ ، مصورة تاريخ دمشق ١٤: ١٨١ .
- (٦) انظر ترجمته في مصورة تاريخ دمشق ٧: ٥٧ .
- (٧) انظر مصورة تاريخ دمشق ١٨: ٥٧ ، قضاة دمشق ١٣ - ١٤ ، سير الأعلام ٨: ٣١٤ ، ابن حجر : التهذيب ١١: ٢٠٠ ، شذرات الذهب ١: ٣٠٥ .

والذي يغلب على الظن أن القول بالقدر لدى هؤلاء العلماء لم يكن عقيدة راسخة، ومنهجاً متبعاً، وإنما كان ميلاً إليه. ولذلك روى أصحاب الحديث عن هؤلاء الشيوخ أحاديث نبوية كثيرة^(١) كما أجازوا الأخذ عن سعيد في التفسير. وقالوا في محمد بن عائذ: مؤرخ صادق، وقد ظل كتابه "المغازي" متداولاً إلى عصر شمس الدين الذهبي الذي قال: "سمعت معظمه"^(٢).

ويبدو أن تبني المأمون والمعتصم والواثق لبدا القائلين بالقدر، وتشدد الواثق منهم به، لم يشرف في بلاد الشام في هذه الفترة عن قديرين راسخين، أو معتزلة مشهورين، بل ظل مذهب أهل الشام مذهباً يقوم على الأصول السنية الكبرى، وهي: الأخذ بما أمر الله، والنهي عما نهى، والرضا بقضاء الله، والتسليم لأمر الله، والصبر على حكمه، والإيمان بالقدر خيره وشره، وترك المعصية والجدال والخصومات في الدين، والصلاة يوم الجمعة مع كل بر وفاجر، والصلاة على من مات من أهل القبلة، والإيمان قول وعمل يزيد وينقص، والقرآن كلام الله، والجهاد مع كل خليفة، وإن عمل أي عمل، والصبر تحت لوا السلطان على ما كان منه من عدل أو جور، وعدم الخروج على الأمراء بالسيف وإن جاروا، وعدم إنزال أحد من أهل القبلة جنة أو ناراً، وعدم تكفير أحد من أهل التوحيد ولو عمل بالكبائر، والكف عن مساوي أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم.....^(٣).

وسبب من هذا المنهج العام في فكر أهل الشام، فإن الحركات الفكرية الخارجة عن هذا الإطار التي كانت تظهر في بعض المدن الشامية كانت سريعاً ما تختفي، وذلك لأن الشاميين كانوا يعارضونها. فعلمنا لم يعرف من الشاميين قدير كبير، قبرت الفرقة الكرامية في بيت المقدس بعد أن تبين لأهلها ولمتولي السلطان فيها أن محمد بن كرام يقول: إن الإيمان قول بلا عمل، مع أنه قيل إن أصحابه ببيت المقدس نحو من عشرين ألفاً^(٤). كما قبرت الحركة الراوندية التي زعم أتباعها أنهم بمنزلة الملائكة، والتي ظهرت في حلب في حدود سنة ١١٤١هـ/٢٥٨م^(٥).

- (١) انظر: مصورة تاريخ دمشق ١٥: ٤٨٦، في ترجمة محمد بن عائذ الدمشقي، ١٨: ١٣٨، في ترجمة يحيى بن صالح الوحاظي.
- (٢) سير الأعلام ١١: ١٠٤.
- (٣) انظر: مصورة تاريخ دمشق ٣: ١٢٣-١٢٤ (ترجمة أمية بن عثمان الدمشقي).
- (٤) انظر في الكرامية صاحبها محمد بن كرام المتوفى سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م، البداية والنهاية ١١: ٢٠.
- (٥) انظر: الأزدي: تاريخ الموصلي: ١٧٣.

غير أن بلاد الشام شهدت انتشاراً ملحوظاً للزهاد يقيمون في بيروت أو طرسوس أو بيت المقدس أو سواها . ولم يكن هؤلاء الزهاد العباد جميعاً شاميين ، بل كان بعضهم يقد إلى بلاد الشام للإقامة في شغورها رابطاً مجاهدًا ، ويتبدى^١ من أنساب الكثرة الكثيرة منهم إلى شغور الشام لأن زعدهم أو زهد أكثرهم كان استجابة لدواعي الجهاد ، أو لأنه أثر من آثار المآسي والنكبات التي كانت تشهدها تلك الشغور بحكم طبيعتها الحربية ، فهانت الدنيا عليهم وهم يرون الموت يتخطف الأرواح ، ويعصف بمتع الحياة . ويضاف إلى ذلك مآسي الشام العامة بفعل الفتن الداخلية والحروب بين العباسيين والأمويين . وهكذا كان سليمان الخواص بيرونيًا^(١) ، وعلي بن بكار البصري مصيبيًا^(٢) ، وأحمد بن عاصم أنطاكيًا^(٣) ، ومحمد بن عمرو غزنيًا^(٤) ، وأحمد بن أبي الحواري دمشقيًا^(٥) ، وهم جميعاً من أبرز الزهاد الشاميين .

واهتم فريق من علماء الشام بالرواية التاريخية ، فرووا قصص المغازي والفتوح ، والأحاديث النبوية الطويلة وبخاصة أحاديث الملاحم ، ومن اشتهر برواية هذا الضرب من الأحاديث الوليد بن مسلم . وقد روي عن اهتمامه بها روايات تدل جميعها على سعة حفظه ، وكثرة تصنيفه حتى قيل "صنفات الوليد سبعون كتاباً" .^(٦) وألف محمد بن عائذ الدمشقي كتب "المغازي" و "الفتوح" و "الصوائف"

وفي فتوح البلدان للبلاذري مواطن عديدة تدل على أخذه كثيراً من رواياته في أخبار الفتوح والمغازي عن شيوخ من المؤرخين الشاميين من مثل قوله : "حدثني هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم عن الأوزاعي" .^(٧) و "حدثني أبو حفص الدمشقي عن سعيد بن عبد العزيز" .^(٨) و "حدثني جماعة من أهل العلم بأمر الشام" .^(٩)

- (١) انظر ترجمته في سير الأعلام ١٥٩ : ٨ .
- (٢) انظر حلية الأولياء ٣١٨ : ٩ ، سير الأعلام ٥٨٤ : ٩ .
- (٣) السلمي : طبقات الصوفية ، ط ٢ ، تحقيق نور الدين شريعة ، دار الكتاب النفيس ، حلب ، ١٩٨٦ .
- ١٢٧ ، سير الأعلام ٤٨٧ : ١ .
- (٤) انظر : سير الأعلام ٤٦٤ : ١١ .
- (٥) انظر : حلية الأولياء ٥ : ١ ، طبقات الصوفية : ٩٨ ، سير الأعلام ١٢ : ١٥ .
- (٦) انظر : صورة تاريخ دمشق ٨٩٩ : ١٧ ، سير الأعلام ٢١٥ : ١ .
- (٧) فتوح البلدان : ١٨٩ .
- (٨) نفسه : ١٧٩ - ١٨١ .
- (٩) نفسه : ١٩٥ .

وعلى الرغم من الشهرة الفائقة التي حظي بها الأوزاعي في مجالي الحديث والفقه ، فقد عرف عنه ولعه برواية المغازي حتى قيل فيه وفي الإمام مالك في مقارنة دالة : غمر الأوزاعي الإمام مالكا في المغازي ، وغمره مالك في الفقه (١) .

إن اهتمام علماء الشام بالرواية التاريخية يظل جزءاً من الاهتمام العام بالحديث النبوي وتدوينه ، وجلاً ما غرض من أمره . ولذلك كان المؤرخون هم المحدثين والفقهاء (٢) . ولم يبدأ التصنيف التاريخي في بلاد الشام بمعزل عن علوم الحديث إلا في فترة تالية في القرن الثالث الهجري ، عندما بدأ المؤرخون يُعَنَوْنَ بذكر فضائل بعض مدن الشام . ولعل هذا التحول كان وليد الظروف السياسية والاجتماعية القاسية التي كانت تعربها مدن الشام . وخير ما يمثل هذا الاتجاه المعنوي بذكر فضائل مدن الشام كتاب "فضائل بيت المقدس" للوليد بن حماد الرملي (٣) ، وكتاب ابن طيفور في فضل دمشق ، الذي صنّفه صاحبه ليرغب المتوكل في السكنى فيها ، فتحدث فيه عن صحة هوائها وعذوبة مائها (٤) ، وإذن فإن هذا الاتجاه من التأليف التاريخي في بلاد الشام كان كأنه "رد فعل" على المآسي والآلام التي كانت تحل بالشام منذ أوائل العصر العباسي فظهرت كتب الفضائل لتدافع عن الاستيطان في هذه المناطق (٥) .

غير أن هذا الاتجاه لم يكتب له الشيوع والانتشار حتى كان عصر الحروب الصليبية ، فعناد ليظهر بقوّة من جديد . في حين ظل الاتجاه السائد على مدار القرنين الثاني والثالث الهجريين هو التدوين التاريخي المنبثق من علوم الحديث . وكان كتاب أبي زرعة الدمشقي عموماً مسك الختام فني المصنفات التاريخية الشامية في هذه الفترة وعموم مصنف جامع لسيرة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، ولسير الخلفاء الراشدين ، وفيه ذكر لأهل الفتوى من قضاة دمشق وفلسطين ، وفيه تراجم لطبقات من

(١) انظر: ابن كثير ١١: ١١٦ ، محاسن المساعي : ٦٦ .

(٢) انظر: الأقوال الواردة في اختصاص أهل الشام بالمغازي : تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، دمشق ١٩٥١ ، المجلد الأول : ٣١٦ - ٣١٧ .

(٣) انظر: سير الأعلام ١٤ : ٧٨ .

(٤) انظر : مصورة تاريخ دمشق ١٥ : ٤٨٥ ، ترجمة محمد بن أبي طيفور .

(٥) شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٩ ، ٢ : ٢٢٣ .

الصحابة والتابعين والعلماء من توفوا بدمشق^(١) . غير أن هذه الخصوصية في التأليف التاريخي لم تمنع من الاعتماد بالتأليف في تاريخ جند من الأجناد، فقد صنف حرّانيان هما أبو عمرو الحسن بن محمد بن أبي معشر الحرّاني المتوفى سنة ٣١٨هـ، وأبو الحسن علي بن علان بن عبد الرحمن الحرّاني، كتابين في تاريخ الجزيرة^(٢) .

وعني بعض علماء الشام بعلوم اللغة والنحو، غير أن عناية الشاميين بهذين العلمين كانت محدودة، ولا تقاس بحال بعناية أهل العراق بهما، وليس لذلك من تعليل غير كثرة الفتن والقلاقل التي مرت بالشام، فتوجهت أنظار العلماء إلى أماكن آمنة، وإلى أماكن يجدون في ظلّها التشجيع والرعاية والعناية من السلطة، وذلك كله في العراق، فشدوا إليها الرحال .

ومع ذلك، فإن بلاد الشام لم تهمل الاهتمام بهذين العلمين، فإن المبرد رأس المدرسة البصرية في زمانه يذكر أنه أتى الشام وهو حدث فكتب عن الشاميين، وتلقى العلم منهم^(٣) .

واشتهر من الشاميين بعلوم اللغة والنحو جماعة أبرزهم عارون بن موسى بن شريك الأخفش الدمشقي الذي كان عارفاً بالتفسير والنحو والمعاني والغريب، وصنف في ذلك المصنفات^(٤)، وعلال بن العلاء الرقي (المتوفى سنة ٢٨٠هـ / ٨٩٣م بالرقعة) الذي وُصف بأنه من أهل العلم واللغة^(٥) وأحمد بن مروان المؤدّب المكي بأبي مسهر، وهو من أهل الرملة، وكان عالماً باللغة شاعراً فسي أيام المتوكّل^(٦) .

ولأن أخبار هؤلاء اللغويين والنحاة الشاميين جاءت في كتب التراجم، فإن الدارس لا يقع على شيء من تراجم اللغوي أو النحوي، ويبدو أن لغويي الشام ونحاتها لم يتركوا لهم بصمات

-
- (١) انظر في التعريف بهذا الكتاب: مقدمة محقق تاريخ أبي زرعة ١: ٥١ - ٥٢ .
 - (٢) انظر معجم البلدان (حوران) .
 - (٣) انظر: مصورة تاريخ دمشق ١٦: ١١٥، معجم الأدباء ١٩: ١١١ .
 - (٤) انظر: ياقوت: معجم الأدباء ١٩: ٢٦٣، السيوطي: بغية الوعاة ٢: ٣٢٠ .
 - (٥) انظر: ياقوت: معجم الأدباء ١٩: ٢٩٤، بغية الوعاة ٢: ٣٢٩ .
 - (٦) معجم الأدباء ٥: ٦٢، بغية الوعاة ١: ٣٩١ .

واضحة في التراث العربي النحوي واللغوي في هذه الفترة ، وإنما كانت مشاركتهم هامشية بالقياس إلى ساحة العراق ولغوييه البصريين والكوفيين والبغداديين .

وشهدت بعض نواحي الشام نمطا آخر من أنماط الثقافة ، وذلك بالإقبال على ترجمة بعض المؤلفات اليونانية والسريانية ، وبالتأليف في علوم الأوائل من فلسفة ومنطق . وألفت إلى جانب ذلك مؤلفات في علوم الطبيعة من فلك وحساب وهندسة . ومبر بعض الشاميين في الطب والنجوم .

وتجدر الملاحظة هنا أن الشاميين الذين برعوا في هذه الميادين جميعاً كانوا دمشقيين أو حرانين . فمن الدمشقيين يذكر العلماء : الحكم بن أبي الحكم الدمشقي الطبيب الذي عاش في صدر الدولة العباسية ^(١) ، والذي عظمه الدمشقيون لفضله عليهم في الطب ، وعيسى بن الحكم الدمشقي الطبيب الذي وصف بأنه حسن المباشرة والمعالجة ^(٢) .

ومن الحرانيين نبغ عدد من العلماء في المنطق والحساب والهندسة والتنجيم . ولأن هؤلاء الحرانيين كانوا صابئة فقد ترجموا مؤلفات كثيرة عن السريانية إلى العربية لعدد من خلفاء بني عباس . ومن هؤلاء يذكر قسطنطين بن لوقا البعلبيكي « فقد كان فيلسوفاً شامياً » وكان دخلاً ببلاد الروم ، وحصل من تصانيفهم الكثير ، وعاد بها إلى الشام . ثم لما اشتهر أمره استدعاه العباسيون إلى العراق ليترجم لهم . وقد صنف وترجم الكثير ^(٣) ، ومنهم أيضاً ثابت بن قرة الحراني الصابي الذي صنف وترجم الكثير ، وكان مقرباً من المعتضد ^(٤) . وكان نبغ أول ما نبغ بحران ، ثم أقدمه الخليفة المعتضد إلى بغداد ، وأدخله في جملة المنجمين .

(١) ذكر القفطي أنه توفي سنة ٢١٠هـ / ٨٢٥ م ، انظر ترجمته في : القفطي : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، تصحيح محمد أمين الخانجي ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٢٦هـ : ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) ذكر القفطي أنه كان حياً في سنة ٢٢٥هـ / ٨٤٠ م ، المصدر نفسه : ١٦٥ .

(٣) كان قسطنطين بن لوقا معاصراً للفيلسوف المشهور أبي يوسف الكندي المتوفى سنة ٢٦٠هـ / ٨٧٣ م ، انظر ترجمة قسطنطين في : ابن النديم ، الفهرست : ٤١٠ ، والقفطي : إخبار : ١٢٣ - ١٢٤ .

(٤) انظر ترجمته في : ابن النديم : ٣٨٠ ، القفطي : ٨١ - ٨٢ .

ويلاحظ على هؤلاء العلماء كثرة التمنيف، وتنوع فنونه، واشتغالهم إلى جانب ذلك بالترجمة . كما يلاحظ حرص الخلفاء العباسيين على استقدامهم إلى مقر خلافتهم في بغداد . وكانت ظاهرة هجرة العلماء الشاميين الطوعية أو تهجيرهم القسري رغبة أو رهبة ، مظهرًا سائدًا لرد الحضارة الإسلامية في العراق ، وقتل من عقها ومن امتدادها في الشام .

الباب الثاني

مبادئ الشعر في الشام والجزيرة (من ١٣٢هـ/٧٤٩م — ٢١٢هـ/٩٠٤م)

تقديم

كان الشعر في الشام حين كانت مركز الدائرة في العالم الإسلامي واداً في الأغلب، وقد أدخل الشعراء الوافدون كجبر بن عطية اليماني الأصل^(١)، والغزدي البصري الدار^(٢)، الشعراء الشاميين إلا ثلاثة منهم هم الأخطل الجزري^(٣)، وعدي بن الرقاع العاملي الدمشقي^(٤)، والخليفة الأموي الشاعر الوليد بن يزيد الدمشقي^(٥).

فلما تحولت الشام إلى ولاية تابعة لبغداد أخذت الحركة الشعرية فيها تتحول إلى الخارج طلباً للرزق والشهرة في قصور الخلفاء وأكابر الوزراء، بل عد عدم تحول الشاعر الشامي أو الجزري إلى العراق سبباً في خمول ذكره، كالذي قيل في ربيعة الرقي^(٦) : "وإنما أدخل ذكره، وأستقطبه عن طبقة بعده عن العراق، وتركه خدمة الخلفاء ومخالطة الشعراء". وقد يكون هذا هو السبب نفسه الذي أدى إلى ضياع شعر كثير من الشعراء الشاميين الذين لم تقترن أسماؤهم بأسماء خلفاء بني العباس، فكان ما فعلنا مثلاً من شعر عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي، ومحمد بن سلامة بن أبي زرة الدمشقي، ومحمد بن يزيد الحصني شتاتاً متناثراً على الرغم من جودته. ولذلك كانت الكثيرة الكاتبة من الشعراء الشاميين والجزريين وبخاصة المجلون منهم يتحولون إلى العراق، وتتوثق صلاتهم هناك بأعيان أهل زمانهم.

- (١) انظر في أخبار جبر: محمد بن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء ١: ٢٩٧، الأغاني ٨: ١.
- (٢) انظر في أخبار الغزدي: طبقات فحول الشعراء ١: ٢٩٨ وما بعدها، الأغاني ٩: ٣٢٤.
- (٣) انظر في أخبار الأخطل: طبقات فحول الشعراء ١: ٢٩٨ وما بعدها، الأغاني ٨: ٢٨٠.
- (٤) انظر في أخبار عدي: الأغاني ٩: ٣٠٧.
- (٥) انظر في أخبار الوليد: الأغاني ٧: ١.
- (٦) الأغاني ١٦: ٢٥٤.

أخمسهُ أحوالٍ مضتْ لِمَغْيِبِهِ وشهران بل يومان نِكلٌ من النِّكْلِ (٣)

أَهْلًا وَسَهْلًا بِالْإِمَامِ وَمَرْحَبًا
سَمِلَتْ حُزْنُهُ كُلَّ أَمْرِ قَرْدَرِ^(١)

متجرّدته ثبت المواطيء حزبه
فانتساش مصر من اللتيا والستي
متجرّد للحماد المتجرّد
بتجاور وتعطّيف وتغمّد (٦)

(١) انظر: أخبار أبي تمام: ٥٩ تاريخ بغداد ٨: ٢٥٢، وفیات الاعیان ٢: ١٧، النجوم الزاهرة ٢: ٢٦١، وقد حاول نجيب محمد البهيتي (أبو تمام الطائي حياته وحياة شعره، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب ١٩٨٢م، ٦٠ - ٦١) أن يرجع فرضية افتراضها بأن سنة ١٧٢ هـ هي تاريخ مولد أبي تمام، وهي فرضية لا أساس لها في المصادر الأدبية، بل إنه هو نفسه عاود ليجمع سنة ١٨٨ هـ تاريخاً لمولد أبي تمام. انظر ذلك في ص ٩٨ من كتابه.

(۶)

(٢) من القصيدة ٤٦٨ هـ ٤: ٢٢٠ من ديوانه .
(٣) النكل : القيد الشديد ، أو ضرب من اللجم ، أو هو حديدة اللجام .

(3)

(٤) القسود : الغليظ الشقاق .
(٥) انظر في تفصيل القضاء على حركة عبد الله بن السري الكندي : الولاية والقضاء : ٢٠٤-٢٠٧ .

(5)

(٦) الطبري ٨: ٦١٥-٦١٨، ابن الأثير، الكامل ٥: ٢١١.

(7)

خَابَ امْرُؤٌ نَحِمَ الزَّمَانَ بِسَعْيِهِ ۖ فَأَقَامَ عَنْكَ وَأَنْتَ سَعْدُ الْأَسْعَدِ
ذَاكَ الَّذِي قَرِحَتْ بَطُونُ جَفُونِيهِ ۖ مَرَحًا ۖ وَتَرَبُّهُ أَرْضِهِ مِنْ إِثْمِيهِ

أما الثانية فيبدو أن أبا تمام نظمها في أعقاب انتصار المأمون على الروم في الثغور، ففيها وصف دقيق للجيش الضخم العدد، المكمل العدة الذي كان المأمون قاده في الثغور، ثم قفل به عقب ذلك إلى دمشق، ولما كانت مصادر التاريخ المعتمدة قد ذكرت أن أول احتكاك حربي بين المأمون والروم كان في سنة ٢١٥هـ^(١)، فإن هذه القصيدة تكون قد نظمت في هذه السنة أو في السنة التي تليها.

ونصت روايتان على أن هاتين القصيدتين نظمهما أبو تمام في المأمون وعما في الشام، فقد جاء في ديوان أبي تمام ما يلي^(٢) : "سار أبو تمام إلى المأمون في بلاد الشام فمدحه بقصيدتين فما وجد من يوصلهما إليه، ثم سار إلى العراق في خلافة المعتصم".

وروى ابن خلكان ما يلي^(٣) : "ولما سار المأمون إلى بلاد الشام يريد غزو الروم مدحه أبو تمام بقصيدتين فلم يجد من يوصلهما إليه، وذلك قبل قدوم أبي تمام العراق، ثم سار إلى العراق في خلافة المعتصم، فمن ذلك قوله في المأمون قصيدة قال فيها : -

ثُمَّ أَتَبَرَّتْ أَيْسَاءُ هَجْرٍ أَرْدَقَتْ ۖ نَحْوِي أَسَىٰ فَكَانَتْهَا أَعْوَامُ
ثُمَّ انْقَضَتْ تِلْكَ السَّنُونَ وَأَهْلُهَا ۖ فَكَانَتْهَا وَكَانَهُمْ أَحْلَامُ

..... ومن قصيدته الأخرى التي مدح بها المأمون التي أولها :

كُشِفَ الْغَطَاءُ فَأَوْقَدِي أَوْ أَخْمِدِي

ويقول فيها : -

أَوَّلَىٰ أُمَّةٍ أَحْمَدٍ مَا أَحْمَدُ ۖ بَضِيعٌ مَا أَوْلَىٰ أُمَّةٍ أَحْمَدُ

(١) انظر ما قاله في ذلك مثلاً: الطبري ٨: ٦٢٣-٦٢٤، البداية والنهاية ١٠: ٢٦٦.

(٢) ديوان أبي تمام ٤: ٦٠٥-٦٠٦.

(٣) وفيات الأعيان ٢: ٢١١.

أما الهدى فقد اتحدحت بزئسده للعالمين فويل من لا يهتدي

وعلى هذا يمكن أن يعد كل شعر قاله أبو تمام قبل عام ٢١٩ هـ شامي المكان ، إلا القصائد التي نظمها في بعض المصريين كعياش بن لهيعة الحضرمي ^(١) ويوسف السراج الشاعر ^(٢) ، ويدخل في هذا الإطار الشامي شعر أبي تمام في بني عبد الكريم الطائيين الحمصيين ، وأهاجيه في عتبة بن أبي عاصم الحمصي ، كما تنتمي إلى هذه الفترة بعض قصائده في أبي المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي ، ومذائجه في محمد بن حسان الضبي الرقي ، وقصائده في محمد بن سعيد الثوري ، وقصائده في خالد ابن يزيد الشيباني . وبيان ذلك كله ما يلي : —

١ — ورد في ديوان أبي تمام عن قصائده في مدح بني عبد الكريم الطائيين بحمص ، وعن أهاجيه في عتبة بن أبي عاصم ما يلي ^(٣) : كان — أبو تمام — في أول أمره منقطعاً إلى بني عبد الكريم الطائيين بحمص ، وكانوا محسنين إليه ، وهدجهم عتبة بن أبي عصيم الحمصي فعارضه أبو تمام وهدجاء ، ثم انتقل إلى مصر فمدح بها عياش بن لهيعة الحضرمي . وجاء فيه أيضاً في موضع آخر ^(٤) : لما قال أبو تمام قصيدته "أرأمة كنت مألّف كل ريم" بعد مقدّمه إلى حمص من مصر ، اتصل خبرها بعتبة بن أبي عصيم ، وعوكلبي من قضاة ، وكان عالماً أديباً شاعراً ، فأحب أن يسمعها من أبي تمام ، فلما جاءه أبو تمام وأنشده إياها قال عتبة : "أحسن يا غلام على صغر سنك" . ووردت هذه الرواية بنصها في وفيات الأعيان كذلك ^(٥) .

٢ — أوضح دليل على أن قصائده في أبي المغيث الرافقي قد قيلت قبل رحيله إلى بغداد قوله في إحداها ^(٦) :

وغداً تبين كيف غب مدائحني إن ملئ بي حمي إلى بغداد

فالبيت يدل بوضوح على أنه لم يكن قد توجه بعد إلى بغداد ، وإنما كان طموحه يحثه على ذلك .

- (١) كان عياش قد ولي شرطة مصر سنة ٢٠١ هـ . انظر : النجوم الزاهرة ٢ : ١٦٨ واسمه فيه عباس وهو تصحيف ، وانظر : حياة أبي تمام : ٧٨ — ٨٥ .
- (٢) انظر : حياة أبي تمام : ٨٥ — ٨٧ .
- (٣) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ٤ : ٦٠٥ .
- (٤) المصدر نفسه : ٦٠٥ — ٦٠٦ .
- (٥) انظر : وفيات الأعيان ٢ : ٢١ .
- (٦) من القصيدة ٥٨ : ٢ : ١٣١ من ديوانه .

- ٧١ -

٣- الأدلة على أن مدائح في محمد بن حسان الضبي نظمت وهو في الرقة قوله (١) :-

لولا ابن حسان الرُّجُجى لم يكن
بالرقة البيضاء لي مثلــــــــــــــــوم
وقوله في أخــــــــــــــــرى (٢) :-

بالشام أهلي وبغداد الهــــــــــــــــوى وأنا بالرتين وبالنسطاط إخواني

٤- تعد مدائح أبي تمام لمحمد بن سعيد الثغري ولخالد بن يزيد الشيباني وهما يخوضان معارك المسلمين في الثغور دفاعاً عن الشام في الحيز الأصغر ، ودفاعاً عن الإسلام في الحيز الأكبر ، وهما أمران في تلك الفترة لا ينفصلان . ولهذا صح أن نعد شعر أبي تمام وهو في الشام شعراً شامياً ، وأن نعد جانباً كبيراً من شعره ، وهو خارجها ، سواء أكان في خراسان أم في العراق ، ذاك علاقة وثيقة بالشام وثغورها ، وبخاصة ما نظمه منه في الثغــــــــــــــــور .

وللبحتري موقف مشابه لموقف أبي تمام ، فقد ولد البحتري بمُنجب سنة ٢٠٥هـ أو ٢٠٦هـ / ٨٢٠م ٨٢١م ، ونشأ في نواحي حمص والجزيرة (٣) ، وقد نبّه في قرص الشعر قبل أن يتحول إلى العمراق إذ روى عنه التولي قوله (٤) : " كان أول أمري في الشعر ونباهتي فيه أنني صرت إلى أبي تمام وهو بحمص ، فعرضت عليه شعري ، وكان الشعراء يعرضون عليه أشعارهم ، فأقبل عليّ ، وترك سائر الناس ، فلما انتسروا قال : أنت أشعر من أنشدني ، فكيف حالك ؟ فشكوتُ إليه خلة ، فكتب إليّ أعل معصرة النعمان ، وشهد لي بالحدق في الشعر " وتورد رواية ثانية تعضد الرواية الأولى فسي أن نباهة البحتري بالشعر اكتملت وهو في الشام ، فقد جاء في هذه الرواية (٥) أن أول لقاء بيــــــــــــن الطائيين كان في مجلس محمد بن سعيد الثغري وهو يومئذ وال على الشام والجزيرة ، وفي ذلك اللقاء

(١) من القصيدة ١٤١ : ٣ ، ٢١٤ من ديوانه .

(٢) من القصيدة ١٦٣ : ٣ ، ٣٠٩ .

(٣) انظر : أخبار البحتري : ٥٦ ، ٦٤ ، الأغاني ٢١ : ٣٦ ، تاريخ بغداد ١٢ : ٤٤٦ ، معجم الأدباء ١١ : ٢٤٨ ، وفيات الأعيان ٦ : ٢١ .

(٤) الأغاني ٢١ : ٤٠ .

(٥) انظر : أخبار أبي تمام : ١٠٥ - ١٠٦ ، والقصيدة : ٥٧١ من ديوان البحتري ، والموازنة : ٨ - ٩ .

ألقى البحترى قصيدته التي مطلعها: —

أَفَأَقَّ صَبَّاً مِنْ هَوًى نَأْفِيَقَا — أُمْ خَانَ عَهْدًا أُمْ أَطَاعَ مَغْفِيَقَا

ويرد في رواية ثالثة ^(١) أن البحترى ألقى في ذلك اللقاء قصيدته التي مطلعها:

فِيمَ ابْتَدَأُكُمْ السَّلَامَ وَلَوْ عَسَا — أَبَكَيْتَ إِلَّا دُمْنَةً وَرُبُوعَا

وأياً ما كانت الحال، فإن الذي لا خلاف فيه هو أن شاعرية البحترى كانت قد اكتملت نضجاً قبل لقيا الشاعرين بشهادة أبي تمام نفسه، وأن ذلك تم قبل أن يرتحل البحترى إلى العراق، وإذا كان ذلك كذلك فإن معظم شعره الذي قاله قبل هذه الفترة يعد شامياً. كما يعد منه كل شعره الذي قاله في عمّال الشنور وقادة الجيوش الذين خاضوا المعارك في الدروب الرومية والشنور الشامية والجزيرية دفاعاً عن الحيز الأصغر — الشام — وينضاف إلى ذلك كل شعره الذي قاله في البيئة الشامية والجزيرية في أثناء زيارته لبعض نواحي الشام كزيارته لدمشق بصحبة المتوكل، وزيارته الكثيرة لضياحه وأهله بمنبج، وما رافق ذلك من احتجاجاته على عمال البريد والصدقات، مما سيتضح في موضع تال من الدراسة.

ومنصور النعمري المولود في رأس عين بنواحي الجزيرة نشأ في بلدته هذه، واتصل بالبرامكة في الرقة، وانقطع لهم، وفيها مدح الرشيد في غير قصيدة، كما نظم فيها بعض قصائده في آل علي ^(٢)، وقد أقر بشأميته مناسه في الحظوة لدى الرشيد مروان بن أبي حفصة عندما قال في مقابلة بيبي شعريهما: "هذا شامي، وأنا حجازي"، أفتراه يكون أشعر مني؟ ^(٣)، وكان أستاذه العتّابي قد قرّظه عند الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي فاستقدمه من الجزيرة إلى بغداد واستصحبه، ثم وصله بالرشيد.

(١) انظر: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحترى ١: ٩، والقصيدة ٥٠٢ من ديوان البحترى.

(٢) انظر: طبقات ابن المعتز: ٢٤٢ — ٢٤٧، الأغاني ١٣: ١٤٠، تاريخ بغداد ١٣: ٦٥.

(٣) الأغاني ١٣: ١٤١.

والعتابي كلثوم بن عمرو قَسَّرنِي^(١) ، وقد استقدمه إلى بغداد الرشيد ثم المأمون بعد
أن شاع ذكوره^(٢) .

والأشجع السُّلَمِيّ - على الاختلاف في أصله - جزريّ لنز الرقة مختلفاً إلى قصور البرامكة مادحاً
إياهم ، كما مدح الرشيد في قصائد عدة ، أثنى فيها على صنيعه في الدفاع عن الثغور الإسلامية . أما
مدائحه في البرامكة فقد خصصها لإظهار فضائلهم على الشاميين الذين كانت حرب أبي الهيثم قد
استعرت نارها فيهم^(٣) . وكان أشجع كثيراً ما يرتحل إلى العراق بصحبة الرشيد ، ولانز ابنيسه
الأمين والمأمون .

وربيعة الرقي كان مقيماً في الرقة ، وندر ارتحاله عنها ، ولعل ذلك بسبب عماء ، ومع ذلك
استقدمه المهديّ إلى بغداد لسمع شعره ، ويكافئه عليه^(٤) ، وقد عدّ مكوته في الرقة ، وعدم رحيله عنها
سبباً في خمول ذكره ، وإسقاطه عن طبقته ، كما قال ذلك أبو الفرج الأصبهاني :

لقد كان عمو^(٥) الشعراء الجزريون يعدون جميعاً شاميين ، فقد قال العتابي فيهم : لم
يزل شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب العراق . . . والكلام يطول في ذكر المتقدمين
منهم ، فأما المحدثون فخذ إليّ منهم العتابي ومنصور النعمي والأشجع السلمي ، ومحمد بن زُرْعَة
الدمشقي وربيعه الرقي ، على أن في الطائيين اللذين انتبخت إليهما الرئاسة في هذه الصناعات
وعما عمو .

ولم يحافظ على الإقامة في الشام والجزيرة من الشعراء الشاميين إلا نفر قليل ، منهم ديبك
الجن الحمصي ، ومحمد بن يزيد الحصري السلمي وعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي مما سيرد بيانه

(١) انظر: طبقات ابن المعتز: ٢٦١ ، الأغاني ١٣ : ١٠٧ ، تاريخ بغداد ١٢ : ٤٤٨ ، معجم الأدباء
١٧ : ٢٧

(٢) انظر الشعر والشعراء ٢ : ٧٤٠ ، الأغاني ١٣ : ١١١ ، ١١٥ ، ١١٩ .

(٣) انظر: طبقات ابن المعتز: ٢٥١ - ٢٥٤ ، الشعر والشعراء ٢ : ٧٥٨ - ٧٦١ ، الأغاني ١٨ : ٢١٢ ،
تاريخ بغداد ٧ : ٤٥ . وقد قال أبو الفرج إنه يماي نشأ وترى بالبصرة ، ثم لما كبر وعدّ نفسي
الفحول خرج إلى الرقة ومدح بها الرشيد وضمته سليم إليها ، غير أنه لطول ملازمته الرقة بعد
انضمامه إلى بني سليم في الرقة صار يعدّ جزرياً ، انظر الأغاني ١٨ : ٢١٢ .

(٤) انظر: طبقات ابن المعتز ١٥٧ - ١٧٠ ، الأغاني ١٦ : ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٥) يتيمة الدهر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية ١٩٧٩ : ١٢ .

في الحديث عنهم في موضع تال من هذه الدراسة . ومنهم كذلك البَطِينُ البَجَلِيُّ الحِصِي الذي ظل في نواحي حمص وسَلْمِيَّة ، ولم يغادر الشام إلا إلى مصر مصاحباً عبد الله بن طاهر ، ومات في الإسكندرية في حدود سنة ٢١١ هـ / ٨٢٦ م بعد عام من تزوجه للشام (١) .

ويبدو أن من هذا الفريق أيضاً محمد بن سلامة بن أبي زُرْعَة الدمشقي الذي قيل فيهِ "هو والدك شاعراً الشام" (٢) ؛ والحسين بن علي أبو طالب النقاش الأنطاكي الذي قال فيه ابن العديم في بغية الطلب "شاعر متقدم على عصر سيف الدولة" (٣) ؛ والحلي الذي لم يعرف ابن العديم اسمه ولا كنيته ، ولكنه قال عنه إنه في عصر ابن المعتز ، وله في أبي تمام رثاء (٤) . فعلى الرغم من ندرة المعلومات عن هؤلاء الشعراء ، فإن الأشعار التي رويت لهم في المصادر تدل على أنهم كانوا يصفون بيئتهم الشامية مما سيتضح في موضعه من هذه الدراسة .

ولما كانت بلاد الشام قد شهدت أحداثاً سياسية وحرية وفتناً وانتفاضات داخلية ، فقد تفجرت فيها طاقات شعرية كثيرة ، وصيغت في تلك الفتن والأحداث قصائد ومقطعات ذات لون محلي محدود . ويبدو أن أكثر أصحاب تلك القصائد والمقطعات لم يكونوا يحترفون الشعر كاحتراف أبي تمام والبحتري ومنصور النعمي وأضرابهم له ، ولنا في أعداد الشعراء والرجاز الذين نظموا في أحداث فتنة أبي الهيثم دليل واضح ، فإن الأربعة والعشرين شاعراً والرجاز الثمانية الذين نظموا في تلك الأحداث لم تسرو لأبي منهم ، ما عدا الأشجع السلمي ومنصور النعمي والخزعي ، أية قطعة أو قصيدة في شأن آخر من شؤون الحياة والناس . وينسحب هذا الحكم أيضاً على النسوة الشواعر ، فإنهن - على قلتهم - لم ينظمن ، أو لم يُرَوَّ لهن شعر خارج إطار هموم النزاعات القبلية ، والانتفاضات الشامية والجزرية . ولعل سبب ذلك يعود إلى عدم وجود جوارٍ شاعرات في الشام في هذه الفترة كما كانت الحال في بغداد .

- (١) انظر: الورقة ١٠ - ١٢ ، طبقات ابن المعمر ٢٤٨ - ٢٥١ .
 (٢) معجم الشعراء : ٣٦٩ ، صورة تاريخ دمشق ١٥ : ٤١٥ ، الوافي بالوفيات ١١٦ : ٣ .
 (٣) بغية الطلب ، ٢٦٢ : ٨ .
 (٤) المصدر نفسه .

ويلاحظ أيضاً أن زيارات بعض خلفاء بني العباس ووزرائهم وعما لهم لبعض حواضر الشام والجزيرة أثرت في تحريك عم بعض الشعراء الشاميين والجزيريين ، فإن زيارة الرشيد للرقّة، واستقباله الشعراء في قصره فيها بعد عودته من غزاة هِرَقْلَة، أثرت عن ولادة مجموعة من القصائد لشعراء شاميين وغير شاميين . ومن القصائد التي قيلت في هذا المجلس قصيدة أشجع السلمي التي منها (١) :

قَصْرٌ عَلَيْهِ تَحِيَّةٌ وَسَلَامٌ	أَلْقَتْ عَلَيْهِ جَمَالَهَا الْإِيْصَامُ
قَصْرٌ سَقُوفُ الْمَرْزُوقِ دُونَ سَقُوفِهِ	فِيهِ لِأَعْلَامِ الْهُدَى أَعْلَامُ
بَرَقَتْ سَمَاوُكَ فِي الْعُدُوِّ وَأَمْطَرَتْ	هَامًا لَهَا ظِلُّ السِّيفِ وَغَمَامُ

وقصيدة منصور النعري التي منها (٢) :

مَا تَنْقُضِي حُسْرَةَ مَنِي وَلَا جَسَرَ
إِذَا ذَكَرْتُ شَبَابًا لَيْسَ يُرْتَجَى

وكان من حضر هذا المجلس من الشعراء غير الشاميين مروان بن أبي حفصة ، وسلم الخاسر ، وأبو محمد التيمّيمي (٣) .

ويتضح أثر زيارات بعض الخلفاء العباسيين أو عمالهم للشام في الشعر الشامي بصورة أجلي لدى النظر في قصيدتي أبي تمام في المأمون، لما وفد إلى دمشق ، ولدى النظر في القصائد التي نظمها البحري في دمشق لدى زيارة المتوكل لها مما سترد دراسته في موضع تال . كما أدت زيارة عبد الله ابن طاهر إلى الشام وعوف في طريقه إلى مصر ، إلى أن ينظم في تلك الزيارة شعر ترحيبي ، كما فعل ذلك البطّين البجلي الحمصي (٤) ، وإلى نكوص عن هجاء ، كما فعل ذلك محمد بن يزيد الحنّسي الذي اعتذر عن نقيضه في عبد الله بن طاهر ، ومدّحه بعد هاء واختص به (٥) .

(١) انظر: الأغاني ٢١٤: ١٨ - ٢١٦ .

(٢) انظر: الأغاني ١٣ : ١٤٦ .

(٣) انظر في التعريف بمروان بن أبي حفصة : الشعر والشعراء ٢ : ٦٤٩ ، الأغاني ١٠ : ٧١ ، وفي سلم الخاسر انظر : طبقات ابن المعتز ٩٩ - ١٠٦ ، الأغاني ١٩ : ٢٦٠ ، وفي التيمّيمي أبي محمد عبد الله بن يوسف ، أو الحجاج بن يوسف التيمّيمي : الطبري ١٠ : ٩٢ - ٩٣ ، البدايات والنهايات ١٠ : ٢٠٣ .

(٤) الورقة : ١٠ - ١٤ ، طبقات ابن المعتز : ٢٤٨ - ٢٥١ .

(٥) الأغاني ١٢ : ١٠٥ - ١٠٦ .

ويحكم موقع الشام الطبيعي المتوسط بين العراق ومصر فقد كانت معبراً للشعراء العراقيين المتجهين صوب مصر وإفريقية ، ومن ذلك أنه لما قصد أبو نواس مصر لمدح واليها الخصيب بن عبد الحميد اجتاز بحمص ، وأحب أن يلتقي شاعرها الذي فتن أهل العراق بشعره في الخمر والغزل ^(١) ، فذهب إلى دار ديك الجن . ولما قصد ريعيل بن علي الخزاعي حمص التقى شاعراً من شعرائها يدعى حويي بن عمرو السكسكي ، فهجاه وهجا أهل حمص لأنهم لم يكرموا وفادته ولأنه بطبعه هجاء ^(٢) .

ومع أن كل هذا قد يقال عن عوامل التهجير للشعراء الشاميين، فقد ظل للبيئة الشامية بظروفها السياسية والحربية والاجتماعية والثقافية تأثيرات بارزة أدت إلى تعدد الميادين الشعرية وتنوعها ، ويمكن أن نجعل تلك الميادين في ما يلي :

- ١- الشعر والصراع الداخلي .
 - ٢- الشعر والصراع الخارجي .
 - ٣- الشعر في نصرة المذاهب .
 - ٤- ميدان الشعر الوجداني وهو يضم الوصف والحنين والغزل والرشا والهجاء وما اتصل بذلك من موضوعات أخرى .
- وسيجيء الكلام في كل ميدان موضحاً مواطن الثبات والتحول ، وأثر البيئة الشامية فيه بعامية .

(١) رقيات الأغنيان ٣ : ١٨٥ .
(٢) أنظر الأغاني ٢٠ : ١٢٩ .

الفصل الأول

الشعر والصراع الداخلي

١- الشعر والصراع بين الأمويين والعباسيين :-

كان من المتوقع أن يبكي الشعراء مذابح الأمويين وعزائمهم على أيدي العباسيين . كما كان من المتوقع أن ينظم شعر كثير يصف المعارك الدامية بين الفئتين ، وأن ينظم شعر كذلك يصور فرح العباسيين وأنصارهم بانتصاراتهم المتلاحقة على بني أمية . ولكن غاية مايقع عليه الباحث فسي مصادر الأدب والتاريخ الباقية المتاحة جملة من مقطعات نظمها عبد الله بن علي العباسي ، صـور فيها انتشاءه بإطاحته بالأمويين ، وتغنيه بتقتيلهم ، وعبد الله بن علي ليس شامياً ، ولكنه يمكن أن يحسب كذلك نظراً لتعرضه بأمور الشام في أثناء ولايته لها ، ونظراً لأن شعره في تلك الأحداث يمثل إشارة لشعراء الشام ، أو لمؤيدي الأمويين لكي يردوا عليه . إن استطاعوا . فمن ذلك قوله مخاطباً الأمويين ، مفتخراً بانتصاره عليهم ويتذبحهم (١) :-

بنو أمية قد أفنيت جمعكم	فكيف لي منكم بالاول الماض
يطيب النفس أن النار تجمعتكم	عوضتم من لظاها شر معتاض
منيتم - لا أقال الله عثرتك	بليث غاب إلى الأعداء نهاس

ويعمل عبد الله بن علي في قطعة ثانية أسباب تقتيله للأمويين ، بأنه ضرب من القصاص على ما كسبوا الأمويون اقترفوه من جرائم بحق العلويين والهاشميين جميعاً . فقد روى الصولي أن امرأة أموية قالت له يوماً (٢) : " قتلت من أهلي " وذويهم اثني عشر ألفاً ، فيهم ألفاً لحية خضية ، فقال :

تكبر عندي القتل وهو صبير	على مأرب والدائرات تدور
وقالت : قتلت الأهل في كل بلدة	وأنت يعفو لو تشاء قدير
فقلت : وهل فيكم لعنوي موضع	ولي منكم بعد القنائة وور
لئن دنت الأنساب منا ومنكم	لقد باعدتها بالعراق قبور

وتفصل رواية ثانية لهذا الخبر ما جاء في هذا الشعر تلميحاً وإشارة ، فقد روي أن تلك المرأة طالبت عبد الله بن علي أن يكون عادلاً ، فأجابها بقوله (٣) : " إئذن لا يبقى منكم أحد " لأنكم حاربتهم

(١) الصولي : أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم ، نشرج . هيرث دن ، مطبعة الصاوي ، مصر ، ١٩٣٦ ، ٣٠٤ ، ابن الأثير : الكامل : ٤ : ٣٣٣ .

(٢) أشعار أولاد الخلفاء : ٣٠٤ .

(٣) المصدر نفسه : ٣٠٤ .

علياً ، ونقضتم شرطه ، وقتلتم الحسين بن علي ، وقطعتم رأسه ، وقتلتم زيد بن علي ^(١) ، وصلبتم جنده ، وقتلتم يحيى بن زيد ^(٢) ، ومثلتم به ، ولعنتم علي بن أبي طالب على منابركم ، وضربت على ابن عبد الله ^(٣) ظلماً بسياطكم ، وحبستم الإمام إبراهيم في حبسكم ، فعدلنا ألا نبقي منكم أحداً .

وإذا صحت هذه الرواية التي تبدو علوية النوى، فهي محاولة من عبد الله بن علي أن يستميل عواطف العلويين نحو ذوي قربائهم من العباسيين، حين كان هؤلاء في فترة الانقلاب الأولى بحاجة ماسة إلى المناصرة .

ولعبد الله بن علي قطعة أخرى يستلج فيها التمني بتقتيل الأمويين ويستعذ به ، وهو يجعل التقتيل فيها قائماً على معادلة الثأر . ويكاد مضمون شعره يكون من نسق الشعر الجاهلي ذي المضمون الذي يدور حول الثأر، لولا البيت الأخير الذي استخدم فيه صورة إسلامية لتعميق فعل الحقن، يقول ^(٤) :

ورَدُّنا دِماً، من أُمَيَّةَ عَذَّ بَسَّةً	وَكَلِّنا لَهُم في القَتْلِ بالصَّاحِ أَصْوَعا
وما في كثيرٍ منهمُ لِقَتيلِنا	وفاءً ، وَلَكِنْ كَيْفَ بالثَّأْرِ أَجْمَعاً
رَعَيْنَا نَفْوساً منهمُ بِسِوْفِنَا	وصاح بهم داعي الفَناءِ فأسْمَعاً
قُضينا بِهم دِيناً وَزِدُّنا عَلَيْهِمُ	كما زاد بِمدِّ الفَرْسِ مَنْ قَدْ تَطَوَّعا

ومن تأمل مقطعات عبد الله بن علي وجد ما مينة السبك : قوة في تحليلها لاضطراب الحقن، وتلهب جمرة ، عامدة لإبراز المعنى المراد دون تردد . ويكفي أن تكون فيض نفس جياشة بالانفعالات المتشابهة من غيظ وحقد من ناحية ، وزهو ورضى نفسي من ناحية أخرى ، ولهذا لا يجد المدارس

- (١) زيد بن علي بن الحسين ، كان قتل بالكوفة في خلافة هشام بن عبد الملك . انظر : أبو الفرج الأصبهاني ، مقاتل الطالبين ، حقه أحمد صقر ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٤٣ : ١٩٦ .
- (٢) يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب . كان قتل بخراسان في أيام الوليد ابن يزيد . انظر : مقاتل الطالبين : ١٠٣ ، شذرات الذهب : ١ : ١٦٧ .
- (٣) علي بن عبد الله بن عباس ، وهو جد المنصور . كان الوليد بن عبد الملك نفاه إلى الحميمة ولم يزل ولده بها إلى أن زالت دولة بني أمية . انظر شذرات الذهب : ١ : ١٤٨ .
- (٤) أشعار أولاد الخلفاء : ٣٠٠ .

مُسَوِّغًا لِيَتَشَكَّكَ فِي نَسَبِهَا إِلَيْهِ ، أَوْ يُعَدِّهَا حِكَايَةً حَالِ قَالِهَا مَنْ تَعَثَّلَ النَّاسِبَاتِ وَالْأَحْدَاثِ وَنَسَبِهَا
لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ .

ونشطت طائفة أخرى من الشعراء الموالين للعباسيين في التحريض على الفتك ببني أمية
ولكنَّ أحدًا منهم لم يكن من بلاد الشام^(١) . لأنَّ الشاميين جميعًا اکتَوَوْا بنار العباسيين ، وعانوا
قسوة عبد الله بن علي وجبروته ، فلا يعقل أن ينظم في هذا المنحى شاعر شامي .

غير أن راجزًا شاميًا يدعى المَخْبِيسُ بن أرطاة^(٢) نظم بعض الأراجيز التي مدح فيها العباسيين ،
وعرض في أثناءها ببني أمية ، فقال في إحداها^(٣) : —

أَهْلًا وَسَبَلًا بِخِيَارِ النَّبِاسِ
بِبِائِشِ أَهْلِ النَّدَى وَالْبِئِاسِ
بَدَّلْتَ الْوَحْشَةَ بِالْإِنْسِاسِ^(٤)
وَقَدْ عَلَا الْفَرْعُ عَلَى الْأَشْجِاسِ
تَدَاوَلُوها يَا بَنِي الْعَبَّاسِ
تَدَاوَلُ الْأَكْثَفُ بِالْأُمِّاسِ^(٥)

ويقول في آخره في السّباح أو المنصور ، وهي تجوي مجرى سابقتها في إعلان الفرح بانتصار
العباسيين الذين يراهم الشاعر أهل الحق في الخلافة^(٦) :

- (١) من أبرز من حرض العباسيين على الأمويين سُدَيْفُ بْنُ مَيْمُونٍ ، وهو شاعر حجازي من مخضرمي
الدولتين . انظر : ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، دار الثقافة ، بيروت ، ٢ : ٦٤٧ ، المبرد :
الكامل ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر
٤ : ٨ ، الأغاني ٤ : ٣٤٤ ، ١٦ : ١٣٥ ، ومنهم أيضًا إبراهيم بن عكرمة ، وهو حجازي أيضًا من
مخضرمي الدولتين ، انظر : الشعر والشعراء ٢ : ٦٣٩ ، الأغاني ٤ : ٣٦٧ ، ٥ : ٢٦٠ ، ومنهم
كذلك شَبَلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مَوْلَى بَنِي هَاشِمٍ ، انظر : المبرد : الكامل ٤ : ٨ .
- (٢) كان المخبيس بن أرطاة أحد مخضرمي الدولتين ، ومن السباقين لمدح بني العباس في خلافتهم
وهو — على ما يقول العزباني — شامي . انظر : معجم الشعراء ، بتصحيح كركو : ٤٧٩ .
- (٣) المصدر نفسه .
- (٤) يلاحظ الخطأ في هذا الرجز لأنَّ الباء تدخل على المتروك ، فعكس الشاعر المعنى المراد .
- (٥) الأمراس : الحبال جمع مرساة .
- (٦) معجم الشعراء : ٤٧٩ .

الآن قمر الملك في مقبرة
وطاب حلوا العيش بعد مـرّة
إذ رجّع الملك لمستقـرّة
إلى بني العباس أعلـى سرّة

وهذا الرجز أدخل في باب المجاملة منه في الشعر النابغ من الوجدان الصادق ، وذلك مؤشراً على مسايرة الشاعر لهذا الانقلاب محض مسايرة . وأين هذا الشعر من الأصوات الناعمة على من قتل من بني أمية في الزاب ، وعلى نهر أبي فطرس بفلسطين ؟ لقد تعددت تلك الأصوات ، وبكت بغجية على بني أمية ، مع أن اثنين منهما لم يكونا ممن شهد نهايات الأمويين ومقاتلتهم ، إذ كانا يقطنان إبان تلك الأحداث خارج بلاد الشام . وأبرز أولئك الشعراء المفجوعين بالأمويين ثلاثة عـم : أبو العباس الأعـى (١) ، والـبلسي (٢) ، وآدم بن عبد العزيز (٣) .

أ — أما أبو العباس الأعـى فيقول في شعرباك حزين مخاطباً المنصور ، مترجماً على بني أمية (٤)

وَنَاتَهُم بِضِيعَةٍ أَيْتَامُ	أَمَتْنَاُ بَنِي أُمَيَّةَ مِنْهُمْ
وَالنَّجْمُ يَسْقُطُ وَالْجُدُودُ تَنَامُ	نَامَتْ جَدُودُهُمْ وَأُسْقِطَ نَجْمُهُمْ
فَعَلَيْهِمْ حَتَّى الْمَمَاتِ سَلَامُ	خَلَّتِ الْمَنَابِرُ وَالْأَسْرَةُ مِنْهُمْ

(١) هو السائب بن فروخ المتوفى بعد سنة ١٣٦هـ / ٧٥٣ م . وهو مكبي . كان هجاء خبيثاً مبغضاً لال الرسول ، مائلاً إلى بني أمية ، مادحاً لهم ، كان يلح بالشام في أيام مروان بن محمد . انظر ترجمته في : الصفدي : نكت الهميان ١٥٣ - ١٥٥ ، أبو الفرج البصري : الحماسة البصرية ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الدكن ، الهند ١٩٦٤ و ١٣٧ .

(٢) هو عبد الله بن عمر بن عبد الله المكي بابي عدي . شاعر مجيد من شعراء قريش ، وهو أموي من مخزومي الدولتين ، كان أكثر مقامه بالحجاز . انظر ترجمته في : الأغاني ٤ : ٢٣٦ - ٢٤٢ ، ١١ : ٢٩٥ .

(٣) آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز كان أحد من من عليه أبو العباس السفاح من بني أمية لما قتل من وجد منهم . وكان المهدي يحبه لظرفه . انظر ترجمته في الأغاني ١٥ : ٢٨٦ - ٢٩٧ ، تهذيب ابن عساكر ٢ : ٢٦٤ - ٣٦٥ .

(٤) نكت الهميان : ١٥٣ ، الحماسة البصرية ١ : ١٣٧ .

ب - وأما العَبْلَسِي فقد فزع إلى أبي العباس السفاح محتجاً به خوفاً من أن يلقي منه ما لقيته الأمويون من تقتيل واستلاب . ومع أن علاقة هذا الشاعر بخلفاء بني أمية كانت غير حميدة ، ومع أنه كان هاشمي الهوى ، فإن شعوره بمأساة الأمويين كان عميقاً جداً . يقول مصوراً فزعه وفزع الأمويين على شكك حوار بينه وبين ابنته (١) :-

تَقُولُ أُمَامَةَ لَمَّا رَأَتْ	تُشَوِّزِي عَنِ الْمَضْجَعِ الْإِنْفُسِ
وَقَلَّةَ نَوْمِي عَلَى مَضْجَعِي	لَدَى هَجْعَةِ الْأَعْيُنِ النَّعْسِ
أَبِي ، مَا عِرَاكِ؟ فَقُلْتُ: الْهَمُّ	عَرَوْنَ أَبَاكِ فَلَا تُبْلِسِي
عَرَوْنَ أَبَاكِ فَحَبَسَنَّهُ	مِنَ الْبُذْلِ فِي شَرِّ مَا مُحْبِسِ
لَقَعْدِ الْعَشِيرَةِ إِذْ نَالَهَا	سَهَامٌ مِنَ الْحَدَثِ الْمُبْسِ

ويصور سائر القصيدة ذهاب من كان حياً من بني أمية ويذكر مواطن مذابحهم . فقد استحضر لها الشاعر مقومات التأثير بهذا الحشد المنظم الواعي لألفاظ الرعب ، والحوار القصير الخاطف الدال والقافية الهامسة عس المخوف :-

فَصْرَعَا عُمٌ فِي نَوَاحِي الْبِلَادِ	تَلَقَّى بِأَرْضِي ، وَلَمْ تَرْمَسْ (٢)
وَأَخْرُقْدَ طَارَ خَوْفُ السَّرْدَى	وَكَانَ الْهَمَامُ ، فَلَمْ يُحْسِسْ
فَكَمْ غَادَرُوا مِنْ بَوَاكِي الْعَيْسُونَ	مِنْ مَرْضَى ، وَمِنْ صَبِيَّةٍ بُسُوسِ
وَبِالزَّابِيَيْنِ نَفْسٌ تَوَتَّ	وَقَتْلَى بَنِيهِمْ أَبِي فُطْرُسِ

ولعل هذه القصيدة من أقدم ما نظم في الشعر العربي في رثاء ملك زائل ، وتكاد تتفوق في دقة تصويرها ، وبساطة تمبيرها ، وصدق عاطفتها ، ومواءمة موسيقاها للجو النفسي للشاعر على

- (١) الأغاني ١١ : ٢٩٨ . وقد وردت بعض أبيات هذه القصيدة في معجم البلدان ، مادة "أبي فطرس" . وقيل إن هذه القصيدة اشترك فيها آخران مع العبلي حين أتاهم جميعاً خبر مقتل بني أمية ، وقد يفسر هذا ورود بيتين منها في تاريخ الموصلي للأزدي منسوبين إلى شاعر يدعى أبا حراب العتكي . انظر : الأغاني ١١ : ٢٠٢ تاريخ الموصلي : ١٢٩ .
- (٢) لم تَرْمَسْ : لم توضع في الرسم ، وهو القبر .

قصيدة الخريمي في رثاء بغداد (١) ، وقصيدة ابن الرومي في رثاء البصرة (٢) .

ج - وأما آدم بن عبد العزيز حفيد الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي تحول من الشام (٣) إلى بغداد بعد الإطاحة بقومه فيبدو أن فقدته لقومه قد قاده إلى اتجاهين متناقضين في الظاهر، وإن كانا يبتخان من بئر واحدة في الواقع: الاتجاه إلى الخمرة والعكوف عليها في أول الأمر، ثم الاتجاه إلى الزهد . ولعله وجد في الخمرة تعلته وسلوانه عما حل بالأمويين ، فقال يستحث سقياها في بعض ما نظمه قبل أن يتره : -

استقني واستق خليلي	في مدى الليل الطويل
من ينل منها ثلاثاً	ينس منهاج السبيل
فمتى ما نال خمساً	تركه كالتيسيل
ليس يدري حين ذاك	ما دبير من قبيل

نوعى الشاعر بأن الخمرة تنسي شاربها منهاج السبيل ، وأنها تغتده القدرة على التمييز بين الدبير والقبيل يكفي ، وعيه بعمق الجراح في قلبه على ضياع ملك بني أبيه ، بل لعله عنى بالليل الطويل ظلمة الحكم العباسي الذي انبسط على رقعة الأرض الإسلامية . ويرشح هذا التوجيه ما أفصح به عن تلبسهم له ، بذهاب مجده بقوله (٤) متخيلاً أو حقيقة أن جماعة تعيره بذهاب مجدهم :

- (١) مطلع هذه القصيدة :
قالوا ، ولم يلعب الزمان بيننا وبين بغداد وتعثربها عوائرها
انظر : ديوان الخريمي بتحقيق علي جواد الطاهر ومحمد المعيد ، دار الكتاب الجديد : ١٩٧١ (القصيدة رقم : ٢٤) .
- (٢) انظر هذه القصيدة في ديوانه بتحقيق حسين نصار ، المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨١ ، ٦ : ٢٣٧٧ ، ومطلعها :
زاد عن مقلتي لذيت المنام شغلها عنه بالدموع السجام
- (٣) في الأغاني ١٥ : ٢٩١ ، كان آدم مع بني أمية الذين أمر عبد الله بن علي بقتلهم بنهر أبي فطرس ، وجاء في تهذيب ابن عساكر ٢ : ٣٦٤ ما يلي : " كان بالشام حين ذهب ملك آل بيته ، فأراد عبدالله بن علي قتله فيمقتل منهم بنهر أبي فطرس فاستعطفه فتركه ، وسكن العراق بعد ذلك " .
- (٤) الجاحظ : البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، مصر ٢٠١ : ٣ .

وإن قال رجل قد تولَّى
فما ذهب الزمان لنا بمجْدٍ
وما كنا لنخلد إذ ملَّكنا
زمانكم، وذا زمنٌ جدِيدُ
ولا حسَب إذا ذُكِر الجُدودُ
وأي الناس دام له الخلودُ

أما الاتجاهُ إلى الزهد في الحياة ^(١) فيمثلُه قوله، وقد أخذ نفسه على الصبر بترك الخمر ^(٢) :

ألا هل فتى عن شرِّ الرِّاح صابِرُ
شرِّت فلما قيل ليس بمقلِّعٍ
رليجزيه يوماً بذلك قـادِرُ
نزعْتُ، وثوبى من أذى اللُّؤم طاهرُ

أما الصوت الوحيد المبكر من الشاميين الذي وقف على التحول من الأموية إلى العباسية قادحاً بيني أمية فكان صوت حفص ^(٣) الشاعر الأموي الذي لحق بعبد الله بن علي « فلما أوشك عبد الله أن يبطريه لهجائه القديم لبني هاشم » اضطر إلى النول معرضاً بيني أمية « ذاماً إياهم » مادحاً السفاح، فقال في بعض شعره ^(٤) :

وكانت أميةً في ملْكها
فلما رأى الله أن قد طغيت
رماعا بسفاح آل الرسـول
تجور وتكبرُ عدوانها
ولم يطقِ الناس طغيانها
فجند بكفئته أعيانها

ترى ما سرُّ ندرة الشعر الشامي الذي بكى بني أمية وكان من المتوقع أن يكون كثيرًا؟ لعلَّه ضاع، أو على نحو أدق أراد له العباسيون أن يضيع، لأنه يمثل شهادة سهلة الحفظ والتناقل على ما ارتكبهوه .

وبعد زوال أثر الصدمة التي أحدثها زوال ملك بني أمية وقيام الدولة العباسية، أخذ الشعر يتحول إلى ترديد ذكريات، ليس فيها حدة المصادمات الأولى، « لأن الزمان استطاع أن يضمده

(١) في الأغاني ١٥ : ٢٨٦ : « وكان آدم في أول أمره خليعاً ماجناً منهمكاً في الشراب » ثم نسك بعد ما عمر، ومات على طريقة حمودة .

(٢) تهذيب ابن عساكر ٢ : ٣٧٦ .

(٣) انظر : تهذيب ابن عساكر ٤ : ٣٩١ ، ياقوت : معجم الأدباء ١٠ : ٢٠٩ .

(٤) المصدران السابقان .

كثيراً من الجراح ، وذلك هو شأن محمد بن يزيد بن مسلمة بن عبد الملك بن مروان الملقب بأبـي الأصبغ الجصني^(١) ، نسبة إلى حصن مسلمة بن عبد الملك حيث كان ينزل ، فهو قد مدح المأمون ، ولكنه لم يتخلَّ عن الفخر بجدوده من بني أمية ووجوعهم فقال من قصيده لم نظفر بنغيـر بيت منها ، يقول فيه مفتخراً^(٢) :

أما صفاتي فلها شأنٌ وقد نَماني الشيخُ مروانُ

وقد قيَّز لابي الأصبغ شاعر يناقذه هو محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمي القنـسريني^(٣) ، إذ يقول مفتخراً بالهاشميين ، قادحاً في بني أمية وأيام حكمهم :

أنا ابنُ آلِ الله من هاشمٍ حيث نَمى خير وإحسانُ
من تبعه منها نبيُّ الهُدى مؤرسةٌ ، والفرعُ فئسانُ^(٤)

وكان من الممكن أن يظفر الدارس بمادة أوفر لتصور ما كان يجوي من نقائص لو أسعفت المصادر على إيراد القصيدتين كاملتين .

وأما أبو عبيد الله الأشعري ، وهو شاعر من أهل طبرية ، فقد وزر للمهدي ، ولكنه في أخريات أيامه أخذ يؤنب نفسه على معاضدته لبني العباس^(٥) الفسدين الغادرين ، يقول^(٥) :

(١) انظر ترجمته في : معجم الشعراء : ٤١٩ ، صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات تحقيق س. ديدرنغ ، فيسبادن ١٩٧٠ ، ٥ : ٢١٨ ، البكري : سبط اللائي ، تحقيق عبد العزيز الميني الراجوتي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، مصر ١٩٣٦ م ، ١ : ٥١٧ ، وقال ابن عساكر كان المسلمي هجاء عبد الله بن طاهر ثم حسنت العلاقة بينهما عندما قدم عبد الله بن طاهر إلى الشام ، وقد صحبه المسلمي إلى مصر ، فلما عاد ابن طاهر إلى العراق ماراً بدمشق ظل المسلمي بها .

(٢) معجم الشعراء : ٤١٩ ، الوافي بالوفيات ٥ : ٢١٨ .

(٣) قال المرزباني في ترجمته : شاعر مشهور أديب ، كان ينزل أرض قنـسرين ، عاصر من الخلفاء العباسيين المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل . (معجم الشعراء) بتحقيق عبد الستار أحمد فراج : ٣٦٣ . وانظر : الوافي بالوفيات ٤ : ٣٥ .

(٤) الوافي بالوفيات : مؤرسة .

(٥) انظر ترجمة صاحب هذا الشعر في : معجم الشعراء : ٣١٥ ، وفيه أن اسمه معاوية بن عبيد الله بن يسار ، وكان مولى عبد الله بن عضاء الأشعري .

لله دَعْرُ أضعنا فيه أنفسنا
بالجهل لو أنه بعد النهى عبادا
أفسدت دِيني بإصلاحي خلافتهم
وكان إصلاحها للدين إفسادا
ما قربوا أحدا إلا ونيتهم
أن يُعقبوا قرنه بالخذرا إفسادا

وهذا الشعر يتعمد على واقع فردي، ويحفزه حادثة ربما كانت عابرة، غير أنه يكشف عما كان
كان يستكن في بعض النفوس الشامية من كراهية للعباسيين .

ومن الشعراء الشاميين الذين نظموا في التحول من الأموية إلى العباسية الشاعر طالسب
بن الأزهر الشامي الطائي^(١) الذي يدل بفضل قومه على العنصور، ونصرتهم للعباسيين فيقول
مخاطبا أيما^(٢) : -

أذكر لقومي فضلمهم ووفاءهم
يا ابن الأكارم إنني من عصبيتهم
لكن يا ابن الكرام وصولا
متسربلين من الحديد شليلا^(٣)
خرجوا لدعوتكم فلم يألوا فقتلوا
رفعتمكم فوق الأنعام طويلا

هذا ما تم العثور عليه من الشعر الشامي الذي يصور أحداث الانقلاب العباسي وزوال الأموية،
وذلك مقدار قليل بالقياس إلى حجم الحدث وقوله . فهل كانت أرض الشام عاترا إلا من هو ؟ لا الشعراء
المذكورين ؟

الجواب عن ذلك أن الندرة كانت في الموضوع لا في الشعراء، فقد ظهر في النصف الثاني من
القرن الثاني الهجري شعراء شاميون كثيرون، ولكنهم لم يقبلوا على هذا الموضوع لأن الحياة فتحت
أمامهم موضوعات جديدة . نعم، إن شيئا من الأفكار السالفة قد بقي يعتل في النفوس، ولكن تلك
الأحقاد ظللها شيء من التعقل، ومحاولة الألفة للواقع العملي . وقد عبر عن ذلك أموي يقول للرشييد

- (١) ترجمته في : ابن الجراح : الورقة : تحقيق عبد الوهاب عزام وعبد الستار أحمد فراج،
ط ٢، دار المعارف بمصر، ٩٥، صورة تاريخ دمشق ٨ : ٤٩٦ .
(٢) المصدران السابقان .
(٣) الشليل : الغلالة ونحوها تلبس تحت الصدر .

وَأَنْتُمْ بَنِي الْعَبَّاسِ عَنْهُمْ مَحْتَسِدٌ
وَقَدْ سَرَّنِي أَنَّ الْخِلَافَةَ فَيْكُمُ
لَكُمْ إِرْتُمَا وَالْحَقُّ مِنْهَا وَلَمْ يَكُنْ
وَإِنَّ بَنِي حَرْبٍ وَمِرْوَانَ أَصْبَحُوا
يَخْضُونَ أَبْصَارًا مَغِيظًا ضَمِيرُهَا
يَمِينُ قَرِيشٍ إِذْ سَوَاكُم شِمَالُهَا
مُخَيَّتَةٌ ، مَا إِنْ يُخَافُ انْتِقَالُهَا
لِنَعِيرِكُمْ إِلَّا أَسْمُهَا وَانْتِحَالُهَا
يَدَارُ هَوَانَ قَدِ عَرَاهُمْ نَكَالُهَا
وَيُبَدِّدُونَ الْحَظَّ مُبِينًا كِلَالُهَا

ولعل حديث البحتري عن حق العباسيين بالخلافة في هذا الوقت المتأخر بعد زوال ملك بني أمية مؤشراً على أن الخطر بعودة الحكم إلى الأمويين ظلّ هاجساً يتخوفه العباسيون وأنصارهم . ولا شك أن لثورات الشاميين المتعاقبة أثراً في بقاء مثل هذا الهاجس . وهو الحلم نفسه الذي ظل يراود الأمويين وأشباعهم على مدار قرن من الزمان تقريباً في شخص "السفياني المنتظر".

ومن الحق أن نربط مناسبة هذه القصيدة - وهي عودة المتوكل من دمشق إلى سر من رأى في سنة ٢٤٤هـ / ٨٥٨ م - بما أورده ابن العديم عن الطريق التي اجتازها المتوكل في أثناء هذه العودة ، ووقوفه بدير حنين^(١) ، وقراءته ما كتبه شاعر من موالي بني أمية يدعى الفرج في صدر هيكله ، فذلك كليل بأن يكشف عن سر حديث البحتري عن الأمويين والعباسيين في هذا الزمان . فقد قرأ المتوكل - فيما يقول ابن العديم^(٢) - :

أَيَا مَنْزِلًا بِالْدَّيْرِ أَصْبَحَ نَارِيَا
كَأَنَّكَ لَمْ تَنْطَلِقْ بِيضَ نَوَاعِيَا
وَأَيْنَاءُ أَمْلَاكِ عَبَّاسِيَا
إِذَا نَزَعُوا تِيَجَانَهُمْ فُضَارِيَا
عَلَى أَنَّهُمْ يَوْمَ اللَّقَاءِ قَسَاوِيَا
وَلَمْ يُصْبِحِ الصَّهْرَجُ وَالنَّاسُ حَوْلِيَا
وَحَوْلِكَ رَايَاتُ لَهُمْ وَعَسَاكِيَا
تَلْعَبُ فِيهِ شُمَّالٌ وَدَبُّورُ
وَلَمْ تَتَبَخَّرْ فِي فَنَائِكَ حُورُ
صَفِيرُهُمْ عِنْدَ الْأَنْبَامِ كَبِيرُ
وَإِنْ لَبَسُوا تِيَجَانَهُمْ فَبُورُ
وَلَكَّهُمْ يَوْمَ النَّوَالِ بُحُورُ
عَلَيْهِ فَسَاطِيطُ لَهُمْ وَقُورُ
وَخَيْلُ لَهُمْ بَعْدَ الصَّهِيلِ نَخِيرُ

(١) لم يرد في معجم البلدان ذكر لدير بهذا الاسم ، كما لم يرد في الديارات للشاشتي بتحقيق كوركيس عواد ، ط ٢ ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٦٦ م ، وذكر محمد كرد علي أن هذا الدير من أديرة الغوطة الدائرة وكان لا يزال عامراً حتى القرن السابع الهجري ، انظر: غوطة دمشق ، ط ٢ ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، بدمشق ، مطبعة الترقى ، ١٩٥٢ : ٢٦٤ .

(٢) بغية الطلب ٨ ورقة ٢٥٥ ، وقال ابن العديم في صدر هذه القصيدة : "لما أراد ==="

ليالي عَشَامٍ بِالرَّمَاةِ قَاطِنًا
 وَأَنْبِرُ الْعُلُكُ غَضٌّ وَالْخِلَافَةُ لَدُنْكَ
 وَرَوْضُكَ مُرْتَضٍ وَيُنْعَكَ يَنَازِلُ
 بِمَسْلَمَةِ الْعِمُومِ وَهُوَ الَّذِي لَسَهُ
 بَلَسِي « فَسَقِيَّتِ الْغَيْثُ صَوْبًا مُبَاكِسَرًا
 تَذَكَّرْتُ قَوْمِي فَبِكَيْتُ »
 فَعَزَّيْتُ نَفْسِي وَعَمِي نَفْسُ لَهَا — إِذَا
 رَوَيْدُكَ إِنْ الْيَوْمَ يَعْتَبُرُهُ غَدُ
 لَعَلَّ زَمَانًا جِسَارَ يَوْمًا عَلَيْهِمْ
 فَيُفْرَحُ مَرْتَادًا وَيَأْمَنُ خَائِفًا

وَفِيكَ ابْنُهُ يَا دَيْرٌ وَهُوَ أَمِيرٌ
 وَأَنْتَ خَصِيبٌ وَالزَّمَانُ طَرِيبٌ
 وَدُهُرُ بَنِي مُرْوَانَ فِيكَ نُضِيرُ
 تَكَادُ قُلُوبَ الْمُشْرِكِينَ تَطِيرُ
 إِلَيْكَ بِهِ بَعْدَ الرُّوْحِ بُكُورُ
 وَإِنَّ شَجِيًّا بِالْبُكَاءِ لَجَدِيدُ
 جَوَى ذَكَرْتُ قَوْمِي — أُنْسُهُ وَزَفِيرُ
 وَإِنَّ صُرُوفَ الدَّائِرَاتِ تَكْسِدُورُ
 لَهُمْ بِالَّذِي تَهْوَى النُّفُوسُ يَجُورُ
 وَيُطْلَقُ مِنْ ذُلِّ الْوَسَاقِ أُسِيرُ

فهذه القصيدة مشيرة للخليفة بما فيها من حب دافع لبني أمية « وأمل مقيم بإمكان رجوع الحكم إليهم » إلى ما فيها من إثارة حادة لخصومهم العباسيين « لا بضمونها الذي يعلي من الخلفاء المؤمنين إعلًا » ويشيد بفضائلهم وفضلهم على الإسلام والمسلمين « ويزري بمظالم العباسيين إزرا » وحسبه بل أيضًا بجمال صياغتها « وحسن تأتّي الشاعر فيها بإقامتها على الاسترجاع المستلح » والتصوير المعجب أيضًا « فكانت قصيدة البحري تعلّة وسلوانًا » .

ويستوقف الدارس بعد هذا كله في مناصرة البحري للعباسيين واختصاصه بمدح عدد كبير من خلفائهم بيتًا مفرد له « فضل فيه المؤمنين على العباسيين » وقد جاء هذا البيت في قصيدة عبّر فيها البحري عن ألمه لحبس المتوكل لأبي سعيد الثوري « وتسليمه إلى أبي الخير النصراني الجهمي الذي تكفل بتعذيب الثوري ليستخرج منه ما لا اتهم بأخذه » فقال البحري (١) مستنكرًا حبس هذا

جعفر المتوكل الخروج من الشام إلى العراق أحب أن يجعل طريقه على البرية لينظر إلى آثار بني أمية ومصانعهم « وكان في طريقه دير يعرف بدير حنيننا » فلما أزمع على ذلك اتصل خبره ببعض موالي بني أمية « ثم تقدم الفرج إلى الدير فجعل لصاحبه جعلا على أن يدعه يكتب في صدر الهيكل أبياتا » فأذن له « فكُتِبَ » .

(١) هي القطعة رقم ٧٧٧ من ديوانه وتاريخها سنة ٢٣٣هـ / ٨٤٧ م . وانظر في خبرها في الصولي : أخبار البحري : ١٧ .

القائد وتسليه إلى التعذيب :-

هذا ابن يوسف في يدي أعدائِهِ يُجْزَى على الأيام بالأيام
نامت بنو العباس عنه ولم تكن عنه أمية لورعت بنيهم
وأكبر الظن أن البحتري إذ يفضل الأمويين على العباسيين هنا، كان ينطلق من حسرهم
سائد في الأوساط الشامية تجاه الأمويين والعباسيين، وبخاصة إذا علمنا أن البحتري حتى تاريخ
هذه القصيدة لم يكن قد ارتبط بعلاقة مصلحة بخلفاء بني العباس، وهو الارتباط الذي سيؤدي إلى
تحوله إلى شاعر عباسي منتفع .

٢- الشعر والفن والثورات الداخلية :

قد رأينا أن بعض تلك الفتن مثل فتنة أبي العميطر السفياي « وأبي حرب اليماني » وابسن بيهس الدمشقي كانت حركات تهدف إلى إحياء الخلافة الأموية على يد سفياي منتظر ، وهي بهذا تفترق في غايتها عن فتن أخرى كانت لا تتجاوز في مفهومها معنى الصراع القبلي الذي قد تشيهره حادثة تافهة ، ثم لا يجني الفريقان من ورائها إلا التقتيل ، وإرواء الغليل .

وفي النوع الأول من الثورات ظل أهل الشام يكيدون لبني العباس وظلت الأحلام تراودهم بإمكان إعادة الخلافة إليهم . وفي المقابل استغل العباسيون التناقض القبلي بين أهل الشام من قيسية ويمنية ، وكان انكاؤهم على هذا التناقض سبباً بارزاً من أسباب نجاحهم في القضاء على حركات الخارجين عليه .

(١) فتنة أبي العميطر — على هذا الأساس — تحتل وجهةً سياسياً ساطعاً من وجوه ذلك الصراع ، ويوضح بعض شعر هذا الشاعر رغبته الملحة في ائتلاف الصف الأموي لدرء الخطر العباسي ، فيقول من قصيدة يرثي فيها ابنه القاسم الذي قتله قيس (١) :

بنو أمية إن الرأي مشـ	والنصح عند ذوي الإلباب مقبول
حتى متى أنتم في كل حادثة	رادي قتيل وعان ثم مغلول
هذا ابن بيهس قد أبدى عداوتكم	فالحرب قائمة والسيوف مسلولة
وأنتم دبر عن ملككم خذل	وفيكم السادة الغر البهاليل (٢)
يحمي ابن بيهس ملكاً لا لعترته	لكن لدنيا لها بالعرض تعجيل (٣)

- (١) صورة تاريخ مدينة دمشق ١: ٤٤٩ : « وأول هذه القصيدة :
- أزرى به أرق فالهيم موصول
يا ليت شعري ، وليت غير نافعة
هل تاتين بظهر النيب مالكة
أو هل أرى الخيل تغدو في ديارهم
جرأ قتلهم بالأسرنة
لو أن قيساً بصغرى قاسم قتلست
- (٢) دبر : مدبرون مهزومون . البهاليل مفردة البهلول وهو السيد الجامع لصفات الخيـر .
- (٣) عترة الرجل نسله ورهطه وعشيرته .

ففي هذه الأبيات يرى أبو العميطر أن بني أمية أولى الناس بالملك ، وأن ما يحدثه فيهم بنو العباس من تقتيل وأسروا ذلال كان جدِّراً به أن يكون حافزاً لهم على الاتحاد ، وقد آلمه جسدًا أن يرى القيسية وزعيمها قد اختاروا طمعاً مناصرة العباسيين .

وَرَجَّعَ أَبُو الْعَمَيْطَرِ عَلَى هَذَا الِهَمِّ الْأُمَوِيِّ الْمَقِيمِ فِي قَصِيدَةٍ أُخْرَى تَنْضَحُ أَسَى وَحَقْدًا فَنَسِي
 أَن ، فَمَهْوَ يَخُوفُ الْأُمَوِيِّينَ مِنْ عَاقِبَةِ الْإِنْتِقَامِ ، مَذْكُورًا إِيَّاهُمْ بِالْفُظَّائِمِ الَّتِي أَحَقَّهَا بِهِمُ الْعَبَّاسِيُّونَ ، مُحَدِّثًا
 مِنْ غَدٍ أَسْوَدَ يَتَرَبَّصُ بِهِمْ إِنْ لَمْ تَتَّحِدْ كُلُّهُمْ (١) : -

أَبْنَسِي أُمَيَّةً إِنَّكُـــــــم
 أَصْبَحْتُمْ غَنَمَ الذُّنُوبِ
 وَأَرَى بَنِي الْعَبَّاسِ طُـــــــرًّا
 وَالزَّمَانَ إِلَى أَنْفِـــــــلَابِ
 يَسْقُونَكُمْ مَا كُتُـــــــمُ
 تَسْقُونَ مِنْ سَلْعٍ وَصَّـــــــابِ (٢)
 وَإِنْ كَانَ دُهُرُكُمْ التَّخْـــــــلُّدُ
 أَذِلُّ فِي الثُّلُمَاتِ الصَّـــــــمَابِ
 فَدَعُوا الشَّـــــــيْءَ لِرُحْلَةٍ
 لَيْسَتْ تَحُورُ إِلَى إِيـــــــكَابِ
 وَتَوَقَّعُوا سَلْبَ الشَّـــــــوَا
 رِعْنَ الْعَقِيلَةِ وَالْجِيـــــــابِ
 وَتَوَائِبَ الْأَعْـــــــدَاءِ فَيـــــــهِ
 مَا بَيْنَكُمْ مِنْ كُـــــــلِّ بَسَابِ

ويبدو الشاعر مغاضباً من انحياز قيس إلى بني العباس ، فيرفع عن نفسه العتاب إذ يوجه دعوة صريحة إلى أنصاره بأن يفتكوا بالقيسيين : -

لَسْتُ أُمَيَّةً فِي قَرْبِـــــــهِ
 شِ بِالصَّرِيحِ وَلَا اللَّبِـــــــابِ
 إِنْ لَمْ تَدْعُ صَوْلَاتُكُمْـــــــمُ
 قَيْسًا يَنْقُطِعُ السَّـــــــتْرَابِ
 قَطَمْتُ يَتِيلَ بَنِي أُمَيَّةً
 قَهْمُ أَسْبَابِ الْعِتَـــــــابِ (٣)
 يَوْمَ الْبُضْيِيعِ وَمِثْلِـــــــهِ
 أَيَّامُ سَكَا وَالْقَبِـــــــَابِ

- (١) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١: ٤٤٩ ، والمخطوطة غير دقيقة الضبط والخط ، ولهذا غيرت في القراءة بحسب المعنى ، ولم أشر إلى مواضع التغيير لأن هذا يثقل الحواشي كثيراً .
- (٢) السلع : نبات مر ، وقيل نوع من السم ، والصاب : العلقم . ومن الغريب أن الشاعر الذي يدافع عن بني أمية ينسب إليهم الظلم ، وأنهم كانوا يسقون الناس سلماً وصاباً .
- (٣) البضيع جبل بالشام مشرف على الغوطة بدمشق ، وسكا : بفتح أوله وتشديد ثانيه ، اسم قرية بينها وبين دمشق أربعة أميال . معجم البلدان . ولم يرد في كتب الجغرافيين ذكر سكا للقباب ، ويبدو أنه من المواضع التي شهدت حروب القيسية واليمينية قرب دمشق .

وكان أبو العَمِيْطَر قد حقق انتصارات على قوات العباسيين في الشام ، ودانت له مناطق واسعة منها ، فأخذته نشوة الظفر ، فكتب إلى ابن بيهس كتاباً يدعو فيه للانضمام إليه ، قال فيه (١) : " بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فالعجب كل العجب لتخلفك عن بيعة أمير المؤمنين ، وجدانك أنعم أبائك عليك ، ولست ، ولا أحد من سلفك إلا في نعمته . وأنت تعلم مكان حرقتك بقرية تلغيانا (٢) ، وأن عشيرتك بالغوطة كثر منشورة . وأمير المؤمنين يحلف لك بالله لئن سمعت وأطعت ليلدن بسلك أقصى غاية الشرف ، ولوليتك ما خلف أباه . ولئن تخلفت وتأخرت لبيعن إليك ما لا قبل لك به من الزخوف التي تتلوها الحتوف بشاهد هذا السلاح المعد لأهل الخلاف والمعصية . "

وقية هذه الرسالة تكمن في كونها تفصح عن رغبة أبي العَمِيْطَر في تألف قلوب الشاميين جميعاً إليه ، وهو لذلك يغري زعيم قيس بالانضمام إليه ليستقيم له أمر الشام كلها ، وليتحقق للشاميين جميعاً قيسيتهم ومعيتهم الطويل بأن تعود إليهم العزة المفقودة .

وقد ألحق أبو العَمِيْطَر برسالته هذه أبياتاً من الشعر تهدد فيها ابن بيهس وتوعده من منة مخالفته ، ومناه فيها ، في الوقت نفسه ، بالسلامة إن أطاعه وأتبعه ، يقول (٣) : -

لئن كان هذا الجِدُّ منك لقد هـوى	بك الحين في أمورية غير طائـل
أبعد اجتماع الشام سمعاً وطاعة	إلي وإذ لالي جميع القباـل
وتوجيهي العمال في كل بلدة	وزحفي إليها بالقنا والقناـل (٤)
رجوت خلافي أو تغيت جامعاً	إزالة ملك ثابت غير زائـل
فإن تعط سمعاً أو تعلق بطاعة	تقل من ملات شداي السـزال
وإن تعص لا تسلم وفي السيف واعظ	لذي الجهل ما لم يتعظ بالرسائل

- (١) صورة تاريخ مدينة دمشق ١٥ : ٤٦٧ .
- (٢) تلغيانا بكسر الفاء ، من قرى غوطة دمشق ، الدائرة اليوم ، ذكرها في حديث أبي العَمِيْطَر .
- (٣) ياقوت : معجم البلدان ، مادة تلغيانا ، وانظر : غوطة دمشق : ٢٢٥ .
- (٤) صورة تاريخ مدينة دمشق ١٥ : ٤٦٧ - ٤٦٨ .
- (٤) القنابل جمع القنبل وهم الطائفة من الناس ومن الخيـل .

ويكشف هذا الشعر عن مدى اتساع سلطان أبي العميطر في الشام ، وعن توفقه الشديد إلى عودة الحكم الأموي إلى الشام . فكانت هذه الإجراءات الإدارية السريعة بتوجيه العمال ، وإرسال الزحفوف إلى القبائل النائرة . كما كان في إطلاق لقب أمير المؤمنين على نفسه أكبر دليل على هذا التوق . ومع هذا كله ، فإن القارئ يحس بقلق الشاعر الدفين ، إذ ما تزال هذه الإنجازات مهددة بالزوال . ولم يؤثر التوعد والتهديد في ابن بيهس ، ولم يستجب لدعوة أبي العميطر ، وهنا تحولت الثورة الشامية على العباسيين إلى صدامات قبلية ، وعبر الشعر بدوره عن ذلك التناحر القبلي . وما يوضح الناحية التاريخية الشعرية في تلك الصدامات أن أعرض مراحلها بتسـدرج :

١- خاض الفريقان معركة طاحنة ذعب فيها قتلى كثيرون ، وكُسِر جيش أبي العميطر ، وخرج ابن بيهس من المعركة أقوى مما كان ، واضطر أبو العميطر للتحصن في دمشق ، وإغلاقها على نفسه ، وأطاف ابن بيهس ومعه القيسية حول دمشق يحاصرونها ، وإلى هذا يشير ابن بيهس بقوله (١) :

حصرتُ بني أمية في دمشق	فما يُبدون منها قيس شبر
وكتلت لهم شجاً في حلق غار	دعا فأجابته ضلال فبر (٢)
حصرتُ بني أمية بعدما قعد	أباحوا للعراق وأرض مصر
ولم أغلق بقيتهم وإني	لحرب بما بقيت لآل صخر
حسرتُ لهم قناع القتل فيهم	فما أنفك ذا قتل وأسبر
ولولا أن قيساً أسلمتني	ولم تشفع شجاعتها بصبر
لقد أجلتُ أمية عن دمشق	وأصبح جائراً نهسي وأمري
ولي في ذاك بعد البدء عسود	بأقصى غاية إن طال عمري

٢- اجتمع إلى أبي العميطر وزراؤه ، وغزوه عن الانكسار بأن الحرب سجال ، فكتب إلى السواحل والبقاع وحمص يطلب مدداً ، وتجمع له جيش كبير جعل ابنه القاسم قائداً له ، والتقى جيش ابن بيهس في موقع بين شعباً وقرحاً ، فكانت بينهم حرب شديدة ضارية ، قتل فيها القاسم ورثاه

(١) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٥ : ٤٦٨ .
 (٢) ضلال فبر قصد بهم الأمويين . وفبر هو جد قريش ، انظر ابن حزم : جمهرة الأنساب : ٤٦٤ .

بقصيدة أوردتها آنفا ، وعاد ابن بيهس إلى سكا — مركز أعماله — ونصب هناك الأعلام العباسية السود ، ورفع رأس القاسم معها ، وقال يفتخر بما أنجزه (١) : —

شفتني من أمية باقيات	على الأيام من بيض الوقائع
وأنستني وتيعمة يوم سكا	وما أعطيته يوم الصوامع (٢)
وفي قردا قتلت حواء صخر	وكل مخاليف خزبان خاليع (٣)
عصيت بني أمية إذ أناهم	سواي من القبائل للمطامع
وصرحت الخلاف لهم وإنسي	لما صلاي حرب غير طائع
فمن علق يدي فبيس راد	ومأسور يمين من الجوامع (٤)
ومن أظفر به من آل حرب	يُعادر للذئاب وللخوامع (٥)

٣ — بعد هذه الانتصارات أصيب ابن بيهس بمرض ، وثقلت علته ، فأحب أن يتوجه إلى حوران ، ولدى إزماعه ذلك جمع رؤسا بني نعيم وقال لهم : قد كان من علتي ماترون ، فارقوا بيني مروان بن الحكم ، والطفوا بهم . وعليكم بمسلمة بن يعقوب (مرواني من نسل مسلمة بن عبد الملك) ، وأعلموه أنكم لا تثقون ببني أبي سفيان ، وإنما تثقون به ، فكلمت بنو نعيم مسلمة وبايعوه ، فدخل على أبي العميطر في الخضر (٦) على عادته ، وسلم عليه ، ثم أمر بالقبض عليه وتقييده بالأغلال ، وبغاث إلى رجال بني أمية يأمرهم بالقدوم على لسان أبي العميطر ، فكلما قدم واحد منهم أمره بالبيعة والسيف على رأسه ، وأدنى مسلمة القيسية ، ولبس الثياب الحر ، وإعلانا لقيسيته ، وخص كل وجه قيس كل امرئ بمنزل في دمشق .

- (١) صورة تاريخ دمشق ١٥ : ٤٧٠ .
- (٢) المواقع المذكورة جرت فيها حروب بين القيسية واليمانية في هذه الفتنة ، وهي جميعا في غوطة دمشق أو قريبة منها . انظر : غوطة دمشق : ١٧ و ٢٥ و ٢٤٠ و ٢٤١ .
- (٣) خاليع : ناقض للحكم خارج عليه .
- (٤) الجوامع مفردا الجامعة : الغل يجمع اليدين إلى العنق .
- (٥) الخوامع : الضباع .
- (٦) الخضر : هو قصر معاوية بن أبي سفيان . حرق في فتنة الفاطميين مع العباسيين سنة ٤٦١ هـ . انظر : غوطة دمشق : ٢٠٥ .

٤- أبل ابن بيهس من علقته ، وأقبل يريد دمشق ، فقال مسلمة لمن حوله : هذا صاحبكم - يعني ابن بيهس - يريد بنا ما صنع بأبي العميطر ، فقالوا له : ما عولنا بصاحب ، وما نعرف غيرك ، وهذه سيوفنا دونك ، وقال له بعضهم مؤكداً ذلك (١) : -

ستعلم نضحنا إن كان كسون	وتعلم أننا صبر كبرام
حماة دون ملكك غير ميئيل	إذا ما جد بالحرب احتد ادم
وسوف نريك في الأعداء ضرباً	تطير سواعد منه وهام
وطعننا في النحور بذابلات	طوال في أسنتها الحمم

عندئذ هاجم ابن بيهس دمشق ، ونشب قتال بين جماعته وجماعة مسلمة وكثرت الجراحات بين الفريقين ، وانصرف عنهم ابن بيهس ، وقد سا ظنه بقيس ، وهو يقول (٢) : -

سيكفي الله وهو أعز كاف	أمير المؤمنين ذوي الخلاف
وكل مقدر في اللوح يأتي	وكل ضابطة فالسي انكشاف
وما أنا بالفقير إلى نصير	سوى الرحمن والأسل العجاف (٣)
وعن حق أدانع أهمل جور	وسبي بين قصيد وانحراف

٥- تحسبت القيسية الملتفة حول مسلمة ، وتوجست خيفة مما قد يصنعه ابن بيهس بها ، فدخلوا على مسلمة وهم ينوون الغدر به ، وقالوا له : نرى أن نخرج إلى ابن بيهس ونسأله الرجوع عنا ، وحقن الدماء بيننا ، فإن فعل وإلا بطأنا أصحابنا عنه ، فصوب مسلمة رأيهم ، وبات وفد القيسية إلى ابن بيهس عنده ، وأحكموا معه الخطة للاستيلاء على دمشق ، وقد تم لهم ما أرادوا ، وفوجس مسلمة ومعه أبو العميطر في قيوده بهذا الذي حدث ، فهربا بملابس النساء من باب الجابية حتى أتوا العزة . وكان دخول ابن بيهس مدينة دمشق سنة ١٩٨ هـ ، وظل يقاتل أهل العزة وداريها ، وبيت لهيّا حتى سنة ٢٠٨ هـ حين قدم عبد الله بن طاهر إلى دمشق . وبعد سنتين عاد ابن طاهر من مصر إلى بغداد بطريق دمشق ، فأخذ ابن بيهس معه .

(١) صورة تاريخ دمشق ١٦ : ٤٦٠ - ٤٦١ .

(٢) نفسه : ١٦ : ٤٦١ .

(٣) الأسل : نبات ذو أغصان كثيرة شائكة الأطراف تصنع منه الرماح والنبيل ، ويطلق على كل ما رقق وحد من الحديد من سيف أو سكين أو سنجان .

ولابن بيهس شعر كثير في هذه الحروب الطويلة يفخر فيه بإفشال طموح الأمويين ،
إذ يقول (١) :

يُبْسَتْ أُمِيَّةٌ بَعْدَ طَوْلِ رَجَائِهَا	لِلْمَلِكِ وَأَعْتَرَفَتْ بِطَوْلِ شَقَائِهَا
وَمُنَعَتْهَا مَا حَاوَلَتْ مِنْ دَوْلَةٍ	كَانَتْ تَوْمَلُهَا بِنُورِ مَائِهَا
وَقَتَلَتْهَا عُقْبَانُ مَا قَامَتْ بِهِ	وَمُنَعَتْهَا مِنْ ظُلْمِهَا وَسَبَائِهَا
أَنْ لَنْ يَقُمَ مِنْ عَبْدٍ شَمْسُ مَارِقِ	فَلَقَدْ دَنَا مِنْ حُتْفِهَا وَبَلَائِهَا
وَأَنَا الزَّعِيمُ لَهَا حَيَاتِي أَنْ تَكْـ	لِلْمَلِكِ طَالِبَةٌ بِدَارِ قَنَائِهَا

ومن غير شك أن ابن بيهس القيسي كان يخشى أن تقوم للأمويين قائمة جديدة على يدي أبيي
العميطر السفلياني أو غيره من الأمويين الذين ينتصرون بالينية حين يثرون ، لأن في بعث الدولة الأموية
خطرا يتهدد القيسيين المنحازين عن الأمويين ، المناصرين للعباسيين ، وعزاً لكلب المؤيدة للسفليانيين .
وهذا الحسن يظهر بلا مواربة في قول ابن بيهس في قصيدة أخرى (٢) :

بَنِي عَيْلَانَ قَدْ أَشْشْتُ مَجْـ	لَكُمْ فِي النَّاسِ إِذْ تَمَّ الْبِنَاءُ
أَمَلْتُ لَهَا شَيْمَ عُنُقًا إِلَيْكُمْ	وَوَدَّأَ لَا يَزَالُ لَهُ بَقَاءُ
وَسَوْفَ تَرَوْنَ غَبَ وَفَاءٍ عَهْدِي	إِذَا أَعْلَسَ بِكُمْ الْعَمَلُ
وَذَلَّ أَبِي الْعَمِيطَرِ عِزَّ قَيْسِ	وَعِزَّ الدِّينِ مَا بَرَقَ الضِّيَاءُ

ويلاحظ ما في الأبيات من كراعية الشاعر الشديدة للأمويين ، وذلك بإيرادها لألفاظ : أُمِيَّةٌ ،
صخر ، ابن حرب ، آل حرب ، في مواطن التشفي بتقتيلهم والظفر بهم ، وعصيان أمرهم ، فضلاً عما
يبدو من استخفاف ابن بيهس بهم ، إذ يعددهم بأن تبقى جثث قتلاهم طعاماً لكواسر الوحوش . كما
يصرح بأن غايته من كل ما قام به هي إرضاء المأمون . يقول في إثر مقتل القاسم بن أبي العميطر (٣) :

(١) صورة تاريخ مدينة دمشق ١٥ : ٤٦٨ .
(٢) المصدر نفسه ١٥ : ٤٦٩ .
(٣) نفسه ١٥ : ٤٧١ .

منعتُ بني أميةَ ما أرادتُ وقد كانت تفتُّ بالخلافِ
أبرئهم من الشاماتِ قتلاً ولم تك لي بهم في ذاك رافسةً^(١)
أناضلهم عن المأمونِ إنسي على من خالف المأمونَ آفةً

ويُدلُّ ابن بيهس بنفسه وبقبيلته على المأمون في قصيدة أخرى أرسلها إليه ليحظى بكافئة شخصية لنفسه ، وأخرى لقبيلته ، وفيها يقول كاشفاً عن هاتين الخائيتين بصورة جلية ، ولا أدنى موارد^(٢) :-

أبلغنا اليومَ على الـ بعدُ أميرَ المؤمنينِ
أنني أهلكْتُ بالشـ ام أميرَ المجرمينِ
وقتلْتُ ابنَ عَظِيمِ الـ مارقينَ المعتدينِ
تاسماً لما عَدا يستجلبـ ب الحربِ الزبونِ^(٣)
لم ندعُ بالشـامِ كبشـاً من كباشِ العيشمينِ^(٤)
ظالمًا إلا سَقِينـاً ه بها الكأسَ المنونـاً
ليت شيعري هل أتى المـ أمونَ أنا قد عُنِينـاً
بالذي صارَ إليه في أمورِ السُّلمينِ
وكفِينـاهُ ببـيـضٍ مرهفاتٍ من يلينـاً

٦- وتوفي مسلمة في الغزة ، وصلى عليه أبو العميطر ، فلما رُفعت جنازة قال أبو العميطر مخاطباً به :
"رحمك الله ، وإن كنت قد ظلمتني وظلمت نفسك " . ولم يعيش أبو العميطر بعده إلا قليلاً ، وتوفي في الغزة أيضاً ، ودفن في حانوت ليخفي قبره فلا يُنبش^(٥) .

-
- (١) أبرت : أهلكست .
(٢) تهذيب ابن عساكر ٢ : ١١٣ .
(٣) الزبون : يقال تزبن الحرب الناس تصدمهم فهي زبون ، على التشبيهِ .
(٤) العيشمين : قصد الأمويين الذين ينتسبون إلى عبد شمس .
(٥) تاريخ مدينة دمشق ١٦ : ٤٦١ .

هذه صورة تلك الأحداث ، وما قيل فيها من أشعار ، ومن المناسب التوقف هنا لإلقاء نظرة على محصول ذلك كله . وعنا لا بد أن نذكر أن أبا العميطر حين بويج بالخلافة كان شيخاً كبيراً قد تجاوز التسعين ، ومثله لا يصلح في تلك السن الواهنة للتعرض بشؤون كبيرة . والنائب أن أبا العميطر لم يكن إلا " واجهة " يتستر وراءها طامحون تغريهم على الخروج شائعات تصور لهم الخلاص على يده سفياني ، وقد أرادوه على الخروج عدة مرات وعوياًبى ، حتى اصطنعوا الحيل للإيقاع في روعه أنه هو " المخلص " المرموق ، فمن أساليبهم أنهم حفروا تحت بيته سرداباً ، وكانوا يدخلونه في الليل وينادونه : " اخرج فقد آن لك " ، وكرروا ذلك عدة ليال ، فخرج ^(١) . وكان هو " لا " الناس يتفتنون في تلقيه فيقولون مثلاً : يا علي يا مختار ، يا من اختاره الجبار ، على بني هاشم الأشرار ، أو يقولون للناس : بايعوا " مهدي الله " ، أو : قوموا بايعوا الرضى من آل محمد ^(٢) . وقد كانت الوحدة بين القبائل العربية سبيلها إلى النجاح في تقويض الحكم العباسي ، خصوصاً لأن الفتنة بين الأمن والمأمون كانت قد بدأت . ولكن عرق العصبة القبلية بين اليمنية والقيسية ، وإسراع أبي العميطر إلى تهديد ابن بيهس لا إلى استمالته باللين ، وتبيان المصالح المشتركة بينهما قد جعل ابن بيهس يقاتل دفاعاً عن خلافة غائبة عن الشام . ومن هذا الوجه نجد اختلاطاً في تلك الفتنة بين أهداف سياسية وأخرى قبلية . وكانت الأهداف تتبادل بحسب تقلب الحال ، وتلون ظروف الحرب ، ولا ريب أن الفصل هنا بين السياسي والقبلي أمر متعذر ، فابن بيهس وقف إلى جانب الخلافة ، لا حفاظاً على رابطة الجماعة وتخوفاً من نتائج الفتنة ، وإنما حفاظاً على مصالح قبلية وأخرى شخصية .

ومهما تكن نظرنا إلى تلك الحروب ، فالهم في هذا المقام هو ما تمخضت عنه من شعر . ولا ريب أنها كفلت بروز شاعرين لم تكن لنسمع عنهما لولا اتصال أشعارهما بتلك الأحداث . ومن الحق أن يقال إنهما شاعران متميزان ، ولكن اقتضار شعرهما على الفتنة قد حد من شهرتهما . وإذا كان هذا الشعر قد فجرت الفتنة ، فأخربه أن يحمل في ثناياه ما تبثه الفتنة في النفس من عـرام وحقد ! وهذا واضح تماماً في شعر ابن بيهس ، وهو أقل وضوحاً في شعر أبي العميطر السدي جنحت به السن قليلاً إلى إضعاف حدة المزاج فيه ، ويحس قارى هذا الشعر بأنه يصدر في كـل حال عن أفق ضيق محصور في ما تفجروه العداوة من براكين . فالشاعر لا يرى أمامه سوى ملابسات

(١) تاريخ مدينة دمشق ١٢ : ٤٤٦ .

(٢) المصدر نفسه ١٢ : ٤٤٨ .

الأحداث ، فهو إذا استثار أو رثى أو تمنى فإنما يفعل ذلك كله من خلال فوهة الحدث نفسه ، غير معني بأبعد من ذلك . وأوضح شاهد على ذلك رثاء أبي العميطر لابنه القاسم ، فهو لا يرثي ابنه ، وإنما كل همه معقود بهلك قيس ، وتسريح الخيل لتحيث في ديارهم إفساداً ، وتحريض بني أمية ، واستثارة نخوتهم بألوان من التعبير لكي يتنبهوا لابن بيهس الذي يحارب عن ملك ليس لعثرته فيه نصيب .

وهذا الانحصار في حدود الحدث واضح تمام الوضوح في شعر ابن بيهس ، فهو يتحدث عن حصره لبني أمية في دمشق ، ولكنه هو في شعره الذي يسجل فيه ذلك الحدث محصور في نطاق ضيق محدود لا يكاد يتعداه ، وهو أنه حصر بني أمية في تلك المدينة ، لأنهم أباحوا العراق وأرض مصر ، وسيظل حرباً عليهم ، وسيظل يقتلهم ويأسرهم ، ولولا تخاذل قيس إن لا أجلاهم عن دمشق ، وإذا كان أخفق في تلك المرة فإنه سيحاول ذلك مرة أخرى . ولما كان هذا الشعر لا يحمل إلا بعداً واحداً فإنه لا يستطيع أن يعيش في النفوس بعد ذهاب الحادث نفسه ، وقد يحاول ابن بيهس أن يخرج في بعض أبياته من هذه الزاوية الضيقة ، فيمزجه بمناصر دينية ، كما في مقطوعته القافية : —

سيكفي الله وهو أعزُّ كفافٍ أمير المؤمنين ذوي الخلاف

فيحدث عن عناية الله بال خليفة ، وعن المقدر وأنه آت ، وعن انقشاع غيمة الشدة ونزول الفرج ، وعن الإيمان بنصر الله . ويصف قيامه على أهل الجور بأنه ذب عن الحق ، ولكن هذا الوتر غير شائـم كثيراً في شعره .

ومما يحد من القدرة على التفاعل مع هذا الشعر دوران أكثره على " الذات " ، والتمسـدح بشؤون ليست من عظام الأمور مثل : حصرت بني أمية ، ومنعتُها ما حاولت من دولة ، وقتلتها ، وعصيت بني أمية ، وصرحت الخلاف لهم ، ومن أظفر به منهم غادرت للذئاب والضباع . وإذا كان كل هذا يحققه قائلة فإنه يوحى للسامع أو القارئ أنه يجرب جيروته الطاغية في عدو له ضعيف واهن كالأرانب حينئذٍ وضعفاً . ولهذا لا يجد قارئ هذا الشعر أية راحة نفسية فيه كذلك الراحة التي يشعر بها إزاء انصاف الشاعر لأعدائه . وحسبنا أن نقارن بين النماذج التي وردت من قبل وبين قصيدة لشاعر اسمه يزيد بن عاصم من وجوه أصحاب ابن بيهس نفسه ، وكان فارساً قائماً بحرب أبي العميطر ، ونصرة المأمون ، وقصيدته

في الموضوع نفسه - أعني معركة قبلية - يفخر فيها الشاعر بزعيم قبيلته قيس و بانتصارها ، ولكنه لا يغط السغيانيين نصيبهم من الشجاعة والصبر على عَضِّ الحَرْب (١) : -

فما أنسى من شيء كشيء فأننسي	لأيامنا والخارجي ذكُور
غداة بني حرب يزجون نحونا	عساكر أمثال الجبال تسيور
ثلاثون ألفاً بين رجل وفارس	لهم عارض مستقبل وصبور (٢)
فلما التقينا للزوال وأرعنا	سماً علأ والدائرات تدور
صبرنا لهم دون الحريم وصابروا	فكل على وقع الحديد صبور
نطاعنهم طوراً ونضرب نبالاً	بأثورة هاماتهم ونسور (٣)
شعاراتنا المأمون في كل مآزق	وفي كل حال والدماء تقور
إذا ما شدنا شدة نصبوا لهما	صدور قنا تشقى بهن نحور
ونحن إذا شدوا صبرنا ، فميت	جريح ، ومطعون اللبان نحير
فلما رأونا لا ترد وجوهنا	وقد طال ليل القوم وهو قصير
تولوا عباديد الفرار كما نجست	يعاقيبها جث بينهن صقور (٤)
ونحن على آثارهم فمَجَسَدَل	سليب ، ومشدود اليدين أسير
لنا سائس في الحرب من آل بينهم	يخاف علينا في الأمور أمير
لعمري ، ولم أمتن بذاك على امسري	ولي في العدا يوم اللقاء نكير
لقد علمت علياً نكيراً بأنسي	إذا غاب مقدام الرجال ، جسور
وأنسي غداة المرج لم أك زميلاً	ولا كان لي في العالمين نظير (٥)
ولي موقف يوم الصوامع ذكُور	على الدهر باقي ما تبلج نسور

فهذه القصيدة شديدة الشبه بالقصائد التي سميت "المنصّفات" ، وإن كانت تختلف عن المنصّفات بعض الاختلاف ، لأن المنصّفات تهتم برسم التكافؤ بين القبيلين ، وهذه القصيدة تجعل الغلبة للفئة

- (١) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٨ : ٣١٧ .
 (٢) الصبّير : السحاب الأبيض المتكاثف ، جمع صَبَّرا . (٣) نسور : نبطش .
 (٤) يعاقيب جمع اليعقوب وهو ذكر القطا والحجل .
 (٥) زميلاً : جباناً نذل .

القليلة ، والمنصفات لا تنتهي إلى غلبة أحد الفريقين ، وقُصارى الشاعر في المنصفات أن يُصور الفريقين وقد خرجا منهكَيْن^(١) :-

فبانوا بالصَّعِيدِ لَهُمْ أَحْصَاحٌ ولو خَفَّتْ لَنَا الْكَلَمَى سَرِينَا

ومن الغريب أن دارس الشعر - في أوقات الصراع هذه - لا يكاد يظفر بشعر شامي يُقَدِّم مصلحة الشام كلها بقيسها وينها على المصلحة القبلية الضيقة غير الأبيات التي قالها أبو خالد التنوخي القنسريني^(٢) ، ففيها تنبه إلى هذه الناحية ، كما أن فيها توبيخاً صادراً عن نفس مكلمة لهـذا^(٣) التعزق في صفوف الشاميين ، إذ هو يستل على خصومهم الخراسانيين استلابهم والغلبة عليهم ، يقول :-

وَإِيَّاهُ نَزَارُ وَإِيَّاهُ عَنْكَ تَحَطُّسَانُ حَتَّامٌ شَغْلُكُمْ حَرْبٌ وَشَنْئَانُ^(٤)
فَيْمَ التَّحَارِبِ يَا لِلشَّامِ قَدْ جَنَمَاتُ عَلَيْكُمْ (تَبْلُوها خِرَاسَانُ^(٥)
لَا الْمَالُ مَالٌ بِأَلِ الشَّامِ إِنْ قَطَعَتْ خُلِيَ الْفَرَاتُ وَلَا الْأَوْطَانُ أَوْطَانُ
هَذِي أَرَاكُمْ بِشَرْحِيَّةٍ رُقُوسٍ فَوَهَا إِلَى هَلِكِكُمْ غَرْثَانُ ظَمَّانُ^(٦)
قَدْ يَمْتَكُمُ فَادَنِي عَفْوَهَا نَقُوسٍ وَودَّهَا لَكُمْ غِيلٌ وَأَضْفَانُ

فهو يضع الشاميين جميعاً من القيسيين واليعنيين أمام محك كبير ، وتحدّ عظيم ، هو الخطر الداهم الذي سيحل بهم على أيدي الخراسانيين أنصار بني العباس ، ولا شك أن الشاعر في تحذيره

- (١) الحماسة ، شرح المرزوقي ، نشرها أحمد أمين وعبد السلام هارون ، مطبعة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٥١ ، القصيدة ١٥٢ (١ : ٤٥٠) ، والبيت من قصيدة لعبد الشارق بن عبد العزى الجهنّي ، وهو شاعر جاهلي ، ومعنى البيت كما قال المرزوقي هو : بقوا ليلهم يثنون على الصعید وهو وجه الأرض ، ولو ساعدتنا الطائفة المجروحة منا وقدرت على السرى لسرينا ، ولكن كلا منّا اضطر إلى الإقامة والتلوم ريثما ينوب إليه القوى بعد لحوق الجهد ومشاركة السرى .
- (٢) شاعر كان في زمن المأمون ، ترجم له دعبل في طبقات الشعراء ، انظر : بغية الطلب ، مصورة الجامعة الأردنية : ٨ ، الورقة ٧٦ ب .
- (٣) المصدر السابق .
- (٤) وإيهاً : اسم فعل للاستزادة من حديث أو عمل ما . وتكون للإسكات والكف بمعنى حبسك كما في هذا البيت .
- (٥) جشأت ، يقال جشأ العدو إذا نهض وأقبل ، وجشأ على نفسه ضيق ، وقد سقطت من البيس كلمة أخلت الوزن فأثبتناه على حاله .
- (٦) غرثان : جائع .

يستذكر ما حلّ بأهل الشام من مأس وفجائع على أيدي أبي مسلم الخراساني وعبد الله بن علي إبان قيام الدولة العباسية ، وهو لذلك يخشى من تكرار المأساة بسبب من هذا الاحتراب والتنازع بين قيس ويميم .

(ب) وفي أيام المأمون أيضًا ، وبعد حركة أبي المعيطر ، خرج سفياني آخر هو سعيد بن خالد ابن محمد القسديني في يمن ، وجعل يتعقب القيسية ، وكان الذي تولّى حربه هو يحيى بن صالح ابن بيهس ، أبو الوليد ، وهو أخو محمد الذي كان قد تصدّى لحرب أبي المعيطر ، ويقول فيه ابن عساكر : " كان يحيى من علماء أهل الشام بأيام العرب ووثاقها " ، رأى أبا تمام الطائي بدمشق ٠٠٠ . وكسان فارسًا شاعرًا ، وهو الذي تولّى حرب سعيد بن خالد بن محمد الذي خرج في أيام المأمون بعد أبي المعيطر^(١) ، وأورد ابن عساكر من شعره الأبيات التالية يفتخر فيها بقبيلته وبفروسيته وب دفاعه عن ملك المأمون ، ويقضاه على هذا الخارج الأموي^(٢) : -

إذا ما الناس عدوا جاهليًّا	من الأفعال عجمانًا وعربًا
رأونا خير من ألقى نزارًا	إليه أمورًا شرقًا وغربًا
لعمرك أبي موارق عبد شمس	أليّة صادف لم يأت ذنبًا
لقد لقيت بما سوح غرامسًا	أمية عمنها طعنًا وضربًا ^(٣)
عشيّة لا أرى إلا قتيًّا	ومأسورًا يُقاد إليّ سحبيًّا
أناغلهم عن المأمون إنسي	رضيت فعالة واللّه ربًّا

وقيمة هذا الشعر تكمن في بعده التاريخي ، إذ يُبرز إصرار الأمويين على نقض الحكم العباسي ، وعلى نجاح العباسيين في ائتلاف الأنصار من إحدى الطائفتين لتظل لهم السيادة على الشام ، مستفيدين من هذا التناقض القبلي . ومن اللافت للنظر أن أبا المعيطر وسعيد بن خالد أول من تجرأ على

(١) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٨ : ١٣٦ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) عرام الجيش حده وشدته وكثرته : وما سوح قرية بالبلقاء . والمعنى : لقد لقيت أمية في هذا المكان جيشًا شديدًا أوقع بها الطعن والضرب .

حمل لقب الخلافة في العصر العباسي من غير العباسيين قبل أن يفعل ذلك العبيدوني الفاطميون بنحو قرن من الزمان .

(ج) وعاود الشاميون الثورة في فلسطين والأردن بقيادة المبرقع اليماني ، وفي دمشق بقيادة قيسي يدعى ابن بيهس ، ولعله غير ابن بيهس الذي ناصر المأمون ، وكانت ثورتاهما في أواخر خلافة المعتصم ، وأوائل عهد الواثق ، وفيهما نظم الطائيان الكبيران أبو تمام والبحتري شعراً يعرض وجهة نظر الدولة الحاكمة ، فأسى البحتري المبرقع اليماني بالباغي الطافي ، وأسى أبو تمام ابن بيهس القيسي وحركته بالفتنة . غير أن الشاعرين يفترقان بعد ذلك ، إذ بينما اكتفى البحتري بالثنا على جهود القائد العباسي الذي "نجح في القضاء على المبرقع وثورته ، فإن أبا تمام أضاف إلى الثنا على موسى الرافقي ^(١) جملة نصائح ليستقيم له أمر الحكم في دمشق كما افترق الشاعران في أمر آخر ، إذ بينما من البحتري ثورة المبرقع اليماني مساً رفيقاً متعجلاً فجاء حديثه عنها حديثاً عارضاً في أبيات معدودات من قصيدة عدتها أربعة وثلاثون بيتاً ، خصص جزءها الأول للنسيب ، وخصص الجزء الأكبر للثنا على المدحج وأعله الفارسي ^(٢) ، فإن أبا تمام أعطى ثورة الدمشقيين على موسى الرافقي اهتماماً أكبر ، وإن لم يذكر زعيم الثائرين القيسي مثلاً فعل البحتري بذكره اسم زعيم الثائرين اليماني .

يقول البحتري في عبد الله بن دينار وقضائه على حركة المبرقع مهملًا تمامًا الحديث عن رجاء ابن أيوب الحضاري الذي ذكرت كتب التاريخ أنه هو الذي أخذ حركة أبي حرب اليماني ^(٣) : -

- (١) هو موسى بن إبراهيم الرافقي ، أبو المغيث . كان أميراً على دمشق في أيام المعتصم والواثق وتولى في زمن المتوكل أمر المعونة بحمص . انظر ترجمته في : معجم الشعراء : ٢٧٩ ، مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٥ : ٢٥٥ ، ابن الأثير : الكامل ٥ : ٢٦٧ ، سير أعلام النبلاء ١٠ : ٥٧٤ .
- (٢) اسم هذا القائد عبد الله بن دينار بن عبد الله ، كان أخوه أحمد أمير البحر في زمن المتوكل . وتذكر المصادر التاريخية أن الذي قضى على ثورة المبرقع هو رجاء بن أيوب الحضاري ، غير أن في قصيدة البحتري رقم ٣٤ التي ندرس دليلاً على اشتراك عبد الله بن دينار في هذا الجهد . وانظر : البد ، والتاريخ ٥ : ١١٩ ، الطبري ٩ : ١١٨ ، ابن الأثير ٥ : ٢٦٧ .
- (٣) في مصورة تاريخ دمشق ٦ : ٢٢٩ ، ما يلي : "ولي الواثق رجاء بن أيوب الحضاري قتال أبي حرب المبرقع الذي خرج بفلسطين ، وكان رجاء بالرقعة فتوجه أول الأمر إلى دمشق لحرب قوم من قيس خرجوا فيها على موسى الرافقي ، فقاتلهم فقتل منهم ألفاً وخمسائة ، وقتل من جماعته ثلاثمائة ، وانضم إليه اليمانية ، ففر ابن بيهس القيسي إلى قومه بحوران ، ثم سار رجاء صوب الأردن لمحاربة المبرقع . وتوفي رجاء سنة ٢٤٤ هـ / ٨٥٨ م . والبيتان من القصيدة ٣٤ من ديوان البحتري .

فَجَرَدَ نَهْلَ السَّيْفِ حَتَّى تَفَرَّقَتْ
عَنِ السَّيْفِ مَخْضُوبًا جَمْعُ أَبِي حَرْبٍ
فَإِنْ عَمَّ أَعْمَلُ النَّوْرِ يَوْمًا بَعْدَ
إِلَى الْغَيِّ مِنْ طُغْيَانِهِمْ فَهُوَ بِالْقُرْبِ

ويقول أبو تمام (١) في حركة ابن بيهس والثنا على موسى الرافقي :

فَتَنُّ جَلَّوَتْ ظَلَامَهَا مِنْ بَعْدِ مَسَا	مَدَّوْا عَيْنَنَا نَحْوَهَا وَرَوْسَا
حَرْبُ يَكُونُ الْجَيْشُ بَعْضُ صَبُوحِهَا	وَيَكُونُ فَضْلُ غُبُوتِهَا الْكُرْدُ وَسَا (٢)
سَارَ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ مُوسَى سَيِّدُ رَّة	سَكَنَ الزَّمَانُ لَهَا وَكَانَ شُمُوسَا
فَأَقْرَ وَاسْطَةَ الشَّامِ وَأَنْشَأَتْ	كَهَاهُ جُودًا لَمْ يَنْزِلْ مَرْمُوسَا (٣)
كَانَتْ مَدِينَةُ عُسْقُلَانَ عُرُوسَهَا	فَعَدَّتْ بِسِيرَتِهِ دَمَشْقُ عُرُوسَا

إلى أن يقول بياضاً ذكي ناصحاً موسى بأن يكون كريماً سمحاً تقياً ، وكأنما قدم فيه المديح ليكسب
وَدَّ الْأُمَيْرُ فَيَتَقَبَّلَ مِنْهُ النَّصِيحُ :

أَعْطِ الرِّيَاسَةَ مِنْ يَدِيكَ فَلَمْ تَنْزِلْ	مَنْ قَبْلَ أَنْ تُدْعَى الرَّئِيسَ رَئِيسَا (٤)
أَسْقِ الرِّعْيَةَ مِنْ بَشَاشَتِكَ الْبَيْتِ	لَوْ أَنَّهَا مَا لَكَانَ مَرْمُوسَا (٥)
إِنْ الطَّلَاقَ وَالنَّدَى خَيْرٌ لَهُمْ	مَنْ عَفَى جُمِئَتْ عَلَيْكَ جُمُوسَا (٦)
لَوْ أَنَّ أَسْبَابَ الْعَفَافِ بَلَا تُقْسَى	نَفَعَتْ ، لَقَدْ نَفَعَتْ إِنْ إِبْلِيسَا

وقد كانت ثورة المبرقع البغدادي بوطأتها ، وبعدها الاعتمادي قمينة بأن ينظم فيها شعراً
كثير يتجاوز نظم البحري العارض فيها في مدوحه ، ولعل شيئاً من ذلك كان .

(١) القصيدة ٨٢ من ديوان أبي تمام بشرح التبريزي ، وتحقيق محمد عبدة عزام ، ط ٦٢ دار المعارف بمصر .

(٢) الكرديوس : الكرديوسه هي الطائفة العظيمة من الخيل والجيش جمع كراديس .

(٣) المرموس : المدفون .

(٤) ذكر نجيب البهيتي أن المقصود بهذا البيت هو طلب أبي تمام الرئاسة لنفسه من موسى الرافقي ، ولا معنى لهذا التوجيه بدلالة الأبيات الأخرى ، والمعنى المبرر : أعط الرئاسة حقها من الاعتماد والفضل . انظر قول البهيتي في : أبو تمام الطائي حياته وحياة شعره : ٩٢

(٥) المرموس من الماء ما يشفي الغلة ، والترقيق .

(٦) جسم بمعنى جسد ، ومعنى البيت : كن كريماً طلق اليدين بالبذل فذلك خير لهم من الإمساك .

ومن عجب أن أبيات أبي تمام في ثورة الدمشقيين على موسى الرافقي تصور الشاعر صاحب موقف قد يوصف بأنه منحاز إلى صف الجماهير إذ يجعل من نفسه ناصحاً أميناً للوالي عندما يبصّره باحتياجات الرعية ، ولكنّ وضع " الطلاق والندى " في مقابل العفة تعني أن الرعية أحوج إلى البذل ، فهي به تنتفع ، ولكنها لا تنتفع بالعفة التي هي مقصورة على صاحبها ، وهذا فضلاً عما يحس به القاري من تجريح خفي لشخص المعدوح وسياسته تجاه رعيته .

(د) ما تقدم من ثورات كانت كلها تمثل دور دمشق في محاولة الخروج على السلطان العباسي ، ولكنّ حصص حملت عنها هذا الدور في عهد المتوكل ، وبخاصة ثوراتها المتنامية على عتاله . وقد استوقفت ثورات الحمصيين البحتريّ في ثلاث قصائد مدح بها المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان ^(١) . وفيها يتحدث الشاعر عن حصص يسكنها جميعاً على اختلاف قبائلهم ، فكأن الحمصيين كانوا متحدي الكلمة في تحدي السلطة العباسية ^(٢) .

وليس في هذه القصائد الثلاث معلومات تاريخية ضافية عن ثورة الحمصيين ، فالبحتري لـم يكن يؤرخ ، وإنما كان يمدح ، ولكنه حين يقول ^(٣) :

أرى شملكم يا أهل حصص مجتمعا	بعقب افتراق منكم وتشعرا
وكنتم شعاعاً من طريد مشرد	وثاورد ، أو خائف مرقب
ومن نقر فوق الجذوع كأنهم	إذا الشمس لاحتهم حرابي تنضب ^(٤)

فإن في قوله هذا دليلاً على التنكيل الذي حدث في تلك المدينة ، إذ هداوا وألتم شملهم بعمد أن جعلتهم العقوبة فرقة ، بعضهم فارخائف ، وبعضهم قد سكن القبور ، وبعضهم علق مصلوباً على

(١) الفتح بن خاقان (٢٤٧-٢٥٠ هـ / ٨٦١-٨٦٤ م) كان أنبياً فصيحاً ، وشاعراً نبيلاً ، وزيراً للخليفة المتوكل ، وأمره على الشام ، وكان مقدماً عنده على الأهل والولد . قتل معاً في سنة ٢٤٧ هـ ، انظر في التعريف به : معجم الأدباء ، ١٦ : ١٧٤-١٨٦ ، فوات الوفيات ٢ : ١٢٣ .

(٢) في بعض المصادر التاريخية أن أهل حمص وثبوا في زمن المتوكل بعاملمهم على المعونة أبي المنيت الرافقي فأخرجوه من مدينتهم ، وأخرجوا معه صاحب الخراج . فلما بلغ المتوكل ما فعله أهل حمص بعماله أرسل إليهم من يحاربهم ، وأمدّه المتوكل بجند دمشق ، وأمره أن يأخذ ثلاثة من رؤسائهم فيضربهم بالسياط ضرب التلف ، فإذا ماتوا صلبهم . انظر : الطبري ٩ : ١١١ .

(٣) من القصيدة ٦٣ من ديوانه .

(٤) حرابي جمع حرباً ، وهي الدويبة المعروفة ، شبههم بها لأنها تستقبل الشمس نهارها وتدور معها كيف دارت ، وتتلون ألوانها .

الجدوع، والفضل في تأمين الخائف، وإغاثة الملهوف، منهم يعود إلى الفتح بن خاقان، فهو الذي رد الطمانينة إلى قبائل طي، ومدحج وذوي الكلاع ويخصّص :

تَدَهَّدَهُمْ مِنْ حَالِي مُتَصَصِّبٍ	تلافكم الفتح بن خاقان بعد ما
وَعَوًّا لَمَلْهَوْفٍ، وَغَفَا لَمُذْنِبٍ	بعارفة أهدت أماناً لخائف
(١) خُصُوصًا، وَعَمَّتْ فِي الْكَلَاعِ وَيَخْصُصُ	عنت طيئاً جمعاً، وثنت بمدحج
(٢) لَهُمْ جَانِبُ الْيَوْمِ الْعَبُوسِ الْعَصْبُصِ	ردت الردى عن أهل حمير وقد بدا

لقد غدا الحمصيون في هذا الشعر هم المذنبين، وغدا المتوكل ووزيره الفتح هما اللذين استأثرا بكل فضيلة حين شاعلا النائرين بعفوهم وتسامحهما وإحلالهما للأمن .

وإمعاناً من الشاعر في تجاعل أسباب ثورات النائرين في حمص وفي الجزيرة، وإمعاناً منه في التودد إلى مدوحه، أو مدوحه نلقاه يصل بين هذا الفضل الطارف الطارى، بآخر قديم تالده، بين عفو عن الحمصيين، وعفو عن التغلبيين الذين كانوا خرجوا في الجزيرة، فيقول : -

وَكَاثَ يَدًا بِيضًا، مَثْلَ الْيَدِ الْبَيْضِ	نَعَشَتْ بِهَا عَمْرُو بْنُ غَنَمٍ بَنَ تَغْلِبٍ
فَلَمْ تَرَعْنِي نِيْمَتَيْنِ اسْتَحَقَّتَا	ثَنَاءَهُمَا فِي ابْنِي مَعْدٍ وَيَعْرُبٍ

وكرر الشاعر هذا الربط في قصيدة أخرى (٤)، فقال في فضائل المدوح : -

فَكَمْ حَقَّنْتُ فِي تَغْلِبِ الْغُلْبِ مِنْ دَمٍ	مُبَاجٍ، وَأَدْنَتْ مِنْ شَتِيٍّ مَفْرِقٍ
وَكَمْ نَفَسْتُ فِي حَمَصٍ عَنْ مَتَأَسِّفٍ	غَدَا الْمَوْتُ مِنْهُ آخِذًا بِالْمُخَنَّقِ
وَقَدْ قَطَعْتُ عَرْضَ الْأُرْدُنِّ إِلَيْهِمْ	كَتَائِبُ تُرْجِسِي فَيَلْقَا بِمَعْدٍ فَيَلْقَى

(١) طي، ومدحج والكلاع ويخصص قبائل فحطانية، انظر : ابن حزم : جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٢ : ٣٩٨، ٤٧٦، ٤٣٤ - ٤٣٥ .

(٢) العصبص : الشديد الشبر .

(٣) عمرو بن غنم بن تغلب حي كبير فيهم بيت تغلب وعددها . انظر جمهرة الأنساب : ٣٠٣ - ٣٠٤ .

(٤) هي القصيدة ٥٨١ من ديوانه .

(٥) سمت تغلب بالغلباء لأنها كانت عزيزة منعمة .

(٦) المخنق : العنق .

(٧) الأردن : هو نهر العاصي، ويقال له نهر الرستن، ونهر أنطاكية .

إن السلطة العباسية في هذه الأشعار تبدو متسامحة حاقنة للدماء ، آخذة بيد الملهوفين مولفة للقلوب ، مبعدة لأشباح الخوف والقتل والتشريد عن الناس . فهل كانت كذلك حقاً ؟ أغلب الظن أن الشاعر أحد اثنين : فإما أنه يفتت على الحقيقة والواقع لأنه منتفع ، لأن تلك الثورات ما كانت لتحدث لو أن الناس كانوا راضين عن واقعهم السياسي والاقتصادي . وإما أنه يريد من السلطة أن تأخذ أولئك الثائرين بالحسن ، وأن توسّع على الناس أسباب الرزق ، ومطالب الحياة فلا يشعرون ، وذلك قد يُستشف من قول الشاعر ^(١) في مدح حه الفتح : -

به استأنفوا برّد الحياة وأسندوا إلى ظلّ فينانٍ من العيش مُسروق
تنتي عنكم زحف الخلافة بعد ما أضأت بروق العارض المتألّق

وقوله في أخرى ^(٢) في المتوكل في إشارة صريحة إلى أن الثواب أنفع في السياسة وأجدي من العقاب : -

تداركت بالإحسان حصراً وأهلها وقد قارفوا نعل الإساءة والخُرق
طلعت لهم وقت الشروق فعاينوا سنا الشمس من أفقٍ ووجهك من أفق
أرئيتهم إذ ذاك قُدرة قساير وعفوا محبباً للسلامة مُستبِق
منّت عليهم بالحياة فأصبحوا مواليك فازوا بك باليمن والعشيق

ثم إن الشاعر يُراهن مطمئناً إلى نتيجة مراهنته على أن الإحسان سيثمر إحساناً مثله :

وإنّ ولاّ المعتق من الردى يفوق ولاّ المعتق من السرّ

وإنه ليحسن أن يقال عنا إن البحتري ، وهو الشاعر الشامي الأصيل ، كان يمكن أن يكون أكثر التصاقاً بهجوم الشاميين بعامة ، والحصيين بخاصة ، لو لم يركض وراء الجاء العريض ، والشراب الواسع يحصلهما في قصور الخلفاء العباسيين ، بل كان من الممكن أن يشير إلى فساد إدارة عمّال المتوكل على حصص ، ومنهم عامله على المعونة موسى بن إبراهيم الرافقي الذي سبق للدمشقيين أن ثاروا عليه في عهد الواثق ، وانتقده أبو تمام من قبل في أمذاحه فيه قبل أهاجيه .

(١) من القصيدة ٥٨١ من ديوانه .

(٢) من القصيدة ٦٠٠ من ديوانه .

(هـ) وتتميز الفتنة التي ارتبطت باسم أبي الهيثام المرّي، وهي حرب قيس وبنين، بأنها استنزفت - إلى جانب الأرواح والدماء - طاقات شعرية كثيرة. فقد بلغ عدد من أحصيت من نظم في تلسك الأحداث المتلاحقة أربعة وعشرين شاعراً، وثمانية رُجّاز، وموزعين بين القبيلتين وأنصارهما على النحو التالي: ستة عشر شاعراً قيسياً هم -

- ١- أبو الهيثام عامر بن عمارة المُـزَيّ (١).
- ٢- خُرَيْم بن عامر بن عمارة (٢).
- ٣- عثمان بن عمارة أخو أبي الهيثام (٣).
- ٤- عامر بن عاصم السُّـلَمي (٤).
- ٥- أشجع السُّـلَمي (٥).
- ٦- جناح بن رُوح بن جناح (٦).
- ٧- صادر بن كامل بن بذر العبسي (٧).
- ٨- عبد الله بن سعيد بن عتبة الثقفي (٨).
- ٩- أحمد بن محمد بن فضالة الدمشقي (٩).

- (١) هو رأس قيس في هذه الفتنة، كان فارساً شجاعاً. انظر ترجمته في: ابن الجراح: الورقة: ٢٤، الطبري ٨: ٢٥١، البكري: سبط اللائي ١: ٥٥٩٣، ابن عساكر: تراجم حرف العين المتلوة بالالف من تاريخ دمشق: ٣٩٣، ابن الأثير: الكامل: ٦: ١٢٧، ابن خلدون: العبر: ٣: ٦٤، النجوم الزاهرة ٢: ٩٧، معاهد التنصيص بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ١: ٢٥١.
- (٢) كان شاعراً فارساً وهو ابن رأس قيس في الفتنة، رثاه أبو يعقوب الخُرَيْمي، انظر ترجمته في: تهذيب ابن عساكر: ١: ١٢٩.
- (٣) دمشق ولي سجستان للرشد ثلاث سنين، ثم قتله عامله فيها. انظر ترجمته في: معجم الشعراء ط ٢، تصحيح كرتكو: ٢٥٦، مصورة تاريخ مدينة دمشق ١١: ٤٣٧.
- (٤) انظر تاريخ مدينة دمشق، تراجم حرف العين المتلوة بالالف: ٢٤٩.
- (٥) انظر ترجمته في الاغانى ١٨: ٢١١، الشعر والشعراء ٢: ٧٥٨، خليل بنان الحسون: أشجع السلمي، حياته وشعره، دار المسيرة، بيروت ١٩٨١.
- (٦) من معدودي شعراء دمشق، شهد الحرب ونظم فيها. انظر ترجمته في تهذيب ابن عساكر ٣: ٤٠٩.
- (٧) شاعر مجيد، رثى اخاه بدر الذي قتلته اليمن في حرب أبي الهيثام. انظر: تهذيب ابن عساكر ٦: ٣٦١.
- (٨) شاعر فارس من معدودي فرسان قيس، جرح عدة جراحات في تلك الوقائع. انظر: تهذيب ابن عساكر ٧: ٤٣٩.
- (٩) شاعر شهد وقائع الفتنة. وقال ابن عساكر: ذكره المرزباني في معجم الشعراء، انظر - تهذيب ابن عساكر ٢: ٧٦.

- ١٠- صبح بن سعيد بن بشر النصري الدمشقي (١) .
- ١١- عبد الصمد بن شعيب القرشي (٢) .
- ١٢- عمرو بن واقد (٣) .
- ١٣- محمد الكتاني اللبني الدمشقي (٤) .
- ١٤- قيس الهلالي (٥) .
- ١٥- كنية بنت الواقعة السعدية (٦) .
- ١٦- أبو يعقوب الخريجي مولى المرتضى (٧) .

وسبعة شعراء يمنيين هم :-

- ١- محمد بن يزيد بن مَحَصَّ الأزد (٨) .
- ٢- حُجُوة بن مُدْرِك النُصَائي (٩) .

- (١) من شعراء دمشق : شهد الفتنة ونظم فيها . انظر مصورة تاريخ دمشق ٨ : ٢٣٠ .
- (٢) كان أبوه من فقهاء دمشق ، وكان محدثاً ، له شعري مدح أبي الهيثم . انظر مصورة تاريخ دمشق ١٠ : ٢٣١ .
- (٣) كان مولى عتبة بن يزيد بن معاوية ، وكان محدثاً شاعراً . انظر : معجم الشعراء : ٢١٧ ، مصورة تاريخ دمشق ١٣ : ٦٥٦ .
- (٤) كان شاعراً قتل رأساً من رؤوس اليمن في هذه اليمن . انظر : مصورة تاريخ دمشق ١٦ : ١٥٩ .
- (٥) له شعر افتخرفه بوقائع قيس مع اليمن . انظر ترجمته : مصورة تاريخ دمشق ١٤ : ٤٩١ .
- (٦) شاعرة من النسوة الشواعر في هذه الفتنة ، انظر : ابن عساكر : تراجم النساء ، من تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق سكيئة الشهابي ، دمشق ١٩٨٢ ، ٣١٣ .
- (٧) هو إسحاق بن حسان ، ويكنى أبا يعقوب ، كان مولى ابن خريم . عني بعدما أسن ، كان نزل الجزيرة والشام ، وسكن بغداد ، ذكر أن الجاحظ روى بعض شعره الذي سمعه منه . انظر ترجمته في : الشعر والشعراء ٢ : ٧٣١ ، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٦ : ٣٢٦ ، تهذيب ابن عساكر ٢ : ٤٣٤ ، ديوان الخريجي .
- (٨) شاعر يمني لام قومه على تقصيرهم في حرب أبي الهيثم ، انظر مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٦ : ١٢٦ .
- (٩) سكن دمشق ، وكان يتردد إلى منبج ، وقد رثى أخاه أسعد الذي قتل في حرب أبي الهيثم ، سنة ١٩٠ هـ ، وقال ابن العديم : أصله من الكوفة ، ونزل منبج ، ثم انتقل إلى دمشق ، انظر ترجمته في : تهذيب ابن عساكر ٤ : ٩٠ ، مصورة بغية الطلب ، عن نسخة فضـ الله ، وهي نسخة غير مرقمة الصفحات .

- ٣- طالوت بن الأزهر الكلبسي (١) .
- ٤- مُحَرِّز بن مُدْرِك الغساني (٢) .
- ٥- شَدَّ قَم الكلبسي (٣) .
- ٦- عثمان بن مُرة الخولاني (٤) .
- ٧- امرأة عنسية من أهل داريسا (٥) .

أما الشاعر الرابع والعشرون فهو منصور النعري (٦) الذي لم يكن صاحب هوى قبلي فسي هذه الفتنة ، وإنما كان معنياً بمدح جعفر بن يحيى البرمكي .

وأما الرّجّاز الثمانية الذين وثّقَت على نثف من أرجازهم في هذه الفتنة فهم :

- ١- سعد الغساني (٧) .
- ٢- عاصم بن بحدل الكلبسي (٨) .
- ٣- معتمد بن عصمة الكلبسي (٩) .

- (١) قال ابن عساكر : ذكره دعبل في كتاب طبقات الشعراء . وقال صاحب الورقة : له أخ شاعر يدعى طالبا الطائي ، وكان معاصراً للمنصور ، وله فيه مدائح . انظر : الورقة : ١٥ ، مصورة تاريخ مدينة دمشق ٤٩٦ : ٨ .
- (٢) شاعر من أهل دمشق . قال ابن عساكر : ذكر له محمد بن عبد الملك الوراق أشعاراً يتهدّد فيها أبا الهيثم . انظر : مصورة تاريخ مدينة دمشق ٢٢٨ : ١٦ .
- (٣) شاعر يمني حرّس قومه على حرب أبي الهيثم . انظر ترجمته في تهذيب ابن عساكر ٢٩٦ : ٦ .
- (٤) من أدرك حرب أبي الهيثم ، ونظم فيها . انظر مصورة تاريخ مدينة دمشق ٤٥١ : ١١ .
- (٥) شاعرة يمنية رثت ابن عم لها قتل في حرب أبي الهيثم . انظر : ابن عساكر : تراجم النساء : ٥٨٨ .
- (٦) من شعراء الجزيرة ، اختص بمدح البرامكة والرشيد ، وسكن بغداد . انظر ترجمته في : الشعر والشعراء ٢٥ : ٢٣٦ ، الأغاني ١٣ : ١٤٠ ، شعر منصور النعري ، جمعه وحققه الطيب المشاش ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨١ .
- (٧) لم ترد له ترجمة تذكر . انظر تهذيب ابن عساكر ١١٢ : ٦ .
- (٨) كان عاصم بن بحدل بن محمد بن بحدل على جند دمشق في غزوة بعض الصوائف . وكان رأساً على اليمن في حرب أبي الهيثم ، وقد هرب إلى بغداد بعد أن ظفر أبو الهيثم بقومه . انظر : تاريخ مدينة دمشق ، تراجم حرف العين المتلوة بالألف : ٨٤ .
- (٩) ممن جد في حرب أبي الهيثم محرضاً قومه . انظر : مصورة تاريخ دمشق ١٧ : ٢ .

- ٤- الحارث بن سعيد الحَجْجُوري (١) .
- ٥- وَزِيْرَة بن سِمَاك العُنْسِي (٢) .
- ٦- مَالِك بن رُكَيْزَة المُرِّي (٣) .
- ٧- خُرَيْم بن عامر بن عمارة (وقد مر ذكره في الشعراء آنفاً) .
- ٨- عبد الرحمن بن حارث القرشِي (٤) .

إن هذا الجدول الإحصائي مهم لهذه الدراسة ، لأنه يكشف عن عدد كبير من شعراء مغبورين لم يجر لهم ذكر في كتب تاريخ الأدب ، ولم يذكر منهم إلا شاعران ربطا نفسيهما إلى عجلة الخلافة وهما البخري ومنصور النمري . ولا شك أن اثنين وعشرين شاعراً (من مجموع أربعة وعشرين) يمنحنا تصوراً تقريبياً لضخامة الكم الشعري في البيئة الشامية إبان فتنة أبي الهيثام ، وبخاصة إذا أضفنا الضائع المقدر إلى الموجود الذي اتصل بالفتنة اتصالاً مباشراً .

فأما الحكم على النوع فسيظل حكماً جزئياً ، لا لأن الموجود لا يمثل إلا نسبة ضئيلة من المفقود وحسب ، بل لأن الشعر الذي عايش الفتنة ، أو على الأقل ما نقله الرواة منه ، إنما وصلنا على شكل مقطعات ، وهي ألبق بالانفجارات النفسية الآتية التي تتيحها الفتن . وقبل أن يتم إخضاع هذه المقطعات للدراسة ، لا بد من وضع بعض الحقائق أولاً ، ومن أهمها : -

١- أن هذا الشعر كان مجالاً طبيعياً لكثرة الرثاء والفخر الذاتي والقبلي ، وعما موضوعان ستم دراستهما في فصل خاص ، ولكن يصح أن يقال هنا إن الرثاء قد استمد قوة الشجى فيه من مشاركة المرأة .

٢- أن ساحات القتال قد أعادت للرجز دوره الأصيل الذي كان له في الجاهلية وصدر الإسلام وأكثر العصر الأموي - قبل ظهور العجاج ورؤية - أعني ارتجاز الفرسان عند لحظات النزال

- (١) همداني ، حث قومه من كلب على الجد في حرب أبي الهيثام . انظر: صورة تاريخ مدينته دمشق ١٠٣ : ٤ .
- (٢) من أهل داريا من فرسان اليمن ووجوههم وسراتهم ، قتل في حرب أبي الهيثام . انظر صورة تاريخ مدينته دمشق ١٢ : ٧٦١ .
- (٣) انظر صورة تاريخ مدينته دمشق ١٦ : ٢٠٩ .
- (٤) انظر المصدر نفسه ٩ : ١٠٨ .

بعد أن كاد يختص بموضوعات معينة من أهمها الطرد والمنظومات التاريخية والعلمية،
وما شابهها .

٣- أن السجال القولي بعث الحياة في فن النقائض من جديد ، بعد أن أصبح هذا الفن
عارضاً .

٤- أن الشعر في تلك الأحداث - كان بطبيعة الحال - معرضاً لمدح الزعماء والقادة .

وسأتعرض للنقاط الثلاث الأخيرة (٢ ، ٣ ، ٤) بشيء من التفصيل في ما يلي :

الأراجيز : يقول أبو عبيدة في نشأة الرجز : " إنما كان الشاعر يقول من الرجز البيتين
والثلاثة ونحو ذلك إذا حارب أو شاتم أو فاخر " (١) . وهذه الموضوعات الثلاثة ممكنة في الفنتة
التي أتحدث عنها ، ولكن الذي تقوم به هذه الأراجيز قبل كل شيء هي صدرها عن الفرسان وهم
يتوجهون إلى المبارزة متحدّين أقرانهم " أي إذا حاربوا " والراجز في مثل هذه الحال يقول ما
يشاء من تحريض لقومه ، أو افتخار بشجاعته ، أو تهديد لخصمه ، أو هجاء لقبيلة الأعداء ، وقد أدت
الأراجيز موضع الدرس هنا هذه الأغراض كلها ، فمن التحريض المزوج بهجاء القبيلة قول عاصم بن
بحدل الكلابي (٢) :

يا كلبُ سيئري سيرة العروس
وأثخنني بالضرب في السروس
سيرى إلى قيس بلا تحميم
فقد أطاعوا الأمر من إبليس

وعلى هذا النسق - من التحريض دون هجاء للعدو - قول مُعْتَصِم بن عِصْمَةَ الكلابي (٣) :

خوضوا إلى الموت بني قحطان
بالرمي والسيف وبالطمان

(١) ابن رشيقي القيرواني : العمدة ١ : ٩٠ .

(٢) تاريخ دمشق ، تراجم حرف العين المثلوة بالألف : ٨٤ .

(٣) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٧ : ١ .

جُزُوا الرقابَ من بني عِيٍّ ——— لانِ
لم تشهد ونسي أمر من إْحسانِي
واليوم لا أرجعُ كالخَزْزِرَانِ

ويبدو عنصر التحريض للقبيلة مسيطراً على أراجيز اليمانية ، لأنهم كانوا بحاجة إلى التعاضد والتكاتف بعد أن منوا بخسارة كبيرة في منازلهم للقيسية ، وكان الرجز أداة لبيع روح الاستقواء في نفوسهم ، فأما القيسية الذين كانت كفتهم راجحة في المعارك ، فقد كان كل واحد منهم معنياً بإنجازه الفردي ، وبإظهار ثقته وعدم تقصيره عن أقرانه من الفرسان ، ولهذا يقول خريم بن أبي ——— الهيذام ^(١) : -

لا رَدَّني الإلهُ إن رَدَدْتُ
ولا أراني النصرُ إن حَمَلْتُ
والأعلى الكبشُ ، وإن هَلَكْتُ

وتتمثل في أرجوزة عبد الرحمن بن حارث القرشي كل ما يمكن أن ينطوي عليه الرجز من أغراض ، ففيها دعوة إلى الصمود في الميدان ، وتحذير للخصوم ، ومفاخرة بالنفس وبالأنصار ، وهجاء لـ «أبنينا» قحط ———ان ^(٢) : -

سَلَّتُ يميني إن رَدَدْتُ مُهْمَرِي
حتى أنالَ من عَسَدِي وَتَرِي
فإن في ذاك شفاءً صَدْرِي
إن لم أمت صَبْرًا فَقَصْرِي قَبْرِي
ودَفَعَكَ الضَّيْمَ سَنَاءَ الفَجْرِ
أنا النِّلامُ القرشيُّ النَّجْرُ
ويلٌ لمن أَعْلَقَهُ بِظُلْفِي

(١) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٦ : ٢٠٩ .

(٢) مصورة تاريخ مدينة دمشق ٩ : ١٠٨ .

يا قيس أنت عضدي وظهري
لكم ودادي أبداً ونصيري
شدوا على مثل الإمام البظير
قد خرجت أنفسهم من دُعر
أبناء قحطان القصار الزعر (١)

إن اقتران الرجز بالتغني « منذ بداياته » قد جعله أصلح ألوان النظم للترداد عند النزول إلى ساحة الحرب، وهذا هو السبب في استخدامه في الفتنة بين القيسية واليمينية « وقد وردت أرجاز أخرى لا تخرج عن جادة ما عرضته هنا (٢) ومنها قول مالك المري متحدثاً لفرسان اليمن في دعوتهم إليهم إلى الميسرة (٣) :-

هل فارس يدعو إلى البيراز
فالمرء عندي شكر الأعراس
ها أنا ذا أهجم بالأرجاز

فقد غدا الرجز وسيلة من وسائل القتال كالسيف والرمح . وأكبر الظن أن المرتجز كان يصرخ برجزه على خصمه رافعاً عقيرته ليعث في نفس خصمه الرهبة والخوف .

الخلاصة : تعدد النقائص مظهرًا من مظاهر " الحرب الكلامية " بإزاء الحرب الفعلية، أو لعلها كانت كالمناورات نوعًا من الحركة المسرحية لا لأنها تعتمد الحوار وحسب، بل لأن السرد " بالعمل " يعني التزامًا متعمدًا بين الفعل و " رد الفعل " . وهذه الصلة بينهما يعبر عنها في الغالب الأعم بوحدة الوزن والقافية وحركة الروي، من حيث الشكل، وينقض الثاني لما قاله الأول في الموضوع، فقيس الهلالي يتحدث عن شجاعة قومه يوم دارنا، وأنهم تركوا أهل داريا جثثًا مطروحة .

-
- (١) الزعر جمع أزعر وهو السبع الخلسق .
(٢) انظر رجز وزير بن سماك العنسي في صورة تاريخ دمشق ١٧: ٧٦٩ .
(٣) صورة تاريخ مدينة دمشق ١٦: ٢٠٩ .

ويربط شدة قيس في الانتقام بغضب الله ، فإله هو الذي اختارها لفعل ما فعلته ، لأن قيساً في صلابتهم صَوَّان بل حديد (١) :

كأننا يوم داريا أُسُودُ	تدافع عن مساكنها أُسُودا
تركنا أهل داريا رميمًا	حطامًا في منازلهم هُمُودا
إذا غضب الإله على أناس	دعا قيسًا فتسيرهم هُمُودا
وذلك أن قيسًا غير شك	من الصَّوَّان بل خلقت حديدًا

فيرد عليه عثمان بن مرة الخولاني (٢) ماحيًا كل ما قاله وقرره بقوله : "كذبت " :

كذبت لقد بقيت لكل أمير	يسوؤك ، فاستمع مني الوعيدا
وبدلا من أن يتحدث هذا الخولاني عن أفعاله نجد	يتحدث عما سوف يفعل :
سأجلبُ نحوكم خيالًا جيادًا	وفتيانًا تخالهم الأسُودا
فَنُسيكم فخاركم وشيكم	وَأَلْجَقُ فَلَكم جُعمًا هُمُودا

ويستنكر الخولاني أن تكون الغلبة لقيس عيلان ، لأن ذلك لم تجر به عادة ، ويقر بأنهم مغلوبون ، وذلك فعل الدمر السيئ الذي يُعلي ويخفض ، ولا يلبث أن يغطي على هذا الاعتراف بالماضي المجيد الذي أنجبت فيه خولان سادة ليس كثير منهم التساج :

متى طومت بنوعيلان فينا	فتطمع أو ترجسي أن تسودا
ولكن دولة دارت علينا	ودهر السوء قد رفع العبيدا
ألسنا النجيبين ذوي المعالي	وأمل أن نسو وأن نعودا
لبسنا التاج قد علمت معبد	زمان يحوك غيرهم البُـرودا

ومن تتبع النقيضة والرد عليها وجد أن العلاقة الجدلية موجودة " فعلت - سأفعل " فخر بالحاضر - فخر بالماضي " ، ولكن من العيب أن يتوقع المرء تسلسلاً فكرياً في الرد ، فإن الشاعر الذي ينقض على خصمه أقواله قد يخلع صفة على خصمه كان هو يُعير بها ، فاليمانين يعيرون

(١) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٤ : ٤٩١ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

بأنهم حاكمة سرود ، فما كان من هذا الخولاني إلا أن تبرأ من هذه الصفة ، وألقاها على القيسي .

وليست لدينا أمثلة كثيرة من هذه النقائص ، ولكن مثلاً آخر منها يكفي للقول إنها كانت متداولة . وقد احتفظ ابن عساكر بموقف آخر بين متناقضين ، وهما امرأة قيسية من بني ثعلبة بن سعد اسمها كتيبة بنت الوقعة ، يرد عليها شاعريمان هو محرز الغساني ^(١) . وفي هذا الموقف طرافة خاصة ، فهذه المرأة العجوز لا يزال صدرها يغلي بالغيط على اليمنية . ومع أنها تقرأ خريماً شفى غليلها مرات بتقتيله بني خولان وغسان ، ثم بتقتيله السكاسك ، فإنها تستزيده لأنها ظامنة إلى مزيد من الدماء . وموضع الطرافة أن الشاعر الغساني يتسلل إلى الرد عليها من منافذ مختلفة ، فهي عجوز ولكنها ليست مريم بنت عمران ، إنما هي تشبه عجوز ثمود أصحاب الحجر ^(٢) ، ولما كانت تأمر بالظلم جهاراً ، فهو يدعو عليها بأن يصليها الله نيراناً ، ويذكرها بأن قحطان لم تنكح عمن قيس ، ولكن أذاقتها جمره الحرب حتى بكت تلك العجوز من وقع ما أصابها ، لا رقا الله لها دمعاً . فهذه المناقضة تدل على أن الشاعر المناقض لا بد له أن يحتال في الرد ، لهذا لم يجد محرز الغساني لنفسه ملجأ في ذلك السجال الحربي الذي لا يرضى عنه الدين سوى أن يلون بالجو الديني ، رداً على تلك القيسية التي لم تطفئ السنون الكثيرة جمر غيظها الملهب .

وإذا كانت هذه النقائص تشاكل غيرها من النقائص في الشعر العربي شكلاً ومضموناً ، فإنه يسجل لها خلوعاً من الإسفاف والهجا المذع ، كما يسجل للشاعر محرز بن مدرن الفسانسي التفاته إلى القصص القرآني وإفادته منه في تشبيهاته . .

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ٢١٢ - ٢١٤ . ومطلع نقيضة كتيبة:

ونار يا عامر الغارات أسربهم حتى تُبَيِّدَ بهم خضراء قحطاننا

وهي في تسعة أبيات ، ويرد محرز الغساني في خمسة أبيات مطلعها : -

نادت عجوز أبا الهيثم أم مُسَيِّمَةَ ليست مريم بنت الكهل عِثْرَانَا

(٢) عجوز ثمود الحجر : هي التي حرّضت قومها على قتل ناقة صالح - عليه السلام - فكانت عاقبة فعلهم أن أهلكهم الله . انظر قصتها في تفسير ابن كثير الآية ٢٣ من سورة الأعراف .

الممدوح : حين ننظر إلى شعر الممدوح في فتنة أبي الهيثام فليس من الضروري أن ننظر إلى انقسام المتحاربين بين قيسية ويمنية ، ذلك لأن أي شاعر من أحد الحيين إنما يمدح زعيماً قبلياً بما يمكن أن يضاف إلى ذلك الزعيم من نخوة وشجاعة وكرم محتد . ولكن المشاركين فسي تلك المدائح يفرضون أن نرى في هؤلاء الشعراء فريقين آخرين يقوم بينهما بعض التفاوت ففريق شعراء الفتنة ، وفريق شعراء الدولة . وقبل أن يقوم الدارس برسم حدود الاختلاف بين هذين الفريقين ، فإنه يستطيع أن يتخيل أن شعراء الفريق الأول يمدحون مؤججي فتنة ، وأن شعراء الفريق الثاني يمدحون مطفي فتنة . ويمثل الفريق الأول شاعران هما عمرو بن واقد مولى عتبة بن يزيد بن معاوية ^(١) ، وعبد الصمد بن شعيب القرشي ^(٢) . ويمثل الفريق الثاني ثلاثة من أشهر شعراء هذه الحقبة في دولة الخلافة وهم منصور النعري ، وأشجع السلي ، وأبو يعقوب الخريمي ، والأولان ينتميان إلى قبيلتين لهما صلة من قريب أو بعيد بالأحداث . والخريمي مولى لأخشي أبي الهيثام ، فهم إذن قريبون من دائرة الحرب ، بعيدون في الوقت نفسه عنها ، لأن مشاعرهم تختلف عن مشاعر الشعراء الضالعين فيها .

وبينا نجد لشاعري الفريق الأول قصيدة لكل واحد منهما ، نجد مشاركة الفريق الثاني مجتمعين قد أثمرت عدة قصائد . وفي قصيدتي شاعري الفتنة يتجلى انضواء الشاعر تحت راية القبيلة ، فهو يمدح الزعيم أو يمدح القبيلة نفسها ويتنقص الأعداء ، فقبيلته صقور والأعداء خرفان أو ضأن نعق بها ناعق . ويقوى لديه شعوره بالأمن في كف القبيلة (على الرغم من الحرب) ، وأن أبطالها دافعوا عنه وعن قومه ، وليس في الصفات التي تسبغ على الممدوح شيء لافت للنظر . ومثال ذلك قول عبد الصمد القرشي في أبي الهيثام :

لكنهم جالدوا عنا وقادهم	مُحَرَّبٌ من بني ذُبْيَانَ كالأَسَدِ
قد حصَّت البيضة الخرقاء هامة	معاوداً لِضِرَابِ الكَبْشِ ذِي الحَرَدِ ^(٣)

- (١) معجم الشعراء : ٢١٧ ، وترجمته في مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٣ : ٦٥٦ ، ومطلع ما بقي من قصيدته :
- (٢) فلم أر كالهيثام في الناس فارساً
مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٠ : ٢٣١ ، ومطلع ما تبقى من قصيدته :
- (٣) أفدَى غداة الوغى قيساً إذا سجرت
الحرد : الغيظ والغضب ، حصت : أزالته وأسقطت شعره

- يُثْمِيهِ أُرْعُومٌ مِنْ عَيْلَانٍ ذَوْ حَسَبٍ عَوْدٌ وَلَمْ يَكْ يَدْعَى بِيضَةَ الْبَلَدِ (١)
- أُعْنِي بِذَلِكَ أَبَا الْهَيْذَامِ إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدِي يَدٌ سَفَعَتْهَا مِنْهُ خَيْرٌ يَدِ (٢)
- مَثَلُ الْأَعْرَابِيِّ الْهَيْذَامِ مَا حَمَلَتْ حُضْنُ النِّسَاءِ وَلَمْ يُفْطِمِ وَلَمْ يَلْبِدْ
- بَعْدَ النَّبِيِّ وَأَقْسَوَامٍ أَعَدُّهُمْ مِنْ رَهْطِهِ السَّادَةِ الْجَمِّ النَّدَى النَّجْدِ

ويدور أكثر شعر الفريق الثاني على مدح جعفر البرمكي الذي وكل إليه الرشيد أمر إطفاء الفتنة ، والمدح هنا أهم بكثير في نظر الشاعر من الفتنة وأبطالها وأحداها والتخريب الذي تسببت فيه ، ولذلك تجد هذه النغمة عالية في القصيدة الوحيدة التي بقيت من شعر منصور النعمري متصلة بالأحداث (٣) . فهو في البيت الأول يخبر عن وجود فتنة " لقد أوقدت في الشام نيران فتنة " ومن أجل إطفائها " رماها أمير المؤمنين بجعفر " الماجد الميمون النقية وزير أمير المؤمنين وموضع سره ، الوفي الذي يجلي الخطوب ، ويعالجها بحذق ٠٠٠ الخ ، وهو يسير إلى الشام سير غمامة تطفئ بظرفها النيران (أو غمامة تطر تخريباً) : -

لَقَدْ نَشَأَتْ بِالشَّامِ مِنْكَ غَمَامَةٌ يَوْمَ لَمْ جَدَّوَاهَا وَيَخْشَى دَمَارُهَا

فَطَوَّسَ لِأَهْلِ الشَّامِ أُمٌّ وَبَلَّ أُمَّهَا أَتَاهَا حَيَاهَا أَوْ أَتَاهَا بَوَارُهَا

فَإِنْ سَالَمُوا كَانَتْ غَمَامَةً نَائِلِ وَغَيْثٍ إِلَّا فَالِدَّمَا قَطَارُهَا

وأما الخريبي فقد كان من الممكن أن يكون أكثر الثلاثة مشاركة بشعره في الفتنة ، لأنه كان مع أبي الهيثام ، وقد رثاه ورثى ابنه خريماً بشعر كثير (٤) ، ولكنه لا يشير إلى موقفه من الفتنة في مراثيه ، وإنما هو إحياءات يستمد منها إعجابه بخريم وذويه بني مَعْدٍ (٥) : -

بَقِيَّةُ أَقْمَارٍ مِنَ الْغُرَرِ لَوْ خَبِنَتْ لَظَلَّتْ مَعْدٌ فِي الدُّجَى تَتَسَكَّمُ

وَكَانَ لِسَانُ الْحَيِّ قَيْسٌ وَنَابَهُمَا وَكَانَتْ بِهِ قَيْسٌ تَضُرُّ وَتَنْفَعُ

- (١) يراد ببيضة البلد أن له نسباً يحميه .
- (٢) سفعها : جعلت فيها وسماً وعلامة .
- (٣) الطبري ٨ : ٢٦٢ - ٢٦٣ ، وشعر منصور النعمري ٩٢ - ٩٥ .
- (٤) مقدمة ديوان الخريبي : ٥٥ ، وانظر ترجمته في بغية الطلب (مصورة الجامعة الأردنية)
- (٥) ٢ : ٢٦٦ .
- (٥) ديوان الخريبي : ٤٣ ، ٤٦ .

وأما أشجع السلمي فكان أكثر الثلاثة شعراً في تلك الفتنة ، فله فيها ثماني بين قصائد ومقطعات ^(١) ، موضوعها الأساسي مدح جعفر البرمكي الذي أطفأ نار الفتنة ، وهو يعبر فيها عن صلاح الحال بعد فساد ، وعودة الحق وزعوق الباطل ، وإخماد نيران الطغاة مشيرين بالفتنة كقولهم ^(٢) :-

أتى الله أرض الشام بالأمم فانجلت	ضباة خوف ، قد أرت غياطله ^(٣)
ولم يبق سهل في قرى الشام كلها	ولا جبل إلا اطمانت زلازله
نظرت لأهل الشام لما تعاظمت	ظلامتهم حتى علا الحق باطله

ويلفت النظر في قصائد أشجع ترد يد لفظ "الطغاة" وصفا لزعماء الفتنة "كانت طغاة الشام كانوا أرقا" الطغاة " وأورد عنا نموذجاً آخر من شعره ، قصيدة أغفلها جامع ذلك الشعر ، يقول فيها ^(٤) :-

كانت طغاة الشام قد اكثرت	إنتاجها الحرب والفاحة ^(٥)
مبيلة في غياحة حقبلة	غامسة في الموت أرماحها
قد غرما حلم الإمام الذي	لوعزت كفاء لا جاحها
فلم يزل حتى إذا رأى	إطنايها الحرب ^(٦) والباحها
ولى ابن يحيى جعفرأمرها	حين أراد الله إصلاحها

وقد أصبحت الجهود التي بذلها جعفر في إخماد الفتنة ، وإصلاح ذات البين هي "التيمية" التي يرددها الشاعر في مدوحه ، سواً أكان ما يقوله قريب عهد بالفتنة أم بعيداً عنها . وقد تميز السلمي في هذه المدائح بالتنوع على الرغم من تكرار الموضوع ، بأسلوب قوي تفوق فيه على سائر شعراء الفتنة من الفريقين . ومن الواضح في شعر الشعراء الذين يمثلون السلطة تسويتهم - بإرسال أوصاف الظلم والطغيان - بين الفئتين المتحاربتين في الشام ، وذلك شيء طبيعي ، فهم دعاة

(١) أشجع السلمي ، حياته وشعره ، وأرقام القصائد والمقطعات : ٦٦ ، ٤٧ ، ٦٧ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ١٠٥ .

(٢) القصيدة رقم ٨٥ في المصدر السابق .

(٣) أريت : دامت . والغياطل جمع الغيظلة وهي الظلمة المتراكمة .

(٤) الأزدي : تاريخ الموصل : ٢٨٩ .

(٥) في تاريخ الموصل : ٢٨٩ ، ولا معنى له ، ولذلك صوبته .

(٦) في تاريخ الموصل : ٢٨٩ ، "إطنايها في الحرب" وذلك يكسر الوزن .

- ١٢٠ -

صلح ، ولا يتسع شعرهم للبحث عن المصيب وعن المخطئ ، والتوسل بالحكم الموضوعي ، على أهميته ، لا يستطيعه القائد الذي أصلح بين الحين ، بل عليه أن يستعمل الرفق — كما قال أشجع — لرأب الصدع الشامي . " فقد كان كل فريق قبلي يدعي أن الفريق الآخر هو الظالم ، كما يقول أبو الهيثام في الينبيين ^(١) : —

لَمَّا رَأَيْتُ غَدَاةَ الْمَرْجِ ظَلَمَهُمْ
أَنْهَضْتُ مِنْ جَانِبِ الْقَصْبِ أَشْبَالاً ^(٢)
بَيْضاً بِهَالِيلٍ مِنْ تَيْسٍ إِذَا رَكِبُوا
لِلرَّوْعِ زُلْزَلَتِ الْأَرْضُ وَنَزَلُوا

لقد تلونت الفتنة ألواناً ، ولبست أنواعاً من لبوس الحرب ، وفي كل صعود أو هبوط كان الشعر مواكباً لها ، ضرورياً لمراحلها ، ولكن على ما يتمتع به الشعر هنا من قيمة تاريخية ، فإن استمداد الصديق التاريخي منه ليس بالأمر السهل ، فحين يثهم الشاعر اليمني قيساً بأنها ألبت عليهم " أنبساط حوران " ^(٣) ، كما يقول محرز بن مدرك النخاسي في مخاطبة زعيم قيس : —

جَمَعْتُ لَنَا أَوْبَانِ كُلِّ قَبِيلَةٍ
وَأَنْبَاطَ حُورَانَ وَجَاءَ الْمَسَالِمِ

أي أشركت في الحرب عناصر غير عربية ، فذلك أمر غير مستبعد ، ولكن لا يؤخذ به إذا لم تؤكده المصادر التاريخية ، لأنه قد يكون من باب السخرية . وحين يقول شاعر يمني إن قبيلتي القيسيين وكلب هما اللتان هيجتا الحرب ، فتلك شهادة ليس من السهل دفعها ، لأنها تصدر عن شاعر ممن الصف نفسه الذي لم يكن راضياً عن مسببي الفتنة ^(٤) : —

أَلُمُّ عَلَى الْخِذِّ لِأَنَّ قَوْمِي وَإِنَّمَا
أَخْصُلُ بِلَوِيِّ الْقَيْنِ وَالْحَيِّ مِنْ كُلِّ سَبَرٍ
عَمَّا هَيَّجَا الْحَرْبَ الَّتِي أَوْقَدَتْ بِهَا
شَبَا لَهَبٍ مَا مَثَلُهَا خِلْتُ مِنْ حَرْبٍ

- (١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم حرف العين المتلوة بالألف) : ٤١٨ .
- (٢) القصباء : جماعة القصب الكثير النابت في مقبته . والمراد مكان كان كبير القصب في موضع من دمشق ، ولا ذكر له في كتب البلدانيين .
- (٣) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٦ : ٢٧٨ .
- (٤) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٦ : ١٢٦ .

(و) الشعر في ثورات الجزيريين : وقد شهدت منطقة الجزيرة أحداثاً جساماً في العصر العباسي تركت بصماتها واضحة في شعر هذه الفترة .

١- وأول نص شعري يتف عليه الدارس يعكس شيئاً من هذه القلاقل هو النص الذي قاله منصور النمرى في الرشيد مستشفعاً إليه أن يرفع السيف عن ربيعة بنصيبين^(١) وما يليها . أما لماذا كان الرشيد قد أعمل السيف بالرميين فلا تسعف المصادر التاريخية على استجلاء حقيقة الأمر . وغاية ما يقال هو أن منصوراً النمرى نظم قصيدته التي مطلعها^(٢) : -

أتسلو وقد بان الشبابُ المزاييل

ووجهها إلى الرشيد الذي كان قد جرد السيف في ربيعة ، فراقت القصيدة الخليفة ، وأمر برفع السيف عن الربيعيين .

أما الأبيات ذات العلاقة بهذا الحدث فإن استقراها ينبيء عن سخط شديد على جنود السلطة وقادتها الذين آذوا الناس وأذلّوهم :

يجرّدُ فينا السيفَ من بينِ مَـارِقِ	وعانِ بِجُودٍ كُلَّهُم مُتَحامِلِ ^(٣)
وقد عَلِمَ العُدُوّ أنَ والجورُ والخَناسُ	بأنك عِـيَافٌ لِمَنْ مُزايِلِ ^(٤)
ولو عَلِمُوا فينا بِأمرِكَ لَمْ يَكُنْ	يَنالُ بَرّاً بالأدَى مُتَساوِلِ

ولكي ينجح الشاعر في مسعاه عند الخليفة فقد حمل مسؤولية الجرائم التي ارتكبت بحق الربيعيين جماعة ظالمة من المسؤولين ما كان الرشيد ليرضى عن فعلتهم المنكرة ، ولذلك أجمع الشاعر في التودد والتلطف إلى الخليفة فقال فيما قال أيضاً في القصيدة نفسها عن المخاوف والمآسي التي حلت بهم :

-
- (١) نصيبين من ديار ربيعة التي هي جزء من الجزيرة ، معجم البلدان : (نصيبين) .
 (٢) انظر تفصيل رواية خبر هذه القصيدة في : الأغاني ١٣ : ١٥١ - ١٥٢ .
 (٣) بجود جمع جدد وهم الجماعة من الناس .
 (٤) العياف : الشديد الكراهة . المزاييل : المفارق .

جعلناك فامدنا ، معاذاً ومفزعا
لنا حين عضتنا الخطوب الجلاجل
وأنت ، إذا عذت بوجهك عوداً
تطامن خوف ، واستقرت بلابل (١)

فاستجاب الرشيد لهذا التضرع قائلاً : "يرفع السيف عن ربيعة" ويحسن إليهم (٢) .

وليس في القصيدة أدنى ما يعين على معرفة الأسباب التي أدت إلى تردد النصيبين ، غير أن نصيبين ذاتها كانت مركز حركة الوليد بن طريف الشاري ، مما قد يعني أن سبب الحركتين واحد ، وعوانضام النصيبين إلى حركة الخواج .

٢- وكان أثر حركة الوليد بن طريف في الشعر كبيراً ، وذلك بيدوني شعر أخته الباكي الحزين ، وفي شعر الشعراء الموالين للعباسيين من مجدوا بطولة يزيد بن يزيد الشيباني الذي كسر شوكة الخواج ، وقتل زعيمهم الوليد . ويغلب على الظن أن للوليد شعراً أيضاً ، ولكن لم يصل منه غير مقاطع من ذلك قوله بلسان فارس من فرسان الخواج بعد أن فتك بأمر نصيبين العباسي (٣) : -

أنا الوليد بن طريف الشاري ظلمكم أخرجني من داري

وقوله أيضاً مخاطباً يزيد بن يزيد متهدداً بعد أن كان قتل من أهل نصيبين في سنة ١٧٩هـ / ٧٩٥م ، خمسة آلاف مقاتل (٤) : -

ستملم يا يزيد إذا التقيت بشط الزاب أي فتى تكون

كما يغلب على الظن أن يكون لغیره من الشراء شعر غير يسير ، ولكنه ضاع لأسباب أبرزها ما تعرض له الخواج أنفسهم من عدا الناس لهم من حاكمين ومحكومين .

أما كيف وصل شعر ليلى بنت طريف ، فالجواب هو لأن لشعر هارثة حزن أنثوية عميقة تجعله لائطاً بالقلوب ، عالفاً بالنفوس ، صالحاً لأن يوظف في مواقف مشابهة ، ولأنه أيضاً ليس شعراً

(١) البلابل : المهاجر والوساوس .

(٢) الأغاني ١٣ : ١٥٣ .

(٣) الأزدي : تاريخ الموصل : ٢٧٩ ، المقدسي : البدء والتاريخ ١٠٢ : ٥ .

(٤) الأزدي : ٢٧٩ .

مذمبياً قد يجد معارضة من الاتجاهات الأخرى المعادية للخواج . ولما كان أكثر شعرها في الرثاء ، فإنه سيدرس في الفصل الخاص بهذا الموضوع ، غير أن في قصيدتها الذائعة المشهورة ^(١) بيتاً استوقف ابن أبي الحديد وهو قولها في أخيها المقتول : —

فَتَى لَا يُحِبُّ الزَّادَ إِلَّا مِنَ التَّقَى وَلَا الْمَالَ إِلَّا مِنْ قَنًا وَسُوفَ

فقال ابن أبي الحديد معلقاً من منظور شيعي حاقد على الخوارج ^(٢) : "وقالت أخته ترثيه ، وتذكر أنه كان من أهل التقي والدين على قاعدة شعراء الخوارج ، ولم يكن الوليد كما زعمت " .

وإذا كانت حركة الوليد بن طريف الشاري لم تترك صدًى في أوساط شعراء الخوارج ، فإن ظفر يزيد الشيباني عليه ، وقتله إياه أمدنا بشعر رائق للشعراء الموالين لبني العباس وتعد قصيدة مسلم بن الوليد في يزيد من أجمل ما نظم من شعر في مدحه ، ومنها قوله في هذه المناسبة (٣) :

يَفْتَرُ عِنْدَ افْتِرَارِ الْحَرْبِ مُبْتَسِمًا
مُؤَبِّدًا عَلَى مَدْحٍ فِي يَوْمِ ذِي رَهَاجٍ
يُنَالُ بِالرَّقْصِ مَا تُعْيَا الرِّجَالُ بِهِ

إلى أن يقول في الوليد مصوراً وجهة النظر العباسية في حركته وأنها ضرب من المـسـرـوق : —

والمارق ابن طريف قد دلفت لسه
ما كان جمعهم لما دلفت لهم

بعارض للنايا مسيل عطيل
إلا كمثل الجراد ربع متجفيل

ولدى رجوع النظر في نعت ليلي لأخيها بأنه : "فتى لا يحب الزاد إلا من التقى" مقابلاً بنعت مسلم ابن الوليد بأنه مارق ، على ما في لفظة "المروق" من ظلال دينية ، يدرك أن الشاعرين سيسيران

(١) هي القصيدة التي مطلعها: -

بطل نباتي رسم قبر كانبه على علم فوق الجبال مسيف
وقد وردت هذه القصيدة أو أبيات منها في مصادر كثيرة نذكر منها: أبو تمام: الوحشيات
تحقيق عبد العزيز السبني الراجوتي ومحمود محمد شاكر ط ١٢٠٠ دار المعارف بمصر ١٩٦٣
١٥٠ المجترى، حماسة المجترى، تحقيق كمال مصطفى، المكتبة التجارية، القاهرة ١٩٢٩
٤٣٥ الطبري ٨: ٢٥٦، البلد والتاريخ ٥: ١٠٠، الأغاني ١٢: ١٢، ابن الشجري: حماسة
ابن الشجري، تحقيق عبد النعيم الملوكي وأسماء الحمصي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق
١٩٧٠ ١: ٣٢٧، ابن الأثير: الكامل ٥: ١٧٢، ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق إحسان
عباس، دار الثقافة، بيروت ١: ٢، معاهد التنصيص ٣: ١٦٠.

(٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٩، ٥: ٧٣.

(٣) ديوان صريع الفوانيس ، تحقيق سامي الدهان ، دار المعارف بمصر ، القصيدة الأولى .

في خطين متوازيين ، فكان هذا الافتراق في رؤية كل منهما إليه منسجماً مع موقعه وزاوية رؤيته —
للأحداث .

٣- وكانت قبيلة تغلب^(١) التي قال فيها عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : لو تأخر الإسلام لأكلت العرب ، تشكل شوكة في خاصرة الدولة العباسية . فقد شهرت السيف على ثلاثمائة من الخلفاء العباسيين هم الرشيد والمعتصم والمتوكل . أما عن أسباب ذلك فإن كتب التاريخ المعتمدة في هذه الدراسة لا تسعف على تبينها . غير أن الذي يبدو أن هذه القبيلة الضخمة العدد ، القوية الشوكة كانت ترى في قوتها ، وفي تعدادها ، وفي تحصنها في مواقع نائية عن سلطة الخلافة المركزية مرشحات مغرية لها تدفعها إلى تكوين ملكة خاصة بها . وقد تحقق لها حلمها هذا في القرن الرابع الهجري على أيدي بني حمدان . وكان ثوراتها على الخلفاء العباسيين كانت إرهاباً صامتاً لما تحقق بالفعل في القرن الرابع .

ولعل الرشيد بحسه السياسي كان على دراية بمطامح التغلبيين ، فأراد أن يكبح جماحهم وأن يتوحد هم في آن ، فعمد لأحد زعمائهم ، وهو مالك بن طوق ، أن يتولى أمرهم ، بعد أن أنطعه أرضاً على شاطئ الفرات بنى فيها الرحبة^(٢) .

غير أن مالكا ، وفي نفسه ما في نفوس التغلبيين من طموح ، سرعان ما خرج على الرشيد ، فرفض أن يرسل الأموال إلى بغداد ، فسير إليه الرشيد عسكرياً طالت بينهما الوقائع ، ثم ظفر جيش الرشيد

(١) انظر في تغلب وبطونها : جبهة أنساب العرب : ٣٠٣ ، وما بعدها ، القلقشندي : قلائد الجمان ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، ط ٢ ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة ، بيروت ١٩٨٢ : ١٢٩-١٣٢ ، السلطان عمر بن يوسف بن رسول : طرفة الأصحاب ، تحقيق ك. و. سترستين ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، دمشق ١٩٤٩ : ١٦ ، دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة أحمد الشنتاوي وزملائه ٥ : ٣٢٤ - ٣٣٧ ، عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ١٩٤٩ : ١٦ : ١٢٠ - ١٢٣ .

(٢) انظر في ترجمة مالك بن طوق الذي كان أحد أجواد العرب ومدحيهم ، والذي ولي أمر دمشق والأردن في خلافة الواثق والمتوكل (ت سنة ٢٦٠ هـ) : مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٦ : ٢١٣ ، معجم البلدان / مادة الرحبة ، محمد بن شاکر الكبيسي : نوات الوفيات ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ٣ : ٢٢١ ، وذكر البلاذري أن مالكا بنى الرحبة فسي عهد المأمون . انظر : فتح البلدان : ٢٤٧ - ٢٤٨ .

في نهاية المطاف بمالك ، فأُرْسِلَ إلى الرشيد ليُعَاصِمَهُ ، فاستعطف مالك الرشيد بقصيدة فيها نفثة فارس ، وتسليم موء من ، وضعف أب يخشى على بنيه بعد مقتلته الغيـيـاع (١) : -

أرى الموتَ بين السَّيفِ والنَّطْعِ كَامِنًا يُلاحِظُنِي مِنْ حَيْثُ مَا أَتَفَقَّسْتُ
وأَكْرُظُنِّي أَنَّكَ الْيَوْمَ قَاتِلُنِي وَأَيُّ أَمْرِي مَا قَضَى اللَّهُ يُغْلِبُنِي
وما بيَ خوفٌ أَن أَمُوتَ وَأَنْتَ تُسِي لَا عِلْمُ أَنَّ الْمَوْتَ شَيْءٌ مِثْلُ مَوْتِي
ولكنَّ خلفي صبيةٌ قد تركتُهم وَأَكْبَادُهُمْ مِنْ خَشْيَةِ تَفَقَّسُنِي
كَأَنِّي أَرَاهُمْ حِينَ أُنْعَمَى إِلَيْهِمْ وَقَدْ خَمَشُوا تِلْكَ الْوُجُوهَ وَصَوْتُوا

ومن غير شك أن هذه القصيدة بما فيها من عوامل إثارة لمواطن الشفقة والكبرياء والرجولة والإيمان في آن قد أسهمت في حمل الرشيد على الصفح عن مالك . غير أن سياسة الرشيد بالعفو التي نجحت في ائتلاف قلب مالك نفسه وموقفه من العباسيين ، فظل مخلصاً لهم بعد أن أعيد إلى مركز كان يشغله من قبل ، لم تنجح في ائتلاف التغلبيين الذين خرجوا بعد مدة لا على العباسيين وحسب ، بل على مالك نفسه أيضاً . وكأنهم لم يعودوا يرون فيه الزعيم الذي يحقق للقبيلة طموحها ، وقد كشفت عن هذا كله قصائد نظمها الطائيان الكبيران . ويلقى الدارس في هذه القصائد مدحاً لمالك ، ومهجوماً شديداً على تغلب ونعتاً لها بالغدر والتخريب والبغي والجهل والإفساد . يقول أبو تمام ذامساً تغلب ، مبيناً فضل مالك عليها ، واضطراره ، وهو التغلبي ، إلى قتل الخارجين منهم على السلطنة (٢) : -

قد جربته تغلبُ ابنةً وائـل لَا خَائِرَ غُدْرًا وَلَا نَكَائِسًا (٣)
ضَحَّ الْقَذَى عَنْهَا وَشَذَبَ سَيْفُهُ عَنْ عَيْصِهَا الْخُرَابَ وَالْخُبَائِسَا (٤)
هم مزقوا عنه سبائبَ جِلْمٍ وَإِذَا أَبُو الْأَشْبَالِ أُحْرِجَ عَائِسَا (٥)

- (١) معجم البلدان / مادة الرحبة ، وقد نسب ابن حزم هذه القصيدة إلى تميم بن جميل التغلبي الذي خرج على المتوكل . انظر جمهرة أنساب العرب : ٣٠٣ .
- (٢) ديوان أبي تمام ، القصيدة ٢٩ (بشرح الخطيب التبريزي) .
- (٣) الخاتم مثل الغادر إلا أنه أشد مبالغة . وغدر أي غادر / شرح الخطيب التبريزي .
- (٤) ضح القذى : أزاله . العيص : الشجر الملتف . والخراب : جمع خارب وهو الذي يسرق الإبل ، ثم استعير في كل سارق وصاحب غدر / شرح الخطيب التبريزي .
- (٥) السبائب : جمع سبيبة وهي شقة مستطيلة . وأخرج : ضيق عليه . يذكر قتله لما ولي نصيبين جماعة من بني تغلب .

ويقول البحري في مدح مالك وتأييد التغلبين الذين خرجوا عليه « ويبدو أن جيش مالك قد أُنْخَسَ في أولئك الخارجين نجريًا وتقتيلًا » وأسر الكثيرين في معركة حامية (٢) : -

وتقد ذكر الأزدى أن وفاة مالك بن طوق كانت سنة ٢١٦هـ^(٤) مع أن في هذه القصيدة بيتاً يحدد عهد المعتصم زمناً لأحداث هذه القصيدة إذ يقول البحترى فيـــــــــــــــه : —

ويبدو أن شرور المفسدين من قبائل ربيعة ، ومنها تغلب ، كانت قد استشرت ، وأن مالك ابن طوق عجز عن القضاء على أولئك الخارجيين ، فاضطر العباسيون إلى تنحيته عن الجزيرة .

أما عن استفحال شرور التغلبين ، واضطرار مالك إلى استعمال العنف مع بني قومه فتبدو بصورة أجلى في قصيدة أخرى لأبي تمام (٥) .

(١) جاس البلاد والقوم يخللهم • وكلهم : اسم موضع كثير النخل • ويعاث موضع بالمدينة كانت فيه الحرب بين الأوس والخزرج • وكان في ملهم يوم بين تميم وحنيفة • والكلاب يوم بين عبيد يغوث بن وقاص الكلابي وابن جساس التيمي : شرح الخطيب التبريزي •

(٢) هي القصيدة ٨٠٦ من ديوانه بتحقيق حسن كامل الصيرفي •

(٣) الوض : خشبة الجزار يقطع عليها اللحم •

(٤) انظر : تاريخ الموصـل : ٤٠٦ — ٤٠٧ •

(٥) هي القصيدة ١٣٧ من ديوانه بتحقيق محمد عبد عزام •

وقد واجه الشاعر في هذه القصيدة ، أو في الأحداث التي ساقته سوقاً إلى نظم هذه القصيدة مشكلة خاصة ، فالممدوح تغليي ، والتعيير والتأنيب الشديد فيها لتغلب ، غير أن أبا تمام بقدراته العقلية والفنية البارة نفذ من هذا المشكل بإقامة تناظر لطيف مستوحياً فيه من عناصر الطبيعة براهين أسعفته على حسن التأني لحله ، يقول : -

لم يَأْلُكُمْ مَالِكٌ صَفْحًا وَمَغْفِرَةً لو كان يَنْفُخُ قَيْنَ الْحَيِّ فِي فَحْصِمْ (١)
أَخْرَجْتُمُوهُ بِكُرْهٍ مِنْ سَجِينِهِ والنَّارُ قد تُنْتَضَى مِنْ نَاضِرِ السَّلَامِ (٢)
أَوْطَأْتُمُوهُ عَلَى جَسْرِ الْعُقُوقِ وَلَوْ لم يُخْرِجِ اللَّيْثُ لَمْ يَبْرَحْ مِنَ الْأَجَسِ

ثم يعاتب الشاعر أولئك الخارجين الذين حرصهم على الخروج الأعاجم ، ولعله يقول ذلك عمن ذكاه ، ليستثير فيهم النخوة العربية فيكفوا عن الإفساد ويعيدوا التفاهم حول قائد هم العربي :

تَنْبُونُ عَنْهُ وَتُعْطُونَ الْقِيَادَ إِذَا كَلَبَّ عَوَى وَسَطَكُمُ مِنْ أَكْلِبِ الْعَجَسِ

ويعنُّ باسم مالك عليهم أن لم يُغْنِهِمْ ، وهو القادر ، ويصور اضطراع الفرح والأسى في نفس الممدوح في قالب من "تنافر الأضداد" (٣) فريــــــــــــد : -

جَدُّ لَانَ مِنْ ظَفَرٍ حَرَّانٍ إِنْ رَجَعَسَتْ مخضوبةً مِنْكُمْ أَظْفَارُهُ بِبَدَمِ (٤)
لَوْ لَا مَنَاشِدَةُ الْقُرَيْنِ لَخَادَرَ كِسْفُ حصائدُ الْمُزْهَقَيْنِ : السِّيفِ وَالْقَلَمِ
لَأَصْبَحَتْ كَالْأَنَافِيسِ السَّنْعِ أَوْجُهُكُمْ سُودًا مِنَ الْعَارِ لَا سُودًا مِنَ الْحُمِّ (٥)
لَا تَجْعَلُوا الْبَيْتَ ظَهْرًا إِنَّهُ جَمَلٌ من القطيمة يري وادي النَّعَمِ

غير أنه لا توسلات أبي تمام لبني تغلب أن يكفوا عن أذى ابنهم الأمير عليهم أجدت ، ولا تحذيراتهم إليهم ونصائحهم لهم بزوال النعم عنهم ، وبحلول شرور الظلم عليهم أثمرت ، بل ظل التمرد مظهرًا عامًا شائعاً فيهم ، فلم يجد العباسيون بداً من عزل مالك ، فألم هذا العزل أبا تمام ، فشعر بالكآبة

- (١) الشطر الثاني من البيت مثل لمن يعمل أمراً منجزاً لأن الفهم إذا نفخ فيه أوقد / التبريزي .
- (٢) السلم نوع من الشجر .
- (٣) تعبير درج على استعماله شوقي ضيف في : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ط ٤ ، دار المعارف بصـ ١٩٦٠ : ٢٥٠٠ .
- (٤) يسر بالظفر إلا أنه يسووه أن يقتل أحد منكم لأنكم أهله / التبريزي .
- (٥) الأنافيس السنع : حجارة الموقد السود المشربة بحمـــــرة .

وعلى نفسه غيرة ظلل بها أرض الجزيرة ، وألبسها من قاتم نفسه قتاماً . يقول في مقابلة معجبة بين حال الجزيرة الذي كان في عهد الأمير ، ومآلها الذي صارت إليه بعد عزله ، مكرراً المعنى نفسه في ألوان متعددة من التصوير البارع ، فعناصر الحياة : الغيث والنور والعُرس والكعب في مقابل الجذب والظلمة والتكلى الأيسر : -

تلك الجزيرة مذ تحمّل ماليسك	أست وباب الغيث عنها مبهم
وعلى قراها غيرة ولقد تُسرى	في ظلّه وكأنما هسي أنجس
الجو أكلف والجَنابُ لِفَقْدِهِ	محلّ ، وذات الشَّقْ شقّ مُظْلِم
ولقد أراها وهي عرسٌ كاعرب	فاليوم أضحت وهي تُكلى أيّس

ثم يتوجه الشاعر إلى من كانوا السبب في تنحية مالك وزوال نعم الحياة عن الجزيرة فيعنفهم ، ويحتج لإجرات مالِك فيهم بأن الغاية منها كانت صلاحتهم ، وبأنهم كانوا الخاسرين في كلتا الحالين : -

مُلاً بني عمرو بن غنم ^(١) أنكم	هدفُ الأسنّة والقنا يتحطّ
كانت لكم أخلاقه معسولة	فتركتموها وهي ملحّ علقم
فقساً لترّد جروا ومن يك حازماً	فليس أحياناً وحيناً يرّحم

٤ - وفي إبان ولاية محمد بن يوسف الشفري^(٢) على الجزيرة يعاود بعض بني تغلب الخروج على الحكم العباسي . ويتبدى من بعض مصادر التاريخ ومن شعر البحري في هذه الأحداث أن الخارجين كانوا هذه المرة سُـرّاة .

ويجب التنبيه ابتداءً إلى أن اختلافاً بيناً يظهر في كلام بعض المؤرخين حول حركة الخوارج من حيث حجمها ، ومن كان زعيمها ، والقائد الذي تولى إخمادها ، واسم الخليفة الذي تمت في عهده . فحجمها لدى العقّلى لا يتجاوز أربعة عشر رجلاً ، ولدى المكثر أنهم عدد كبير لكن لم يحدّد .

(١) عمرو بن غنم أبو حي متفرع من قبيلة تغلب . انظر جمهرة ابن حنبل : ٣٠٣ - ٣٠٤ .
 (٢) طائي من أهل مرو ، كان أحد أبطال الشفور الإسلامية في عهود الخلفاء المعتصم والواثق والمتوكل ، ولذلك عرف بالشفري . ولابي تمام والبحري فيه أشعار كثيرة صوراً فيها بطولاته في مقارعة الخرمية والروم . انظر : فازيليف : العرب والروم : ٢٤٧ ، نجيب البهيتي : أبو تمام الطائي ، حياته وحياة شعره : ١٠٥ - ١٠٧ .

وزعيمها محمد بن عمرو أو ابن عبد الله ، وهو تغلبي أو خثعمي ^(١) ، وقد أسر مرتين (سنة ٢٣١هـ / ٨٤٥م ، ٨٦٢م) وقتل سنة ٢٥٢هـ / ٨٦٦م مع نفر من أصحابه . والقائد الذي تولى القضاء على الثورة هو غانم بن محمد الطوسي أو محمد بن يوسف الثفري . وقد حدثت تلك الأحداث في عهد الواثق ثم المتوكل عند الطبري وابن الأثير ^(٢) ، أو حدثت في عهد المتوكل فقط عند أبيـن الحديـد ^(٣) .

لكن الاحتكام إلى قصيدتين للبحري (رقم ٦١ ، ٥٧١) ومطلع الأولى :

هَبِيهِ لِنَهْلِ الدُّمُوعِ السَّوَكَيبِ وَهَبَاتِ شَوْقِي فِي حَشَاهُ لَوَاعِيَسِبِ
ومطلع الثانية :

أَفَاقَ صَبٍّ مِنْ هَوًى فَأَنِيقَا أَمْ خَانَ عَهْدًا أَمْ أَطَاعَ شَفِيقَا

يضع بين يدي الدارس نتائج كثيرة أهمها : -

- أ - أن القصيدتين في مدح الثفري ، وأن الشاعر هو محمد بن عمرو الشـسـاري .
 - ب - تعرض القصيدتان أحدهما جسماً ما شملت بقاعاً واسعة من أرض الجزيرة ، وهذا لا يمكن أن يقسم به عدد قليل جداً من الثائريـن .
 - ج - كان القائمون بالثورة شراً ، ولهذا بايعوا محمد بن عمرو بالخلافة .
- ومن خلال السخرية التي يصور بها البحري بيعة الخليفة الخارجي نتيـن مدى سيطرة هذا الثائر على الجزيرة : -

جاءوا براعيهم لِيَتَّخِذُوا بِهِ عَمْدًا إِلَى قَطْعِ الطَّرِيقِ طَرِيقَا
طَرَحُوا عِبَائَهُ وَأَلْقَوْا فَوْقَهُ ثَوْبَ الْخِلَافَةِ مُشْرَكًا رَاوِقَا ^(٤)

(١) انظر في خثعم ونسبه وبنـيه : جمهرة ابن حزم : ٢٨٧ ، ٣٩٠ .
(٢) انظر في تفصيل ذلك : الطبري ١ : ٢٤٨ ، ٢٥٥ ، ٣٧٢ ، ابن الأثير ٥ : ٢٧٤ ، ٣٣٥ .
(٣) انظر شرح نهج البلاغة ٥ : ٧٤ .
(٤) الراووق : وأنا ، تصفى فيه الخمر والمقصود به هنا الشراب نفسه .

عَقَدُوا عِمَامَتَهُ بِرَأْسِ قَنَايَتِهِ ۖ
وَأَقَامُوا يَنْفِذُ فِي الْجَزِيرَةِ حُكْمَهُ
وَرَأَوْهُ بَرًّا فَاسْتَحَالُوا عَنْ قَوْلِهِ ۖ
وَيُظَنُّ وَعْدَ الْكَاذِبِينَ صَدُوقًا ۖ

ويقول البحري في القصيدة نفسها: ما أشد تغير الأيام ! لقد طمح إلى الخلافة راع ذو عباءة،
طرح عباءته ولبس ثوب الخلافة "الأرجواني"، ولما لم يجد أنصاره راية ترمز لسلطته، أخذوا أعمامته
وعقدوها برأس رمحه، فعلوا كل ذلك بعد أن كان المسلمون يرون في بني أمية أنهم مستأثرون بالخلافة،
وبعد أن كان محبوب علي يرون أن أبا بكر وعمر قد استأثرا بنصيب علي، وبعد أن كان فريق يلومون
طلحة والزبير - على الرغم من انتائهما لقريش - حين طلبا الخلافة. فما الذي يسوغ ذلك لجشهم
ابن بكير؟ (١)

لكن الشغري - ذلك الحية الذكور - لم يدعمهم ينعمون بخلافتهم طويلاً :-

حتى إذا ما الحية الذكر أنكفأ ۖ
مِنْ "أَرْزَنِ" حِنَقًا يَمْجُ حَرِيْقًا (٢)
تُعْشِي الْعَيُونَ تَالِقًا وَبَرِيْقًا ۖ
أَوْفَى عَلَيْهِ فَظَنٌّ مِنْ دَهْشٍ بِهِ ۖ
غَدَرْتُ أَمَانِيهِ بِهِ ۖ وَتَعَزَّيْتُ
الْبَرِّ بِحُرًّا ۖ وَالْفَضَاءُ مَضِيْقًا ۖ
عَنْهُ غَيَابَةُ سُكْرِهِ تَعْزِيْقًا ۖ
طَلَعَتْ جِيَادُكَ مِنْ رُبَا الْجُودِيِّ قَدْ (٣)
يُظَلِّبُنْ نَارَ اللَّهِ عِنْدَ عَصَابِيْقَةٍ ۖ
خَلَعُوا الْإِمَامَ وَخَالَفُوا التَّوْفِيْقًا ۖ

فهذا التصوير لاندفاع الشغري المشحون بالحنق والغضب يمجّه ناراً، ويقذف به منوئاً على الخوارج،
مؤشر واضح على جسامه أحداث حركة الخوارج، وإن لا يعقل أن تسير كل هذه القوة إلى ثلاثة عشر
رجلاً، لأنه لن يكون عندئذ معنى للإشادة ببطولة الشغري، ولا يكون معنى كذلك لتصوير زعيم الخوارج
بأنه محبوب بالرعب، وبأن الخوف قد تلبسه حتى غدا البرضيقاً لا انفساح فيه للنجاة ولا مهرباً.

(١) الأبيات من ١٨ - ٢٣ من القصيدة نفسها .

(٢) أرزن مدينة في أرمينية .

(٣) الوسوق : جمع الوسق وهو ستون صاعاً وقيل حمل بعير . والجودي : جبل مطل على جزيرة
ابن عمر في شرق دجلة من أعمال الموصل، وقيل : هو الذي استوت عليه سفينة نوح عليه
السلام .

وقد ورد في هذه القصيدة سخرة البحري من قبيلة تغلب لأنها لا تفتأ تطمح إلى الخلافة دون حـق :-

ولقد نظرنا في الكتاب فلم نجـد
خلوا الخلافة إن دون منالهم
لمقالكم في آيـه تحقـق
قدراً بأخذ الظالمين خليـق

وذلك يدل على أن تغلب حاولت غير مرة نقض خلافة العباسيين . وقد نصب الشاعر نفسه في موقف الحريض عليهم فهو يخشى عليهم الهلكة إن ظلوا يسرعون في استجابتهم إلى دعوات المارقين . وذلك هو أيضاً ما أفصحته بعض أبيات القصيدة البائية التي يعدد فيها البحري فضل الشغري على تغلب ومنه صفحه عنهم ، يقول :-

ألم تسكنوا في ظلّه فتصايفوا
ألم تردّوه - وهو جم - فلم تكن
أسأل لكم عفواً رأيتم ذنوبكم
وفي عفوه - لو تعلمون - عقوبة
إجازة مطلوب ورغبة طالسب
(١) غروبكم في بحر بهمرايسب
(٢) غنا عليه وهي ملّ المذانسب
تقعق في الأعراس إن لم يعاقب

وفي هذه البائية أيضاً ما يشير إلى أن الشغري صفح عن ابن عمرو الشاري . ومن غير شك أن الصفح تم على تراخ من الزمان ، يقول في ذلك :-

مننت عليه إذ تقلبت الطبسب
وتعتعت عنه السيف فارتد نصله
عليه ، وزيد من قتيل وهمارب
(٣) كليل الشدا عنه ، حرون المضارب
(٤)

وعلى ذلك يمكن الاستنتاج من سياق الأحداث التي تعرضها القصيدتان أن القصيدة القافية نظمت أولاً ، ثم تلتها بعد زمن القصيدة البائية ، وإذا ضمنا هذه النتيجة إلى روايات الطبري

- (١) الغروب : الدلاء العظيمة جمع غروب .
- (٢) المذانسب : جمع المذنب وهو مسيل الماء إلى الأرض .
- (٣) زيد المذكور هو زيد بن عمرو بن تغلب . جمهرة ابن حزم : ٤٠٣ ، يريد الشاعر أن يقول : إنك وهبت لهذا الخارج الظلم الحياة ، وكانت حياته تحت طائلة السيوف في حين تفرق قوم زيد وناصره بين قتيل وهمارب .
- (٤) تعتعت : حرك بعنف . والشدا : الأذى .

والصولي والمريزاني وابن أبي الحديد^(١) عن أجوا القصيدتين وأخبار شراة تغلب، ترجح أن تكون
القافية قد نظمت في زمن الوراق، والبائية في زمن المتوكل، وأن إغفال الشاعر لذكر الخليفتين في
القصيدتين مرده إلى عدم ارتباط أسبابه بأسبابهما حتى هذا التاريخ، وهو سنة ٢٣١هـ وقد ورد في
"أخبار البحري" ما يدل على أنه لم يتصل بالمتوكل إلا في سنة ٢٣٣هـ^(٢) / ٨٤٧م، كما أن محمد
ابن عمرو الشاري لم يقتل في هذه الأحداث، وإنما قتل حسب رواية الطبري وابن الأثير
سنة ٢٥٢هـ / ٨٦٦م.

٥- وتعرض قصائد أخرى للبحري نظمها في مدح المتوكل صوراً أخرى للفتن التي استشررت
في الجزيرة، وفي اثنتين منها ذكر الشاعر أمر ربيعة مستشفعاً في إحداها (القصيدة رقم ٨٤٣) للرعيين.
ويستفاد من هذه القصيدة أن ربيعة يبطلونها : بني النمر بن قاسط، وبني تغلب، وبني بكر قد خرجت
على العباسيين، فسير المتوكل إليهم جيشاً ضخماً مدرّاً أحسن تدريب، فاضطر هو ولا الخارجيون
إلى طلب الأمان. يقول البحري في الرعيين وبخاصة بنو شيان منهم الذين كانوا هذه المرة هم
محور المشكلة :-

لما رأوا رجعَ الكئاب ساطِعاً	قالوا: الأمان، ولا تَحِينْ أمان
أيدت بالنصر الوشيك وأتبعوا	في ساعة البعجا بالخيل لأن
راموا النجاة، وكيف تنجو عصابة	مطلوبة بالله والسلطان
فأنكك جوامعهم بمنك إنهم	سُريت على أيدي ندَى وطعان ^(٣)
لك في بني غنم بن تغلب نعمة	فهلُم أخرى في بني شيطان

ولا تقدم القصيدة شيئاً آخر عن طبيعة هذه الحركة وأهدافها، غير أن الذي يبدو أن الرعيين كانوا
مصدر رعب لمن حولهم من القبائل، وأن الخليفة كان مضطراً إلى أن يسير إليهم جيشاً مرعياً، وقد
تمكن من إيقاع هزيمة شنيعة بهم، ووقعت أعداد كبيرة من رجالهم أسرى في أيدي العباسيين^(٤).

- (١) انظر: الطبري ١: ٣٧٢، أخبار أبي تمام: ١٥٠، أخبار البحري: ٦٣، المريزاني: الموشح،
تحقيق علي محمد الجاوي، دار نهضة مصر ١٩٦٥، ٣٤١، نهج البلاغة ٥: ٧٤.
(٢) انظر: الصولي: أخبار البحري ٨٣ - ٨٤.
(٣) الجوامع: الأغلال سميت كذلك لأنها تجمع الأيدي إلى الأعناق. سرت: أوثقت. وبني
شيان فرع من بكر وهم رعيون. انظر جمهرة ابن حزم: ٣٠٣.
(٤) انظر الأبيات من ٨ - ٢١ من هذه القصيدة.

فانبرى الشاعر يلتمس من الخليفة بأن يفك سراح أسراهم أسوة بفكاه لسراح أسرى بني غنم بن تغلب وعفوه عنه .

وقصيدة الشاعر الثانية (القصيدة رقم ٥١٦) في مدح المتوكل قد احتوت أبياتاً يستفاد منها أن الربيعين اقتتلوا قتالاً فيما بينهم طلباً للتأثر ، ولم يكونوا شراءة نائرين على الدولة ، وأن الخليفة سوى مشكلتهم ، وألف بين قلوبهم ، وفي ذلك يقول البحترى معبراً عن أساء لاحترا ب أخواله :

أَسَيْتَ لِأَخْوَالِي رِبِيعَةً إِذْ عَفَّيْتُ مَصَانِعُهَا مِنْهَا ، وَأَقَوْتُ رُبُوعَهَا
بُكَرْهِي أَنْ بَاتَ خِلاَءَ دِيَارِهَا وَوَحْشًا مَغَانِيهَا ، وَشَتَّى جَمِيعَهَا

ويصف البحترى هذا الاحترا ب على الرغم من لحمة القرى بين المعتقلين ، وهو لا يخفي اعترازه بتلك الروح الكليية الممزقة وإن قطعت الصلات :

إِذَا افْتَرَقُوا عَنْ وَتَعَةٍ جَمَعَتْهُمْ لِأُخْرَى دِمَاءٌ مَا يُطَلُّ نَجِيعُهَا
تَذُمُّ الْغَنَاءُ الرُّودَ شَيْئَةً بَعْلِيهَا إِذَا بَاتَ دُونَ النَّارِ وَهُوَ ضَجِيعُهَا
حَمِيَّةٌ شَغَبَ جَاعِلِيَّ وَعِزَّةٌ كَلْبِيَّةٌ أَعْيَا الرِّجَالَ خُضُوعُهَا
شَوَاجِرُ أَرْمَاحٍ تُقَطِّعُ بَيْنَهُمْ شَوَاجِرُ أَرْحَامٍ مَلُومٍ قَطُوعُهَا (١)

ثم يقول مثنيًا على جهود المتوكل في التآليف بين قلوبهم ، وإحلاله للأمن والطمأنينة بعد الفزع الذي كان :

تَأَلَّفَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا شَرَّدَتْ بِهِمْ حَفَائِظُ أَخْلَاقٍ بَطِيءُ رُجُوعُهَا
فَأَبْصَرَ غَاوِيَهَا الْمَحْجَةَ فَاهْتَدَى وَأَقْصَرَ غَالِيَهَا ، وَبَانَ شُؤْمُهَا (٢)
فَقَدْ رُكِرَتْ سُرُ الرِّمَاحِ وَأَغْمِسَتْ رِقَاقُ الظُّبَا مَجْفُوعَهَا وَصَنِيعُهَا
رَبَطَتْ بِصُلْحِ الْقَوْمِ نَافِرَ جَائِشِهَا فَكُرَّتْ حَشَاهَا ، وَاطْمَأْنَنْتْ ضُلُوعُهَا (٣)

(١) الشواجر : المتشابكة .

(٢) المحجة : معظم الطريق ووسطه . الشروع : البعيد .

(٣) الجأش : القلب والصدر . بمعنى أذهب عن قلوبهم الفزع .

ويلاحظ أن الشاعر قد حشد في هذه القصيدة ضرباً من التعبير المتشاكل المعنى مما كان منه في وصف التآزم والتناحر ، أو ما كان في وصف الانفراج ، وحلول الوثام . وإن هذا الحشد لم يكن ليبد في قصيدة مشحونة بالتوتر إلا لأن القائل كان متوتراً بهم القبيلة فضلاً عن هم الإبداع وولادة الشعر . ومثلما تشاكلت عبارات الشاعر في وصف الاحتراب في الصف القبلي الواحد ، تشاكلت عباراته في وصف الانفراج ، والتهميل بزوال مظاهر المخاوف والرهبة .

٦- ويبدو من قصيدة أخرى ^(١) نظمها الشاعر في فترة تالية في مدح الهيثم بن عبد الله الذي تقلد أعمال الموصل في سنة ٢٦١هـ / ٨٧٤م أن الربيعين عادوا إلى الاقتتال ، يقول في تعبيره دال على تحكم الفتن والحروب فيهم : -

أما لربيعةِ الفرسِ انتهتِ سُلُوكُها عن الزَّلْزَالِ فيها والحُروبِ ^(٢)
لكنَّ قبيلةً حربٌ تداعى إلى خيلٍ معاودةِ الركوبِ

ومع ما في هذين البيتين من إشارة واضحة إلى استئناف القتال بين تلك القبائل الربعية ، فإن نسي قول الشاعر التالي تصريحاً بأن هذا القتال الجديد جاء في أعقاب مصالحة غير مجددة لم تحسم فيها أسباب النزاع : -

وكانوا رَقَعُوا أَيَّامَ سِلْوكِهم على تلك القوادح والنَّدُوبِ ^(٣)
إذا ما الجرحُ رَمَّ على فسَادِ تبينَ فيه إفسادُ الطيبِ

ويألم الشاعر أشدَّ الألم إذ يرى الإخوة يقتل بعضهم بعضاً ، ويدعوهم إلى التمهّل حقناً للدماء ، وخشية من الفناء : -

فهل لأبني عَدِيٍّ من رَشِيدِ يردُّ شريدَ جُلُمِهما العزيبِ ^(٤)
أخافُ عليهما إمرارَ مرَعَى من الكلاءِ الذي علقاه مُوسِي

(١) هي القصيدة ٣٣ من ديوانه ، وذكر الطبري أن الهيثم كان من أهل الجزيرة ، انظر : الطبري : ١٢ : ١٥٠ .

(٢) ربيعة الفرس قبيلة تنسب إلى ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، وقد سعي كذلك لأنه كان وهب الخيل من مال أبيه ، وأخوه هو مضر . انظر جهمرة الأنساب : ٤٦١ .

(٣) القوادح : جمع قادح وهو السوس الذي ينخر في الخشب والاسنان .

(٤) العزيب : البعيب .

وقد بلغ من معاناة الشاعر بهذا الهم القبلي أن تصر مدحه لمدوحه هذا على بيان فضله في إيقاف
نزيف الدم الجاري من جسم القبيلة الأم ، بل جعل فضل هذا المدوح رهيناً بنجاحه في مسعاه
في تسوية هذا النزاع .

٧- وتعرض قصيدة أخرى للبحثري (الرقم ٥٦٥) صورة عن أحداث جسام شهدتها منطقة
الجزيرة في إبان ولاية محمد بن صفوان العقيلي (١) عليها ، يقول في مدح هذا الوالسي : -

لولا ابنُ صفْوانٍ وأنعمُــــه ما لَانَ ما لَانَ من أيامنا وصفنا
سائلٌ سُلَيْماً به إذْ ماقَ جاهِلُهُــــا حيناً فأدركهُ مكرهُ ما اقترَفنا (٢)
من حينهم أنْ غلَوْا بنغيّاً فنادَـرهم فرطُ الغُلَسو لا طَـرافِ القنا عَدَفا

ويلاحظ أن الشاعر نعت أولئك الخارجين بنعوت تدل كلياً على أن طبيعة الفتن كانت ضراً من
التعرد القبلي على السلطنة : -

أَتَوَكَّ يُزجِيهِمُ لِلْحَيِّينِ جاهِلُهُــــم مُستَقْدِماً بهمُ للْبُغيِ مُردُ لِفنا (٣)

وكان العقيلي محملاً على القضاء على أسباب الاضطراب ليشيع الأمن والاستقرار في ولايته .
وقد راقى الشاعر صورة أدوات القتال من رماح وسيوف وهي تفعل فعلها في رؤوس الخصوم وجسومهم
تقطيعاً وإداماً ، يقول : -

في كَـيِّومِ صُدُورِ السُّمْرِ مُشرَعَةً تُبري نجيعاً على أعْجَازِهم نُطَفَا (٤)
أَمْطَرَتْ أَرْوُسُهُمُ ضَرْباً تركَّتْ به مأثُورَةَ السُّمْرِ مُنادَاً وَمُنْقَصَا (٥)
يَسْتَنْزِلُ القَوْنَسَ المَحْبُوكَ مُبْتَرِراً من وقَعِهِ ويخُوضُ النَثْرَةَ الزَّعَفَا (٦)

- (١) كان صفوان العقيلي قد وثب بديار مصر في أيام المستعنيين ودعا للمعتر ، ثم وجه إليه المعتر
من قتله بعد أن وثب فيما بعد بالرافقة على أميرها . انظر تفصيل ذلك في : اليعقوبي ٢ : ٥٠١ .
- (٢) ماق : حقق في غبارة . سُلَيْم : قبيلة تنسب إلى سليم بن فهم بن غنم بن دوس ، انظر جمهرة ابن
حزم : ٣٨١-٣٨٢ ، وانظر أيضاً فيه : ٢٦١-٢٦٤ ، ٤٠٨ .
- (٣) مزدلف : متقدم .
- (٤) تمرى : تستدر .
- (٥) مُناد : معوج منحسن .
- (٦) القونس من السلاح : مقدمته . النثرة : الدرع السلسلة الملبس . الزعف : الدرع الواسعة
المحكمسة الصنع .

كَأَنَّ وَقَعَ سَيْوفُ الْهِنْدِ سَابِحَةً فِي هَامِمْ حُرُوبٍ تَحْتَهَا سَعَفَاتُ
كَمْ مُقَمِّصٍ مِنْهُمْ تَدْمَى تَرَائِبُهُ وَلَا حِجَّ فِي وَثَاقِ الْأَسْرِ قَدْ رَسَفَاتُ (١)

وهكذا يتضح أن ثورات الجزيريين اتخذت طابعين :-

- الأول : طابع الثورة المذهبية في أوساط الشراة من بني تغلب .
الثاني : طابع الفتن والاحتراب القبلي الذي تطول شروره وآثاره الأمن العام في المنطقة كلها .

وأياً ما كانت الحال ، فإن منطقة الجزيرة بقباثلها المتعددة ظلت منطقة ثورات متتالية ، فلا تكاد تخبو ثورة أو فتنة حتى تتبعها أخرى . وكانت تلك المشكلات باعثاً قوياً حفز شاعراً كبيراً هــو البحترى إلى أن ينظم فيها شعراً كثيراً ، وشعراً متقدماً في بنيته الفنية ، وإلى أن ينظم أبو تمام في مالك بن طوق وصراعه مع قومه أربع قصائد . غير أن الشاعرين جميعاً لم يكونا يورخان ، بل كانا يصوران تصويراً فيه مقدار صادق من التاريخ ، وفيه كذلك مقدار كبير من الفن ، وفيه أخيراً مقدار من مصانعة المدوحيين .

ولو أننا أجرينا مقابلة بين الأشعار في الفتن والثورات التي حدثت في الشام ، والأشعار التي نظمت في ثورات الجزيريين وفتنهم لتبين لنا بون كبير بينهما في المستوى الفني ، وفي ما يلي مجمل لأبرز تلك الفـروق :-

أ - جل ما نظم في أحداث الفتن والثورات الشامية مقطعات ، وكل ما نظم في أحداث الجزيرة قصائد .

ب - غلبة الصبغة التقريرية والنبرة الخطابية على أشعار الفتن الشامية ، وغلبة النزعة التصويرية على قصائد الثورات الجزيرية . ولعل مرد ذلك إلى احتياج شعراء الفتن والثورات الشامية إلى تحميس الأنصار ، وتهديد الخصوم . والوصول إلى هاتين الغايتين يستدعي أيسر سبل الخطاب ، أما شعراء فتن الجزيرة فقد كانوا ينظرون إلى تلك الأحداث من زاوية رؤيوية المدوحيين ، ويتوحدون إرضاءهم فحرصوا على تجويد شعرهم ، وهذا فضلاً عن الافتراق في

(١) المقمص: الذي قتل مكانه . اللاحج : الذي لن مكانه .

القدرات الفنية لدى الفريقين « فالأخرون احترقوا صناعة الشعر، والأولسون نفتوا انفجاراتهم النفسية نفثاً من غير عناء كبير » .

جـ - من المؤلف أن نسمع في شعر الخوارج نغمة دينية إسلامية في طلب مرضاة الله « والرغبة في الاستشهاد » ولكن هذه النغمة محجوبة عن أسماعنا « لأنه لم يصلنا شعر لأولئك الخوارج بل غطت سخريه البحتري - من الجانب المناوي - على الشعارات المثالية التي كان يرفعها الشراة « ويختلف موقف البحتري اختلافاً واضحاً بين مقت للخوارج « وتعاطف مع القبائل المتنازعة « وفي التمازج بين الموقفين يبدو طغيان اللحمة القبلية على كل ما عداها سوى الحرض على « الحماة » المتكفلين بالموارد الاقتصادي للشاعر .

٣ - الصراع بين العباسيين وال طولونيين :-

اتخذ الشعر الشامي في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ميداناً قد يعد جديداً بفعل التطورات السياسية التي شهدتها بلاد الشام في هذه الفترة . فقد غدت الشام موطناً للصراع بين العباسيين وال طولونيين ، وتوزعت تبعاً لذلك أعراق الشعراء وميولهم السياسية في ثلاثة اتجاهات هي :-

الأول : الشعر الذي أيد أصحابه الخليفة المعتمد والحركة الطولونية بوصف أحمد بن طولون نصيراً للخليفة الشرعي ، وبوصف أخيه الموفق ظالماً يسلب أخاه حقه الشرعي في الخلافة ، وقد مثل هذا الاتجاه عدد من الشعراء منهم قعدان بن عمرو^(١) ، وصالح بن محمد بن إسماعيل بن علي الهاشمي الحلبي^(٢) ، ومُصنف بن خليفة الهذلي^(٣) ، والبالسي الضرير^(٤) ، وإسحاق بن الحسن طريف المخزومي^(٥) ، وعبد الرحمن بن سلامة الشيباني^(٦) ، ومحمد بن بشر العنسي^(٧) ، وهؤلاء كلهم شعراء شاميون ، وشاركهم في موقفهم هذا من هذه القضية بعض شعراء مصر منهم القاسم بن يحيى الرئسي^(٨) .

الثاني : الشعر المعادي لابن طولون وال طولونية ، ويمثله الشاعران محمد بن داود^(٩) وأحمد ابن محمد الواسطي كاتب أحمد بن طولون^(١٠) . وهذان غير شاميين ، ولهذا فهما يقعان في خارج هذه الدراسة .

- (١) في البلوي : ٢٥٤ : قعدان بن عمرو ، وفي مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٤ : ٢٧٧ قعدان بن عمرو وعمو شاعر كان بدمشق حين قدمها أحمد بن طولون لخلع الموفق في سنة ٢٦٩ هـ .
- (٢) ورد ذكره في زبدة الحلبي ١ : ٧٧ .
- (٣) كان منصف بصحبة أحمد بن طولون في دمشق . انظر : مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٧ : ٢١٠ . وقال البلوي في سيرة ابن طولون : له شعر طويل . ولم يورد له غير قطعة . انظر : البلوي : ٣٠٠ .
- (٤) كذا في بغية الطلب ٨ : ورقة : ٢٦١ ، وفي البلوي : ٣٠١ ، والبالسي الضرير .
- (٥) ذكره البلوي وقال : له شعر طويل . انظر : ٣٠٠ .
- (٦) ذكره البلوي : ٣٠٠ ، وأورد له قطعة شعريّة .
- (٧) ذكره البلوي : ٣٠١ ، وأورد له قطعة شعريّة .
- (٨) ورد ذكره في الكندي : ولاية مصر : ٢٦٠ - ٢٦١ ، وانظر المغرب / قسم مصر : ٢٧١ .
- (٩) ذكره الكندي في ولاية مصر : ٢٤٥ ، ٢٥٥ .
- (١٠) كتب الواسطي لأحمد بن طولون ، فلما استولى خمارويه على الإمرة وقعت بينهما وحشة ، فكتب الواسطي إلى أحمد بن الموفق اشعاراً يحرضه على قتال خمارويه . انظر : مصورة تاريخ مدينة دمشق ٢ : ٢٣١ ، البلوي : ٢٣٠ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

الثالث : الاتجاه المتأرجح الذي بدأ بمناصرة بعض ولاية الموفق على الشام ، وبمعاداة أحمد ابن طولون ، ثم انقلب صاحبه معادياً لأولئك الولاية ، مناصراً لأحمد بن طولون ، ويمثل هذا الاتجاه البحري في بعض شعوره .

ومن الواضح أن شعراء الاتجاه الأول مغمورون ، وأن ما وصلنا من أشعارهم قليل ، ولكن مرة أخرى نواجه كثرة نسبية في عدد شعراء الشام ، كما نواجه اجتماعهم على موضوع بعينه ، أو ظاهرة بعينها ، فكما كان شعراء الفتن يحتشدون معاً في وقت واحد ، فإن شعراء الصراع العباسي — الطولوني يقفون معاً يرددون مقولات مشتركة .

وسياق الأحداث يدل على أنه بعد أن بلغت القطيعة مداها بين أبي أحمد الموفق وأحمد بن طولون بملاعنة أحدهما للآخر على المنابر^(١) ، وبعد أن أشاع ابن طولون في الناس أن الموفق خلع أخاه الخليفة نظم شعراء الشام الموالون لابن طولون قصائد أيده فيها بوصفه مدافعاً عن شرعية الخليفة ، وعنبيعة الأمة له ، مقررين أن الموفق ارتكب مخالفة دينية فلا يجوز السكوت عنها البتة ، ولذلك فهم يحثون الناس على ضرورة الانتصار للخليفة بالقوة ، فالموفق قد نكث العهد ، ولم يراع حرمة الأجداد ، ومن العار على الناس أن يخذلوا إمامهم ، وأن يتركوه تحت ضائقة واضطهاد^(٢) . ومنهم فريق يشير نخوة الناس حين يصور الخليفة مستسلماً ذليلاً متوقعاً للقتل بيكي على أولاده وعياله^(٣) .

فمحمد بن بشر العنسي يقول حاثاً الناس من عدنانيين وقحطانيين على ضرورة معاضدة الخليفة ، معتبراً التقاعس عن مناصرته سبة وعاراً^(٤) :

يا بني الدّين من مرادٍ وقحط — إن وأكفائهم من الاقْطوام
ضاربوا عن خليفة الله بالبيء — ضوقوموا به قيام الكرام
حسبكم سبة عليكم وعاراً — دائماً عيئه مدى الأيام

- (١) انظر تفصيل ذلك في البلوي ٢٩٨ — ٣٠٠ .
(٢) ذلك ما يقوله إسحاق بن طريف المخزومي ، انظر البلوي : ٣٠٠ .
(٣) انظر ما يقوله عبد الرحمن بن سلامة الشيباني ومحمد بن بشر العنسي في البلوي : ٣٠٠ — ٣٠١ .
(٤) البلوي : ٣٠٠ — ٣٠١ .

وعبد الرحمن بن سلامة الشيباني ينهج نهجاً آخر في الدعوة إلى مناصرة الخليفة، لا بطريق التحريض المباشر كما هي الحال عند محمد بن بشر العنسي، وإنما بتصوير سوء الحال التي صار فيها الخليفة إذ يقول^(١) :-

متدلل لهم أخواستسـلام	هذا الخليفة في فناء أعدائـه
وصباح يوم غد من الأيـام	متوقع للقتل كل عشيـة
كبكـاء ذات الثقل والايـام	بيكي على أولاده وعيالـه

والملاحظ أن كل هؤلاء الشعراء يضرب على وتر الدين والانتصار للخلافة الشرعية باعتباره عنصر التأثير الأقوى في الدفاع عن الخليفة، وكأن القضية تتعلق بمبدأ الخلافة وجوهرها، وأن حقها مقدس، وحماها لا يجوز بحال انتهاكه أو اختراقه .

وإذا كانت هذه الأشعار لم تبعج بوحاً مباشراً بمعاوضة أصحابها لأحمد بن طولون، فإن اجتماع هذا الفريق الكبير من الشعراء على مبدأ واحد، وترديد هم لشعارات واحد، يدل على أن أحمد ابن طولون ربما كان هو نفسه الذي جمعهم وأغراهم بإثارة الشعب لتبني قضية الخليفة، وهي قضية ابن طولون نفسه . وهنا نلمح تغيراً حاسماً في نفسية الشاميين، فبعد التردد في اتجاها الخلافة العباسية والخليفة العباسي نجد حرصاً عليهما معاً، وهذا يعني أن القرن الثالث الهجري حمل معه تغيراً واضحاً بالنسبة لما كانت الحال عليه في القرن السابق .

غير أن فريقاً آخر من الشعراء الشاميين صرح باسم أحمد بن طولون ولم يلمح . فحين قدم أحمد بن طولون إلى دمشق في سنة ٢٦٩هـ / ٨٨٢م لخلع أبي أحمد الموفق قال قعدان بن عمرو الدمشقي يمدح أحمد بن طولون، ويدعو الناس إلى مناصرة الخليفة، ومناصرة ابن طولون فسي دفاعه عن حق المسلمين في مبايعتهم لـه^(٢) :

طال الهدى بابن طولون الأمير كـما	يزعموه الدين عن دين وإسلام
قاد الجيوش من القساطر يقدمهـا	منه على الهول ماض غير محجـام

(١) البلوي : ٣٠٠ .

(٢) الكندي : ٢٥٤، مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٤ : ٤٢٧ .

في جَحْفَلٍ لِلْعَنَا فِي مَنَاقِبِهِ —————
 حَاطَ الْخِلَافَةَ وَالْدُنْيَا خَلِيفَتُنَا —————
 يَا أَيُّهَا النَّاسُ مُهْبُوا نَاصِرِينَ لِنَسْه —————
 مَكَانَ بَيْنَ رَايَاتٍ وَأَعْسَلَام —————
 بَصَارِمٍ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ صَمَصَام —————
 مَعَ الْأَمِيرِ يُدْهِمُ الْخَيْلَ فِي اللَّام (١)

ويربط قعدان قبول الصلاة والصيام من الناس برواية ابن طولون لهم وهم يذبون عن الإمام فيقول : -

لَيْسَتْ صَلَاةٌ مَصْلِيكُمْ بِجَائِزَةٍ —————
 حَتَّى يَرَى السَّيِّدُ الْمُيْمُونُ ذَبْكَكُمْ —————
 وَلَا الصِّيَامُ بِمَقْبُولٍ لَصَصَام —————
 عَنِ الْإِمَامِ بِأَطْرَافِ الْقَنَا الدَّامِي

ولم تقتصر دعوة قعدان لعرب الشام إلى الدفاع عن شرعية الخليفة حسب ، بل تجاوزت ذلك حين دعا المسلمين جميعاً إلى ذلك فقال من قميدة أخرى (٢) : -

مَنْ مُبْلَغُ مَضَرِ الشَّيْءِ وَمَا حَاوَتْ —————
 رَأْيِي ، وَكَيْفَ يَطِيبُ - لَا أَدْرِي - لَكُمْ —————
 مَضَرٌ وَمِنْ عَوْمَتِهِمْ أَوْ مُنْجِدٌ —————
 خَفَضُ الْمَعِيشَةِ وَالْإِمَامُ مَقِيدٌ

وعلى هذا النحو يجري مُصَنَّفُ بْنُ خَلِيفَةِ الْمَذَلِي فَيُبَايِعُ أَحْمَدَ بْنَ طُولُونَ ، مَدَافِعاً عَنِ الْخِلَافَةِ وَالْخِلَافَةِ فِي أَبْيَاتِ ذَاتِ حِظٍّ مُمَيِّزٍ مِنَ الْجَزَالَةِ (٣) : -

يَا غُرَّةَ الدُّنْيَا الَّذِي أَعْمَالُهُ —————
 أَنْتَ الْأَمِيرُ عَلَى الشَّامِ وَشَرْعُهُمَا —————
 وَإِلَيْكَ مَضَرٌ وَبُرْتَةٌ وَحِجَازُهُمَا —————
 هَتَاكَ الْخِلَافَةَ صَاعِدٌ وَخَلِيلُهُ —————
 أَسِيفُنَا بَيْضُ الْمُتَوَنِّينِ فَلَيْتَهُمَا —————
 يُعْسِي وَيُصْبِحُ ضَارِبًا مَنْ دُونَهُمَا —————
 غُرَّرَ بَيْنَا بَيْنَ الْوَرَى يَتَمَلَّقُ —————
 وَالرَّقَّتَيْنِ وَمَا حَوَاهُ الْمَشْرِقُ —————
 كُلُّ الْيَسْكَ فَوَادُهُ مُتَشَوِّقُ —————
 إِسْحَاقُ ، بِفَيْءٍ وَالْحَسُودُ الْآخِرُ (٤)
 بَنَجِيصٍ مَنْ خَذَلَ الْإِمَامَ تَخَلَّقُ —————
 بِمَهْنَدٍ فِيهِ الْحُتُوفُ تَفْشَرُ

(١) اللام : اللامة ، أداة الحرب كلها من رمح وبيضة ومغفر ودرع جمع لأم ولؤم .

(٢) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٤ : ٤٢٧ .

(٣) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٧ : ١٠٦ ، وبعض أبياتها في " النجوم الزاهرة " معزوة لمصري انظر ٣ : ٢٠٠ .

(٤) صاعد المذكور هو وزير الموفق ، والحسود عني به الموفق ، وإسحاق هو إسحاق بن كُنداج صاحب الجزيرة والموصل وهو الذي اعترض الخليفة المعتمد لما علم بخروجه إلى ابن طولون ملتجئاً ، فكافأ الموفق إسحاق بأن عينه على مصر بدل ابن طولون . انظر : ولادة مصر : ٢٥٢ ، ابن كثير ١١ : ٤٣ .

وعلى غرار هذين الشاعرين جرى البالسي الضرير في أبيات له يقول فيها (١) :-

يا سعيَّ النبيِّ لا نسيَّ الله لك الذَّبَّ عن حريم النبيِّ
دولة الدين والخلافة عسرتْ بك لا بالطريد عنها النَّفسيَّ (٢)
أيزالُ اسمه على الرِّغم من كُسلٍ ل مقام امريِّ كريم سنيَّ
دام ما لا ينالُه فلقد خا بَ وخاب اعتداده بالخصيِّ

ويحتاج موقف البحري المتردد بين هذين القطبين ، الموفق وابن طولون ، إلى توضيح ، فقد مدح البحري أولاً الموفق وسما الطويل ، وهجا أحمد بن طولون ، ثم عاد فمجا سيما الطويل ، ومدح ابن طولون وابنه خمارويه ، وقد لاحظ المرزباني (المتوفى سنة ٣٨٤هـ / ٩٩٤م) هذا التقلب عند البحري فقال في "الموشح" (٣) : كان "البحري قد هجا نحواً من أربعين رئيساً من مدحه" منهم خليفتان وهما المنتصر والمستعين (٤) ، وساق بعدهما الوزراء ورؤسا القواد ومن جـرى مجراهم من جلة الكتاب والعمال ٠٠٠ بعد أن مدحهم ، وأخذ جوائزهم ، وحاله في ذلك تنبؤاً عن سوء العهد ، وخبت الطريقة ٠٠٠٠٠ .

فمثل ينسحب حكم المرزباني هذا على مدائح البحري وأهاجيه لابن طولون وسيم الطويل ؟

لقد هجا البحري أحمد بن طولون في القصيدة ذات الرقم ٥٩٣ لأنه استولى على أمواله في الشام ، وفيها يقول :-

وما زلتُ أخشى مذ تَبَدَّى ابْنٌ يَلْبَسُ عَلَى سَعَةٍ مِنْ أَنْ تُدَالَ بِضِيقِ (٥)
وما كان مالي غيرَ حَسْوَةٍ طَائِرٍ أَضِيفَ إِلَى بَحْرِ بَصْرَ عَمِيقِ

- (١) البلوي : ٣٠١ ، بغية الطلب ٨ : ورقة ٢٦١ . والبالسي نسبة إلى بلدة بالس الواقعة بين حلب والرقية . انظر معجم البلدان / بالس .
- (٢) الطريد هو أبو أحمد الموفق لأن المهتدي كان نفاه ثم رده المعتمد . والخصي هو يا زمان الخادم صاحب طرسوس .
- (٣) الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء ١ : ٥١٤ .
- (٤) المنتصر بن المتوكل الخليفة العباسي (٢٤٧ - ٢٤٨هـ / ٨٦١ - ٨٦٢م) والمستعين هو أحمد بن محمد بن الخليفة المعتمد (٢٤٨ - ٢٥٢هـ / ٨٦٢ - ٨٦٦م) .
- (٥) يلبيح قيل فيه إن أحمد بن طولون هو ابنه غير الشرعي ، وكان يلبيح تركيا يعيش في قصور العباسيين . انظر في تفصيل ذلك : سيدة إسماعيل كاشف : أحمد بن طولون ، سلسلة أعلام العرب ، الدار المصرية العامة للتأليف والترجمة ١٧ - ١٨ .

لئن فات وفري في اللثام فلم أطبق
فلسك ألوم النفس في فوت بعية
إذا ما طلبنا خطة النصف ردها
تلافيه مسترجعاً بلحسون
إذا لم يكن عصري لها بخليق
علينا ابن خبث ناحت وفوق

وكرر البحري هجاءه لابن طولون للسبب نفسه في قصيدة أخرى جاء فيها (١) :-

أرقت جنایات المضلل ثروتي
وتد زعموا مضر معاني من الرنسي
فلا تشب بعد العبيس ولا وفر (٢)
كيف أسفت بي إلى عدم مضر (٣)

ومدح سيما الطويل في القصيدة ذات الرقم ٦٥١ ، وفيها مدح الموفق لحسن اختياره لسيما والياً على حلب والعواصم (وكان ذلك في سنة ٥٢٦٤هـ / ٨٧٧م) ، وعاد يهجو فيها أحمد بن طولون بسبب مخالفته للموفق فقصصه سال :-

لقد وفق الله الموفق للذي
أضاف إلى سيما الطويل أمورنا
فأهلاً وسهلاً بالإمام وقبائدهم
فكم قد مددنا من رجاء إلى أبي
فكم فتنه أخرجتنا من ظلاله
وظاغية حاکمت بالسيف مضلتنا
أنى سادراً بالبنفي مستحقاً له
أناه ، وأعطى الشام ما كان يامله
وسما الرضا في كل أمر يحاوله
أتت بالسرور كتبه ورسائله
علي فلقتنا التجاع مخايله (٤)
وخطب تجلى عن حسانك هائله
إلى أن وقى من دون حقك باطله
وحاول نصر الله ، والله خازله (٥)

ثم يبدأ التحول في موقف البحري من سيما الطويل في القصيدة ذات الرقم ٢١٧ . وقد قالها في رثاء القاضي أبي علي الحسين بن عبد الرحمن قاضي أنطاكية الذي قتله سيما الطويل (وتاريخها هو ٥٢٦٥هـ / ٨٧٨م) لأن فيها إشارة واضحة إلى مقتل سيما في هذه السنة (٦) ، وفيها يقول :-

- (١) القصيدة : ٢٤٦ .
- (٢) أرقت : قلت . النشب : العقار والمال . الوفرة : الغنى . والعبيد - على ما يقول محقق الديوان - اسم أطلقه البحري على أرضه وبيته في الشام .
- (٣) المعان : المباءة والمنزل .
- (٤) أبو علي هي كنية سيما الطويل ، والمخايل جمع المخيلة ، وهي الدلائل والمظان .
- (٥) السادر : الذي لا يبالي بما يصنع ، والمستحقب : المدحسر .
- (٦) انظر : الطبري ٩ : ٥٤٣ ، الكندي : ولاية مصر : ٢٤٦ ، وقد ذكر محقق ديوان البحري أن تاريخ هذه القصيدة هو سنة ٥٢٦٤هـ . انظر ديوان البحري ١ : ٥١٨ .

وما بَرَحَتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ حَسْبِي أَرْتَنَا الْأَسَدُ قَتْلَى لِلْقُتُوبِ
وليس دُمُ اللَّعِينِ وَإِنْ شَفَانَا كَهَيَّا عِنْدَنَا لِدَمِ الشَّهِيدِ (١)
سما بِالْخَيْلِ أَرْسَالًا لِسَيْمِيَا فَمِنْ شُؤْسٍ إِلَى الدَّاعِي وَقُودِ (٢)
فما انْفَكَّتْ تَجُولُ عَلَيْهِ حَسْبِي تَدْعُهُ أَرَأْسَ جَبَّارٍ غَنِيْدِ (٣)

ولعل هذا التحول إنما تمَّ لِمَا شهِرَ من ظلم سيماء، فالبحتري يجاري الناس في موقفهم من رجل ظالم، ثم إن سيماء الطويل كان قد قتل، فالتحول عنه لا يسبب أي أذى للبحراني .

ويبدأ التحول في موقف البحتري لأحمد بن طولون في القصيدة ذات الرقم ٢٩ ، فقد مدحه فيها ، وعرض بأسير طرسوس من قبل الموفق عليها ، وهو يومئذ يا زمان الخادم ، وأكبر الظن أنه نظمها في حدود سنة ٥٢٦٩ هـ / ٨٨٢ م بعد حصار ابن طولون ليازمان في طرسوس ، إذ تُجمع مصادر الدراسة التاريخية على أن ذلك الحصار كان في تلك السنة (٤) .

ويبدو أن سبب مدح البحتري لأحمد بن طولون وتعميظه بيازمان مع ما عرف عنه من عدل وجهاد في سبيل الله فأحبه الناس ، كان نابعاً من مضايقة ما كان البحتري قد تعرض لها في أثناء إقامته في ذلك الوقت ببغداد ، وهذا ما عبرت عنه الأبيات التالية من القصيدة : -

لَقَدْ قَطَعَ الْوَائِي بَتْلَفِيقٍ مَا وَشَسِي مِنْ الْقَوْلِ مَا لَا يَقْطَعُ الصَّارِمُ الْعُضْبُ
فَأَصْبَحْتُ فِي بَغْدَادَ لَا الظِّلَّ وَاسِعٌ وَلَا الْعَيْشُ غَنِيٌّ فِي غَضَارَتِهِ رَطْبُ
أَأْمَدُحُ عَمَّا نِ الطَّسَاسِيحِ رَاغِبِيَا إِلَيْهِمْ ، وَلِي بِالشَّامِ مُسْتَمْتَعٌ رَغْبُ (٥)

وأما مصدر هذا الضيق فلأن كبار رجال الدولة من العباسيين كانوا في شغل عنه بمحاربة صاحب الزنج بالبصرة ، وإذن فلماذا لا يوطئ البحتري لرحيله عن العراق إلى الشام بإبداً حسن النوايا تجاه المتغلب عليها ، وبالطعن على خصومه فيها ؟

- (١) عن الشاعر باللعين سيماء الطويل وبالشهيد القاضي ابن الصابوني .
- (٢) الشؤس جمع للأشوس وهو المتكبر والجريء ، الشجاع .
- (٣) في هذا البيت إشارة إلى الطريقة التي قتل فيها سيماء الطويل إذ لما حاصر ابن طولون سيماء بأنطاكية ، وكان الناس له كارهين ، ألقت عليه امرأة حجراً حطم رأسه .
- (٤) انظر: الطبرسي ١ : ٦١٤ ، ولأمة مصر : ٢٥٥ .
- (٥) الطساسيح جمع طسوج فارسية وأكثر ما تستعمل في سواد العراق . الرغب: المتسع .

ولو حَضَرْتُهُ أَشْيَاءُ اسْتَقَلَّتْ بَا
وما شَكَّ قَوْمٌ أَوْقَدُوا نَارَ فِتْنَةٍ
كَأَنَّ لَمْ يَرَوْا سِمْاءَ الطَّوِيلِ وَجُمُعَتَهُ
إِلَى كُلِّيَّتِهِ حِينَ أَرْجَعَهُ الرَّعْبُ (١)
وَسِرَّتْ إِلَيْهِمْ أَنَّ نَارَهُمْ تُخْبِسُ
وَمَا فَعَلَتْ فِيهِ وَفِي جَمْعِهِ الْحَرْبُ

ولو لم يُحَايِزْ لَوْلَا يُفِـرْ رَارَه
تَخْطَا عَرْضَ الْأَرْضِ رَاكِبٌ وَجْهٌ
يُحِبُّ الْبِلَادَ وَفِي شَرْقٍ لِشَخْصٍ
إِذَا سَارَ سَهْبًا عَادَ ظُهُرًا عُدُوهُ

لَكَانَ لِيَصْدِرَ الرِّيحُ فِي لَوْلَا تُقْبُ (٣)
لِيَمْتَعَ مِنْهُ الْبُعْدُ مَا يَبْذُلُ الْقُسْرُ (٤)
وَيُذْعَرُ مِنْهَا وَهِيَ مِنْ فَوْقِهِ غَرَبُ (٥)
وَكَانَ الصَّدِيقُ عُذْوَةً ذَلِكَ السَّهْبُ (٦)

- (١) يقول الشاعر : لو لم يُخَصِّرْنا زماناً لانتقلت خصيتاهُ إلى مكانٍ كليتيه خَوْفاً ورعباً .
 (٢) انظر: البلبل - ٢٤٤ - ٢٧٧ .
 (٣) معنى البيت : نَجى الفَرار لو لوأ من أن تنقب جسده رماح ابن طولون كما ينقب اللؤلؤ .
 (٤) يريد الشاعر : كان لو لوأ فرعاً طول الطريق خشية أن تدركه رماح ابن طولون ، إذ كلما أوغل في الأرض هارباً مبتعداً أدرك النجاة ، فكانت قدماء تخطوان في مواقع مرمى بصره .
 (٥) يريد الشاعر : يحب البلاد الشرقية لأنه كلما أوغل فيها ابتعد عن موطن الخطر ، ويخشى ما خلفه منها غرباً .
 (٦) قال ابن الأثير في المثل السائر بتحقيق أحمد الحوفي ويدوى طبانة ، ط ١ ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتهما : " المراد أن هذا المنهن يرى ما بين يديه محبوباً إليه ، وما خلفه مكروهاً عنه ، لأنه يطلب النجاة فيؤثر البعد ما خلفه والقرب ما أمامه ، فإذا قطع سهلاً وخلفه وراءه صار عنده كالعدو " ، وقبل أن يقطعه كان له صديقاً ، أي يطلب لقاءه ويحب الدلتا منه .

وما كان لي ذنبٌ فآخس جَزَاءَهُ وَعَفْوُكَ مُرْجُوَانٌ كَانَ لِي ذَنْبٌ

وللبحتري ثلاث قصائد مدح أخرى في الطولونيين ، وعي في أبي الجيش خمارويه بن أحمد ابن طولون ، ومولاه طُغْج بن جَفَّ (١) . ومواطن التمدح فيها ثلاثة : انتصار خمارويه في موقعة ثنية العقاب على جيش ابن أبي الساج أمير الجيش العباسي ، وذلك في سنة ٢٧٥هـ / ٨٨٨ م ، وانتصاره في بعض المعارك على الروم ، وحسن اختياره لأحد عمال الخراج على الشام (٢) . ففي القصيدتين (١٩ و ٢٦) تصوير لأهوال يوم الثنية إذ كان فيه البطش والطعن والضرب والقتلى والأسرى والجثث المترامية فرادى وجماعات ، يخالط ذلك كله صخب كَرَّ الخيل ، وضجيج اللقاع بكثرة الفرسان . وفيها أيضاً إلى جانب هذه الصورة الكلية لقطة للممدوح وقد جلس في سرادق وأمامه صفان من الرجال : صف من "مُضْبري خوف" وآخر من "الراجيين" المعنوا والصفوح .

(١) كان طنج بن جف قد ولي ديار مصر من قبل لؤلؤ غلام أحمد بن طولون، وولاه خمارويه دمشق وطبرية وظل كذلك إلى أن قتل خمارويه، ثم حبسه المكتفي، فمات في حبسه سنة ١١٤١هـ/ ١١٠٤م. انظر: وفیات الاعیسان ٥ : ٥٢ .

(٢) انظر هذه الأمور في قصائده: (١٩ و ٧٢٢ و ٨٢٦).

أحمد بن محمد الحبيشي (١) ، وأحمد بن أبي يعقوب (٢) وسعيد القاص (٣) ، وإسماعيل ابن أبي هاشم (٤) . ويغلب على الظن أن أولهم شامي والآخرين مصريون . فقد عبر أحمد بن محمد الحبيشي عن فرجه العامر بالتثام شمل الشام ومصر بالخلافة عندما سير الخليفة العباسي محمد بن سليمان الكاتب والياً على مصر بعد زوال الطولونية فـقال : -

الحمد لله إقراراً بما وهبنا	قد لم بالأمن شعب الحق فانشعبنا
الله أصدق هذا الفتح لا كذب	فسوء عاقبة المشوى لمن كذبنا
فتح به فتح الدنيا محمدنا	وفتح الظلم والإظلام والكربنا

إلى أن يقول مسترفداً بعض آي الذكر الحكيم : -

فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم	كانهم من زمان غابير ذهبنا
وكم ترى تركوا من جنة أنس	ومن نعيم جنى من غدرهم غصبنا

أما الآخرون فيبدو من خلال الشعر الذي وصفوا فيه بعض مظاهر العمارة التي أحدثها الطولونيون في مصر أنهم مصريون . وكان سعيد القاص أكثر هؤلاء الشعراء حزناً على اندثار دولتهم . وتصيدته فيهم تعدد من القصائد الطريفة ، ففيها وصف مدقق لمظاهر العمران التي كان الطولونيون قد أحدثوها ، فاتخذ من وصفها مدخلاً لإبراز فضائل ابن طولون وإظهار مدى حبرته عليه وعلى ملكه الذي اندثر ، يقول فيها : -

يدل على فضل ابن طولون جملة	محلقة بين السماكين والغفر
فإن كنت تبغي شاهداً ذا عدلية	يخبر عنه بالجلي من الأمس
فبالجبل الغربي خطبة يشكرك	له مسجد يُغني عن المنطق الهذر
يدل ذوي الأبواب أن بنينا	وبانيه لا بالضنين ولا الغفر
بناه بأجر وآس وعزع	وبالعزم المسنون والجص والصخر

- (١) الكندي : الولاة وكتاب القضاة ، هذبه وصححه رفن كست ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٨ م : ٢٤٨ - ٢٤٩ .
- (٢) المصدر السابق : ٢٥٠ .
- (٣) المصدر نفسه : ٢٥٣ .
- (٤) المصدر نفسه : ٢٥٢ .

بعيدُ مدى الاقطار سامٍ بنسـاؤه
 بنى مسجداً فيه يفسق بنسـاؤه
 تخالُ سنا قنديلِهِ وضياءه
 وعينٌ معينُ الشرب غير ركيـفه
 وثيقُ المباني من عقود ومن جذرٍ
 ويهدي به في الليل إن ضل من يسري
 سهيلاً إذا ما لاح في الليل للسفر
 وغير أجاجٍ للسرواة وللظهـر

إلى أن يقول مصوراً الخسارة الكبرى التي منيت بها مصر لذهابهم :-

فمن يبك شيئاً ضاع من بعد أهليه
 ليئك بني طولون إذ بان عصرهم
 لفقد هم فليئك حزناً على مصـر
 فبورك من دهرٍ وبورك من عصـر

الفصل الثاني

الشعر والصراع الخارجي في القرنين الثاني والثالث الهجريين

شغل الصراع بين المسلمين والروم في القرنين الثاني والثالث الهجريين بعض كبار شعراء الشام . ولكن ما نظم من شعر في هذا الصراع في أثناء القرن الثاني الهجري كان قليلاً وغير متميز بالقياس إلى كثرته في القرن الثالث وتميزه فيه ، ولعل مرد ذلك إلى أمرين : أولهما غياب الطاقات الإبداعية التي تعمق الأحداث وتجليها ، وثانيهما ندرة الأحداث العسكرية نفسها في القسطنطينية الثاني بالقياس إلى كثرتها وشدتها في القرن الثالث .

وفاية ما وصلنا من شعر شامي نظم في القرن الثاني مصوراً معارك الثغور ينحصر في بعض شعر الشعراء الجزيين أشجع السلمي ومنصور النري . ثم إن ما جاء في أشعار هذين الشعراء عن تلك المعارك ينحصر في قصائد معدودة ، وفي أبيات قليلة جاءت في ثنايا قصائد مدح هذين الشعراء للخليفة العباسي هارون الرشيد وأحد قاداته . والغريب ألا تكون لشعراء الشام الآخرين من أمثال عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي ، وديك الجن الحمصي ، وربيعة الرقي ، والعنابي وغيرهم من ظهوروا في هذا القرن أدنى مشاركة في وصف معارك المسلمين مع الروم ، مع أن هؤلاء الشعراء جميعاً كانوا من عاصر الرشيد صاحب الجهاد الطويل في الثغور . فهل يعتقد أن يكون هؤلاء الشعراء وأضرابهم منسلخين عن اهتمامات الجماعة الإسلامية المقاتلة ، منحصرين في همومهم الذاتية ؟ لعل الأمر كان كذلك ، أو لعل لهم شعراً آخر قد فقد ، أو لعل انشغال هؤلاء الشعراء بهموم الشام الداخلية ، وفتنها القبلية كان أقوى تأثيراً في نفوسهم من الأحداث الجارية على الحدود البعيدة .

فإذا ما انتقلنا إلى القرن الثالث الهجري وجدنا شاعرين شاميين أصلاً هما أبو تمام والبحتري يتخصصان تخصصاً فريداً في وصف هذا الصراع الذي احتدم بقوة في عهود المأمون والمعتصم والمتوكل . كما برز في زمانهما قادة مسلمون أمضوا حياتهم في مقارعة البيزنطيين ، فاستوقفت بطولاتهم هذين الشعراء فنظموا فيها القصائد العظيمة .

شعر الهجري :

شعر الصراع مع الروم في القرن الثاني الهجري أهم القضايا التالية :-

١ - توطيد أركان الأمن في الثغور (وبذلك مدح أشجع السلمي محمد بن منصور بن زياد ملقب بفتى العسكر^(١)) . ويبدو أن قضية استتباب الأمن في الثغور كانت قضية ملحة دائمة الحضور في أذهان الخلفاء وأمرأ الثغور ، وذلك أمر يدهي اقتضته طبيعة العلاقات الساخنة دوماً بين المسلمين والروم ، ثم إن في استتباب الأمن في الثغور فرصة لاستتباب الأمن في الداخل الذي كان يشهد بين الفينة والفينة انتفاضاً هنا ، وتعدداً هناك حسبما لاحظنا من ثورات شهدتها بلاد الشام طوال القرن الثاني الهجري .

٢ - التهيئة بالفتوح ، من ذلك أنه لما انصرف الرشيد من غزاة هرقلة قدم الرقة في آخر شهر رمضان ، فلما عيّد جلس للشعراء ، فدخلوا عليه وفيهم أشجع ، فبدرهم وأنشأ يقول :-

لا زلتَ تنشرُ أعياداً وتطويها	تضي بها لك أيام وتثنيها
وليَهيكَ الفتحُ والأيامُ مُقبلَةٌ	إليك بالنصرِ معقوداً نواصيها
أمسَتْ هِرْقَلَةُ تهوي من جوانبها	وناصرُ الله والإسلام يُزْمِيها ^(٢)

٣ - تمجيد البطولة تمجيداً فيه مقدار غير قليل من السرف في إضفاء صفات مثلى على الممدوح ، فهو ينفو كل من عداه ذكاً ودعاً وسعة حيلة وحسن تدبير وحكمة في القيادة . ومع التسليم بأهمية دور القائد في إحراز الانتصارات فإن المرء قد يقدر أن الثناء على الممدوح يجب ألا يكون على حساب تضحيات الجنود فتغبط جهودهم ، وتنسى دماؤهم وتضحياتهم . وعلى أية حال ، فليست هذه الظاهرة وفقاً على هذه الحقبة ، فأمثالها كثيرة قبل ذلك وبعده . يقول منصور النمرى في تمجيد بطولة الرشيد في تصوير لأهوال معركة خاضها وانتصر فيها^(٣) :-

- (١) محمد بن منصور ندبه الرشيد لحسم فتنة بالشام بين قيس واليمن في سنة ١٨٧ هـ ، وكان مقرباً من الرشيد حتى لقبه بفتى العسكر . وانظر القصيدة رقم ٤٩ في مجموع شعر أشجع ، والصولي : الأوراق : ١٢١ .
- (٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ٢ : ٨٨٤ ، الأغاني ١٨ : ٢٤٦ ، وهرقلة - على ما يقول ياقوت - مدينة ببلاد السروم ، انظر : معجم البلدان (هرقلة) .
- (٣) شعر منصور النمرى ، القصيدة رقم ٢٤ .

يَا رَبِّ قَرْنٍ تَخَطَّيْتَ الْحُتُوفَ إِلَى
 كَمْ شِدَّةٍ لَكَ لَوْ كَانَتْ عَلَى جَبَلٍ
 لَيْلٌ مِنَ النَّقْعِ لَا نَجْمٌ وَلَا قَمَرٌ
 أَلْقَى بَنُو الْأَصْفَرِ الْأَذْقَانَ وَاشْتَطَلْنَا
 خَاضَتْ إِلَيْهِمْ خَلِيجَ الْبَحْرِ هَمِيئُهُ
 حَوَائِجٍ وَعَجَاجٍ الْمَوْحِ يَرْتَفِعُ
 لَا تُهْدَى مِنْ وَزْنِهَا أَوْكَادٌ يَنْقَلِبُ
 إِلَّا جَبِينُكَ وَالْمَذْرُوبَةُ الشَّرْعُ (١)
 ذُلُّ الْخُنُوعِ وَكَانُوا قَطُّ مَا خَنَعُوا
 فَأَذَعُوا بِأَدَاةِ الْخُرْجِ وَانْتَجَعُوا

غير أن ما يميز أشجع في تمجيد البطولة أنه فطن إلى صناع النصر الحقيقيين من الجنود، وإن ظل هذا الفطن مشدوداً إلى المدوح نفسه إذ يقول (٢) :-

بَشَّتْ عَلَى الْأَعْدَاءِ أَبْنَاءُ دُرَيْسَةَ
 وَمَا زَلَّتْ تَرْمِيهِمْ بِهِمْ مُتَقَرِّدًا
 فَلَمْ يَقِمِّمْ مِنْهُمْ حُصُونٌ وَلَا دَرْبُ
 أَنْيَاسِكَ حَزْمُ الرَّأْيِ وَالصَّارِمُ الْعَضْبُ (٣)

ويلاحظ على شعر الشاميين في صراع المسلمين مع الروم في هذا القرن ما يلي :-

١ - غياب الصورة التفسيرية للمعركة بحدتها واحتدامها، وما فيها من مشاي وجرحى وأسرى وقتلى وتدمير، واقتصارها على إبراز بطولة القائد، لا نستثنى من ذلك غير الأبيات العينية التي قالها منصور النعمري في الرشيد، ولعل مرد ذلك إلى أمرين :-

أ - إن هذه القصائد نظمت بغرض التكسب، فكان الشاعر يعرّج على موضوعات شتى يرضي كل موضوع منها جانباً من جوانب نفسية المدح .

ب - عدم مشاركة ناظمي هذه القصائد المقاتلين في القتال، فهم يصفون المعارك من الخارج، دون أن يحسوا بحقيقتها .

٢ - التصوير الخاطف لهزائم الروم، وإغفال الحديث عن عزائم المسلمين تماماً .

٣ - اعتبار المحرك لهذه الحروب إما الإسلام أو الدفاع عن ثرى المسلمين وأمنهم .

(١) المذروبة من آلات القتال كالسيف ونحوه، وعي الحادة الشديدة الضأ

(٢) الأغاني ١٨ : ٢١٣ .

(٣) العضب : القاطع .

ويقول في أخرى (١) :-

وصليبُ القنساءِ والرأي والإسـ
لام سائلُ بذاك عنه الصليبا

ويقول في ثالثة (٢) :-

هو كوكبُ الإسلام أيسَّة ظلمة
يخرقُ فمخ الكفر فيها رار (٣)

وقال في فتح عمورية مخاطباً المعتصم (٤) :-

أبقيت جد بني الإسلام في صعد
حتى تركت عمود الشوك منقعرًا
والمشركين ودار الشوك في صبيب
ولم تعرج على الأوتاد والطنب (٥)

بل عد الشاعر الجهاد في سبيل الله السبب في إحراز النصر إذ يقول :-
ربي بك الله برجيها فهدمها
ومن أمثلة ذلك أيضا قول البحري في تعبير مشاكل مخاطباً يوسف الشفيري (٦) :-

أنزلت بالإنجيل ثم بأعليه
ذلاً أراهم عز أهل المصحف

وقوله في آخر مخاطباً المتوكسل (٧) :-

وما زالت الأعداء تعلم أنسه
ولما طعنت في دارها الروم واعتدت
يُجاهدنا في الله حتى جهادها
سفاهاً ، رماها جعفر بحصادها
كتائب نصر الله أمضى سلاحهم
وعاجلتوى الله أكثر زادها

ويلاحظ أن أبا تمام قد حور مفهوم "الأخذ بالنار" فألبسه لبوساً دينياً ، ونحى عنه توبسه
الفردى أو القبلي المقيت عندما قال "أدركت فيه دم الشهيد وثأره" ، وإن يقول في معرض وصف

(١) القصيدة رقم ١٢ وخبرها في الطبري ٩ : ٥٥ - ٥٦ .

(٢) القصيدة رقم ٦٨ .

(٣) رار بمعنى ذائب .

(٤) القصيدة رقم ٣ في الديوان .

(٥) عني بعمود الشوك عمورية ، وبالأوتاد والطنب ما حول عمورية من القرى والمدن الرومية الصغيرة .
(٦) القصيدة رقم ٥٥٥ ، ويوسف الشفيري هو ابن محمد بن أبي سعيد الشفيري . وكان قد اشترك
مع أبيه بغزو الروم . قتل سنة ٢٣٧هـ / ٨٥١م في أرمنية ، انظر : الطبري ٩ : ١٨٧ ، فازيليف

العرب والروم : ٣٥٤ .

(٧) القصيدة رقم ٢٨٢ .

ملاحقة أبي سعيد الثغري لفلول الروم (١) :-

حتى يورب الحق وهو المشتفي منكهم وما للدين فيكم ثار

٢- المشكلات التي تعرقل من حركة الجيوش الإسلامية :-

كانت وعورة الأرض من أكبر المعوقات للمحاربين إذ يقصدون الثغور والدروب للغزو. فهي قد تكون سبباً يحول دون التوغل في أرض الروم ، بل قد تكون سبباً ملحاً يثني من عزيمة القائد عن الاستمرار في الهجوم نزولاً عند رغبات جنوده ، أو شموراً منه معهم بثقل المسير . وكان البحر همماً آخر مقيماً يحد من رغبات المسلمين في السيطرة على مدن الروم البحرية ، وحصناً يحتمون بسببه . يقول أبو تمام معبراً عن هذين الهمين في مدح أبي سعيد الثغري (٢) :-

أوقدت من دون الخليج لأهلها نارا لها خلف الخليج شرار
إلا تكن حصرت فقد أضحى لها من خوف قارة الحصار حصار
لو طاعتك الخيل لم تقفل بها والقفل فيه شبا ولا مسمار (٣)

فتمبير الشاعر عن تأبي الخيل وحرونها عن مطاوعة الثغري هو في حقيقة الأمر تعبير عن شكاة الفرسان أنفسهم من مخاطر المجازفة ، وإحساس لطيف أحس به الشاعر ، أو صرح به الجند ، ثم نقل إلينا في صورة شعرية صادقة .

ويعرج أبو تمام أيضاً في قصيدة أخرى في مدح أبي سعيد على هذه القضية نفسها (٤) . ومثل هذه الوقفات تتيج للشاعر أن يذهب الى أقصى طرف من المبالغة في تصوير عزم المدح ، ومسمى طموحه معتمداً على " لو " أو " لولا " (٥) ، وهي صيغة تسمح للشاعر بأن يلجأ إلى القسم لارتباطه بشي لم يتحقق .

- (١) القصيدة ٦٨ .
- (٢) القصيدة ٦٨ .
- (٣) القفل : موضع بيلاد الروم . وأراد : لو طاعتك الخيل يا أبا سعيد لقفلت راجعاً من هذا الموضع غير مبق فيه شيئاً من أدوات أهله . والشبا هو حد السيف ونحوه .
- (٤) هي القصيدة رقم : ١٠٥ .
- (٥) يقول في ذلك من القصيدة ١٠٥ :

ولو أن الجياد لم تعصه كبا ن لديه غير البعير السحيق
روحاً القنا عليه يميناً هي أمضي من الحسام القتيق
أن لو أن الذراع شدت قواها ما عضد أو أعين سهم بفوق
ما رأى قفلها كما زعموا قفلاً ولا البحر دونها بعميق

وعلى هذه الشاكلة من الشكوى المبطنة من وعورة الدروب التي كان المسلمون يجتازونها
في صراعهم مع الروم، يقول البحترى في قصيدة يمدح بها أبا سعيد الشفري^(١) :

مَفَازَةُ صُدْرٍ لَوْ تُطْرَقُ لَمْ يَكُنْ — لَيْسُ لَكُمَا فَرْدًا سُلَيْكُ الْمَقَانِبِ^(٢)
تَلَبَّثَ فَمَا الدَّرْبُ الْأَصَمُّ بِمُسْمِيهِ — إِلَيْهَا « وَلَا مَا الْخَلِيجُ بِنَاضِيهِ

فقد أسى الشاعر الدروب من أرض الروم بالمفازة ، وذلك دليل على أن اجتيازها لم يكن أمراً سهلاً
ولا ميسوراً حتى ولو على شخص غدا مضرب المثل في سرعة العدو "سليك المقانب" ، وألفه العيش
في البراري والقفار .

وحين يصف البحترى الفرس والبغل في إحدى قصائده - رقم ١٦٢ - يصرح بالهموم المواقبة
لشأتى النزو في الجبال . ومن أجل ذلك تطلب الأمراء أن يحظى كلٌ خارج غازیاً عبر تلك المسالك
الوعرة بحصان ذي مزايا فريدة ، أو بغل ذي قدرة متفوقة ، وقد أتاح هذا للشاعر أن يمدح في ذكر
مزايا الحصان، فنعتته بخفة الجسم ، فأحشأه طيُّ الكتاب المَدْرَج ، وبالسَّرعَة الفائقة، فمواقع وطئه لخفته
لا تكاد تترك أثراً ولا تشير عجاًجاً ، وبالدَّرية والمراس في خوض غمار الحروب ، فما تلقاه غير مضج . ولا شك
أن إلحاح الشاعر على هذه الصفات وسواها من نعمات التميز والتفوق في ركوبه تحقق له تصوير
الحصان النموذج ، لكن تلك الصفات نفسها تسير حاجة البحترى الذي لم يألف الخروج إلى النزو،
ولذا قال بعُدْ : « إِمَّا بِأَشَقَرٍّ » أو أَدَهَمٍّ » ، « أو أَشَبَّ » ، « أو أَبْلَقَ » ليرمي به "شوك القنسا"
ثم عطف بعُدْ فقَالَ :

وَأَقَبَّ نَهْدٍ لِلصَّوَاهِلِ شَطْرُهُ — يَوْمَ الْفَخَّارِ « وَشَطْرُهُ لِلشَّحْجِ^(٣)

أي فرساً بعضه للفراهة وبعضه لحمل الأثقال ، وهو في الناحية الثانية يشبه البغـال .

ولم تكن وعورة المسالك وحدها باعثة على الشكاية من صعوبة النزو ، بل يضاف إليها الشكاية من
بُعْدِ الشُّقَّة ، كما يقول البحترى من قصيدة يمدح بها يوسف الشفري^(٤) :

- (١) القصيدة رقم ٦١ .
(٢) سَلَيْكُ الْمَقَانِبِ هو سَلَيْكُ بْنُ السُّلَيْكَةِ أحد صعاليك العرب في الجاهلية ومشهور بهم بسرعة العدو .
والمقانب جماعة الخيل من الفرسان . انظر في التعريف به : الشعر والشعراء ٢ : ٢٨١ ، الأغاني ١٣٢ : ١٨ .
(٣) الأقب من الخيل : الدقيق الخصر الضامر البطن . والنهد : المرتفع الطويل القوائم ، والشحج : البغال .
(٤) القصيدة رقم ٥٥٥ وفيها إشارة صريحة إلى هذه الشكاية .

صَبَحَنَ مِنْ حُرُوسِ خُرْشَنَةَ السُّبْحِ بِعُدَّتْ عَلَى الْأَمْلِ الْبَعِيدِ الْمَوْجِفِ (١)

وكما يقول في القصيدة التي مدح بها أحمد بن دينار (٢) :

أَتَى دُونَهَا نَأْيُ الْبِلَادِ وَنُصْنَأُ سَوَاهِمَ خَيْلٍ كَالْأَغْنَةِ ضَمْرٍ (٣)
وَلَمَّا خَطُونَا دِجْلَةَ أَنْصَرَمَ الْهَمَى فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا لَفْتَةُ الْمُتَذَكَّرِ
وَخَاطِرُ شَوْقِي مَا يَزَالُ يَهْيِجُنِي لِبَادِيٍّ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ وَحَضْرٍ

وهذا الحديث عن النأي ونص السواهم يصور المشقة من مفارقة الأحبة ، وفقدان الاطمئنان في أكناف البيوت . وتغطن الشاعر إلى هذه القضية ، وإن لم يعن في تفصيلات لحظات الوداع ، لفئة ذات بعد إنساني صادق .

وصور أبو تمام في بيت طريف في هذا السياق المسلمين في الشغور بين حقيقتين : الرغبة في الدنو من الأهل ، والوفاء بالالتزامات المترتبة على كل جندي تجاه ذويه وأتاربه ، وهو لذلك مشدود إليهم ، يستشعر شيئاً من التقصير نحوهم بهذا البعد في الدروب والشغور ، والواجب الديني الذي يدفع المقاتل إلى القتال والاستشهاد ، وقد غلب أبو تمام الحقيقة الثانية في قوله (٤) :

بَرَّ حَتَّى عَقَّ الْأَقْرَابَ إِنَّ السُّبْحَ بِرَّ بِالْدَّيْنِ تَحْتَ ذَاكَ الْعَقُوفِ

وقد يكون الأمر خلاف ذلك ، إذ لعل أبا تمام استبطن بحسه الشعري والإنساني معاً ما كان يمسور في نفوس الجند من تذمر ، لطول انقطاعهم في أرض المرابطة والغزو بعيداً عن أهلهم ، فوجههم هذا التوجيه الديني والعسكري في آن واحداً .

- (١) خُرْشَنَةُ بَلَدٌ قَرِبَ مَلْطِيَّةٍ مِنْ بِلَادِ الرُّومِ (معجم البلدان : خُرْشَنَةُ) وَالْمَوْجِفُ هُوَ الْمَسْرَعُ خَوْفًا .
- (٢) أَحْمَدُ بْنُ دِينَارٍ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَالْأَمْلُ مِنْ وَلاَةِ الْبَحْرِ ، غَزَا الرُّومَ فِي أَوَّلِ خِلَافَةِ الْمُتَوَكِّلِ عَلَى مَا يَقُولُ مَارِيسُ كَانَار - أَمَّا فَاذِلَيْفَ فَيُؤَخِّرُ لَهَا سَنَةَ ٨٤٢ هـ / ٢٢٨ هـ ، وَذَلِكَ يَعْنِي أَنَّهَا وَقَعَتْ فِي خِلَافَةِ الْوَائِقِيِّ . وَقَدْ انْتَهَتْ تِلْكَ الْغَزَاةُ بِكَارِثَةٍ بِسَبَبِ عَاصِفَةٍ ضَرَبَتْ الْمَرَكَبَ الْإِسْلَامِيَّةَ وَلَمْ يَنْجُ إِلَّا مَرَكَبٌ قَلِيلَةٌ . انْظُرِ الْأَقْوَالَ فِي ذَلِكَ : الْعَرَبُ وَالرُّومُ ٣٥٥ - ٣٥٦ هـ ، غَيْرَ أَنَّ قَصِيدَةَ الْبَحْثَرِيِّ هَذِهِ تُثَبِّتُ أَنَّ مَعْرَكَةً بَحْرِيَّةً عَنِيْفَةً وَقَعَتْ وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ انْتَصَرُوا انْتِصَارًا بَاهِرًا الْجَا بِنَ قَيْصَرَ إِلَى الْهَرَبِ . وَذَلِكَ دَلِيلٌ كَافٍ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْمَعْرَكَةَ الَّتِي سَكَتَ عَنْ ذِكْرِهَا الْمَصَادِرُ التَّارِيخِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ ، وَاضْطَرَبَ بِشَأْنِهَا الْمُؤَرِّخُونَ الْغَرِيبُونَ هِيَ غَيْرُ الْغَزَاةِ الَّتِي كَانَ قَائِدُهَا أَبُو دِينَارٍ ، وَالَّتِي انْتَهَتْ بِكَارِثَةٍ . انْظُرْ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ فِي دِيَوَانِ الْبَحْثَرِيِّ وَرَقْمَهَا ٣٨٧ .
- (٣) الضَمِيرُ فِي "دُونَهَا" مُعَائِدٌ إِلَى عَلْوَةِ الْحَلِيبَةِ صَاحِبَةِ الشَّاعِرِ الَّتِي وَرَدَ ذِكْرُهَا فِي بَيْتٍ سَابِقٍ . النَّصُّ : حَتَّى الرَّكَابُ مَا يَرْكَبُهُ . السَّوَاهِمُ : الضَّوَامِرُ .
- (٤) مِنَ الْقَصِيدَةِ رَقْمُ ١٠٥ .

وقد تجلّت هذه الحقيقة لدى الباحثي على نحو أوضح ، ولعل اشتراكه في المعركة هو السبب في ذلك ، فقد وجد نفسه في أرض هو غريب عنها ، وفيها ما فيها من ألوان النَّصَبِ والمخاطر ، فعادت إلى نفسه صورة بلده ومن فيه من أصحابه غير أنه ذهب مع دافع المكابرة إلى القول : إن الحق فسي قرب الأُحبة باطل . ولكن ما يفضح هذه المكابرة مقارنته بين ليلة الطويل في "طَمِين" (١) ، وليلته القصير في "بابل" ، كما أن فيها بَرعاً خفياً من إلحاح الشغري على مواصلة الغزو في فصول السنة كلها دون أن يفسح للجند فرصة من راحة ، يفسحها ————— (٢) : —

أَلَيْتَنَا الْأَوَّلَى بِطَمِينٍ هَلْ لَنَا	سَبِيلٌ إِلَى اللَّيْلِ الْقَصِيرِ بِبَابِ
سَلَامٍ عَلَى الْفَتَيَانِ بِالشَّرَفِ إِنْسَانِي	إِلَى الْجَانِبِ الْغَرِيبِ يَمُتُ وَأَغِيلاً
نَزُورُ بِلَا شَوْقٍ تَذَوُّرَةً وَأَبْنَهُنَا	وَقَدْ صَدَّ عَنْهَا تَوَفُّلُ بِنٍّ مَخَايِلَا (٣)
وَمَنْ يَتَقَلَّقُ فِي سَرَايَا ابْنِ يُوسُفَ	يَرِ الْحَقَّ فِي قُرْبِ الْأُحْبَةِ بَاطِلَا (٤)
غَزَاهُمْ فَأَنفَاهُمْ وَلَمْ يَقْتَصِرْ لَهُمْ	عَلَى الْعَامِ حَتَّى جَدَّدَ النِّكَزَ قَابِلَا
لَكَ الْخَيْرُ أَنْظَرْهُمْ لِيَتَنَجَّعَ الرُّسُلَا	مَنْوَرَةً أَوْ تَحْلِبَ الْخُلْفَ حَافِلَا (٥)
فَقَدْ غُرَّتْ بِالْغَارَاتِ فِي وَهْدَاتِهِمْ	وَلِيًّا وَوَسِيمًا رَدَّاذًا وَوَايِلَا (٦)

ولعل الوفوف على تصوير الصعوبات هذه في أشعار الطائيين قد حقق شيئين : أحدهما معنوي وهو إكبار حقيقة الجهاد بإكبار التغلب على كل تلك الصعاب ، وإكبار دور الجندي والقائد في ذلك المجال على حد سواء . والثاني فني وهو الإمعان في رسم الصور والتخلغل في دقائقها . ولنا في صورة الشتاء عند أبي تمام نموذج واضح على هذه الناحية ، فهو قد عرض للشتاء صورة قبيحة منفرقة فهو عدو جهم مقطب الوجه لا ترتاح النفس إلا بطعنه في منحره ، فقال (٧) في تعبير لم يعجب بعض النقاد القدامى ، لأنهم لم يألوا مثل هذا التصوير ————— (٨) : —

- (١) طمين بلد ببلاد الروم (معجم البلدان : طمين) .
- (٢) من القصيدة ٦٣٠ ، وهي في مدح محمد بن أبي سعيد الشغري .
- (٣) تذويرة هي تيودورا زوجة امبراطور الروم تيوفيل بن ميخائيل الذي كان لخروجه إلى زبطرة وغازته على ملطية سبب في معركة عمورية . وكان تيوفيل قد مات سنة ١٢٢٧هـ / ٨٤١م ، وهي السنة التي مات فيها المعتصم ، فتولت زوجته هذه الحكم من بعده لصغر سن ابنه ميشيل الثاني . انظر فازيليف : العرب والروم : ١٢ .
- (٤) يتقلقل في الأرض : يضرب فيها .
- (٥) الخلف : الضرع . الحافل : المستل .
- (٦) الوسمي : أول المطر . الولي : ما كان من مطر بعد الوسمي حتى تنقضي السنة .
- (٧) من القصيدة رقم ١٢ .
- (٨) انظر : الموازنة ١ : ٢٥٥ ، الواسطية : ٧٠ .

لَقَدْ أَنْصَمَتِ وَالشَّاءُ لَهُ وَجْهًا
طَائِعِينَ مَنَحَرَ الشَّعْمَالِ مُتِيحًا
فِي لَيَالٍ تَكَادُ تُبْقِي بِخَدِّ الشَّعْمِ
فَضَرِبَتِ الشَّيْءَ فِي أَخْذَعَيْهِ
يُرَاهُ الْكُمَا جَهْمًا قَطُوبًا
لِبِلَادِ الْعَدُوِّ مَوْتًا جُنُوبًا
مِنْ رِيحِهَا الْبَلِيلِ شُحُوبًا
ضَرْبَةً غَادَرَتْهُ عَسُودًا رُكُوبًا (١)

إن تصوير الشاعر للشتا على هذا النحو من الاكتفرار والقطوب وتجسيده إياه في هذه الصورة السني يتأذى المرء من مشاهدتها حيناً ، وفي صورة البعير الشرس الذي يتأبى على الركوب حيناً آخر ، يدلان على مدى المعاناة الحادة التي كانت تواجه المسلمين في شوائبهم ، وأن قهر هذه المشكلة لم يكن أمراً ميسوراً ، بل إن أبا تمام يصرّح في قصيدة أخرى بأن المسلمين كانوا يحرضون على مغادرة أرض الروم قبل أن يهجم الشتاء ، وأن ضرره ، وعمو النافع المنيث في غير هذه المواقع ، يفوق ضرر العسود وينتهي به — (٢) —

ثم آتت وأنت خوّت النعماء الـ
لا تبالي بوارق البين والسمـ
تسنا الغيث وهو حق حبيبـ
لم تخوف ضر العدو ولا بغـ

غَطَّ ذَوْ فِكْرَةٍ وَتَلَبَّ خَفُوقِ (٣)
ر ٤ وَلَكِنْ بِالْيَمِّ لَمَعَ الْبُرُوقِ
رَبِّ حَزَمٍ فِي بَغْضَةِ الْمُؤْمُسُوقِ (٤)
يَا ٥ وَلَكِنْ تَخَافُ ضَرَّ الصَّدِيقِ

وقد عرض الشاعر أبا سعيد الشافري في موفج حرج عبر عنه قوله "ذو فكرة وقلب خفوق" : أيـسـك ما بيده من أرغ الروم أم ينسحب منها ؟ ولكن الشاعر لم يتلبث طويلاً في وصف تيار الوعي عند الشافري، فحسمه لصالح القوة العقلية وغلبتها بقوله : "رب حزم في بغضة الموموق" إذ رأى من أمارات المطر ونذره ما دفعه دفعاً إلى اتخاذ قرار الانسحاب .

- (١) الأخدعان : عرقان في جانبي العنق . العود : البعير ، أراد : إن الشخري ذلل الصعاب
كما يذل البعير فيسهل ركوبه .
(٢) من القصيدة رقم ١٠٥ .
(٣) الغط : الغمر في الماء ، والغوص فيه ، كناية عن غزارة المطر ، ومعنى البيت : ثم قللت
غزوتك خوفاً من أن يدركك الثلج وشدة الشتاء . (شرح التبريزي) .
(٤) المومسوق : المحبوب . أراد أن من الخنز أحياناً كراهية المحبوب وهو
المطر .

ووقت البحري عند قضية الشتاء وقفة طائفة في القصيدة الثانية من ديوانه « فتصويرها صدر الشغري
ممثلًا بنيران الحقد التي أذابت ثلوج الجبال » يقول : -

حين أبدت إليك خرشنة العليِّ من الثلج هامة شطأ
ما نهاك الشتاء عنها وفي صدد رَكَ نارٌ للحقد تُنهِي الشتاء

٣- حماية الثمنور :-

يعرض الطائيان حاجة المسلمين إلى الاستقرار في شعورهم وتحسينها ، واستشعار الأمن
ومعاشته عندما يصورانها صدىً مكشوفاً ، وثلمة منفرجة ومراتع مخوفة ، وأرضاً مضاعة ، أو يصوران المسلمين
فيها مستضعفين محرومين فقراء ، أدلة ، ومن أجل ذلك وهذا أعلى الشاعران من شأن قادة الجيوش
وعمال الشعور ، وخلفاء بني العباس من كان لهم ولا ، وأولئك يد في تحقيق تلك المطالب .

يقول أبو تمام في خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني (١) :-

أقول لأهل الشعور قد رُبَّ الثَّـمَـنِ وَأُسْبِغَتِ النَّعْمَةُ وَالنَّامُ الشَّعْبُ (٢)
فسيحوا بأطراف الفضا وأرتبوا قنا خالدٍ من غيرِ درٍبٍ لكم درٍبُ
ويقول في قصيدة أخرى في أبي سعيد الشفري (٣) :

أصبحت مفتاح الشعور وقفلَه وسَدَادَ ثَلَمَتِهَا التي لم تُسَدِّدِ
ويقول في ثالثة فيه أيضاً (٤) :-

- (١) هو أحد الأمراء الأجواد في العصر العباسي . كان المأمون ولاء مصر ، ثم ولاء الموصل وديار
ربيعة . مات في خلافة الواثق في حدود سنة ٢٣٠ هـ . ويقول فازيليف : لا يذكر المؤرخون
أنه قام بدور هام في حرب الروم ، وهو في شعر أبي تمام بارز ، فقد هرب منه امبراطور الروم
ولعل ذلك كان في سنة ٢١٢ هـ . انظر : أخبار أبي تمام ١٥٨ ، العرب والروم : ٣٥٢ ، والقصيدة
رقم ١٤ من ديوان أبي تمام .
- (٢) الثأى والثأى : الخرم والضعف . راب : أصلح ورتق . الشعب : الانفراج . جيلين
- (٣) القصيدة رقم ٦١ .
- (٤) القصيدة رقم ٦٨ .

لولا جِلَادُ أَبِي سَعِيدٍ لَمْ يَكُنْ لِي الشُّعْرُ صَدْرُ مَا عَلَيْهِ صَدَار

إن ورود الألفاظ "الناي"، "الشعب"، "الثلمة" التي لم تسدد "صدر ما عليه صدار" يدل على ما كانت الشغور الإسلامية تعانيه وتفتقر إليه، كما أن ورود ألفاظ "الرأب"، "إسباغ النعما"، "والالتشام"، "والقفل والسداد"، "والصدار" يدل على إحساس الشاعر بمشكلات أهل الشغور، وهو يعرضها على المسؤولين باسمهم ليبادروا إلى حلها. وقد عبر البحري عن هذه المشكلات، وأثنى على صنيع القادة الذين تولوها باهتمام، وهو في ذلك كأبي تمام، يذكر بها لتكون دائمة الحضور في اهتمامات أولئك القادة. يقول مخاطباً محمد بن يوسف الشغري (١) :-

أَحْسَنَ اللَّهُ ثَوَابَكَ عَنْ شُغْرٍ	رُضَاعٍ أَحْسَنَتْ فِيهِ الْبَلَاءُ
كَانَ مُسْتَضْعَفًا فَعَزَّ وَمَحْسُورًا	مَا فَأَجْدَى، وَمُظْلِمًا فَأَضَاءُ
قَدْ تَوَلَّيْتَهُ فَكُنْتَ لِأَهْلِيهِ	عَنِ غِنَى مُقْنِعًا، وَعَنْهُمْ غَنَاءُ
لَمْ تَنْتَهِ عَنْ دُعَائِهِمْ حِينَ تَسَادَوْا	وَالْقَنَا قَدْ أَسَالَ مِنْهُمْ قَنَاءُ (٢)
إِنْ تَغْدَى الْعُلُوجُ مِنْهُمْ غَدَاً	فَتَعَشَّتْهُمْ يَسْدَاكُ عِشَاءُ

وكانت الإدارة الحكيمة، والقيادة الراشدة سبباً من أسباب اطمئنان أهل الشغور، ومن دلائل بُعد النظر في القيادة أن تتحول الشغور إلى مواقع حصينة، وعواصم تحمي من فيها من غوائل العدوان الرومي لسنوات عدة، وبذلك مدح البحري يوسف الشغري، فقال (٣) :-

أَمَّا الشُّغُورُ فَقَدْ غَسَدَتْ عَوَاصِمًا	لشُغُورٍ رَأَى كَالْجِبَالِ الشُّرْعَ
مَدَّتْ وَلَايَةُ يَوْسُفَ بْنِ مُحَمَّدٍ	سُورًا عَلَى ذَاكَ الْفَضَاءِ الْبَلْقَاسَ
لَا يَرْهَبُ الطَّرْفُ الْبَعِيدُ تَطَرُّفًا	عَادَ الْمُضَيِّعُ وَعَوَّغِيرُ مَضِيَّعَ
وَأَعْنَتُ الْإِسْلَامَ فِي يَدِ حِزَانٍ	قَدْ تَادَهَا زَمْنَا وَلَمْ يَتَزَعْزَعْ

- (١) القصيدة رقم ٢ .
 (٢) قنأ: هي القنأة الجارية، وقد مدحها الشاعر، وهو سائح، قاله أبو العلاء المعري في "عبث الوليد" تحقيق ناديا علي الدولة، دمشق، ١٩٧٨، ص ٢٠ .
 (٣) القصيدة رقم ٥١٢ .

٤- الإعلاء من شأن القيادات وتصوير المعارك :-

ويقترن بالحديث عن أمن الثغور الحديث عن بطولات المسلمين جنوداً وقادة مخططين ومشاركين . وإذا كانت الانتصارات صنيعةً مشتركاً بين القادة والجنود ، فإن الإشارة بالقادة كانت هي الأبرز في قصائد الطائيين ، ويعود ذلك إلى جملة أسباب منها : ارتباط أسباب هذين الشاعرين بأسباب مدحهم قبلية أو نفعياً ، أو هما معاً ، ثم إعجابهم ببطولات أولئك القادة الذين ظلوا يقاتلون الروم سنين متطوالاً .

لقد كان المأمون والمعتصم وخالد بن يزيد الشيباني ومحمد بن يوسف الثغري وابنه يوسف ، وأحمد بن دينار ، وعلي بن يحيى الأرمني أبرز من عرف عنه حسن البلاء في معارك المسلمين مع الروم في القرن الثالث الهجري ، غير أن أبرز من تكرر مدحهم في قصائد الطائيين هما محمد بن يوسف الثغري ، وقد مدحه الشاعران جميعاً ، ويوسف الثغري ، وقد مدحه البحراني .

وإذا كانت كتب التاريخ قد سكنت عن بيان دور هذين القائدين في حروب الروم ، فإن الشاعرين تلافوا هذا النقص بما سجلاه في قصائدهم من وقائع حربية كثيرة قادها ، ومواقع رومية عديدة اقتحمها^(١) . ولأن المصادر التاريخية المعتمدة سكنت عن ذكر وقائع الثغريين ، فإن التحديد التاريخي لها يبدو أمراً عسيراً^(٢) . وعلى أية حال فإن الذي يعيننا هو بسط صورة القيادة الإسلامية من خلال منظور هذين الشاعرين لهذا .

وأول ما يستوقفنا البحراني عنده ، وهو ما لم يقله المؤرخون العرب ، هو أن محمد بن يوسف الثغري كان والياً على الشام والجزيرة ، وأن الشاميين والجزيريين كانوا يتعمعون ببعث رخي فسي أكفاه ، وذلك يستشف من قول البحراني فيـه^(٣) :-

ما للجزيرة والشام تبيـداً بك يابن يوسف ظلمة بضياء

(١) انظر في ذلك مثلاً القصائد ذات الأرقام ١٢ ، ٦١ ، ٦٨ ، ١٠٥ ، ١٤٥ ، من ديوان أبي تمام ، والقصائد ذات الأرقام ٢٤١ ، ٦١ ، ٢٣١ ، ٦١٢ ، ٦٧٢ ، ٧٥٤ ، ٧٧٧ ، ٨١٥ ، ٢٢٩ ، ٣٤٧ ، ٥١٢ ، ٥٥٥ ، من ديوان البحراني ، وهي جميعاً في الثغريين .

(٢) حاول ذلك نجيب البهبهتي في كتابه : أبو تمام حياته وحياة شعره ، وحميد كامل الصيرفي في تحقيقه ديوان البحراني .

(٣) القصيدة رقم ١ .

نَضَبَ الْفَرَاتُ وَكَانَ بِحُورًا زَاخِرًا وَاسْوَدَّ وَجْهُ الرِّقَّةِ الْبَيْضَاءِ
رَحَلَ الْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ فَتَرَحَّلَتْ عَنْهَا غَضَارَةُ هَذِهِ النِّعَمَاءِ

وثاني ما يستوقفنا الشاعران عنده هو أن محمد بن يوسف كان طائياً ، والتدليل على ذلك من أشعارهما كثير ، وحسبنا من ذلك قول البحري في — : —

أَغْنَى جَمَاعَةَ طَبِيعَا بَيْتَنَّا آبَاؤُهَا الْقُدَمَاءُ لِلْأَيْتَنَاءِ

وثالث ما يستوقفنا ، وهو الأهم ، تعجيد الشاعرين لبطولات الثغريين ، وبيانهما لكثير من المواقع الرومية التي اقتحمها ، والوفائع التي انتصرا فيها ، مشفوعة بذكر أسماء عدد من قادة الجيوش الرومية الذين هزمهم المسلمون ، وقبل بيان ذلك كله يحسن التنبيه هنا إلى أن قصائد البحري في أبي سعيد كانت أكثر عدداً من قصائد أبي تمام فيه ، وذلك لأن فترة معاصرة البحري له كانت أطول من فترة معاصرة أبي تمام ، وبيان ذلك أن أمر الثغري برز بقوة بعد مقتل محمد بن حميد الطوسي في سنة ٢١٤هـ / ٨٢٩م ^(١) ، وتوفي أبو تمام في حدود سنة ٢٣١هـ / ٨٤٥م ، في حين مسات الثغري محمد في سنة ٢٣٦هـ / ٨٥٠م ^(٢) . أما البحري فكانت وفاته سنة ٢٨٤هـ / ٨٩٧م .

أما المدن والحصون الرومية التي اقتحمها جيش المسلمين بقيادة محمد وابنه يوسف فهي كثيرة نجدها مبثوثة في ثنايا قصائد الطائيين فيها . ويكفي للتدليل على حجم تلك المعارك وكثرتها أن نذكر منها المواقع التالية: خَرْشَنَةُ ^(٣) ، مَرْعَش ^(٤) ، مَآوَة ^(٥) ، اللَّكَّام ^(٦) ، أَكْشُونَا ^(٧) ، أَوْقَصَى ^(٨) ، السَّفْصَاف ^(٩) ، صَاغِرَة ، طَمِين ، قَرْي دَرْوَلِيَّة ، قُسْطَنْطِينِيَّة ، الْقُتْل ، الْحَمَّة الْبَيْضَاء ، عَقْرَس ، جِيحَان ، الْخَلِيج . وإذا كانت الكثرة الكاثرة من هذه المواقع رومية فإن طبيعة المعارك كانت تقتضي أن تمتد دوائرها وتتسع دون أن تقف في أرض الثغور . وعليه فإن الحديث عن هذه

(١) كان الطوسي من قواد جيش العباسيين في خلافة المأمون . تولى مقاومة الخرمية حتى قتل بادر بيجان . انظر الطبري ٨ : ٦٢٢ ، الصّدي : الوافي بالوفيات نشر باعتماد سديد رنخ ، المطبعة الهاشمية بدمشق ١٩٥٣م ، ٣ : ٢٩ .

(٢) الطبري ٩ : ١٨٥ .

(٣) بلد قرب ملطية من بلاد الروم .

(٤) مدينة بالشغور بين الشام وبلاد الروم .

(٥) مآوَة من ثغور خَرْشَنَة (البكري : معجم ما استعجم / مآوَة) .

(٦) جبل مشرف على أنطاكية والمصيصة وطرسوس .

(٧) حصن بآرمينية .

(٨) كورة بشغور المصيصة .

(٩) بلد في بلاد الروم وكذلك أكثر ما تلاها من مواطن .

المعارك في الشعر الشامي ليس خروجاً عن الإطار المكنى للدراسة .

ومن أبرز قادة الروم الذين ترددت أسماؤهم في هذه المعارك منويل^(١) ، وتيوفيل^(٢) ، والمسينيوس^(٣) ، والملكية ثيودورا .

وقد استعفى الشاعران لمدوحيه من قادة الجيوش الإسلامية أرفع المزايا التي يمكن أن يحظى بها قائد عسكري لا في ذلك العصر فحسب ، بل في سائر العصور ، فهم عندهما أذكيا ، دهاء حازمون ، متيقظون ، مجربون بأمور السياسة وفنون الحرب ، مخوفون مهابون ، متدينون شجعان ، أسخيا ، على أعدائهم بضرابتهم السديدة ، أسخيا ، على أتباعهم ببذل الخير لهم . غير أن ثمة صفة نلناها كثيرة الدوران بارزة هي صفة رجاحة الرأي . ومن غير شك أن الرأي خصيصة فريدة لا يمكن لقائد أن يحقق انتصارات بدونها . ثم إن "الرأي" اسم جامع لما سواه من صفات التميز ، وهو مقدم بالمقاييس المنطقية على الشجاعة ، ولذلك كثر الإلحاح على ذكره في قصائد عما ، يقول أبو تمام في ذلك مثلاً ناعثاً أبا سعيد الثغري^(٤) :

وَصَلِبُ الْقَنَاةِ وَالرَّأْيُ وَالْإِسْلَامُ سَائِلُ بَذَاكَ عَنْهُ الصَّلِيحُ
سَكَنَ الْكَيْدَ فِيهِمْ إِنَّ مِنْ أَعْدَاءِ ظَمِ إِرْبٍ أَلَّا يُسَمَّى أَرِيحَا
مَكْرَهُهُمْ عِنْدَهُ فَصِيحٌ وَإِنْ هَمَّ خَاطِبُوا نَكَّرَهُ رَأَوْهُ جَلِيحَا

فالكيد والمكر والإرب تنفيعات للرأي ، ومتى اجتمع لقائد رأي راجح ، وسلاح جيد ، وهدف سام تحقق له النصر ، وكتبت لأعدائه الهزيمة والتشتت :

- (١) منويل رومي لجأ إلى العرب وخرج معهم في بعض غزواتهم لبلاد الروم في خلافة المأمون ، ثم هرب والتحق بتيوفيل . انظر: العرب والروم ، حاشية ص ٩٣ و ٢٦١ وما بعدها .
- (٢) تيوفيل أحد أباطرة القسطنطينية ، تولى الحكم بين عامي ٨٢٩ - ٨٤٢ م / ٢١٤ - ٢٢٨ هـ وهو الذي سیر الحملة على زيطرة فكانت على إثرها معركة عمورية . مات قهراً بسبب الهزيمة التي ألحقها به المعتصم . انظر: العرب والروم : ٨٥ - ١١٢ .
- (٣) المسينيوس هو أحد قادة الروم كان أسرى في معركة عمورية . (انظر حاشية ديوان البحري) .
- (٤) القصيدة رقم ١٢ .

وفضاً الإسلام يُدعى دروباً

فدروباً الإشراف صارت فضلاً

ويقول البحري في يوسف الشغري (١) :-

تَضِي الأُمُورُ وَبَحْرُهَا لَمْ يُنْزَفْ
كَهَلُ التَّجَارِبِ فِي ضَجَّاجِ المَوْقِفِ

مُسْتَظْهِرٌ بِذِ خَيْرَةٍ مِنْ رَأْيِهِ
إِلَّا يَكُنْ كَهْلُ السَّنِينَ فَلَنْسَه
أَوْ يَقُولُ فِي الشَّغْرِ الأَب (٢) :-

نُكْ جُنْدًا لَا يَأْخُذُونَ عَطْفًا
فَأَ ، وَطَعْنٍ يَفْرُجُ الغَمَّ
شَرَّ عَلَيْهِمْ وَتَضَرُّفُ الآرَاءِ

يَوْمَ فَرَّقْتَ مَن كُنَّا سَبَّ آرَا
بَيْنَ ضَرْبٍ يَفْلُقُ الْهَامَ أَنْصَا
وَيُودِ العَسَدِ وَلَوْ تَضَمَّنَا الْجِيَا

ونعت القادة المسلمون بذعت آخر خاص هو الحقن الشديد على الروم ، وقد ذكرت كلمة الحقن تصريحاً في مواضع ، وتلميحاً من خلال صورة كلية في مواضع أخرى . يقول البحري في ذلك وهو يمسح يوسف الشغري (٣) :-

أَنْ سَوْفَ يَصْنَعُ فِيهِ مَا لَمْ يُفَنِّعْ
يُسَقَى جَمِيعَ دِمَائِهِمْ لَمْ يُنْقَضْ

وَلَوْ أَوْهَ المَعْقُودُ يُقَسِّمُ فِي غَسَدِ
صَدْيَانٍ مِنْ ظَمَأِ الحُقْنَسُودِ لَوْ أَنَّهُ

أما التلميح بالتشفي النابع من الحقن فيبدو من خلال حرص الطائيين على تصوير نتائج معارك المسلمين مع الروم ، وأكبر الظن أن الغاية من تصوير نتائج هذه المعارك لم تكن إخبارية بقدر ما كان الغرض منها إحداث الراحة النفسية للمسلمين عموماً ، بإزجاء أخبار هذه الانتصارات إليهم ، ويقدر التشفي بمقاتل الروم وجراحاتهم وأسراهم ، والتدمير الذي حلَّ بديارهم . ومثل هذا واضح في قول أبي تمام فسي أحد الانتصارات التي حققها أبو سعيد الشغري (٤) :-

(٥) فِي يَوْمِ بَدْرٍ وَالْعُنَاةِ الشَّهَادِ

ضَجَّكَتْ لَهُ أَكْبَادُ مَكَّةَ ضَحْكَهَا

وَقَوْلُهُ فِيهِ (٦) :-

وَاسْتَبَشَّرَتْ بَفَتْوحِكَ الْأَنْصَارُ
إِذْ لَاحَ أَنَّ الصَّدُوقَ مِنْهُ نَهَارُ
هَرَبًا فَلَمْ يَنْفَعَهُمُ الْإِعْذَارُ

قَدْ صَرَّحَتْ عَنْ مُحْضِهَا الْأَخْبَارُ

خَبَرَ جَلَى صَدَأَ الْقُلُوبِ ضِيَاؤُهُ

لَمَّا لَقَوْكَ تَوَاكُلُوكَ وَأَعْنَى ذُرُورَا

وَقَوْلُهُ فِي أُخْرَى فِيهِ (٧) :-

سَوْقَ مَوْتٍ طَمَعْتُ عَلَى كُلِّ سَوْقٍ

فَحَوَى سَوْقَهَا وَغَادَرَ فِيهَا

(١) القصيدة رقم ٥٥٥ .

(٢) القصيدة رقم ٢ .

(٣) القصيدة رقم ٥١٢ .

(٤) العنائة الشهيد هم كفار قريش في يوم بدر .

(٥) القصيدة رقم ٦٨ .

(٦) القصيدة رقم ١٠٥ .

(٧) القصيدة رقم ٦ .

فهم عاربون بسين حريق السيوف صلتاً وبين نثار الحريق
 وقعة زعزعت مدينة قسطنطين حتى ارتجت بسور قسطنطين (١)
 كم أسير من سرهم وقتيل رادع الثوب من دم كالخلق (٢)
 أطعم السيوف نصفهم ورعى النصف برأي صافي التجار عريق
 إن أيامك الحسان من السور لخمير الصبح حصر الغبوق
 معلقات كأنها بالدم المهمل راق أيام النحر والتشريق

فإن تكون دماء الروم عند الشاعر نارة كالخلق ، ونارة كالصبح والغبوق ، ونارة نالقة كدما التشريق ، وهي جميعاً مظاهر ابتهاج وفرح ، يدل على مدى تغلغل الحقد في نفس الشاعر على الخصوم . وقد كرر أبو تمام هذا المشهد فقال في قصيدة أخرى أيضاً (٣) :

وما ذكر الدهر المبوس بأنه له ابن كيوم السبت إلا تبسماً (٤)
 ولم يبق في أرض البقلا رطاً ولا سبع إلا وقد بات مولماً
 ولا رفعوا في ذلك اليوم إلبساً ولا حجوا إلا رأوا تحت دماً (٥)
 رمو بائس حرب سل فيهم سيوفه فكانت لنا عرساً وللشرك ماتماً

وهناك أقوال مشابهة للبحري ، ومن ذلك قوله في أبي سعيد الثخري مصوراً هروب منوئل في معركة دارت بين المسلمين والروم عام ٢٢٤ هـ / ٨٢٨ م (٦) :

- (١) سور فروق مكان قرب القسطنطينية .
- (٢) رادع : ملون ملطخ . وسرهم : خالصهم . شرح التبريزي . الخلق : ضرب من الطيب أعظم أجزاء من الزعفران .
- (٣) القصيدة رقم ١٤٥ . وعلق فازيليف على هذه القصيدة ومناسبتها فقال : " لا يبي تمام قصيدة كلها في حملات أبي سعيد على نصر - أحد قادة بابك ، انضم إلى الروم وتسعى ثيوفوب - والخرمية بيدأها الشاعر بذكر وقعة وادي عفرس ، وأنها الرد المنطقي على معركة ٢١٨ هـ : / ٨٢٢ م وهي المعركة التي ألجأت فلول الخرمية إلى أرض الروم . . . وأن وقعة سنة ٢١٨ هي وقعة ميمنه التي هُزم فيها بابك والخرمية . انظر : العرب والروم : ٢٤٩ - ٢٥٠ .
- (٤) كان المسلمون قد انتصروا في معركة وادي عفرس في يوم السبت .
- (٥) الإلبس : التراب والحجارة .
- (٦) القصيدة رقم ١ .

أشلى على "مؤيل" أطراف القنا
فلئن تباه القضا لو قتره
أنكنته أشياعه ، وتركه
حتى لو ارتشف الحديد أذا أبسه
فنجنا عتيق عتيقة جردا^(١)
فلقد عمت جنوده بنفساء
للموت مرتقباً صباح مساء
بالوقد من أنفاسه الصعدا

وقوله فيه في قصيدة أخرى ساخراً من الروم ومن ملكهم وقادتهم وجنودهم ، ومعلياً من شأن
الشعري^(٢) : -

وإذ مضى مجلباً يقعق في السدر
حين حاضت من خوفه ربة السرو
ثم ألقى صليبه الملسي
س ، وإلى خلف التجاء النجا
برزيراً أنسى الكلاب العوا
م صباحاً ، ورأسه مساء

وأمثله هذا في ديواني الشاعرين كثيرة ، وقد تكررنا من الاستشهاد بهذه الأبيات المختارة لأنها
ناطقة بذاتها عن تصوير مدى الحقد الذي كان يملأ نفوس المسلمين على الروم . ومن أجل ذلك
انتشى الشعرا وتلذذا بتصوير عزائم الروم ، وتدوير مواقعهم ، واقتحام حصونهم ، وتحرير مواقعهم
منهم كانوا احتلوا ، وضعا هذا التصوير سخرية لاذعة من القيادة الرومية التي كانت تفرط
بجنودها ليدوقوا الموت ، ولتظل جثث قتلاهم طعاماً للسباع . ولوضعنا صور الفرح الإسلامي في
النماذج الشعرية المختارة المتمثلة في أقوال الشاعرين وهي "البشرى" ، والضحك ، والضياء ، وحسن
الأيام ، وأيام النحر والتشريق ، وتبسم الدعر ، والعرس . . . في مقابل صور الهزائم الرومية المتمثلة
في أقوالهما وهي "الهروب الرومي" ، وسوق الموت ، وحريق السيف ، ونار الحريق ، وزعزعة المسدود
الرومية وارتجاجها ، والأسرى والقتلى الملتخبين بالدم ، والدم المهرق ، والدم الذي تحت الحجارة ،
والمأتم ، والغنا ، وشكل الأشياء ، وارتقاب الموت ، والأنفاس الصعدا ، وحيض ربة الروم ، والقنا ،
الصليب ، والذل والخضوع أقول : لو فعلنا ذلك لظهر من هذه المقايضة أن حظ التشفي
من اهتمام الشاعرين كان أكبر من حظ الفرح . وذلك مع أن الفرح في الصف الإسلامي يكافئ السرح
في الصف الرومي من زاوية الرؤية الإسلامية ، وهذه المعادلة جاء تعبير البحري المؤكد^(٣) : -

(١) أشلى : أغرى . العتيقة الجردا : الفرس الأصلية الرقيقة الشعر .

(٢) القصيدة رقم ٢ .

(٣) القصيدة رقم ٨١٥ .

- ١٦٢ -

وَلَعَمْرِي مَا مَأْ زَمْنَمَ أَهْلَسِي عنده من دَمٍ بَزَارَمِينَسَا (١)

ومع ما أسلفنا قوله من أن جل اهتمام الشعراء في قصائد عما " الرومية " كان منصباً على تمجيد القادة ، فإنهما لم يغفلا عن الإشادة ببطولات الجنود المسلمين ، حتى لقد غدا كل مقاتل مسلم بطلاً مجزياً مقداماً حريصاً على نيل الشهادة ، محتملاً لمشقات السفر ، ونصب الجهاد المتواصل ، مدججاً بالسلاح ، يقول أبو تمام (٢) :

بِكَلِّ فَنَتَى غَرْبٍ يَعْرِضُ لِلْقَتَا مَحْيَا مَحَلِّي حُلِيَّهِ الطَّعْنُ وَالضَّرْبُ (٣)
كَمَا إِذَا تُدْعَى نَزَالِ لَدَى الْوَغَى رَأَيْتَهُمْ رَجُلَى كَأَنَّهُمْ رَكُوبُ
وَمَا اجْتَلَيْتَ بِكَرَمِ الْحَرْبِ نَاهِيَةً وَلَا تَنَبَّأَ إِلَّا وَمَنْهُمْ لَهَا خَطْبُ (٤)

وقوله في أخرى مصوراً إقدامهم حباً في الشهادة دون أكثر بالمشقة (٥) :

يَتَسَاوُونَ فِي الْوَغَى كَأَسْ مَوْتٍ وَهِيَ مَوْصُولَةٌ بِكَأْسِ رَحِيْقٍ

ويتكرر هذا المعنى في بعض شعر البحري ، ومن ذلك قوله (٦) :

بِالْخَيْلِ تَحْمَلُ كُلُّ أَشْعَثَ دَارِعٍ وَتَوَاصِلُ الْإِدْلَاجَ بِالْإِسْتِزَارِ (٧)
وَعَصَائِبُ يَتَهافتون إِذَا ارْتَمَسِي بِهِمُ الْوَغَى فِي غَمْرَةِ الْهَيْجَارِ
أَبْنَاءُ مَوْتٍ يَطْرَحُونَ نَفْسَهُمْ تَحْتَ الْمَنَائِلِ كُلِّ يَوْمٍ لِقَارِ

ويبدو من بعض قصائد الطائيين أنهما كانا يخرجان مع الجيوش الإسلامية (٨) ، وأنهما

(١) زارمينا موضع ببلاد الروم لم يرد له ذكر في معاجم البلدان ، والذي في معجم ما استعجم :

(٢) زمين موضع ببلاد الروم المذكور في رسم صاغرة .

(٣) القصيدة رقم ١٤ وهي في مدح خالد بن يزيد الشيباني .

(٤) ضرب الإلاوي بمعنى تخفيف اللحم مشق القصيدة .

(٥) أراد أن يقول هم يرغبون في الحرب على جميع الصفات .

(٦) القصيدة رقم ١٠٥ .

(٧) القصيدة رقم ١٠٦ .

(٨) الإدلاج : المسير في أول الليل . الإسرار : السير ليلاً .

ومن أمثلة ذلك قول البحري في القصيدة ذات الرقم ٣ مخاطباً أبا سعيد الثغري : -

ولولاك ما أسخطت غي وروضه ونهر دجيل بالذي رضي الثغر
ولا كان غزو الروم بعض ماري وهقي ، ولا ما أطلبه الأجر

وقوله في القصيدة ٢٢٩ :

وأنا الشجاع وقد بدا لك موقفسي بعقرقش والمشرقية شهيدسي
ورأيتني فرأيت أعجب منظر رب القوائد في القنا المتقصدي

لذلك كانا يصفان المعارك وصف المشاهد فكشفنا عن كثير من دقائقها ، وصوّرا خلجات النفوس الفزعمة أو المترقبة أو المهيضة بالجراح ، ويفقد الأصدقاء بالموت أو بالأسر ، ونقلنا للقارئ صوراً حية من اصطكاك السيوف ، وكر الجنود وفرارهم ، وميادين القتال وغبار المعارك ^(١) ، ومن أطرف ما أتاحته مشاركة البحري للجيش الإسلامي في غزواتها ملاحظته لأبناء الجنود الروم وهم ينظرون من شرفات منازلهم إلى مذابح آبائهم فقال في بيت مفرد لطيف ^(٢) :

طالعتك الأيتام في شرف الأبي — راج زرقاً إذ تدبج الأبواء

وكان من الممكن لهذا المشهد المؤثر أن تتوسع أبعاده وتتعمق، لو أتيح لها شاعرية متأنيصة لا تتعجل المدح باعتباره الغاية من نظم مثل هذا الشعر .

كذلك اعتم الشاعران برسم صور الروم وهم يعانون الهزيمة . وكان أبو تمام ماعراً في التقاط بعض المواقف الحرجة في تلك الوقائع من مثل تصويره متعمقاً شخصية "منويل" الذي تلبسه الفزع ^(٣) :

فلقد تمنى أن كل مدينية — جبل أضّم ، وكل حصن غسار

ثم لما جاءته فلول جنده بكى ، وأخذ يعزّي نفسه ويعزيهم بقوله : —

الصبر أجمل ، والقضاء مسلط — فارضوا به ، والشرف خيسار ^(٤)

فحدث الشاعر لما يمكن أن يكون قد دار بين "منويل" وجيشه يدل على تمثله لمثل هذا الموقف الرعيب المصيب ، إذ مما لا شك فيه أن حواراً حاداً دار في الصفوف الرومية لتدارس أسباب الهزيمة ، وتوزيع تبعات التفصيل .

ويقدم أبو تمام لدارس أدب الحروب الإسلامية الرومية في القرن الثالث الهجري لوحة فنية ناطقة تتمازج فيها الألوان والظلال وتتوزع وتتعارض هي لوحة "عمورية تحترق" . وفيها يـرى

(١) انظر أمثلة على ذلك الأبيات من ٢٩ — ٣٤ من القصيدة ٢٢٩ ، والأبيات من ١٣ — ١٧ من القصيدة ٥٥٥ ، والأبيات من ٤٢ — ٥١ من القصيدة الأولى (ديوان البحري) .

(٢) من القصيدة رقم ٢ من ديوان البحري .

(٣) من القصيدة رقم ٢ من ديوان أبي تمام .

(٤) قال النبريزي في شرح هذا البيت : لم يكن عندك ما تعينهم به إلا ضرب هذه الأمثال : الصبر أجمل ، والمقدور كائن ، وبعض الشراؤون من بعض .

الناظر حيطاناً مدمرة تتناثر بينهما جثث الفرسان ، وهي تنزف دماً حاراً ، وأخشاب دورها وحجارتها تلتهب . ومع أن الوقت ليل فإن الناظر يبصر حيثما التفت كتلاً هائلة من النيران ، تعلوها سحب من الدخان كثيفة ^(١) . وأكبر وقعاً من ذلك أن تُصور أرض الروم وقد علا فيها صوت مقرئ القرآن ، ثم هي تعج بحركات المصلين ، ويرتفع فيها التكبير للصلاة ، فتنتهي هذه الأصوات إلى مسامع الروم الذين يقفون غير بعيد ، فيظنون أن ما يسمعون ليس سوى غناء ^(٢) : -

بَتَّهَا وَالْقُرْآنُ يَحْدَعُ فِيهَا الْهَضْمُ بَ حَتَّى كَادَتْ تَكُونُ حِجْرًا
وَأَقَمَتِ الصَّلَاةَ فِي مَعْشَرٍ لَا يَعْرِفُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا مَكْنًا ^(٣)
فِي نَوَاحِي "بُرْجَان" إِذْ أَنْكَرُوا التَّكْبِيرَ حَتَّى تَوَهَّمُوا غِنَاءً ^(٤)

لقد كانت المعارك بين المسلمين والروم سجالات ومع ذلك فإن أبا تمام والبحري لم يسجلا فسي قصائد عما أي صورة من صور الهزائم الإسلامية ، غير أن في بعض أشعارهما أبياتاً طائفة تدل على بعض تلك الهزائم ، فمن ذلك قول أبي تمام في إشارة واضحة إلى انهزام المسلمين في منطقة نهر آل سس ^(٥) : -

فَإِنْ يَكُ نَضْرَانِيَا النَّهْرُ آلِ سُسْ فَقَدْ وَجَدُوا وَادِي عَقْرَقَسْ مُسْلِمًا
وقول البحري في قصيدة مدح بها المتوكل ^(٦) : -

وَلَمَّا طَفَعَتْ فِي دَارِهَا الرُّومُ وَاعْتَدَتْ سَفَاعًا ، رَمَاهَا جَعْفَرٌ بِحَصَادِهَا
وقوله في أخرى بعد أن أوقع الروم في أهل الثغور ، فسارع أبو سعيد الثغري لإغاثتهم ^(٧) : -

لَمْ تَنْمَ عَنْ دُعَائِهِمْ حِينَ نَكَادُوا وَالْقَنَا قَدْ أَسَالَ فِيهِمْ قَنَاءُ
إِذْ تَغَذَّى الْعُلُوجُ مِنْهُمْ غُذًوًّا فَتَعَشَّتْهُمْ يَدَاكَ عِشَاءُ

- (١) الأبيات ٢٢ - ٢٩ من القصيدة رقم ٣ في عمورية .
- (٢) من القصيدة الثانية .
- (٣) المكنا : الصغير بالضم .
- (٤) برجان : بلد بنو نواحي الخيزر (معجم البلدان : برجان) .
- (٥) من القصيدة رقم ١٤٥ ، وآلس بكسر اللام اسم نهر في بلاد الروم وهو نهر سلوقية قريب من البحر ، بينه وبين طرسوس مسيرة يوم ، وعليه كان الفدا بين المسلمين والروم ، وذكره في الغزوات في أيام المعتصم كثير . (معجم البلدان : آل سس) .
- (٦) من القصيدة رقم ٢٨٢ .
- (٧) من القصيدة الثانية في الديوان .

فلماذا لم يصف أيُّ من الشعاعين عزيمة إسلامية حدثت ، أو حصناً لهم أو ثغراً مدوراً ؟ لعل النفس الشاعرة التي دأبت على تصوير البطولة يعز عليها أن تصف السقوط أو بعض مظاهره ، ولعل مستلزمات الجهاد ألا يشيع الفزع في النفوس بالوقوف على الهزيمة .

وأمدنا شعر الصراع مع الروم في القرن الثالث الهجري بأول قصيدة عربية - القصيدة ٢٨٧ من ديوان البحري - صورت معركة بحرية بين المسلمين والروم ، وهي المعركة التي كان قائد المسلمين فيها أحمد بن دينار . والغريب أن أيّاً من مصادر التاريخ الإسلامي لم يذكر شيئاً عن هذه المعركة ، في حين ذكر مؤرخو الروم أن المسلمين بعد أن دحروا الروم في عمورية شغلوا ببناء أسطول لغزو القسطنطينية ، فما كادت سنة ٨٤٢ م / ٢٢٨ هـ تهل حتى بلغ أسطولهم أربع مائة سفينة ، سيروها لهذا الغزو بقيادة أبي دينار ، ولكن هذه الحملة باءت بخيبة ذريعة ، إذ ضربت عاصفة هذا الأسطول فدمرت ، ولم ينج إلا بضعة سفن (١) .

غير أن قصيدة البحري في أحمد بن دينار تصور المسلمين منتصرين ، إذ تمكنوا من قذف سفن الروم بالنيران فأحرقت " صُهب العثانين " ، وأذاقت الرماح الإسلامية جنود الروم الموت ، فولى قائدهم دُبره ، وقد أعانته الريح على النجاة :

جَدَحَتْ لَهُ الْمَوْتَ الذُّعَافَ فَعَا فَه	وطار على ألواح شَطَبٍ مَسْمُورٍ (٢)
مَضَى وَعَمَّ مَوَالِي الرِّيحِ يَشْكُرُ فَضْلَهَا	عليه ، ومن يُؤَلِّمُ الصَّنِيعَةَ يَشْكُرُ
تَعَلَّقَ بِالْأَرْضِ الْكَبِيرَةِ بَعْدَ مَا	تَقَنَصَ جَوِّي السَّرْدَى الْمُتَمَطِّرِ (٣)

وإذن فإن أحمد بن دينار قائد هذه الحملة الإسلامية المنتصرة هو غير أبي دينار قائد ذلك الأسطول المنكوب بالعواصف ، وإن كان محاولة " ماريوس كانار " التقريب بين هذه الغزوة التي يذكرها البحري ، وغزوة يذكرها مؤرخو الروم ، ويذكرون اسم رئيسها " أبو دينار " - وهو تحريف من ابن دينار (٤) - محاولة لحل إشكالية التشابه في الأسماء ليس غيبس .

- (١) انظر الأقوال في ذلك : العرب والروم ٣٥٥ - ٣٥٦ ، فتحي عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية ١٨٦ : ٢ - ١٨٧ .
- (٢) جدحت : خلطت . الذعاف : القاتل . الشطب : الأخضر الرطب من جريد النخل .
- (٣) المتطر : المسرع في عسده .
- (٤) العرب والروم : ٣٥٥ - ٣٥٦ ، وقارن ذلك بما قاله فازيليف في الكتاب نفسه : ١٧٠ - ١٧١ .

وتقدم قصيدة البحترى هذه في أحمد بن دينار جملة أخرى من المعلومات التفصيلية عنه وعن المعركة ، فأحمد بن دينار كان أميراً للبحر —

ولما تولّى البحرَ والجودَ صنّوه
غدا البحرُ من أخلاقه بين أبْحر
وأنه كان له مركب يدعى " الميمون " : —

غدوّت على الميمون صُبْحاً وإمسا
غدا المركبُ الميمونُ تحت المظنّر
وكان يقوم على الخدمة في هذا المركب وتسييره ريانٌ متخصصون " النوتي والاشتيايم " (١) ، وأن المسلمين استعملوا في هذه المعركة — فضلا عن السيوف والرماح — النار الإغريقية يقدفونها على أعدائهم : —

إذا رشقوا بالنار لم يك رنقهم
لئْلَعُ إلا عن شِواءٍ مقسّتر
صدمت بهم صهب العثانين دونهم
ضراب كإيقاد اللظى المتسّتر (٢)
وأصول ابن دينار فارسية : —

وكنت ابن كسرى قبل ذاك وبغسده
ملياً بأن توحي صفاة ابن قيصر (٣)
وأطرف ما في هذه القصيدة كلام البحترى على حركة مركب ابن دينار ، وصورة المعركة البحرية التي خاضها ، إذ يعرض البحترى " الميمون " وقد تصدر أحمد بن دينار مكاناً سنياً فيه ليراقب من حوله ، وما حوله . ثم يعلو صوت النوتي صائحاً من برج المركب يلقي الأوامر على أتباعه ، فينصاعون لـه انصياعاً ، وعندما تهب ريج الجنوب العاتية يطفو المركب فوق الموج كأنه طير عقاب ، ثم يعود مناسباً بين الأمواج فتلفه لفاً صانعة له بزدها وخطوطها لغاعاً موشى .

ثم يعرض البحترى صورة المعركة ، وفيها يرى الناظر جند المسلمين المدربين على فنون القتال البحري ، يضربون أعداءهم بكل ما في أيديهم من أدوات القتال الفتاكة ، وبين الفينة والفينة

- (١) النوتي : الملاح الذي يدير السفينة في البحر . الاشتيايم : رئيس المركب ، وهي لفظة رومية تعني — فيما يقول زكي المحاسني في شعر الحرب في أدب العرب : ١١٠ — ١١١ ، الأمر الناعي .
(٢) صهب العثانين : حمر اللحي ، كناية عن جنود الروم .
(٣) الصفاة : الحجر الصلد الضخم .

تنطلق قذائف النيران من مراكب المسلمين لتسبب أهدافها ، فتنتطلق على إثرها روائح حرائق الأجساد واللقى الرومية ، ويصحب ذلك كله ضجيج مبعثه موج البحر ، وتضارب الرماح والسيوف ، وأحمد بن دينار يحث جنوده حثاً على الاقتراب من سفائن الأعداء ، وينجلي اللقاء أخيراً عن هزيمة ساحقة يمنى بها الروم بعد أن قطعت منهم الأعناق ، وطيرت الهامات . وهذا كله يحدث دون أن يرى غبار ، أو تشاهد جثث ملقاة على تراب . وبعد هذه النوازل بالجيش الرومي يرى ابن قيسراً على مركبهم طلباً للنجاة ، وتسعفه الريح المواتية على تحقيق غايته حتى يدرك اليابسة ، وبها يحتسي .

إن هذه الدقائق اللطيفة ، وهذا التتبع المتأنى لأحداث تلك المعركة يدل دلالة راجحة على أن البحري كان شاهد عيان عليها ، ولولا ذلك لما قدم مثل هذه اللوحة الجميلة التي راقىتها القدماء حتى قال النويري في الثناء عليها : " لم يصف أحد المتقدمين والمتأخرين القتال في المراكب إلا البحري " (١) ، وعدعا أبو عمال المسكري إحدى روائع البحري الثلاث مع السنية في إيوان كسرى ، وقصيده في بركة المتوكسل (٢) .

٥ - مفاداة الأسرى وتبادل الرسائل :-

فرضت طبيعة الحرب بين المسلمين والبيزنطيين أن يتبادلوا الرسائل ، وأن يرسلوا الوفود إما لإعلان عدنة ، أو للإعداد لمفاداة الأسرى . وقد دأب الطائيان على تصوير الروم في موقف المستضعفين الذين يلحون في طلب السلم فراراً من الهلكة ، في حين يصوران المسلمين في موقف القوي الذي يطلي شروطه على خصمه . يقول أبو تمام عن تيوفيل (٣) :-

غدا خائفاً يستجدُّ الكُتْبُ مَدْعِيًّا عَلَيْكَ ، فَلَا رُسُلٌ ثَنُّكَ وَلَا كُتُبُ
وما الأسدُّ الضرغامُ يوماً بعاكِسٍ صرِيحَتَهُ إِنَّ أَنْ أَوْ بَصْبَصَ الْكَلْبُ (٤)

- (١) النويري : نهاية الأرب ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، القاهرة ٦ : ١٩٧ .
- (٢) أبو هلال العسكري : ديوان المعاني ، نشر مكتبة القدسي ، القاهرة ١٣٥٢ هـ ، ٢ : ٦٣-٦٤ وفيه أن قائد الحملة هو دينار بن عبد الله .
- (٣) من القصيدة رقم ١٤ وهي في مدح خالد بن يزيد ، ولعل هذه القصيدة تشير إلى كتاب تيوفيل ملك الروم إلى المأمون وفيه طلب الصلح وعرض الفدية ، وذلك في سنة ٢١٧ هـ انظر هذا الكتاب ورد المأمون عليه في : الطبري ٨ : ٦٢٧ - ٦٢٩ .
- (٤) عاكس بمعنى تارك . الصريمة : الفريسة التي يصرمها . بصبص : حرك ذنبه طمعاً ، والمقصود ملك الروم .

ويقول البحري في يوسف الثغري (١) :-

أَعْطُوا رَسُولَكَ مَا سَأَلَتْ فَكَيْفَ لَوْ شَافَهُتَهُمْ بِصَدُورِهِنَّ اللَّسْعُ (٢)

ويقول في أخرى مخاطباً يوسف الثغري كذلك (٣) :-

وَكَأَنِّي بَكَ قَدْ أَتَيْتَ بَعْرَ شَيْهَا خَطَبْتُ إِلَيْكَ السَّلَامَ رَبَّةً مُلْكِهِمْ
لو كان يُطْلَبُ نَائِلٌ مِنْ مُسْعِرِيفِ وَالسَيْفُ أُسْرِعُ هَبَّةً مِنْ آصِيفِ (٤)

ويعرض البحري في مجموعة أبيات صورة من صور الزيارات الرسمية التي قام بها وفد رومي إلى قصر الخليفة المتوكل بغرض إجراء مفاوضات لمعاداة الأتري . وفيها نرى الوفد يدخل قصر الخليفة فتتلكهم رعية الموقف من جلال الخليفة ، ثم يحيونه على طريقته في تحية ملوكهم . ويُيسر بعد ذلك لهم سماء الطعام فيتناولون منه وجلين مذمولين إذ تخطى أيديهم أنواهم . وقد بدأ البحري الأبيات بما عوام بالنسبة إلى المسلمين ، وهو شكر الخليفة على ما بسذل لهم من فضل الدفاع عنهم ، وتخليص أسراهم من قيود الأعداء ، يقول (٥) :-

لَا يَعْذِرُنَّكَ الْمُسْلِمُونَ فَإِنَّهُمْ فِي ظِلِّ مُلْكِكَ أَدْرَكُوا مَا أَمَلُوا

- (١) من القصيدة رقم ٥١٢ .
- (٢) شافه : داني ، وذكر الصيرفي سنة ٢٣١ هـ تاريخاً لهذه القصيدة مع أن يوسف الثغري تولى أمر الثغور بعد وفاة أبيه سنة ٢٣٦ هـ .
- (٣) من القصيدة ٥٥٥ .
- (٤) آصف هو الرجل الذي كانت له القصة مع سليمان بن داود - عليهما السلام - في عرش بلقيس . انظر : الطبري : تفسير الطبري ، طبعة المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق ، مصر ١٢٦٩ هـ ، ١٩ : ١٠٣ . وورد في هذه القصيدة البيت :-
فَتَجَّ سَبَقَتْ بِهِ الْفَتْوحُ فَجَاءَ فَنِي
مِلَادٍ مُلْكُ الْعَاشِرِ الْمُسْتَخْلِفِ
وهو يدل على أن القصيدة قيلت في المتوكل فهو عاشر الخلفاء العباسيين ، وذلك يعني أيضاً أن ملكة الروم كانت ما تزال على العرش وصية على ابنها ميخائيل بن ثيوفيل ، فقد ذكر الطبري أن ابنها وثب عليها في سنة ٢٣٣ هـ ، ومعنى ذلك أن أحداث هذه القصيدة والمكاتبة بين الخليفة وبينها كانت في سنة ٢٣٢ هـ . انظر الطبري ١ : ١٢٣ .
- (٥) من القصيدة ٦٢٩ ، وفي الطبري والمسمودي أنه وقم في زمن المتوكل فداً أن أحدهما في سنة ٢٤١ هـ / والآخر في سنة ٢٤٦ هـ . انظر الطبري ١ : ٢٠٢ ، ٢١٩ هـ ، التنبيه والإشراف : ١٦٢ ، ١٦٣ .

وَحَمَلَتْ مِنْ أَعْبَائِهِمْ مَا حُمِلُوا
مَنْ يُنَالُ وَلَا فِدَاءٌ يُقْبَلُ
عَرَفُوا فِضَائِلَكَ الَّتِي لَا تُجْهَلُ
نَطَقُوا الْفَصِيحَ لَكِبْرُوا وَلِهَلْ لُجِلُوا
مَالَتْ بِأَيْدِيهِمْ عُقُولُ ذَهَبُ
فَتَجَوَّرُ عَنْ قَصْرِ السَّبِيلِ وَتَعْدِلُ
مِمَّا يَرَى أَوْ نَظَرَ مَتَأَمَّلُ

حَصَنَتْ بِيضَتَهُمْ وَحَطَّتْ حَرِيمَهُمْ
فَادَيْتَ بِالْأَسْرِ وَقَدْ غَلِقُوا فَكَلَامُ
وَرَأَيْتَ وَقَدْ الرُّومَ بَعْدَ عِنَادِهِمْ
نَظَرُوا إِلَيْكَ فَقَدْ سَوَوْا وَلَوْ أَنَّهُمْ
حَضَرُوا السَّمَاطَ فَكَلَّمَا رَامُوا الْقِسْرَى
تَهْوِي أَكْثَرُهُمْ إِلَى أَنْوَاعِهِمْ
مُتَحَيِّرُونَ فَبَاهِيتَ مُتَعَجِّبًا

وجمال هذه الأبيات يبدو في عذوبتها وفي بساطة تعبيرها، كما يبدو في مصداقية ما فيها من مخاوف المسلمين على أسراهم بالنظر إلى رواية الطبري عن خبر الفداء الأول في عهد المتوكل، وملخصه أن "تذرة صاحبة الروم أم ميخائيل "وجهت وفداً " يطلب الفداء لمن في أيدي الروم من المسلمين " وكان المسلمون قد قاربوا عشرين ألفاً : فذكر أن تذرة أمرت : بعرض من في إسماعيل من المسلمين على النصرانية فمن تنصر منهم كان أسوة من تنصر قبل ذلك " ومن أبي قتلته. فذكر أنها قتلت من الأسرى اثني عشر ألفاً : وأن الفداء وقع من بلاد الروم على نهر اللامس : فكان أسرى المسلمين سبعمائة وخمسة وثمانين إنساناً " ومن النساء مائة وخمسة وعشرين امرأة : (١)

ويذكر البحتري في قصيدة أخرى أن المعتز دفع أموالاً للروم ليفك أسارى المسلمين (٢). وهذه سابقة لها دلالتها على تبدل ميزان القوة بين المسلمين والروم، إذ تعني أنه لم يكن بيد المسلمين أسرى للروم، أو أن عدد أسرى المسلمين يفوق عدد أسرى الروم " فدفع المال مقابل هذا العدد الزائد، وأياً ما كانت الحال فهي تظل مظهرًا من مظاهر ضعف الخلافة " يقول البحتري في تلك الحادثة : -

لَنْ تَمَّ الْفِدَاءُ كَمَا رَجَوْنَاهُ
فَمِنْ أَزْكَى خِلَالِكَ أَنْ تُفْكَادِي
بِذَلِكَ الْمَالِ فِيهِمْ كَيْ يَعْزَمُوا
يُفْنِكَ بَعْدَ مُكِّهِ وَانْتَظَرِ
أَسَارَى الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْإِسْكَارِ
إِلَى الْأَهْلِيْنَ مِنْهُمْ وَالَّذِي يَسَارِ

(١) الطبري ٢٠٢ : ٩ - ٢٠٣ .

(٢) القصيدة رقم ٣٧١ " وليس في الطبري ولا في التنبيه والإشراف أدنى إشارة إلى هذا الفداء " .

وإذا كان الشعر الشامي قد التفت إلى ظاهرة المفاداة فإنه ركز على دور القيادة الإسلامية ، وعد ذلك فضيلة من فضائل الخلفاء ، يمدح بها وحسب ، ولم ينظر هذا الشعر فسي أثر الأسر والفكاك منه في العلاقات الاجتماعية والروابط الأسرية ، مما كان من الممكن لو تم أن يحدث تغييراً كبيراً في نمطية القصيدة العربية وبعدها في المكان .

٦- السبايا : -

ومن لطيف ما يستوقف دارس شعر الصراع مع الروم في القرن الثالث أيضاً ، اهتمام الطائيين بالحديث عن سبايا الروم اللواتي أثار جمالهن الفتان ، بعيونهن " النجل الحور القوائل " غير النساء المسلمات ، فشغلن المقاتلين المسلمين بسوقهن لسحر عن . يقول البحتري في قطعة يختلط فيها - في مفارقة أخاذة - نجيع الفرسان بقتلى مقل الولدان ولحظ العيون النجل (١) : -

كم في بني الروم من أعجوبة مـ	وفي بني العرب من ذي نجدة بطل
إنا بأسياننا نعلو أكابرهم	قسراً ، وتقتلنا الولدان بالقـ
إذا أنصرفنا بقتلى من سراتهم	نالوا السرات بلحظ الاعين النجل

ويبدو أن هذا المشهد القائم على التناظر المعجب قد راقى البحتري ، فكره في قطعة أخرى ، ولكنه أضاف إليه بعداً آخر عندما أظهر المسلمين حريصين على أخذ السبايا ، وأظهر الروم حريصين على القتال دونهم ، يقول (٢) : -

لعمرك ما ينفك يخطر بيننا	مع الروم حرباً بالقنا والمناسـ
نقارعهم بالموت دون بناتهم	مقارعة الأسد الغضاب البواسـ
فلم تر عيني كاتتضاً بناتهم	لوثر لدينا أو طلاب الطوائـ
إذا ما قتلنا بالسيوف رجالهم	تقاضين منا بالعيون القوائـ

ويعيد البحتري الحديث عن اهتمام المسلمين بسوق النساء الروميات باعتبار ذلك مغنماً أكبر ، لا تضاهيه أية غنية أخرى يحوزونها من أرض الروم ، يقول (٣) : -

(١) القطعة رقم ٧٤٥ .

(٢) القطعة رقم ٧٤٦ .

(٣) من القصيدة الثانية في ديوانه .

وَأَزْرَتِ الْخِيُولَ ثَبْرَ امْرِئٍ الْقَيْسِ سِرَاعًا قَعْدَنَ مِنْهُ بِطَسَاءٍ (١)
وَجَلِبَتْ النِّسَاءُ حُسُوءًا وَحُسُورًا آتَسَاتٍ حَتَّى أَغْرَتِ النَّسَاءُ
لَمْ تَدْعَكَ الْمَهَا الَّتِي شَغَلَتْ جَيْشَكَ بِالسَّقْوِ أَنْ تَسُوقَ الشَّيَاءَ

ومن غير شك أن البحترى في حديثه عن السبايا الروميات والغزل بهن إنما يكشف عن افتتاح جنود المسلمين بحسنات الروم اللواتي لم يشاعدوا مثلهم ، ويكشف عن مسلك عام يسلكه الجند في ديار الأعداء لابتعادهم عن زوجاتهم ، وهذا المسلك يبدو بصورة أوضح في قول أبي تمام عن نساء عمورية اللواتي تمتع بهن المسلمون :-

تَصْرَحَ الدُّفْرُ تَصْرِيحَ الْفَعْنَامِ لَهَا عَنْ يَوْمِ عَيْجَاءَ مِنْهَا طَاهِرٍ جُنُوبِ (٢)
لَمْ تَطْلُعِ الشَّمْسُ فِيهِ يَوْمَ ذَاكَ عَلَى بَانٍ بِأَعْلَى وَلَمْ تَغْرُبْ عَلَى عَزَبِ (٣)

وفي قوله في قصيدة أخرى مذكوراً فرحة الجنود المسلمين العائدين بالسبايا المعجبات الرائقات (٤) :-
كَمْ أَفَاءَتْ مِنْ أَرْضِ قُرَّةٍ مِنْ قُسْرٍ
قِيَامِ عَيْنٍ وَرَسْرَبٍ مَرْمُوقِ

وأكبر الظن أن من أسباب اهتمام الطائيين بالنزل بحسنات الروم ، والحديث عن التمتع بهن أنه كان انعكاساً لنظور الشعراء الإسلاميين العرب ، الذي يرى العرش أعلى ما يجب الدفاع عنه ، والموت دونه ، فعند الشاعران وتوغل السبايا الروميات في أيدي المسلمين مثلبة كبرى تنضاف إلى مثالب الروم وهزائمهم ، لأنه انتهاك لأعراضهم .

وحين نذكر السبايا نتذكر أمر الغنائم الأخرى التي أشار إليها البحترى لمحا في قوله " تسوق النساء " ، ولم يخصص لاهو ولا أبو تمام لهذه القضية التفاتة كافية ، ولعل ذلك راجع إلى أن الغنائم كانت شيئاً مألوفاً في قانون الحرب ، فهي لا تتطلب وقفة إذ ذكر النصر يغني عن ذكرها ، أو لعل الشعراء كانوا راغبين في تصوير النزاهة الإسلامية في الجهاد بعيداً عن غرض الدنياس .

(١) عن بقبر امرئ القيس القسطنطينية ، ففيها - على ما يقال - قبره . بطاء : كناية عن الغنائم الكثيرة التي تحملها الخيول .

(٢) يعني بالطهر جهاد العدو ، وبالجنابة ما كان فيه من سي . وتصرح بمعنى انكشف .

(٣) قصد أن رجال الروم قتلوا جميعاً ، وأن القتالين المسلمين تمتعوا بالروميات .

(٤) من القصيدة رقم ١٠٥ .

وعلى الرغم من كل هذه المحاور التي برزت في شعر الصراع مع الروم في القرن الثالث الهجري فإن دارس هذا الشعر تستوقفه جملة من القضايا عــــــ : --

١- غياب صورة الجيش الرومي المنتصر، وغياب الحديث عن دقائق مهمة في تكوينه وتسليحه وتعداداته . فقد كان الروم اقتحموا زبطرة وملطية في خلافة المعتصم بجيش ضخم يربو على المائة ألف مقاتل ، وارتكب هذا الجيش فظائع مرعبة ، وكان صدى ذلك كبيراً في الأوساط الإسلامية ، فضج الناس في الأمصار ، واستخاثوا في المساجد والديار ^(١) . فلماذا لم يصور أي من الطائيين هذا الحدث ، ولم يستصرخا المسلمين كما استصرخهم إبراهيم بن المهدي ^(٢) ؟ ليس من جواب شاف غير قولنا ، إن الشعراء كانوا حريصين على إرضاء أذواق مدوحيههم ، فإن النظم في تصوير مآسي المسلمين كسنان سيفضب هؤلاء المدوحين ، أو يكدر صفوهم ، أو كأن الشعراء كانوا يأنفون من تصوير مظاعـــــــر السقـــــــوط .

٢- غياب صورة ترحال الجيش الإسلامي وحلته في مناطق الشغور الإسلامية والدروب الرومية ، فلم يقدم أي من الشعراء صورة عن حركة الجيش وهو يتأعب للقتال ، أو وهو يرباط في الشغور ، أو وهو يرسل الطلائع والعيون .

٣- القفز السريع المباشر إلى وصف المعركة وتمجيد القيادة دون الولوع في نفوس المقاتلين ، فأبعد هذا الوصف الخارجي عن القوائد " الدينامية " والحيوية ، وذلك لسببين : تعجل المدح ، وعدم مشاركة الشعراء - إلا في أحيان قليلة - في صناعة أحداث هذه المعارك مشاركة حقيقية فاعلة . أما المدح فقد كان وبالأعلى الشعر العربي ، ومنه شعر الصراع مع الروم ، فقد ظل الطائيان حريصين على تقديم ما يروق المدوحين ، ولهذا انحصر اهتمامهما في هذه الناية . ونحن نقول هذا عن جريرة المدح على الشعر مع خشيتنا أنه لولاه لما نظم الكثير من القوائد العربية الجميلة .

وأما عن عدم مشاركة الشعراء في أحداث هذه المعارك فتبدو في جل هذه القوائد . وأكبر دليل على أن المشاركة تغني الشعر قصيدة أبي تمام في عمورية ، وقصيدة البحتري في أحمد بن دينار .

(١) المسعودي : مروج الذهب ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ٣ : ٤٧٢ .

(٢) مر ذلك في الحديث عن الحياة السياسية .

٤- كانت قصائد كثيرة في ديواني الطائيين رديفاً جيداً لمصادر التاريخ عن معارك المسلمين مع الروم . كما كان بعضها الآخر تعويضاً عن نواقص في تلك المصادر ، وقد ظهر ذلك بخاصة في أبي سعيد الثغري وابنه يوسف وفي أحمد بن دينار ومعاركهم جميعاً مع الروم ، فلدى النظر في القصيدة ٦١٢ من ديوان البحري مثلاً التي نظمها في يوسف بن محمد الثغري سيتضح شيء من يقله المؤرخون عنه ، وهو أنه كان صُرف عن حرب الثغور فألم ذلك الشاعر ، وهو إجراء لم يؤلم الشاعر حسب ، بل ألم أهل الثغور الذين كان يوسف مدافعاً عنهم ، وسر الروم الذين طالما أقتضت هجمات الثغري مضاجعهم ، وقيمة يوسف ليست في شخصه ، بل في رمزيته للأمان والظفر جميعاً : -

عَرَفُوكَ يَا بَنَ مُحَمَّدٍ بِسِوَاكَ	بَرَفُوكَ عَنْ حَرْبِ الثَّغُورِ بِقُدْرِكَ
لَمَّا جَعَلْتَ أَمَانَكَ الْإِشْرَاكَ	فَوَرَّكَ الْإِسْلَامُ مَحْرُوسَ الْقُسُوفِ
حَتَّى لَصِيدِ مُلُوكِهِمَا وَهَلَكَ	الرُّومُ تَعْلَمُ أَنَّ سَيْفَكَ لَمْ يَكْزَلْ

٥- أما من الناحية الفنية فإن قصائد أبي تمام والبحري قد رفعت المستوى الملحمي للقصيدة العربية ، حتى إن قصيدة مثل قصيدة عمورية - ولها مثيلات - قد احتوت أكثر العناصر التي تتطلبها الروح الملحمية في القصيدة ، من وصف للبطولات الفردية والجماعية ، ووصف للمعارك الدامية ، ووصف للخيل والسفن ، وتصوير لتفصيلات أخرى في إطار الحروب .

المصطلح الثالث

مبادئ شعر الوجداني

أولاً: الوصف والحنين :-

يلقى دارس الشعر الشامي في هذه الفترة خريين من شعر الوصف : أولهما الهيام بجمال الطبيعة الشامية بأنهارها وجبالها وطيورها ومناخها وبخاصة فصل الشتاء فيها ، وندر وصف مظاهر الحضارة والعمران على غنى الشام الكبير بتلك المظاهر ما كان منه إسلامي أو غير إسلامي .
وثانيهما الوصف الملتحم بالحنين إلى الشام ، والنبت من الشوق إليها ، والاحتراق بالبعد عنها .

وقد برز البحتري في النوعين جميعاً ، فنظم قصائد كثيرة تنمى فيها بالطبيعة الشامية ، بل يكاد يكون ارتباط البحتري بأرض الشام ارتباطاً لا يعدله فيه أي شاعر آخر من شعراء الشام في القرنين الثاني والثالث الهجريين . وسبب ذلك يعود إلى أن البحتري كان يملك ضياعاً واسعاً في بلدته منبج^(١) ، فقد ظلت أسرته في تلك الضيعة حتى بعد رحيله عنها إلى العراق طلباً للثراء الواسع ، والجاه العريض ، ولأن البحتري قضى سنوات طويلاً من عمره في الشام ، فعرف لذلك كثيراً من قراء ومدنه وجباله ودياراته ، فنظم شعراً رائعاً ، يقول مثلاً في وصف الرقة وطبيعتها الخلابة^(٢) :-

والرقة البيضاء كالخود التي	تختال بين نواحي أقسوان ^(٣)
ضحك البهار بأرضها فتشقت	فيها عيون شقائق النعمان ^(٤)
وتنفس أنفاس كل قارورة	وتغنت الأطياف في الأثوان

- (١) انظر: الصولي : أخبار البحتري ١١٩ .
(٢) القصيدة ٩٠٣ .
(٣) الخود : الشابة الناعمة الحسنه الخلقة .
(٤) البهار : نبت أنبوبي الزهر طيب الرائحة ينبت في الربيع ويقال له العرار وشقائق النعمان : نبت زهره أحمر مبهم ينقسط سوداً .

فَكُنَّا قَطَرَ السَّحَابِ عَلَى الشَّيْءِ عَطَرًا فَأَذْكَاهُ ذَكَاءَ بَيَّانٍ
وَتَجَرَّتْ أَنْهَارُهَا بِمِائِهِمَا مَوْصُولَةً بِفَوَاهِي الْفُؤَادَانِ (١)

فهو قد فطن إلى عناصر الإثارة في الطبيعة فرسم صورة تمازجت فيها الألوان الرائقة ، وأنفاس الزهر ، وأصوات سح الماء ودفقه ، يخالطها غناء الطيور على الفصوص المائسة ، وقد كمل ذلك كله بأن أضفى على عناصر الجمال المنبثقة من الطبيعة الحية لبوس الحسان من بني الإنسان ، عيوناً وقدوداً وأنفاس عاشقة —

ويبدو والبحري في شعره الذي يصف فيه الطبيعة الشامية في أثناء إقامته فيها رضي البسال ، مرتاح النفس ، خالياً من التوتر ، ويمثل ذلك فضلاً عن القصيدة السابقة الذكر ، قصيدته المشهورة في وصف الربيع ، فقد قالها في مدح أحد قادة الجزيرة هو الهيثم بن عثمان النعماني (٢) ، ومما جاء فيها قوله — (٣) :

أَتَاكَ الرَّبِيعُ الطَّلُقُ يَخْتَالُ ضَاكِكًا مِنَ الْحُسْنِ حَتَّى كَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ
وَقَدْ نَبَّهَ النَّوْرُوزُ فِي غَلَسِ الدَّجْسِ أَوَائِلَ وَرْدٍ كُنَّ بِالْأُمْسِ نُومًا
يُفْتَقِهَا بَرْدُ النَّسْدِ فَكَأَنَّهَا يَبِثُّ حَدِيثًا كَانَ أَمْسٍ مَكْتَمًا
وَرَقَّ نَسِيمُ الْبَحْرِ حَتَّى حَبَّتْهُ يَجِيءُ بِأَنْفَاسِ الْأَحْبَةِ نَعْمًا

فالقصيدتان جميعاً تجريان على نمط واحد من الهيام بالطبيعة ، والتحديث في مظاهر الفتنة فيها ، وقد تألفت ألفاظ الشاعر فيما تألفاً معجباً في رقة وحسن تصوير ، إلا أن الثانية أدق من الأولى في روعة التشخيص النابع على وجه الخصوص من استعمال الفعل المضارع بقدرته المتميزة على بعث نبض الحياة والحركة في العمل الأدبي ، وقد قال الشاعر القصيدتين في أثناء إقامته في الشام .

وكان وصف الطبيعة الشامية لدى أبي تمام والبحري يتحول أحياناً إلى لون من الحنين الحاد ، بل قد يغدو مظهرًا من مظاهر التأنيب للنفس على ترك الشام ، وتقريعها بحدة بسبب

(١) الفواهيق : المثلثة حتى صار ما فيها يتصبب .
(٢) ذكره الطبري في حوادث سنة ٢٢٠ هـ ، وكان قد اشترك في حرب بابك الخرمي ، وذكر المرزباني في معجم الشعراء أن اسمه عثمان بن الهيثم وأن المعتصم ولاءه ديار مصر ، وأورد له شعراً يسرد به على أبي الأصمغ الحصري المسلمي . انظر الطبري ٩ : ١٢ - ١٥ ، معجم الشعراء : ٢٥٧ (طبعة كرنكسو) .
(٣) هي القصيدة ٧٩١ .

التحول عن مواطن الفتنة الخلافة فيها إلى ديار لم يجدا فيها غير الأذى والضيق . وقد أفصحنا
عن هذا كله ثلاث قصائد لأبي تمام نظمها في مصر ونيسابور والعراق ، وقصائد عديدة للبحثري نظمها
وعوفي العراق ^(١) . ويبدو أبو تمام في هذه القصائد الثلاث رجلاً مهووماً بالاغتراب ، معذباً فيه ،
فلام نفسه لوماً شديداً على تفریطه بموطنه الشام ، وشكا من خيبة مسعاه في البحث عن العلم
والمال خارج الديار الشامية ، فقال وعوفي مصر — (٢) :

لقد طَلَعْتُ في وَجْهِهِ مُرَّ بَوَّجِهِسِهِ بلا طَالِعٍ سَعْدٍ ، ولا طَائِرٍ سُئِلِ
وساوُسُ آمَالٍ وَمَذْهَبُ هِمَمِهِ تَخِيلُ لي بَيْنَ المَطِيَّةِ وَالرَّحْسِلِ
وَسُورَةُ عِلْمٍ لَمْ تُسَدِّدْ فَأَصْبَحْتُ وما يُتَمَارَى أَنِهَا سُورَةُ الْجَهْمِلِ
نَائِتٌ فَلَا مَالاً حَوِيْتُ وَلَمْ أَقِرُّمُ فَأَمَتَّ إِذْ حُجِّجْتُ بِالْمَالِ وَالْأَهْمِلِ

وقال وعوفي نيسابور — (٣) :

يَمُدُّ زِمَامَهُ طَمَعُ مَقِيمٍ تَدْرَعُ ثَوْبَهُ رَجُلٌ عَدِيمٌ
رَجَاءٌ مَا يَقَايِلُهُ رَجْسٌ هو اليَأْسُ الَّذِي عُقِبَهُ سُؤْمٌ

وقال وعوفي العراق — (٤) :

أَرُمُ حَتَّى العَصْرِ رَأَيْتُ فَتَدْرِينِي رَمَاءُ جَوَى لِيَشْجَبُوا مَا تُصِيبُ ^(٥)
فَأُضَيِّجُ حَيْثُ لَا نَقَمَ لِيَصَادَ وَلَا نَشَبَ يَلُونُ بِهِ حَرِيبُ ^(٦)

فألهم المقيم ، والشكوى المرة ، وجلد النفس في القاسم المشترك بين هذه القصائد ، فهو لم يجسّن
من هذه الرحلات الثلاث غير الفجوعة بالمال والأهل ، وغير اليأس والشوْم ، مع أنه كان يحدث نفسه
عن آمال عراض ، ومطامح كبار سيحققها له اغترابه ، فكان حجم الخيبة لذلك كبيراً . ولكي يخفف أبو

(١) قصائد أبي تمام في القصائد ٤٦٨ ، ٤٧٢ ، ٤٧٨ ، ٤٧٨ ، من ديوانه بشرح الخطيب
التبريزي ، وذلك عدا ما في القصيدة ١٦٣ من تصريح عن توزيع نفسه بين هذه الأقطار ، ومن
قصائد البحثري نذكر تمثيلاً : ١٣١ ، ٢٦٩ ، ٢٧٩ ، ٤٧٠ ، ٧٨٤ ، ٨٢٨ .

(٢) القصيدة ٤٦٨ .

(٣) القصيدة ٤٧٢ .

(٤) القصيدة ٤٧٨ .

(٥) تدرينني : تختلنني .

(٦) نقم المادي : ري الظمان ، النشب : المال ، الحريب : المسلوب .

تمام عن نفسه من حدة هذه المعاناة بالخيبة، ألفيناه يهرب إلى الشام أرضاً وسكاناً ، فبـــــــــــــــــــــــــــــــــرَزَتْ
في عينيه زاغية كأحلى ما تكون ، فاسترجع صور طبيعتها الفاتنة ، وأهلها الطيبين ، فقال فـــــــــــــــــي
أولى تلك القصائد : —

بنفسي أرضُ الشام لا أَيْمَنُ الحِمَى ولا أَيْسَرُ الدَّعْنَا ، ولا وَسَطُ الرَّمْلِ
ولم أَرْمُلِي مُسْتَهَامًا بِمُثْلِكَـــــــــــــــــــــــــــــــــم له مُثْلُ قَلْبِي فِيهِ مَا فِيهِ لَا يَفْقُلِي

وقال في الثانية : —

نقد فارتُتْ بالفرجـــــــــــــــــــــــــــــــــي دَارًا بأَرْضِ الشَّامِ حَفَّ بِهَا النَعْسُـــــــــــــــــــــــــــــــــمُ
هَمِي الْوِطْنُ الَّذِي فَارَقْتُ فِيـــــــــــــــــــــــــــــــــه وفَارَقْتُني الْمُسَاعِيدُ وَالنَّدِيـــــــــــــــــــــــــــــــــمُ
وَكُنْتُ بِهَا الْمُنْعَغُ غَيْرَ وَغـــــــــــــــــــــــــــــــــيْدٍ ولا نَكْدٍ إِذَا حَلَّ الْعِظَمـــــــــــــــــــــــــــــــــمُ (١)

وقال في الثالثة : —

وَتَسْعِفُنِي دَمَشَقٌ وَسَاكُوعـــــــــــــــــــــــــــــــــا ولا صَدَدٌ دَمَشَقٌ وَلَا قَرِيبٌ (٢)
بِلَادٍ أَفْقَدْتُ نَتِيجَهَا مَنـــــــــــــــــــــــــــــــــاتٍ يُشَيِّبُ كَرَمًا مِنْ لَا يَشِيـــــــــــــــــــــــــــــــــبُ
تَعْنَى أَنْ يَعُودَ لَهَا حَبِيبـــــــــــــــــــــــــــــــــبٌ مَنَى شَطَطًا ، وَأَيْنَ لَهَا حَبِيبٌ

ولو أَحْصَيْتَ أَلْفَاظَ الْهَمِّ وَمَا جَرَى مَجْرَاهَا فِي هَذِهِ الْقَصَائِدِ الثَّلَاثِ لَتَبِينَ مَدَى التَّمَزُّقِ النَّفْسِيِّ الَّذِي
عَانَاهُ الشَّاعِرُ فِي الْغُرْبَةِ ، فَكَانَتْ بَرُوقُ الشَّامِ وَطَلُّهَا وَبَقْلُهَا وَرِيَاحُهَا وَسَحْبُهَا ، وَأَنْفَاسُ الصَّبَابَةِ فِيهَا ،
وَتَلُوجُهَا وَخَضِرَتُهَا مَحَطَاتِ اسْتِرَاحَةٍ تَخْلُدُ إِلَيْهَا نَفْسَهُ الْمَمْرُوقَةَ ، وَفِيهَا يَلْقَى رَأْسَهُ الْمَكْدُودَ عَرَبِيًّا
وِطْمَائِينَةً فِي آن : —

سَقَى الرَّائِجُ الْغَسَادِي الْمُهْجَرُ بِلْدَةً سَقَتْنِي أَنْفَاسُ الصَّبَابَةِ وَالْخَبُـــــــــــــــــــــــــــــــــلِ
إِذَا مَا أَرْتَدَى بِالْبَرْقِ لَمْ يَكْزَلِ النَّدَى لَهُ تَبَعًا ، أَوْ يَرْتَدِي الرُّوضُ بِالْبَقْلِ
تَرَى الْأَرْضَ تَهْتَزُّ أَرْتِيَا حَا لَوْعـــــــــــــــــــــــــــــــــه كَمَا ارْتَا حَتَّ الْبِكْرِ الْهَدْيِ إِلَى الْبَعْلِ
فَجَادَ دَمَشَقًا كُلَّهَا جُودَ أَهْلِـــــــــــــــــــــــــــــــــا بِأَنْفُسِهِمْ عِنْدَ الْكَرِيمَةِ وَالْبَسْـــــــــــــــــــــــــــــــــدْلِ

(١) أراد الشاعر أن يقول : كنت أبذل معروفني لمن يطلبـــــــــــــــــــــــــــــــــه .

(٢) الصدد : القريب المداني . شرح التبريـــــــــــــــــــــــــــــــــزي .

وقوله :-

سقى الله البقاعَ فحيثُ راقَتِ جبالُ الثلجِ رَحْباً والرحيبُ^(١)
وصاب الغوطةَ الخضراءَ أعْبَدَى وأغزرُ ما يجودُ وما يصُوبُ^(٢)

وكذلك كان شعر البحترى أيضاً في وصف الطبيعة الشامية في أثنا إقامته في أرض العراق بعيداً عن أهله وأرضه . وقد عبر عن هذا في مقابلة دالة بين أمه الرخي المطمئن في أحضان الشام، ويومه العاثر في العراق بقوله في أبيات من جملة قصائده^(٣) :-

- فتأللَّه أرضي بالعراق إقامــة وفي الأرض للسفر المُنْدُ شــام
- واشترائي العراقَ خُطَّةً غَيِّـينِ بعد بيعي الشامَ بَيْعَةً وكُـسـسـي
- عصيتي للشامِ تُضَرِّمُ لَوْعَتـي وتزِيدُ في كَلْفِي " وفي أشجانـي

وكان البحترى قد وجد في العراق ألواناً من الضيق السياسي ، فضلاً عن مُناخها " النكد " ، مما كان يحفزه حفزاً إلى البحث عن المعادل النفسي المهدى ، وقد وجده في استرجاع صور الطبيعة الشامية الفاتنة ، فكان يفتح إليها كلما ضيق عليه ، أو ضاق بها ذُرْعُه ، فيقول مثلاً من قصيدة " يمدح صالح بن وظيف " ويتشوق بلـده^(٤) :-

وكم بالجزيرة مِنْ رَوْضَةٍ تُضاحِكُ دجلةً تُغْبِئُهَا^(٥)
تُرِيكَ البواقيتَ مِنْ شُورَةٍ وقد جَلَّلَ النُّورُ ظُهُرَانِهَا
إذا غَرَدَ الطيْرُ فِيهَا تَنَنَّتْ إليك الأغاني أُلحَانِهَا
كأنَّ العذاري تمشي بها إذا هَزَّتْ الرِّيحُ أَفْنَانِهَا
تَعَانِقُ الْقُرْبَ شَجَرَاؤُهَا عِناقَ الأحيَّةِ أَسْكَانِهَا^(٦)

- (١) رحبا والرحيب موضعان في البقاع من لبنان . (ديوان أبي تمام ٤ : ٥٥٤) .
- (٢) صاب المطر : انصب ، وصاب المطر الأرض : أمطرها وجاددها .
- (٣) هي القصائد : ٧٨٤ ، ٤٧٠ ، ٨٣٨ على التوالي .
- (٤) القصيدة ٨١٨ ، وصالح بن وظيف مولى كانت له يد في قتل المعتز ، ثم قتل صالح نفسه في سنة ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ م انظر الطبري ٩ : ٣٨١ ، ٤٥١ .
- (٥) الثغبان جمع ثغب وهو الغدير في ظل الجبيل .
- (٦) الشجرا : الأرض ذات الشجر . والأسكان جمع السكن وهو كل ما يسكن إليه وفيه .

فهذه الصورة البهية البهيجة للطبيعة الشامية مبعثها الهروب من المعاناة التي وجدها الشاعر، والتي كانت المحور الحقيقي للقصيدة، فهو يقول فيها بعهد :-

ألا ليت شِعْري هل أَطْرَقَنَّ
وعَلْ أَطْلَعَنَّ عَلَى الرِّقَتَيْنِ
مَشُوقٌ تَذْكُرُ الْأَقْسَمَ
تصور البليغ وَأَفْدَانَهُمَا (١)
بَحْيَلُ أَخَايَلُ سَرْعَانَهُمَا (٢)
وَنَفْسٌ تَتَّبَعُ أَوْطَانَهُمَا

ويقول في أخرى مشوقاً إلى حمص (٣) :-

وفي كبدي نارُ اشتياقي كأنَّها
لِذِكْرِي زَمَانٍ بَانَ مَنَّا بِنَضْرَةٍ
خُذَانِي عَلَى مِياسٍ حَمَصٍ فَإِنَّنِّي
إِذَا أَضْرِمْتُ لِلْبُعْدِ نَارُ حَرِيْقٍ
وَعَيْشٍ مَضَى بِالرِّقَتَيْنِ رَقِيْقٍ
إِلَى خَلِّي الْحَمَصِيِّ حَسَدٌ مَشُوقٍ (٤)

فأكبر الظن أن شوقه إلى حمص، وهي رمز من رموز الشام، كان أكبر من شوقه إلى صاحبه الحمصسي الذي أنشأ له هذه المدحمة .

والملاحظ أنه كلما تأزمت نفس البحترى بهموم الاغتراب والمضايقات توحدت الطبيعة الشامية، وبدا التعلن بالشام شغل الشاعر الأول، ففي القصيدة ١٣١ يقيم البحترى حواراً بينه وبين إحدى اللاتعات على إقامته "بسر من رأى"، وأكبر الظن أن هذه اللاتعة لم تكن غير نفسه التي تنزع إلى الرحيل عن موطن متعصب :-

قالت : أراك بِسَرٍّ مِنْ رَأْيَاوِيَا
فِي حَيْثُ لَا يُلْفِي الشَّرِيفُ مُنَاسِبًا
فَاعْيِدْ لِحَظْلٍ مِنْ نَزَارٍ فَإِنَّهُمْ
قَلْتُ : ارْبَعِي ، فِي "سَرٍّ مِنْ رَأْيَاوِيَا"
فِي مَرْتَعٍ جَشِبٍ ، وَعَيْشٍ مُنْصِيبٍ (٥)
يَحْنُو عَلَيْهِ بِرَأْفَةٍ وَتَحَدَّبِ
أَعْلُ النَّهْيِ ، أَوْ جَانِبٍ مِنْ "يَعْرَبِ"
كُرُمْتُ ضَرَائِبُهُ عَظِيمُ الْمُنْصِيبِ

وغير خاف ما في البيت الأخير من مكابرة تفضحها الآيات التي قبله ، فشكواه فيها أصدق من رضاه عن العيش في ظل مدوحه ، لأن البحترى يمس على هذا الممدوح أن قبل العيش في هذه الديار

الجافية .

- (١) البليغ : نهر بالرقه يصب في الفرات تحت الرقة/ ياقوت (البليغ) والأفدان : القصور .
(٢) أخايل : أباري وأما خبر .
(٣) القصيدة ٥٨٤ .
(٤) مياس عونهر الرستن المعروف اليوم بالعاصمي .
(٥) الجشيب : الغليظ .

وكرر البحترى هذا الموقف نفسه فلام نفسه لوماً شديداً على ترك منبج والشام ، والتحول
عنهما إلى العراق . وسلك في هذا مسلك أبي تمام في قصائده الثلاث السابقات ، فهو يصرح تصريحاً
بأنه قصد العراق طمعاً فكانت النتيجة الخيبة (١) :

عَجِبْتُ لِحَيْرَتِي وَضَلَالِ رَأْيِي	وَكُنْتُ أُرَادُ لِلرَّأْيِ الرَّشِيدِ
غُلِبْتُ عَلَى الصَّوَابِ وَصَدَّقْتُ نَفْسِي	ضُرُورَاتِ الْمَطَامِعِ وَالْجُدُودِ (٢)
وَمَا تَزْكِي لِمَنْبَجٍ وَاخْتِيَارِي	لِرَأْسِ الْعَيْنِ فِعْلٌ مِنْ مَرِيدِ
لَنْ أَكْذَى الشَّامُ فَلَسْتُ يَوْمًا	لَا جَدَاءُ الْعِرَاقِ بِمُسْتَرِيدِ

ومما عوَّده بالملحظة عن قصائد البحترى في هذا الباب متارنة مع قصائد أبي تمام
فيه أن البحترى لم يخصص لا للوصف ولا للحنين ولا لهما معاً قصيدة مفردة ، بل جاء تعبيره عن
ذلك كله في ثنايا قصائد المدح ، في حين كانت قصائد حبيب مصونة جميعاً في قضية محورية
واحدة هي الحب الدافق للشام ، وتعنيف النفس على مفارقتها ، وهذه ميزة لأبي تمام على صنوه الوليد ،
غير أن الكم الشعري الذي نظمه البحترى في الطبيعة الشامية كبير ، وهو يفوق بكثير ما نظمه أبو
تمام فيها ، ولعل ذلك راجع إلى سببين : الأول أن البحترى كان كثيراً ما يعود إلى الشام ، فضلاً
عن طول إقامته فيها في أول عمره وأخرياته ، فكان حنينه يطفأ ، في حين كان أبو تمام قد رحل عن
الشام صغيراً ، وكان قليلاً ما يعاود زيارتها ، والثاني أن أبا تمام مات وعوفي العقد الثالث من
عمره ، في حين مات البحترى وعوفي العقد السابع فأتاح له امتداد عمره أن ينظم أكثر .

وانفرد البحترى بلون خاص من ألوان وصف الطبيعة الشامية وهو لون يمكن أن نصلح على
تسميته "شعر التحبيب والتزين" ، لسكنى دمشق . فقد نظم البحترى خمس قصائد (٣) بمناسبة
زيارة المتوكل لها ، وعزمه على الإقامة فيها ، وكان يهدف إلى تحقيق مطلبين : تحبيب صورة الشام

(١) القصيدة ٢٦٩ .

(٢) الجدود : الحظوظ .

(٣) عي القصائد ذوات الأرقام ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٩ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٧٤ .

في نظر الخليفة فتصبح دمشق حاضرة الخلافة العباسية ، ثم خلاصه هو من معاناة العيش في قيط العراق ، وحره النكد ، ومنغصاته الكثيرة ، مع ما يحقق له ذلك من اقتراب من أهله وأرضه ، وقد عبرت أولى تلك القصائد عن فرحه الطفولي بالخروج من العراق إلى دمشق فقال : —

قد رحلنا عن العـرـا
ق وعن قَيطِها النـكـر
حبذا العيشُ نـفـي دـمـشـقَ إذا لـيـلـها بـسـرـد

وقوله في الثانية وهي تجوي مجرى سابقتها من التمني بجمال الطبيعة الآسرة ، والمناخ الجميل : —

العـيـشُ في لـيـل دـارِيا إذا بـسـرـدا والراح نـعـزُجها بالماء من بـسـردى (١)
أما دـمـشـقُ فـقـد أبـدَّتْ مـحـاسِنُها وقد وقي لك مـطـرِها بما وعـدا
فـلـسـتُ تُبـصِّرُ إلّا وإكـفًا خـصـيـلا أو يانعا خـصـرا أو طائرا غـرـدا (٢)

وقوله في الرابعة داعيا الخليفة إلى أن يحدد في دمشق مقارنا بمناخ العراق : —

عـواوُها الفـضـفـاغُ غـضُّ النـدى وماوُها السـلـسـالُ عـذـبُ المـذاقِ
وكيف لا تـوئـمُها بالهـنـوى وصيفُها مِثْلُ شِتاءِ العـراقِ

وكان قد سبق البحري إلى التمني بجمال دمشق لناية تزيينية شاعر دمشق في زمن المأمون . فقد روى ابن شداد صاحب "الأعلاق النفيسة" أن المأمون نظر من بناء كان فيه إلى أشجار غوطة دمشق وبنائها ، فأتسم أنها خير منى على وجه الأرض ، فاندفع شامي هزه إطرأ الخليفة لمدينته قائلاً (٣) : —

نَظَرَ المـأـمـونُ يـومـًا من دـمـشـقٍ من أبـانِ (٤)
فـي رِياضٍ مُنقـِـياتٍ بـسـيْنِ أشـجـارِ حِسانِ

(١) داريا : قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالخطوة والنسب إليهما داراني على غير قياس .

معجم البلدان / داريا .

(٢) الواكف : المطر المنهل .

(٣) انظر : ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، قسم تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق سامي الدهان ، دمشق ١٩٥٦ : ٣٣٣ — ٣٣٤ .

(٤) أبان : قرية من قرى الغوطة كما يقول محمد كرد علي منسوبة إلى أبان بن مروان أخي عبيد الملك بن مروان ، وهي من القرى الدائرة اليوم ، انظر : غوطة دمشق : ١٩ .

فمَشَى شَوْقًا إِلَيْهَا	ضاحِكًا بَيْنَ غَسَّوَانٍ
ثُمَّ آلَى بِيَمِينِ	إِنَّمَا خَيْرُ الْمَغَانِي
فَرَشَتْ بِالنُّورِ فَرَشَاتًا	تَحُتَ ظِلِّ وَسَّوَانٍ (١)
أَخْضَرَ رَفَافِيسًا	جَارَهُ أَحْمَرُ قَانٍ

والأبيات منسجمة مع الموقف الذي قيلت فيه « فهي غنائية راتمة » وهي تسجيل لحدث يعد دليلاً على توجه عام مستكن في أعماق الشاميين لأن تصبح « هذه الجنة الأرضية » مقر الخلفاء « بدلاً عن » العراق وقيظه وحره النكد . »

وحظي وصف فصل الشتاء وأمازه الغزيرة باهتمام عدد من الشعراء الشاميين « وقد جسا » وصفهم له ضرباً من التعبير عن الإعجاب بهذه الظاهرة الطبيعية « أو تعبيراً عن الضيق منه » والسخط عليه . ويلاحظ أن الشعر الذي نظم في هذا الميدان جاء « وصفاً خالصاً مجرداً من الحنين أو المديح . ومن الأمثلة الحية على الإعجاب بالمطر أبيات الشاعر الحلبي أبي عبد الرحمن القرشي (٢) التي أوردها ابن العديم « فهي مصوغة في وصف يوم ماطر مخضت فيه الرياح السحب فسالت الأرض فسي كل اتجاه » وأزنت وتعمت بأزهار مختلف ألوانها « وتدانت تلك الأزهار يقبل بعضها بعضاً فعمل العاشقين . ولأن قضية الشاعر واحدة في هذه القصيدة جاءت أبياتها وقد تواتر لها حفظ كبير من الوحدة المتنامية « يقول (٣) : —

وَيَوْمَ حَجَبَ النَّيْسُ	بِهِ الصَّخْرَ عَنْ الْأَرْضِ
بَنُو عَيْنٍ مِنَ الْقَطْرِ	بَعْفُودٍ وَمَرْقَسُ
وَحِضُّ الرِّعْدِ وَالْبَرْقُ السَّ	عَوَالِي أَيْمًا حَضَّ
فَسَدَّ الْجَوَّ بِالطُّوَلِ	وَسَدَّ الْأَرْضَ بِالْعَرَضِ

- (١) السواني : جمع سانية وهي السحابية .
 (٢) قال ابن العديم في التعريف به : « شاعر مجيد قديم العصر في زمن ابن المعتز أو قبله »
 هاشمي النسب . « بغية الطلب » : ٨ ورقة ١٣٢ ب / ١٣٣ أ .
 (٣) المصدر السابق « وذكر ابن العديم أنه قرأ هذه الأبيات في كتاب الأنوار للشمشاطي » غير
 أني لم أجدها في النسخة المطبوعة التي حققها محمد يوسف « ونشرتها وزارة الإعلام
 الكويتية سنة ١٩٧٧ . »

وسح الماء حتى صا
فباتت تتبارى كـ
وكالاشئهم إذ فـوقـ
فوجه الأرض معتـمـ
بصفـر ومحمـر
إذا عبت له الريح
كما التفت به الأمـوا
رت الرسوة كالخفـض
تبارى الخيل في الرـكـض
ن للأغراض بالنـبـض
بزمـر ناعـم غـض
ومخضـر وبـيـض
تدانس البغض من بغـض
بين الشـم والعـض

وعبر شاعر شامي آخر هو ديك الجن عن ابتهاجه وحبوره بالخير العميم ، والرزق المنبجس من الأرض بسببه ، يقول متوراً احتفاً الأرض بالمطر ، وهو يعبر في الواقع عن فرحة الناس به (١) : -

غراً جاءت وأنواه الثرى يـسـ
تسري وللريح في حافاتـها زجلـ
في مأتم للحيا ما أتمل عارضـه
إلا وفيه لأبكار الثرى عرسـ
لكنها أنصرفت والنور منغمـس
يريك ذمك أن الرزق ينبجسـ

وقد تبدو الصورة الكلية في هذه الأبيات مبنية على التضاد الظاهري : بين منظر حزين ترسل فيه الطبيعة دموعها بصورة مطر ، ومنظر عرس لأبكار الثرى متولد من ذلك المأتم . ولكن التعمق في الصورة يتجاوز حدود المشاهد المحسوسة ، ليلج على دورة الحياة الكبرى بتعاقب الفصول .

ومع أن الابتهاج بالمطر قد يكون قاسماً مشتركاً عاماً بين شعراء العربية ، فإن فئة قليلة من الشعراء الشاميين عبرت عن ضيقها وضجرها منه . وقد عرض لهذا شاعر حلبي آخر (٢) عندما أظهر سخطه على المطر ، وضجره منه ومن مدينته التي أضحت " مدينة من ما " ، وغدا هو " من سمك البحار " . يقول هذا الحلبي في تصوير فكك مستمـدب : -

ما الدار في حلس يدار شـوا
هذا الشتاء بها كالف شتـا

- (١) لم ترد هذه القطعة في ديوان الشاعر المطبوع ، وهي في الحماسة البصرية ٢ : ٢٤٩ .
(٢) جاء في بغية الطلب ٨ : ورقة ٢٦٢ - ٢٦٣ ، ما يلي عنه : " الحلبي غير مسمى ولا مكى " ورثى في بعض شعره أبياتـهـم .

أَلْقَى عَلَيْهَا الزَّمِيرُ مُرُورًا ۖ
حَفَّتْ بِهَا ظِلْمُ الدُّنْيَا وَأَصْبَحَتْ
كَمْ قَطْرَةٍ فِي إِثَرِ أُخْرَى خِلْتُهَا
مَا كُنْتُ مِنْ سَمَكِ الْبَحَارِ أَظُنُّنِي
نُسِجَتْ مِنَ الْأَرْوَاحِ وَالْأَنْسَادِ
وَنَهَارُهَا كَاللَّيْلِ اللَّيْلِ
بَحْرًا أَمَامِي زَاخِرًا وَوَرَائِي
حَتَّى سَكُنْتُ مَدِينَةً مِنْ مَاءٍ

فعلى ما في هذا الشعر من دعاية ، فإن فيه ملمحاً اجتماعياً يدل على ضيق فئة من الناس فقيسرة كانت قسوة الشتاء تمنّيها في مسكنها ومأكلها بمحاصرتها إياها عن السعي في طلب الرزق . كما يدل على مداعمته لئلازلهم التي كانت - في أكبر الظن - غير صالحة لتدراً عنهم غائلي البرد والوكف .

وتفصح أبيات محمد بن سلامة الدمشقي ^(١) عن هذا الهم الذي كان يتلبس هذه الفئة من الشاميين التي لا تعرف البهجة بحلول الشتاء حتى غدا حلوله في نظر الشاعر مكافئاً لحلول الغريم ، كما تفصح عن شعور بالأسى الحاد يحس به الفقراء ويستشعرونه في هذا الفصل ، وبالصدق الذي يملأ قلوبهم على الأغنياء ، فيقول في صورة جديدة تعرض مظهرًا من مظاهر التفاوت الطبقي ^(٢) : -

إِذَا كُنْتُ فِي بَلَدٍ رَاحِلًا
فَلَا تَذْكُرِ الرِّزْقَ حَتَّى تَسْرَى
فَكَمْ غَدْوَةٍ فِي هُبُوبِ الْجَنُوبِ
وَكَمْ زَلْفَةٍ عَنْ حَوَاشِي الطَّرِيقِ
وَوَغْدٍ لَيْسَ غَدَا رَاكِبًا
إِذَا مَا رَأَيْتُ سَحَابَ الشِّتَاءِ
أَظَلَّ نَهَارِي مُقَاسِي الْهَمِّ
وَحَلَّ الشِّتَاءُ حُلُولَ الْغَرِيمِ
مِنَ الصَّخْرِ يَوْمًا نَقِيَ الْأَدِيمِ
تَزَوَّيَ الْوَجُوهَ بِبَرْدٍ صَمِيمِ
تَرَدَّدَ الشَّيَابَ بِخَزْيٍ عَظِيمِ
خَبِيثٍ أَضْرَبَ بِمَآئِنِ كَرِيمِ
تَغَشَّتْ فَوْقَ أَدْيِ سَحَابِ الْهَمِّ
حَبِيسَ الْغَمِّ أَسِيرَ الْغَيْمِ

(١) قيل اسمه المعلق ، وقيل محمد بن سلامة بن أبي زرعة الكثاني الدمشقي ، كان معاصراً لديك الجن . انظر ترجمته في : معجم الشعراء : ٤٢٨ ، سبط اللاقي : ٥١٧ . وقال ابن عساكر : قال ابن الجراح في الورقة : هو والدك شاعراً الشام . وليس له في نسخة الورقة المحققة ترجمة ، وانظر صورة تاريخ مدينة دمشق ١٥ : ٤١٥-٤١٧ . وانظر أيضاً : المحمدون من الشعراء : ٣٤٨ ، وقد وهم محقق هذا الكتاب عندما ظن أن أبا زرعة هذا هو ديك الجن نفسه ، فقد علق بعد القطع الثلاث التي وردت لأبي زرعة في الكتاب بقوله : "هذه المقطوعات ليست في ديوان ديك الجن" .
(٢) صورة تاريخ دمشق ١٥ : ٤١٥ .

ولدى رجوع النظر في الشعر الشامي في الشتاء ومطره يتضح أن الشعراء الشاميين قد وقفوا منه مواقف ثلاثة متباينة : موقف الفنانين الذين راقعهم جمال الصورة فيه مجرداً عن أي غرض نفعي، ويمثلهم البحري وأبو عبد الرحمن القرشي الحلبي ؛ وموقف المعجبين به باعتباره دلالة خير، ويشير نعمة، ويمثل هذا الاتجاه ديك الجن الحمصي ؛ وموقف الضجرين منه باعتباره مصدر ضيق وحائلاً بينهم وبين السعي في طلب الرزق، ويمثل هذا الاتجاه الشاعر الحلبي ومحمد بن سلام الدمشقي .

ولم يكن وصف الطبيعة الشامية ومناخها عما المادتين الوحيدتين للوصف في الشعر الشامي، فقد وُصفت بعض مغطيات البيئة الشامية الأخرى كالقلم والسفن . ففي وصف القلم قال محمد ابن عبد الملك بن صالح الهاشمي (١) :-

وأبيض طاري الكشح أخرس ناطق	له ذملان في بطون الممارق (٢)
إذا استطرته الكف جاد سحابه	بلا صوت إرعاي ولا ضوء بارق
كان اللآلي والزبرجد نظمه	ونور الأقاحي في بطون الحدائق
كان عليه من دجى الليل حلقة	إذا ما استهلكت مزنه بالصواعيق
إذا ما امتطى غر القواني رأيته	مجللة تضي أمام السوابيق

وغير خاف ما في هذا الموضوع من طرافة غير معهودة في الشعر العربي حتى هذا العصر، وغيّر خاف كذلك أن مادة تشبيهاته منتزعة من بيئة حضارية راقية مترفة تتعامل باللالآلي والزبرجد، وهي في الوقت نفسه بيئة ذات شوائب صاخبة .

أما وصف السفن في الشعر الشامي فقد كان استجابة لدواعي الحياة في الشغور البحرية الشامية، ومع أنه يفترض أن يكون مقدار ما نظم من شعر في وصف البحر أو وصف مراكبه كثيراً، فإن النظم فيه كان قليلاً، ومن رويت له أشعار في هذا الباب شاعر أنطاكي يدعى الحسين بن علي (٣) .

- (١) شاعر مشهور أديب قسريني، «عاصر المأمون والمتوكل» له مخاطبات مع أبي تمام والبحري، قال ذلك المرزباني في معجم الشعراء : ٤٢٤، وانظر: الوافي بالوفيات ٤ : ٣٥ .
- (٢) الذملان : السير السريع اللين . الممارق جمع المهرق وهو الصحيفة البيضاء يكتب عليها .
- (٣) هو الحسين بن علي أبو طالب التميمي النقاش، قال فيه ابن العديم : شاعر محسن متقدم على عصر سيف الدولة، ذكره الشمشاطي مقاطيع من شعرة في كتبه : النزه والابتهاج، والأنوار والديرة . انظر بغية الطلب : ٨ : ورقة ٢٥٩، غير أن كثيراً مما أورده ابن العديم ذكرنا أنه في الأنوار لا وجود له في نسخة الأنوار المطبوعة .

وهو يبدو في وصفه للبحر والسفن خبيراً بشؤونهما ، يقول في ذلك مثلاً (١) :

وللما من حَوْلنا ضَجَّـةٌ	إذا الماءُ كافَحَ تَلَكُ العُروبِ (٢)
حبالٌ تَوَلَّغُها حَكَمَةٌ	فتمحو البحارَ بها لا السُّهوبِ
حيازِمُها الدَّمَرُ مصلوبَةٌ	تُعانِقُ للماءِ وَقْداً غريباً (٣)
عَجِبْتُ لها شاحباتُ الخُدودِ	لم يُدْعَبِ الرِّىُّ عنها الشُّحوبِ

ولهذا الشاعر قصائد ومقطعات أخرى (٤) في وصف السفن والبحر، مما يدل على التصاقه ببيئته وصدوره عنها ، غير أنه لم يصف سفن الحرب ، بل كانت السفن عنده ملهى يختلف إليه ليقصف ويمجسن بعيداً عن الرقباء ، يقول في صورة جميلة عابثة معاً (٥) :

وَزَنْجِيَّةٌ عُرِفَتْ بِالْإِسْـاقِ	فليستَ لنا راحةً في الرِّسْـاقِ
إذا اضْطَرَبَ الماءُ من حَوْلِـها	رَأَيْتَ الْجِبَالَ بها في تَكْـلاقِ
يُورِ بها قَسْطَلٌ أَبْيَضٌ	على القومِ غَيْرُ كَيْفِ السَّـراقِ
وَأَبْناءُها المَرْدُ شَيْبُ السَّـرُوسِ	وَأَبْناءُها السُّودُ بَيْضُ التَّـراقِـسي
رَكْبنا إِلَيْها غداة الصَّبـاحِ	مَطايَا تَخْبُ كُدْ عَمِ العِـتـاقِ
فَظَلَّنا نُمِيتُ لَدَيْها الرِّقـاقِ	إلى أن حَيِينا بَمَوْتِ الرِّقـاقِ

وعذا النص ذو دلالة اجتماعية مهمة ، فملاحو السفينة بيض ، لعلمهم من جوارحة لبنان ، ثابت رؤوسهم من أحوال البحر وطول الإبحار فيه ، أما القائمون على الخدمة في السفن فهم زنج ابينحت تراقيهم من شد الحبال ، وأما المرفهون المترفون من أبناء أنطاكية ، ويبدو أن الشاعر كان منهم ، فكانوا يقصدون السفن للعبث والمجون ، كأن السفن نفسها غدت مواطن لهم لهذه الفئة المترفة .

(١) الأنوار ٢ : ١٣ ، بغية الطلب ٨ ورقة ٢٥٩ .

(٢) العروب : السفينة .

(٣) الحيازيم : جمع الجمع لحيزوم وهو الصدر .

(٤) الأنوار ٢ : ١٠ - ١١ ، بغية الطلب ٨ ورقة ٢٥٩ .

(٥) الأنوار ٢ : ١٤ .

والكتمان التقليدية يقول (١) :-

وَإِنَّمَا فُرْقَةٌ تَذِيبُ الْقُلُوبَ
 وَلَبَّيْتُ قَلْبِي الْعِزَّاءَ فَقَسَدَ أَضْحَى
 وَتَرَدُّ الشُّبَّانَ لَا شَكَّ شَيْبًا
 مَا تَرَى السَّفْنَ كَيْفَ تَعْلَمُ
 وَكَأَنَّ الْمَلَاحَ إِذَا حَسَّتْ أُولَا
 حَبَابُ الْمَاءِ مِثْلَ الْمَطِيِّ تَعْلُو الْكُثْيَا
 هُنَّ حَارٍ غَدَا يَحُتُّ نَجِييَا

کلب مطابق علی غنی وحش کانه پینته سراً ، یقول ^(۲) فی وزن قصیر خاطف : —

وَرَوْضَةً آزْرَعًا
 وَاخْتَالَ فِي زَعَمِ الرِّيبِ
 لِلْوَحْشِ فِيهَا مُوسِيْمٌ
 تُبْدِي عَيْنَانَا تَسْتَبِيحِي
 جُنَّتْ وَقَدْ غُوِِدِرَ مَن
 أَثَرَ سَحَابٍ قَدْ تَلَا
 فَالزَّعْرُ صَرَعَى فِيهِ كَالْمُ
 أَزْجِي كَأَمْشَالِ الْإِيْ
 أَبْعَثَهَا تُدْرِكُ مَا

- (١) الأنوار ومحاسن الأشعار ١ : ٣٨٨ .
 (٢) الجيذر نفسه ٢ : ١٣٩ - ١٤٠ .
 (٣) الطباق : نبات عشبي معمر من الفصيلة المركبة الأنثوية الزعر . والشث : ضرب من الشجر «
 وقيل عوطيب الريح مر الطعم يدبغ به .
 (٤) تستبني : تأمّر .
 (٥) النهس : العوض .

- ١٩٣ -

كأنما أذنا بهما سياتها تحنُّها
 كأنها قد أتممت فما يجوز حنُّها
 حتى إذا ما طال عسبن أرواحهنَّ يحنُّها
 اعتنقت أعناقها اعتناقاً تحنُّها
 كأنما جاءت بأسرار ليلتها تحنُّها
 فانتشيت أنسلاؤها سمينها وحنُّها
 لنا اللحوم ولها دماؤها وقرنها

ولهذا الشاعر قصيدة أخرى في هذا الباب، وهي تجري مجرى هذه القصيدة وتتطابق معها (١).

وارتبط بوصف الطرد أيضاً وصف الخيل التي كانت تتخذ أداة لهذه الغاية. وقد جسّد الوصفون في إبراز مزايا خيولهم، ودققوا فيها، يقول في ذلك الشاعر الأنطاكي عاصم ابن محمد (٢):

أدهم كالليل إذا أردية الليل ارتدى
 كأنما يرّمي الدجسى بقطعة من الدجسى
 كأنما أرتعبه إذا تناهبن الشرسى
 ربح الجنوب والدبوس روالشعال والصبى
 إذا امتطى راكبُه مطاء فالريح امتطى (٣)
 وهو يرى ما لا يرى راكبُه حيث انتأى
 الوعر سهلٌ عنده وما نأى كما دنى

(١) انظر: الأنوار ومحاسن الأشعار ٢: ١٤٠ - ١٤٢.

(٢) هو شاعر من شعراء الشام وهو - على ما يقول المرزباني - مكثر مطيل، انظر: معجم الشعراء: ٢٧٣. وذكره أبو الفرج الأصبهاني في غير موضع من كتاب الأغاني كقوله: "أخبرني أبو المعتمد عاصم بن محمد الشاعر بأنطاكية، وبها أنشدني قصيدة البحترى ٠٠٠ وأنشدني لديك الجن ٠٠٠ الأغاني ١٤: ٦٣، ٦٥. وقد وردت هذه الأبيات في الأنوار ومحاسن الأشعار ١: ٣٤١ - ٣٤٣.

(٣) مطاء: ظهره.

ويبدو أن هذا التوجه في وصف هذه المعطيات كان استجابة لدواعي البيئة الشامية ولظروف الترف التي حظي بها بعض أبناء الشام ، وبخاصة أولئك الشعراء الذين نشأوا وعاشوا في شمال الشام ذي الطبيعة الخلابة . كما يبدو أن ظاهرة اقتناء الخيل لغرض الصيد كانت شائعة ، فحسان ديك الجن الأحم الذي يستقبل به أعلى الذرى كان لهدف مقارعة الوحش (١) :-

قَارَعْتُ فِيهِ الْوَحْشَ عَنْ مُجَانِبَتِهِ وَجَعَلْتُهُ بِنَفْسِهِ زَعِيمًا

وحسان أبي تمام الذي استمداه من مالك بن طوق (٢) يقتل به النعام :-

تَقْتُلُ عَشْرًا مِنَ النَّعَامِ بِهِ بِوَاحِدِ الشَّدِّ وَاحِدِ النَّفْسِ

وعلى الرغم من إحاطة شعراء الشام بوصف هذه السواد كلها فقد ندر في شعرهم وصف مظاهر العمران . وأقدم نصوصنا عليه لشاعر شامي فيه وصف لبعض مظاهر العمران هو أبيات قيلت في وصف قصور كان بناها صالح بن علي العباسي ، وقد نسبت هذه الأبيات إلى أشجع السلمي في بعض المصادر ، وعزيت إلى منصور النعري في بعضها الآخر ، وهي (٣) :-

تَصُورُ الصَّالِحِيَّةَ كَالْعَدَايِ	لَيْسَ ثِيَابُهُنَّ لِيَوْمِ عُرْسٍ
مُطَلَّاتٌ عَلَى بَطْنٍ كَسَتْهُ	أَيَادِي الْمَاءِ نَسْجًا وَشَيْ غَرَسَ
إِذَا مَا الطَّلُ أَثَرَفَ فِي نَرَاهِ	تَنْفَسُ نَوْرُهُ مِنْ غَيْرِ نَفْسٍ
تَغَبَّقَهُ السَّمَاءُ بِحَبِّ رُزْغٍ	وَتَصْبِحُهُ كَوْكُوبٌ غَيْرُ شَمْسٍ

وواضح أن الشاعر لم يتلبث طويلاً عند وصف القصور وفنها المعماري ، بل مد نظره إلى الطبيعة من حولها فأمعن في الهيام بعائنها وألوان زهرها .

ولأشجع السلمي إشارة أخرى طائفة إلى قصر الرشيد بالرقعة ليس فيها أدنى غناء لمن

-
- (١) هذا البيت من جملة ستة أبيات وردت في " الأثوار ومحاسن الأشعار " ١ : ٣١٢ ، ولم ترد هذه الأبيات في نسختي ديوان الشاعر المطبوعتين .
- (٢) البيت من القصيدة ٨٠ في ديوانه .
- (٣) انظرني ذلك : الصولي : الأوراق : ٧٨ ، الأغاني ١٨ : ٢١٧ ، معاهد التنصيص ٤ : ٦٤ ، ثم انظر معجم البلدان (الصالحية) وفيه أنها لمنصور .

يبحث عن أثر العمارة في الشعر الشامي ، وغاية ما فيها قوله في معرض مدحه للرشييد (١) : -

قَصْرٌ عَلَيْهِ تَحِيَّةٌ وَسَلَامٌ أَلْقَتْ عَلَيْهِ جَمَالَهَا الْإِيَّامُ
قَصْرٌ سُقُوفُ الْعُزْنِ دُونَ سُقُوفِهِ فِيهِ لَا عِلَامَ الْهُدَى أَعْلَامُ

فهو لم يره من هذا المبنى غير ذهابه في السماء ولا شيء آخر بعد ذلك من خصائصه المعمارية .

ووصف ربيعة الرقي بلدته الرقة في أبيات معدودات ، وجاء وصفها مسطحا لا ينبئ عن التحامه بها ، وتوحده فيها ، واقتصر على ذكر بعض مزاياها في الموضع ، وعلى تعداد بعض أصناف طيورها النادرة فقال (٢) : -

حَبْذا الرِّقَةُ دَارًا وَبَلَدٌ بَلَدٌ سَاكِنُهُ مَمَكْنٌ تَسْوَدُ
مَا رَأَيْنَا بَلَدَةً تَعْدِلُهَا لَا ، وَلَا أَخْبَرْنَا عَنْهَا أَحَدُ
إِنَّهَا بَرِيَّةٌ بِحَرِيَّةٍ سَوْرَعَا بِحَرٍّ ، وَسُورَ فِي الْجَدَدِ (٣)
تَسْمَعُ الصَّلَصَلُ فِي أَشْجَارِهَا عُدَّ عُدَّ الْبَرِّ وَمَكَا ، غَرِدَ (٤)

وعناك سؤال لا بد من انبعاته في الذعن بعد هذا الفيز من شعر الوصف في الشعر الشامي والجزري وعو : لماذا أعمل الشعراء الشاميون والجزريون الوقوف على بعض مظاهر العمران وقنوا مجليا كما وقف البحري على إيوان كسرى في السنية المشهورة (٥) ، وكما وقف على بركة المتوكل في الهائية (٦) ؟ أوليس في عمارة الجامع الأموي في دمشق والمسجد الأقصى في القدس ، ونسبي ما سواهما من فن معماري حادث وقديم حافز إلى إثارة قرائحهم ؟ ثم لماذا ظلت أنظارهم منصوبة إلى الطبيعة محدقة في زعرها وغيشها وطيورها حسب ؟ إن الإجابة عن مثل هذه التساؤلات تتشعب

- (١) الأوراق : ٧٦ ، الأغاني : ١٨ : ٢١٤ ، تهذيب ابن عساكر ٣ : ٦٢ .
(٢) معجم البلدان / مادة الرقة ، خزنة الأدب ٣ : ٥٦ ، شعر ربيعة الرقي : ٩٧ .
(٣) الجدد : الأرض المستوية .
(٤) الصلصل : نوع من الطيور صغير ، والمكا : طائر ذو صغير جناحه أبلق .
(٥) القصيدة ٤٧٠ في ديوانه ومطلعها :
صنت نفسي عما يدنس نفسي وترقعت عن جدا كل جبس
(٦) القصيدة ٩١٥ ومطلعها :
ميلوا إلى الدار من ليلي نحيبها نعم ، ونسألها عن بعض أهلها

فقد تكون ألفة هو "لا" الشعراء لما تنفع عليه أنظارهم باستمرار مقتلاً لمواطن الإثارة في تلك المباني والعمائر، وقد يكون لنزرة الإحداثيات المعمارية العباسية في أرض الشام والجزيرة سبب في ذلك (١) ، إن إن معظم ما في بلاد الشام من فنون العمارة كان أمويًا ، وكان العباسيون لا يعتدون بمنشآت الأمويين ، ولا يحترمونها حتى ما كان منها منشأة دينية . وأما الإعجاب بالطبيعة الشامية فهو نابسج من الإعجاب البشري العام بكل طبيعة جميلة سخيصة .

غير أنه لا بد من احتراز في إطلاق هذا الحكم ، فقد روى ابن عساكر قصيدة لشاعر يدعى محمد بن سعد العامري المكنى بأبي المنذر (٢) في وصف دمشق طبيعة وعمراً وزهراً وطيراً وماءً ووحشاً وثماراً ، وهي قصيدة طويلة بلغت عدة أبياتها واحداً وثمانين بيتاً . وما جاء فيها في وصف عمارة الجامع الأموي وما كان يجري في أروقته من تدريج : -

والمسجد الجامع العنيفُ بها	شبرها بالتقى وشبره
تبارك الله كيئفة دبوره	بانيه واختطه مدبوره
يضاحك الشمس في جوانبه	جوهر أركانه وممره
وملأ العين حين تبصره	مخاربه بهجة ومنبره
وحينما مال من تأملته	مال إلى صورة تحيته

والى أن يقول في وصف دروس الإقراء والفقه والتفسير فيه : -

من قارئ لا يبور مصحفه	وعالم لا يضيق مدعبه
وعالم جالس يبصره	وعابد قائم يذكوره

وجاء فيها أيضاً وصف لقنوات الماء المنشأة من الممر : -

(١) سبق أن تبينا أن الإحداثيات المعمارية العباسية في الشام والجزيرة كانت بوجه عام ذات صبغة عسكريصة .

(٢) روى ابن عساكر هذه القصيدة في سند متصل عن أبي الحسين محمد بن عبد الله بن جعفر ابن الجنيد الرازي المتوفى سنة ٣٤٧هـ / ٩٥٨م الذي رواها عن هذا الشاعر ، ولذلك رجحنا أن يكون هذا الشاعر من فترة الدراسة . انظر هذه القصيدة بتمامها في : مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٥ : ٣٥٢ . وانظر في ترجمة أبي الحسين الرازي : مصورة تاريخ مدينته دمشق ١٥ : ٥١١ - ٥١٣ ، سير الأعلام ١٦ : ١٧ .

والنهر بالمزة التي جعلت
متصل الجيد بالقناة والى
يَجْري فيجْري إلى المدينة ينـ
بالحق ساعاته تميـ
أمواه نصل عليه يغـ
بوعا على مؤمر يسـ

ومع أن القيمة الفنية لهذا النثر تبدو متواضعة إذ لا يعدو تعداد المظاهر دون تصويره، فإن له قيمة فريدة لأنه منفرد في باب وصف مظاهر المعمار الإسلامي في دمشق.

ومن الشعر اللطيف في وصف مظاهر العمارة قصيدة للشاعر الحلبي، وقد قالها في وصف قبة آبنوس فذكر سموها وتالقها وفن معماريتها وطلاها، يقول (١) :-

بنيت عليك قبة آبنوس	تتية على قباب الآبنوس
تطول برأسها كبرا فتضحني	قباب الناس خاضعة للبرؤوس
كأن العاج مبيتها عليها	شعوس يبتسمن إلى شعوس
كأن سماءها رؤى الأقاحسي	تفصل بالعقود وبالسلوس (٢)
كأن غشائها الملقى قناع	على عيظاء بكر عيظموس (٣)
معصفرة اللبوس وآل حسام	نساؤهم معصفرة اللبوس
كثينة مجلس حسناء تعلو	على الفتيات في حسن الجلوس
تكفر في جوانبها الحنايا	تكفير الشمامس والقُسوس (٤)

أما وصف مواد البداة كوصف البید والأظعان والثور الوحشي والإبل وما سواها من مواد الوصف في الشعر الجاهلي والإسلامي فلم يعد يُعنى بها شعراء الشام، ولم تعد تظهر إلا فسي مطالع قصائد المدح ذات المنحى التقليدي وبخاصة لدى أبي تمام والبحري (٥). وهذا التحول

- (١) الأنوار ومحاسن الأشعار ٢: ٨٦ - ٨٧.
- (٢) السلوس جمع السلس وهو الخيط الذي ينظم فيه الخرز والخرز الأبيض ينظم في القلائد.
- (٣) العيظاء: الطويلة العنق. العيظموس: الجميلة من النساء، التامة الخلق وكذلك من الإبل.
- (٤) تكفر: تنحني من تكفر لسيده إذا انحني ووضع يده على صدره وطأ رأسه كالركوع تعظيما له.
- (٥) الحنايا جمع الحنية وهي القوس. أراد أن يقول: إن استدارة هذه القبة تبرز استدارة القوس. انظر في ذلك مثلا القصائد ١٤، ١٥، ٢٧، من ديوان أبي تمام والقصائد ٧٩، ٨١٥.

٨٨٠ من ديوان البحري.

نحو الاعتماد بمعطيات الشام ظاهرة حسنة تسجل للشعر
الشامي .

وإذا كانت دمشق وحلب ومنبج والبقاع وأنطاكية قد برزت في أشعار الشاميين ، فتغنىوا
بطبيعتها وطيرها ومائها وشواتيها فإن أيًا من مدن جندَيَّ الأردن وفلسطين وشغورها لم يظهر
في الشعر الذي وقفت عليه ، وهو أمر لانت للنظر حقًا ، فهل يعود ذلك إلى انزوائهما عن بـؤرة
الاعتماد السياسي فانسحب هذا على الشعراء أيضا ؟ قد يكون ذلك .

وعلى الرغم مما شهدته بلاد الشام من تدمير لكثير من قراها ومدنها بفعل الفتن والحروب
الداخلية ، والزلازل العاتية فإننا لم نظفر بقصيدة واحدة تصف شيئًا من ذلك . فلماذا أغفل الشعراء
الشاميون هذه الظاهرة ؟ لعل ذلك راجع إلى ارتباط الشعراء بالنظم في ما يروق الممدوحين ، أو
لعلهم نظموا في شيء من ذلك ، ولكنه لم يصل إلينا .

ثانيها: الرثاء :-

كان طبيعياً أن يكون الرثاء من أبرز الأغراض الشعرية في بلاد الشام في هذه الحقبة ، فضلاً عن الموتى في الظروف الطبيعية فإن كثرة الفتن القبلية والصراعات المذهبية أدت إلى ارتفاع نسبة عدد الموتى والقتلى . ومن المسلم به أن الشعر لا ينظم في كل من يموتون أو يقتلون ، وإنما تنحصر دائرته في ذوى قرى الشاعر أو أصدقائه الأذنين . ودارس شعر الرثاء الشامي بنا على ذلك يجد نفسه أمام ضربين منه : الأول الرثاء في من يموتون ميتة طبيعية ، والثاني الرثاء في قتلى الحروب والفتن القبليّة .

١- أما الرثاء في اللون الأول فهو نمط من تدفع الشعراء الشاميين على أبنائهم وأزواجهم وإخوانهم ، وتندب لأغرائهم ، وتمزيه لأصدقائهم ولرؤسائهم . والقاسم المشترك بين مراتبهم أنهم جميعاً كانوا مستسلمين لسلطان الموت ، مستنيمين لقضاء ، مؤمنين بأنه النهاية الحتمية لكل حي ، كما أنهم يشتركون في تقريريتهم المباشرة في التعبير عن أحزانهم ولوعتهم ، وفي تعدادهم لمناقب موتاهم . ثم تبقى بعد ذلك لكل شاعر منهم خصوصية ذات لون متفرد ، ومذاق متميز ، وهذا المذاق ، وتلك الخصوصية نابعة بطبيعة الحال من ذاتية الشاعر واتقناده على فنه ، ومن مستوى العلاقة التي تربطه بشخص الموتي . فهذا أبو تمام يرى ابنه يضارع الموت الذي تحكمت يده الجسارة به فتكسرت أجفانه ، وضغفت أنفاسه ، فلا يملك الشاعر إلا أن يعبر عن هول ما يرى بالقسول^(١) :-

لَمْ يَبْنِ مِنْ بَدَنِي جُزْءٌ عَلِمْتُ بِهِ
كَانَ اللَّحَاقُ بِهِ أَوْلَى وَأَحْسَنَ بِي
إِلَّا وَقَدْ حَلَّه جُزْءٌ مِنَ الْحَسَنِ
مَنْ أَنْ أَعِيشَ سَقِيمَ الرُّوحِ وَالْبَدَنِ

وقد يجد الأب المفجوع بابنه عزاء في العقيدة فيستريح إلى فكرها الذي يعد الآباء الذين يموت صغارهم بأن يكونوا شفعا لهم يوم المعاد ، ويمثل ذلك قول ديك الجن في ابنه المتوفى^(٢) :-

(١) من القصيدة ٢٠٩ ، من ديوانه بشرح الخطيب التبريزي .
(٢) أبيات من قطعة في خمسة أبيات وردت في الحماسة البصرية برقم ١٦٦ ، ولم ترد في ديوان الشاعر المطبوع .

فَلَذَّةٌ مِنْ صَمِيمِ قَلْبِي وَجُـزْزٍ
مِنْ فَوَادِي وَقِطْعَةٍ مِنْ ضُلُوعِي
إِنْ تَكُنْ فِي التَّرَابِ خَيْرَ ضَجِيحٍ
كُنْتُ لِي فِي الْمَعَادِ خَيْرَ شَفِيحٍ

وقد يتأني الشاعرُ المفجوعُ بابنه فيصورُ مأسأته به ، وحزنه الكبير عليه ، وتوزّع نفسه ، واضطراب حياته وخيبة آماله بعده ، ويمثّل ذلك قصيدة محمد بن يزيد المسلمي الأُموي في رثاء ابنه الذي مات صغيراً ، قال فيها (١) :

وَجَدْتُ أُمَّ قَطَامٍ مِثْلَ وَجْدِي بِقَطَامٍ
وَكَلَانَا مُوجِعُ الْحُرْقَةِ مُنَادُ الْعِظَامِ
كَلَّمَا أَفْرَغْتُ سَجَلًا عَارِضَتْهُ بِسِجَامِ

ويُفرغ المسلمي بعد تصوير لوعته ولوعة زوجته بفقدِهما إلى تبيان مناقب ابنيهما ومناقب محتده ، وإلى الآمال العراض التي كانا يأملان أن تتحقّق به ، غير أن الموت يعاجلهما : -

لَوْ تَوَأَّقَى رِيشُهُ جَلًّا عَنِ الطَّيْرِ الْعِظَامِ
غَالَهُ صَرْفٌ مِنَ الدَّهْرِ غَسَوُؤٌ وَلِلْأَنْكَامِ
فَنَقَلْنَاهُ بِأَيْدِينَا إِلَى دَارِ الْمَقَامِ

ولا يَنُأى هذا الشاعرُ في موقفه من الموت عن مواقف الشعراء العرب عموماً منه ، فهو مـمـحـقـده عليه ، واستعداداً له لصارحته لأنّه يسلب البهجة من الناس ، ويحطم آمالهم ، يلقي سلاحه ، ويعلن عن عجزه ، لأن الموت لا يناط : -

غَيْرَ أَنَّ الْمَوْتَ خُطِبٌ لَا يُسَامِيهِ مُسَامٍ
كُلُّ حَيٍّ فَلَهُ مِنْ حَوْضِهِ كَأْسُ حِمَامٍ

وهذه اللازمة تتكرر دائماً في شعر الرثاء الشامي ، ومن أمثلتها أيضاً قولُ الخريبي يرثي أحد أصحابه (٢) :

(١) مصورة تاريخ دمشق ١٦ : ١٣١ .
(٢) مصورة تاريخ دمشق ١٧ : ٢٠٢ - ٢٠٣ في رثاء أبي سلعة الينذرين خالد .

- ٢٠١ -

بَطْلٌ يَزْفُهُمْ وَيُزْفُونَهُ والموتُ لا يُنْفَعُ مِنْهُ الرَّقَا
فَكُنْ مِنَ الدَّعْرِ عَلَى رِقَبَتِهِ وَاسْعَ مِنَ الدَّعْرِ إِلَى مَا سَعَى

ومن أجل ذلك اتَّجَهَ بعضُ شعراء الرثاء إلى منْحَى الزهد في الحياة ، أو إلى نزعة التشاؤم .
وليس شعراء الشام في هذين المنحيين بدعاً في الشعراء العرب . والأمثلة على ذلك شهيرة
العنال لمن يطلبها في شعر أبي العتاعية وأبي العلاء المعري وغيرهم .

أما في الشعر الشامي في هذه الفترة فإننا نلغاها في مثل قول الخريفي في قصيدته
السابقة :-

أليس في الموت وما بعْدَه موعظةٌ تنفَعُ أَهْلَ النَّهْـ
خَلَّ عَنْ الدُّنْيَا وَلَذَاتِهَا وَاسْلُكْ إِلَى اللَّهِ سَبِيلَ الْهُدَى

ويجد الدارس في الشعر الشامي لوناً جديداً من الرثاء يقع عليه في شعر ديك الجن الحصي .
وموطن الجدة فيه يظهر في تراوح قصائده بين الغزل والرثاء . ففي القصيدة التي مطلعها :-

يا طلعةً طَلَعَ الْحَمَامُ عَلَيْهَا وَجَنَى لَهَا ثَمَرَ الرَّدَى بِيَدَيْهَا

والتي يقول فيها إنه قتل زوجته بيديه ، تلقى شاعراً عاشقاً باكياً محترقاً بالندم . ولأن المشهد
الذي يصفه الشاعر يختلط فيه الدم بلعاب القبل كان لهذه الأبيات حضور مذكور في مصادر
الدرس الأدبي حتى قال صاحب العمدة في مقابلة دالة بين مرثي ديك الجن ومرثي أبي تمام :
" وأبو تمام من المعدودين في إجادة الرثاء " ، ومثله عبد السلام بن رغبان ديك الجن ، وهو أشهر في
هذا من حبيب ، وله فيه طريق انفرد بها . (*) وما قاله فيها في صورة من التناقض المعجب بين الحقد
والحب والغشيرة :-

رَوَيْتُ مِنْ دَمِهَا الثَّرَى وَلَطَّالَمَا رَوَى الْهَوَى شَفَتِي مِنْ شَفَتَيْهَا
قَدْ بَاتَ سَيْفِي فِي مَجَالٍ وَشَاحِيهَا وَمَدَامَعِي تَجْرِي عَلَى خَدَّيْهَا

(*) العمدة ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط ٥ ، دار الجيل ، بيروت ١٩٨١ : ٢٦١
١٤٩ ، وانظر في أسباب قتل الشاعر لزوجته : الأغاني ١٤ : ٥٥ ، داود الأنطاكي : تزيين
الأسواق في أخبار العشاق ، ط ١ ، منشورات جريد ومحيو ، بيروت ١٩٦٢ : ١ ، ٢١٢ .

بل لقد غدا نعلًا زوجته التي قتلها بيديه أعز عليه ما على الأرض فأقسم بهمما : -

فوحق نعلها وما وطئ الحصا شي أعز علي من نعلها
ما كان قتلها لاني لم أكس أبكي إذا سقط الغبار عليها
لكن ضمنت على العيون بحسبها وأنفت من نظر الحسود اليها

ومن غير شك أن تجربة هذه القصيدة متميزة ، فجاء التعبير عنها متميزاً أيضاً وهو لذلك يعاني غصصاً لا غصة واحدة ، هي غصص الحب والندم والحزن ، عبر عنها بوضوح في قصيدة أخرى بقوله (١) : -

غصص تكاد تغير منها نفسه وتكاد تخرج قلبه من صدره

ومن قصائد الرثاء الشامية ذات الدفق الخاص في هذه الفترة من تاريخ بلاد الشام مطولسة عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي المينية في أخيه سعيد ، فقد بلغت عدة أبياتها واحداً وتسعين بيتاً ، أورد منها ابن المعتز في طبقاته أربعة عشر بيتاً (٢) ، واعتذر عن عدم إيرادها كاملة بقوله (٣) : " وإنما نشبت منها ما لم يكن موجوداً عند أكثر الناس ، وأما الموجود المشهور فلا نورد ما طال منه " . ويترجح لدينا أن القصيدة تزيد على الواحد والتسعين بيتاً التي أوردها الشيزي في مخطوطة " جمهرة الإسلام ذات النشر والنظام " (٤) ، لأن أول بيت مما أورد الشيزي منها هو قول الحارثي : -

فما أم سقّب أودعته قسرة من الأرض وأساحت لترعى وتجععا

فلا يعقل أن يكون مفتتح القصيدة بمثل هذا التعبير " فما أم " ثم إن هذا البيت غير مصرع ، والمألوف أن يكون مفتتح جل قصائد الشعر العربي ذات البناء التقليدي مصرعاً . وقبل الوقوف على الخصوصيات الساطعة في هذه القصيدة الشامية ، لا بد من الإشارة إلى أن للحارثي مرثي أخرى في أخيه سعيد ، ويبدو سعيد في هذا الشعر سنداً قوياً لأخيه المفجوع به ، وهو لذلك يغبط أعل القبور أن كان سعيد بينهم ، وما قاله في إحداها (٥) : -

(١) الأغاني ١٤ : ٥٩ ، المعمد ٢ : ١٥٠ .

(٢) طبقات ابن المعتز ٢٧٧ - ٢٧٨ .

(٣) المصدر نفسه ٢٧٨ .

(٤) الشيزي : جمهرة الإسلام ، طبع بالتصوير عن المخطوطة رقم ٢٨٧ بمكتبة جامعة ليدن بهولندا منشورات معهد تاريخ العلوم العربية الإسلامية ، جامعة فراנקفورت ، جمهورية ألمانيا الاتحادية : ١٢٥ .

(٥) التبريزي : شرح ديوان الحماسة ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة حجازي ، القاهرة ٢ : ٣٤٤ ، الحماسة البصرية ، القصيدة رقم ٩٣ .

إِنِّي لَا زِيَابَ الْقُبُورِ لَغَابِيسَ ط
وَأَنِّي لَفُجُوعٌ بِهِ إِذْ تَكَاثَّرَتْ
أَتَيْنَاهُ زُورًا فَأَمْجَدْنَا قِيَمَتَهُ
وَأَبْنَا بَرْعٍ قَدْ نَمَا فِي صَدْرِنَا

بُسُكْنَى سَعِيدٍ بَيْنَ أَهْلِ الْمَقَابِرِ
عُدَاتِي ، وَلَمْ أَهْتَفْ سِوَاهُ بِنَاصِرِ
مِنَ الْبَيْتِ وَالسَّادِ الدَّخِيلِ الْمُخَامِرِ
مِنَ الْوَجْدِ يُسْقَى بِالدَّمْعِ الْبَسْوَادِ

والطريف في هذه الأبيات أن التعبير عن الحزن الفردي بدا أولاً ، وذلك بحكم خصوصية العلاقة بين الشاعر والفقيد ، وهو ظاهر بضمير المتكلم ، ثم جاء التعبير عن الفقد الجمعي وفقاً لذلك ثانياً : -

وَلَمَّا حَضَرْنَا لَا قَسَامَ تَرَاثِينَا
أَصْبْنَا عَظِيمَاتِ اللَّهَى وَالْمَأْتِرِ (١)

أما العينية (٢) المطولة التي أعجبت ابن المعتز كما أعجبت الأصمعي حتى فضل صاحبها على جرير والفرزدق والأخطل وابن مناذر (٣) ، فقد صاغها عبد الملك على نبط القصيدة العينية المفتوحة التي قالها متمم بن نويرة في أخيه مالك (٤) . وأول عينية الحارثي كما أوردها الشيزري : -

فَمَا أَمْ سَقَبٍ أَوْ دَعَتْهُ قَرَارَةٌ
مِنَ الْأَرْضِ وَأَسَاحَتْ لِتَرْعَى وَتَهْجَعَسَا

ومطلع عينية متمم : -

لَعَمْرِي وَمَا دَعَمْرِي بِتَأْبِينِ عَالِيكِ
وَلَا جَزَعًا مِمَّا أَصَابَ فَأَوْجَعَسَا (٥)

وعلى الرغم من التناهي القصيدتين في الموضوع وتماثلهما في الوزن والقافية وحرف الروي وحركته فإن الحارثي فاق متمم بن نويرة في تصوير حدة المعاناة حين خصر واحدًا وعشرين بيتًا لوصف معاناة الناقة التي هي في الواقع صورة عن معاناته .

- (١) اللهى : جمع لَهْوَةٍ وهي أفضل العطايا وأجزله .
- (٢) الشيزري : جمهرة الاسماء : ٢٥ .
- (٣) ابن مناذر شاعر بصري عباسي خليع ، كان فصيحا مقدما في العلم باللغة ، عاصر الرشيد . انظر ترجمته في الاغانسي ١٨ : ١٦١ - ٢١٠ .
- (٤) رثى متمم بن نويرة - وهو مخضرم - أخاه مالكا الذي قتل في حروب الردة لامتناعه عن أداء الزكاة . انظر جو قصيدة متمم في : المفضل الضبي : الفضليات ، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد عارون ، ط ٢ ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤ : ٢٦٣ ، والقصيدة في المصدر نفسه : ٢٦٥ - ٢٧٠ .
- (٥) ما دَعَمْرِي بِتَأْبِينِ : أي هي وإرادتي وعاداتي . وجزع بالجوع عطف على " تأبين " وبالنصب على أن الباء زائفة .

في حين نجد متعمداً ينجأنا منذ البيت الأول في قصيدته بأنه تجلّد وصبر، وأنه لم يقصد بشعره النوح، وإنما قصده تعداد مناقب أخيه، غير أن هذه المكابرة لم تدم طويلاً فبكى أخاه بحرقة في البيت الحادي عشر، ثم ضرب مثلاً لشدة وجده بثلاث من النوح فقد تكلّ منهن حوارها الذي تعطف عليه، في أبيات أربعة قال فيها (الأبيات ٤١ - ٤٤) :

وما وَجَدَ أَظَارَ ثَلَاثَ رَوَائِبٍ أَمَبْنٌ مَجْرَأً مِنْ حُورٍ وَمُضْرَعًا^(١)
يَذْكُرُنَّ ذَا الْبَيْتِ الْحَزِينِ بَيْنَهُ إِذَا حَبَّتِ الْأَوَّلَى سَجَعْنَ لَهَا مَعَا
إِذَا شَارَفَتْ مِنْهُنَّ قَامَتْ فَرَجَعَتْ حَنِينًا فَأَبْكَى شَجْوُهَا الْبَرْكَ أَجْمَعًا^(٢)
بِأَوْجَدَ مِنِّي يَوْمَ قَامَ بِمَالِيكَ مُنَادٍ بِصِيرٍ بِالْفِرَاقِ فَأَسْمَعًا

أما في عينية الحارثي فتصدر القصيدة لوحة يرن المدقق فيها ظبية أو ناقة - وأرجح الثانية لأنها أقرب إلى منطق الحدث - انساحت في الأرض بحثاً عن المرعى وقد تركت صغيرها في قسرة من الأرض يبتز في مشيته لحدائث ولادته، وإذا ما أحست أمه بنبأ رفعت صوتها، حتى إذا ما تسلسل إليه بعد حين صياد أخذ الجوع منه كل مأخذ، ومزق لحمه ونهل منه وعل، وقفت أمه على أشـلا جسمه المعزق فولولت ورجعت حزناً، وضربت الأرض بقوائمها، وما قدر مالكوها على إسكانها إلا بشد الحبال على عينيها، ومع أن ظاهراً الأبيات يبرز الشاعر يتحدث عن مأساة هذه الناقة وحكايتها مع ابنها والصياد، فإنه لم يستطع أن يخفي مراده حتى نهاية الشوط، فقد تحولت هذه الناقة فسي أبيات نالية ملتحمة باللوحه نفسها إلى امرأة تندب فقيداً وتنوح عليه نوحاً تظفرت له قلوب نسساء، الحي، فتجمعن من حولها ليشركنها في المويل. يقول في هذه الأبيات المشحونة بالحياة والحركة، المتدفقة بالوداعة واللطافة والبهو، في مبتدأها، المتوترة المتوفرة القلقة في منتهاها، وهي تعكس في هدهودها رخاء الحياة وعناءها أولاً، والصخب فيها بالصخب بالفجعية والمسمات ثانياً :

فَمَا أُمُّ سَقْبٍ أَوْدَعَتْهُ قَسْرَارَةٌ مِنَ الْأَرْضِ وَأَنْسَاحَتْ لِتَرْعَى وَتَهْجَعًا^(٣)
لَحْيَسٍ كَمَثَلِ الْأَيْتَمَانِ ابْنِ لَيْلَةٍ أَمْدُ قَوَاهُ أَنْ يَنْوُ فَيَرْكَعًا^(٤)

- (١) الأظار: جمع ظفر وهي العاطفة على غير والدها المرضعة له من الناس والابل والروائم: جمع راء ومن المصنعات التي يعطفن على الرضيع. والحوار: ولد الناقة. والمجر والمصرع: مصدران من الجرح والصرع (حاشية المفضل: أبيات: ٢٧٠).
(٢) الشارف: المسنن من الابل وإنما خصها لأنها أرق من الغنم لبعده الشارف من الولد البرك.
(٣) السقب: ولد الناقة، وفي طبقات ابن المعتز أخشف والخشف ولد الظبي، ورواية الشيزري اصح بدلالة الأبيات يعلم وفي طبقات ابن المعتز أخشف والخشف ولد الظبي، ورواية الشيزري اصح
(٤) لحيس: أي لا تزال أمه تلحسه لقرب عهده بالولادة. الأيتمان: عشب طويل عريض الورق زهره كزهر الكرنب إلا أنه أصغر وفي طعنه حراققة.

ويبتزني المشير القريب كأنه
نظلت بستان الصبا من أمامه
إذا غفلت نادى وإن تأت نبأه
قضيبي من ألبان ارتوى فترفعها
تبغ في الرعى إليه ليسمعها (١)
على سمعها تذكر طلائها فترفعها

فهذه صورة للحياة بكل آمالها وطموحاتها ، والنبأة فيها رمز لناقوس الخطر ، ومظهر من مظاهر الرعبية الخفية من الموت الذي يترى بالناس والأحياء جميعاً . وإن "عاري التراقي الشاسب المجوع" هو صورة قبيحة للموت الذي يلص الحياة ، ويكدر الصفو ، وينهي السعادة : -

فخالقها عاري التراقي ابن قفرة
فأنهل منه بعد علي ولم يمدع
أخو قفرة أضحى وأمسى مجوعاً (٢)
للمتيسر إلا وشيقاً مدعداً (٣)

وماذا يملك الإنسان بعد أن يفقد أعزاه غير الوجع وعمق الجراح والذكرى الممضة التي يحيا عليها بعد رحيله : -

فجاء برياء نسيم من التبر
مولبة لم يترك الوجع عندها
فطافت بملقاه ومضغ جنبه
وندت على وحشيها تركب الربي
فلأياً بيلاي ما تنوما عشيقة
فقامت لتشير البرك يدعو حنينها
إليها ورزء جسر ثكلاً فأوجعها
بواحدتها إلا قواً أدا مروعها
فسانت دماً منه وشلوا مقطعها (٤)
وتنفي الحسا أخفافها قد تصدعها (٥)
وشدوا بيقينيها الجبال لتربعها (٦)
حينئذ الموالى الثكالى المرجعها (٧)

فبطل يعقل أن يكون هذا كله وصف حال لناقة ذبح وليدها ؟ إن نفس الشاعر المكلومة بفقد الأخ الحبيب هي الناقة ، وإن في دعوته الصريحة لنساء الحي أن يشاركه ألمه أكبر شاهد على صحة هذا التوجيه الرمزي لهذه الأبيات ، فهو يقول : -

وقمن يجنبنها فأسعدن شجوهها
كما أسعد الحي المصاب المفجعها (٨)

- (١) المستن : المضطرب والمذهب . تبغ : تصوت بألين صوت .
- (٢) خالفها : أى قصد ولدتها وهي مولية عنه . الشاسب : الضامر المهزول .
- (٣) الوشيق : اللحم يقدح حتى ييبس . المدع : المبيد .
- (٤) سانت : شمت ، الشلو : المضوم من أعضاء اللحم وكل مسلخ أكل منه شيء وبقيت منه بقية .
- (٥) الأخفاف للناقة كالحوافر للفرس (٦) القينان : مومع القيد من وطئ يجر بالبعير
- (٧) الموالى : هي الشديدة الحزن والجزع على ولدها . وفي الأصل : أخير البرك ، ودعى لها . والبرك : جماعة الإبل
- (٨) أسعدن : أسعفن

- ٢٠٦ -

فَحَنَّ نِسَاءُ الْحَيِّ مِنْ بَعْدِ هَجْعَةٍ
لِصَوْتِ دَعَا إِنْكَالِهِنَّ فَأَسْمَعَنَا
فَمَا شَقَّ ضَوْؤُ الْفَجْرِ حَتَّى تَصْدَعَنَا
جُيُوبٌ وَحَتَّى نَأْصُرَ دُمُوعَنَا

لقد صب الشاعر في هذه الأبيات أحاسيسه كلها ، وشاعريته جميعها ، فجاءت بحق ذوب نفس ، وحرقة قلب ، وإبداع مصور . وقد التحمت أبيات هذه المقدمة في بُنيان نفسيٍّ مدهش يبدأ بالبيت الأول : -

"فما أم سقب وانتهى بالبيت الحادي والعشرين : -

بَأَوْجَعَمَنِي يَا سَعِيدُ تَحْرُقَنَّاسَا
عَلَيْكَ ، وَلَكِنْ لَمْ أَجِدْ عَنْكَ مَدْفَعَا

وما تجدر ملاحظته على هذه القصيدة أيضاً أن هذا الدفق العاطفي الذي تبين لنا في أبياتها الأولى أخذ يفتر في أبيات القصيدة التالية ، كما أن التصوير فيها تراجع ، وتغلبت عوضاً عن ذلك الصبغة التقريرية بتعداد مآثر الفتيد ومحاسنه ، وبإظهار الفجعة والحزن على المتوفى ، وما قاله في حزنه : -

فَأُفْسِمُ لَا تَنْفَكْ نَفْسِي سَجِيَّةً
عَلَيْكَ ، وَوَجْهِي حَائِلُ اللَّوْنِ أَسْفَعَا

أما المرثي فقد حشد له الشاعر محاسن الصفات وأنبهها ، وعي في جملتها صفات تعكس القيم المثلى المطموح بتوافرها في كل زعيم ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر قوله : "كان للحسي عصمة" وأبيض وشاح الجبين "قطيع لسان الكلب عن نبج ضيئه" "يصون بيدل المال نفساً كريمة" "لم يهجم بغير" "لم يمتب بعجز" "لم يمدد إلى الذم أعبعبا" "حقلاً لكل عظيمة" "لا يدعسبو إلى الشرنفسه" "إن جاء الشر امتطاه" "مقاتل أشوس" "متفضل على نساء الحي يجللهن خيراً وقزاً" "لا يستخف القدر من دون جاره" "حيي" "يلبس فاخر الثياب ويتطيب بالعبير" "يسقي براحته الخير لصديقه والسم لأعدائهم" . ويلاحظ أن أياً من هذه الخصال لم يعكس صفة واحدة من الصفات التي تتعارض مع القيم الإسلامية بخلاف بعض ما ذكره متم بن نويرة في أخيه كقوله نافيًا عنه الفحشاء في أثناء مجالسته لشاربي الخمير : -

وَإِنْ تَلَقَّ فِي الشَّرْبِ لَا تَلَقُ فَاحِشًا
عَلَى الْكَأْسِ ذَا قَادُورَةٍ مُتَزَعًا (*)

(*) ذو القادورة : الرجل يتبرم بالناس ويتقدر منهم لسوء خلقه ، والمتزع : السبي ، الخلق .

وكقوله ذاكراً أن أخاه لم يكن يمنع أن يؤثّر نصيبه من العيسر على الفقراء :-

وإن شَهِدَ الأيسارَ لم يُلَفَّ مالُكَ على الفَرثِ يحمي اللحمُ أن يَهزَعَا (١)
وسبب ذلك أن ممّاً كان لا يزال يذكر قيمياً جاعلية لفقيد جاعلي .

ويلتقي الشاعران بعد ذلك في تعزية نفسيهما بما تصيب النايا من الملوك والأثيال . أمّا
متمّ فذكر "رعط كسرى وتبعاً" في قوله :-

وعشنا بخيرٍ في الحياة وقبّلنا أصاب النايا رَهْطَ كِسْرَى وتبعاً

واكتفى بهذا البيت ، وأما الحارثي فبسط ذلك في خمسة أبيات عدد فيها أسماء بعض مشهوري ملوك
اليمن ، وختم ذلك بقوله :-

وما أَحَدٌ إِلاَّ له الموتُ ناصِبٌ بموتِهِ منه حَبَائِلُ صَرَعَا
وكلُّ امرئٍ منها بمنزِلِ قَلْعَةٍ وإنْ وَلَدَ الأولادَ فيها وَجَعَا (٢)

وعلى الرغم من التقاء الشعارين في كثير من معانيهما وصورهما في القصيدتين حتى ليكاد
يكون الحارثي في كثير منها صورة أخرى مماثلة لمتهم فإن بين القصيدتين اختلافات أبرزها اثنان :-

الأول : افتخار متم في قصيدته بنفسه وقدرته على الصبر على ريب الزمان ، في حين كان كل هـمّ
الحارثي أن يُظهر مدد فجيعة بأخيه ذي المناقب المتميزة .

الثاني : دعاء متم لقبر أخيه بالسقي وهو دعاء اخْتِمْ بقوله :-

فوالله ما أُسقي البلادَ لِحَبِّهِ ولكنني أُسقي الحبيبَ المودعَا

وهذا دعاء يكشف عن أنانية ضيقة ، وذاتية مغرطة ، في حين لم يرد في قصيدة الحارثي شيء من
ذلك فأبقى ذلك وهذا للقصيدة ومهجها ، وانتقاد الحرفي فيها دون تنمير لمسارعا الأول . كأن إحساس
الحارثي بعظمة خسارة من فقد كيان أكبر من إحساس متم ببسب .
وعلى أية حال فإن إحساس الحارثي بالرغبة الدفينة من شبح الموت كان عظيماً . ويشارك

(١) الفرث : حشوة الكرش . يتمزّع : يتقطع .

(٢) منزل قلعة : أي الدنيا دار انتقال وارتحال .

ومن لمج إليها أيضاً من شعراء الشام والجزيرة ديك الجن الحمصي ، وأبو يعقوب الخُرَّمي ،
وكلثوم بن عمرو العتّابي .

وَنَزَّلْنَا عَلَىٰ حُكْمِ الزَّمَانِ وَأَمْرِهِ
وَدَافَعَتْ فِي صَدْرِ الزَّمَانِ وَنَحْوِهِ

وَهَلْ يَقْبَلُ النِّصْفَ الْاِثْنُ الْمُشَاغِبُ
وَأَيُّ يَدٍ لِي وَالزَّمَانُ مُحْسَرٌ؟

وَلَا لَنَا مِنْ زَمَنِ مُؤَيَّدٍ
أَعَصَمُ فِي الْغَنَةِ مُسْتَوْعٍ

ولا ينأى العتابي عن هذا المعنى العام، إلا في تركيزه على عبث الزمان بمسرات الإنسان،
يقول (٣) :-

أَيْنَا قَدَّمْتُ صُرُوفُ الْمَنَائِيــمِ
وَيْدُ الْحَادِثَاتِ رَهْنٌ بِمَسْرَـا
فَالَّذِي أَخْرَجَتْ سُرْعُ اللَّحْـاقِ
تِ مِنْ الْعَيْشِ مُصْبِرَاتِ الْمَـذَاقِ (٤)
وَعَرَاها قَلَائِدُ الْأَعْنَـاقِ (٥)

(٢) المصدر نفسه : ٦٥.

(١) مصبرات: الصبر عصارة شجر مر واحدتها صبرة.

(٥) العربى : مفردھا العروة وعى طرق القلادة .

1997, 1998, 1999, 2000, 2001, 2002, 2003, 2004, 2005, 2006, 2007, 2008, 2009, 2010, 2011, 2012, 2013, 2014, 2015, 2016, 2017, 2018, 2019, 2020, 2021, 2022, 2023, 2024, 2025, 2026, 2027, 2028, 2029, 2030, 2031, 2032, 2033, 2034, 2035, 2036, 2037, 2038, 2039, 2040, 2041, 2042, 2043, 2044, 2045, 2046, 2047, 2048, 2049, 2050, 2051, 2052, 2053, 2054, 2055, 2056, 2057, 2058, 2059, 2060, 2061, 2062, 2063, 2064, 2065, 2066, 2067, 2068, 2069, 2070, 2071, 2072, 2073, 2074, 2075, 2076, 2077, 2078, 2079, 2080, 2081, 2082, 2083, 2084, 2085, 2086, 2087, 2088, 2089, 2090, 2091, 2092, 2093, 2094, 2095, 2096, 2097, 2098, 2099, 2100, 2101, 2102, 2103, 2104, 2105, 2106, 2107, 2108, 2109, 2110, 2111, 2112, 2113, 2114, 2115, 2116, 2117, 2118, 2119, 2120, 2121, 2122, 2123, 2124, 2125, 2126, 2127, 2128, 2129, 2130, 2131, 2132, 2133, 2134, 2135, 2136, 2137, 2138, 2139, 2140, 2141, 2142, 2143, 2144, 2145, 2146, 2147, 2148, 2149, 2150, 2151, 2152, 2153, 2154, 2155, 2156, 2157, 2158, 2159, 2160, 2161, 2162, 2163, 2164, 2165, 2166, 2167, 2168, 2169, 2170, 2171, 2172, 2173, 2174, 2175, 2176, 2177, 2178, 2179, 2180, 2181, 2182, 2183, 2184, 2185, 2186, 2187, 2188, 2189, 2190, 2191, 2192, 2193, 2194, 2195, 2196, 2197, 2198, 2199, 2200, 2201, 2202, 2203, 2204, 2205, 2206, 2207, 2208, 2209, 2210, 2211, 2212, 2213, 2214, 2215, 2216, 2217, 2218, 2219, 2220, 2221, 2222, 2223, 2224, 2225, 2226, 2227, 2228, 2229, 2230, 2231, 2232, 2233, 2234, 2235, 2236, 2237, 2238, 2239, 2240, 2241, 2242, 2243, 2244, 2245, 2246, 2247, 2248, 2249, 2250, 2251, 2252, 2253, 2254, 2255, 2256, 2257, 2258, 2259, 2260, 2261, 2262, 2263, 2264, 2265, 2266, 2267, 2268, 2269, 2270, 2271, 2272, 2273, 2274, 2275, 2276, 2277, 2278, 2279, 2280, 2281, 2282, 2283, 2284, 2285, 2286, 2287, 2288, 2289, 2290, 2291, 2292, 2293, 2294, 2295, 2296, 2297, 2298, 2299, 2300, 2301, 2302, 2303, 2304, 2305, 2306, 2307, 2308, 2309, 2310, 2311, 2312, 2313, 2314, 2315, 2316, 2317, 2318, 2319, 2320, 2321, 2322, 2323, 2324, 2325, 2326, 2327, 2328, 2329, 2330, 2331, 2332, 2333, 2334, 2335, 2336, 2337, 2338, 2339, 2340, 2341, 2342, 2343, 2344, 2345, 2346, 2347, 2348, 2349, 2350, 2351, 2352, 2353, 2354, 2355, 2356, 2357, 2358, 2359, 2360, 2361, 2362, 2363, 2364, 2365, 2366, 2367, 2368, 2369, 2370, 2371, 2372, 2373, 2374, 2375, 2376, 2377, 2378, 2379, 2380, 2381, 2382, 2383, 2384, 2385, 2386, 2387, 2388, 2389, 2390, 2391, 2392, 2393, 2394, 2395, 2396, 2397, 2398, 2399, 2400, 2401, 2402, 2403, 2404, 2405, 2406, 2407, 2408, 2409, 2410, 2411, 2412, 2413, 2414, 2415, 2416, 2417, 2418, 2419, 2420, 2421, 2422, 2423, 2424, 2425, 2426, 2427, 2428, 2429, 2430, 2431, 2432, 2433, 2434, 2435, 2436, 2437, 2438, 2439, 2440, 2441, 2442, 2443, 2444, 2445, 2446, 2447, 2448, 2449, 2450, 2451, 2452, 2453, 2454, 2455, 2456, 2457, 2458, 2459, 2460, 2461, 2462, 2463, 2464, 2465, 2466, 2467, 2468, 2469, 2470, 2471, 2472, 2473, 2474, 2475, 2476, 2477, 2478, 2479, 2480, 2481, 2482, 2483, 2484, 2485, 2486, 2487, 2488, 2489, 2490, 2491, 2492, 2493, 2494, 2495, 2496, 2497, 2498, 2499, 2500, 2501, 2502, 2503, 2504, 2505, 2506, 2507, 2508, 2509, 2510, 2511, 2512, 2513, 2514, 2515, 2516, 2517, 2518, 2519, 2520, 2521, 2522, 2523, 2524, 2525, 2526, 2527, 2528, 2529, 2530, 2531, 2532, 2533, 2534, 2535, 2536, 2537, 2538, 2539, 2540, 2541, 2542, 2543, 2544, 2545, 2546, 2547, 2548, 2549, 2550, 2551, 2552, 2553, 2554, 2555, 2556, 2557, 2558, 2559, 2560, 2561, 2562, 2563, 2564, 2565, 2566, 2567, 2568, 2569, 2570, 2571, 2572, 2573, 2574, 2575, 2576, 2577, 2578, 2579, 2580, 2581, 2582, 2583, 2584, 2585, 2586, 2587, 2588, 2589, 2590, 2591, 2592, 2593, 2594, 2595, 2596, 2597, 2598, 2599, 2600, 2601, 2602, 2603, 2604, 2605, 2606, 2607, 2608, 2609, 2610, 2611, 2612, 2613, 2614, 2615, 2616, 2617, 2618, 2619, 2620, 2621, 2622, 2623, 2624, 2625, 2626, 2627, 2628, 2629, 2630, 2631, 2632, 2633, 2634, 2635, 2636, 2637, 2638, 2639, 2640, 2641, 2642, 2643, 2644, 2645, 2646, 2647, 2648, 2649, 2650, 2651, 2652, 2653, 2654, 2655, 2656, 2657, 2658, 2659, 2660, 2661, 2662, 2663, 2664, 2665, 2666, 2667, 2668, 2669, 2670, 2671, 2672, 2673, 2674, 2675, 2676, 2677, 2678, 26

بينما المرء في غضارة عيـش
عطفت نـدّة الزمان فـلأد
ولا يدوم البقاء للخلق لكـ
وصلاح من أمره وانقـساق
نـه إلى فاقـة وضيق الخـساق
ن دوام البقاء للخلق لـ

فأشد ما يقض مضجع الشاعر عنا فجأة الموت التي تفسد غضارة العيش "فعرى النايـا قلائد الأعناق"

ويتنـى الخريمي أن لو تسير الحياة بلا رهبة من الموت فيستمتع الإنسان بما يحب وبمن يحب غير أنه لا يتلبث طويلاً عند هذه اللقطة التي لو أتاحت لها شاعرية عميقة خلّاقة لأبدعت شعراً إنسانياً ولكنه الارتباط بالمناسبة يعجل في التحول عن مثل هذه الرؤية ، فيقول من تصيدة رثى بها خريـم ابن أبي المهيدام المـسـري (١) :-

قضى وطراً منك الحبيب المـودّع
وعلى للفتى جارٍ يُجنّبهُ السـردى
وأيقنت أن الحي لا بدّ ميّت
وأن الفتى في أهله لا يمتّـم
وحلّ الذي لا يستطاع كيدُ فـمّ
فيصبح منه آمناً لا يـرـوع
وأن الفتى في أهله لا يمتّـم

أما رثاء العلماء الشامين البارزين فيلاحظ عليه غلبة النزعة العقلية وخفوت العاطفة فيسه ، ومن ذلك أن شاعراً شامياً قال في رثاء الإمام الأوزاعي (٢) :-

جادّ الحيا بالشام كلّ عـشـيّـة
قبراً تضمّن فيه طوّد كلّ شـريـة
عروضك له الدنيا فأعرض مقلّمـاً
قبراً تضمّن له من عالم نفـسـاع
قبراً تضمّن لحـدّ الأوزاعي
عنها بزهدٍ أيماءٍ اقـلـاع

فقصـر رثاءه له على الترحم ، وذكر بعض المناقب دون أن ينبثق في شعره ما يدل على حزن حقيقي . بل إنه لم يتم بسياغة هذا الشعر فقد نصب "قبراً" بـ"جاد" ، وهذا على ما قال اليافعي ، وهو صحيح ، لا يجوز إلا بتعسف شديد وإضرار محذوف تقديره : جاد فسقى قبراً . وكذا قوله : تضمّن فيه "وكان يعني" تضمّن "عن" فيـه (٣) .

- (١) ديوان الخريمي : ٣٩ - ٤٥ .
(٢) وردت هذه الأبيات غير معزوة في : اليافعي "مرآة الجنان" تحقيق عبد الله الجبوري
مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٤ ، ١ : ٣٥١ .
(٣) مرآة الجنان ١ : ٣٥١ .

ويتبدى خفوت العاطفة كذلك في شعر رثاء الشعراء بعضهم لبعض، إذ تبرز في هذا الشعر مزايا المتوفى إبرازاً تقريرياً خالياً من أي استشعار لروعة الفقد ومرارته، فمرثية ديك الجن الحمصي لصديقه الشاعر الأخوص الذفافي العبسي تجري على هذا النحو (١) :-

مضى فارسُ الآداب والمجدِّ والشُّعْرِ وقسوةُ الأبطال والورقِ والتَّبَرُّرِ
فتى ما تراءته الكُماة ولوغسدت ذويَّ عدَدٍ إلا رأت جَحْفلاً يسُري
علواً وإسلاماً وبأساً ونائلاً غداة الندى والدينِ والبأسِ والفخرِ

فليس لهذا الشعر أدنى قيمة من الوجهة الفنية، وستان بينه وبين مرثي ديك الجن فسي جاريته .

ومن هذا الضرب نفسه رثاء الشاعر الحلبي لأبي تمام، وقد ظهر الحلبي في هذا الرثاء حزناً كاسف البال على النيل المفقود بموت حبيب، يقول (٢) :-

فما الميت أبكي بل ججاً ومروءة وعلماً أرى فيه المذلة واليتمسك
فيا لحبيب دعوة لو تفرغَ سرَّت بمسمع آجال إذا لعدت صمًا
تشت رأيي كنت في عينيهِ قلدي وفي أذنيه وقراً، وفي فيه سماً
وما كنت دون الناس أشرف متصباً وفرعاً، ولكن كنت أشرفهم علماً

ورثى بعض الشاميين غلمانهم بشعر هو مزيج من الغزل والرثاء، فجاءوا بضرب غريب من الشعر، ويمثل هذا الضرب من الرثاء الغزل رثاء البحري لفلانة قيصر، فقد جاءه وعبر برأس عيس خبر وفاة هذا الغلام بمزيج، فقال (٣) :-

تفضلني أفاضيل الأمانسي بعيش بعد قيصر لا يطيب
تولى العيش إذ ولي التصابي ومات الحب إذ مات الحبيب
نصبي كان من دنياي ولست فلا الدنيا تحس ولا النصيب
أرثيه ولو صدق أخيتاري لكان مكان مرثيتي النسيب

- (١) بغية الطلب، ورقة ١٧٩، ولم ترد في نسختي الديوان المطبوعتين .
- (٢) بغية الطلب ٨ ورقة ٢٦٣، وقال ابن العديم : وتروى هذه المرثية لديك الجن في أبي تمام وهي ليست في نسختي ديوان الديك .
- (٣) القصيدة ٨٥ من ديوانه .

وأكبر الظن أن هذا الشعر رثاء للنفس، إذ كان عمر الشاعر - كما صرح في هذه القصيدة - ستة وستين عاماً، وكان يعاني الذرية وآلامها، فوجد في وفاة غلامه مذكراً بمصيره الذاتي، بل وإن الإفصاح عن الضيق النفسي في القصيدة كان أقوى من التعبير عن الحزن. وكان مبعث هذا الضيق بعد الشاعر عن داره وأهله، فخشى أن يلقي الموت في دار الاغتراب كما لقيه غلامه هذا الرومي بعيداً عن أهله القاطنين وراء الدروب :-

وما كانت لَتَبُعْدَ عَنْكَ عَيْشِي سَنُوحُ الدَّمْعِ لَوْ أَتَيْ قَرِيبُ
وَأَيْتُهُمْ يُعْمِرُ عَلَيْكَ دُمُوعًا وَآلِسُ دُونَ أَهْلِكَ وَالْـدُرُوبُ

وتتضح هذه المقايضة بين حال الغلام وحال مولاه بنمورة أجلى حين يقول بعد ذلك :-

لقد سرّ الأعادي في أناسي برأس العين محزون كسبب
وأني اليوم عن وطني شريد بلا جرم ومن مالي حريب
على حين استتم الوهن مناسي وأعطيت في ما احتكم المشيب

٢ - الرثاء في قتلى الفتن والحروب :-

إن الطابع العام لقصائد الرثاء في الشعر الشامي واحد، وهو طابع المراثية نفسه فسي الشعر العربي الذي يقوم على تعداد المناقب، وإظهار التفجع واللوعة على الفقد، ومع ذلك فإن في قصائد رثاء القتلى أبعاداً تنضاف إلى السمات العام للمراثية. ففي مراثي قتلى الفتن الداخلية نعت بطولة، ووعود بشارات، وتهديد للخصوم، بل قد يطفئ التهديد والوعيد على رنة الحزن، وبخاصة إذا صدر هذا الشعر عن نفس زعيم قبلي أو فارس معدود مثأبوا الهذام عامر بن عمارة المري لا يبكي أخاه عثمان بالدمع بل "بالبيئ الرقاق وبالقنا" لأنه "ليس كمن يبكي أخاه بعبرة يمضرها من ما مقلته عصرا" (*).

ولكنني أشفي الفؤاد بنفارة ألهب في قُطْرِي كئيبها جمرا

(*) تاريخ مدينة دمشق (تراجم حرف العين المتلوة بالألف) : ٣٩٣، معاهد التنصيص ١ : ٢٥١ - ٢٥٢، وقد وردت الأبيات معزوة لصاحب كامل العبيسي في رثاء أخيه بدر في تهذيب ابن عساكر ٦ : ٣٦١.

بل يربأ بنفسه ويقومه أن ييكوا قتلاهم بالدم — — — — — : —

وإنا أناس ما تفيض دموعنا — — — — — على هالك منا ، وإن قصم الظهرا

فكان الرجولة والزعامة تأنفان الاستخذاً بالبكا . وعلى هذا النسق من الرثاء غير العاجز ولا المستكين وإنما الرثاء الحاد العنيف قول الشاعر صادر بن كامل بن بدر العبسي في رثاء أخيه الذي قتلته قحطان في حرب أبي الهيثم (١) : —

لئن قتلت قحطان بدراً فإنما — — — — — أراها نجوم الليل كارهة ظهرا
أقام لها سون الجلال ابن كميل — — — — — فأنفذها قتلاً ، وأوجعها عقرا
فإن يك بدر قد مضى لسبيله — — — — — فما مات محسوداً ، ولكن شفى صدرها

فالمقتول لم يخل مكانه إلا بعد أن أبلى في ميدان الوغى بلا عظيماً أفزع فيه الخصم ، فأراهم نجوم الليل ظهرا . " وأوجعهم عقرا " وشفى صدر بني أبيه منهم — — — — — .

ولم يكن شعرا البين أقل مكابرة من شعرا فيس في تهديدهم ووعيدهم ومحاولتهم الالتفاف على أحزانهم . فحجوة بن مذرث الغساني سيكي أسعد الغساني بالبعض وباللنا أيضاً (٢) : —

سأبكي فتى غسان أسعد ما دعست — — — — — على فني الأشجار ورؤ الحمايم
وأبكي إماماً عشق بالبني والقنا — — — — — وفتيان صدي كاللبيث الضراغيم
يخوضون نحو الموت خوفاً كأنهم — — — — — مصاعب تحت الداميات المناسيم (٣)
بأشياهم زار الحثوف ابن كميل — — — — — ومن بعده مشواه زار ابن حاتم

وعلى ذلك يتضح أن المراثية قد تحولت إلى فخر بالأحيا ، وتهديد ووعيد علت نبراته دفقات الحزن المستكة أو الظاهرة على استحيا ، كما أن حب الثار والوعيد به سما على ما عداه ، وتوارت منه تماماً الروح الإسلامية ، ولولا المعرفة بأصحاب هذه النصوص ، وبالظروف التي قيلت فيها لجازت نسبتها إلى أي من شعرا المراثي الجاهليين .

(١) تهذيب ابن عساكر ٦ : ٣٦١ .
(٢) تهذيب ابن عساكر ٤ : ٩٠ ، بغية الطلب ، نسخة فضل الله ، ترجمة حجوة بن مدرك .
(٣) المصاعب : جمع مصعب وهو الفحل من الإبل يعنى من الركوب . والمناسم : جمع منسم وهو طرف خف البعير .

وأوقفنا الفتن الداخلية على مراتٍ لاثنين من النسوة الشواعر، الأولى امرأة يمنية ترثي أخاها - أو ابنها - ويدعى عمرًا، كان قتل في حرب أبي الهيثام، والثانية هي ليلي، أو الفارعة، الشيبانية التي رثت أخاها الوليد بن طريف. أما الأولى فتقول في فقيدها (١) :-

عينٌ بالدُّمُعِ فاستهليَ لعمري	بدُموع غزيرة الهمَّ لَـ
قتلته قيسٌ ففرتْ بِقَتْلِهِ	قيسَ عيلانَ، مَنِّي العَيْنَانِ
قتلوه مثلَ الهِلَالِ جـ وادًا	بالمطايا يَـ بِرُّ بالِإِخْـ
قتلوه مثلَ القناة طرـ رًا	مائدَ الأَصْلِ، طيَّـبَ الأُذُنِ
وبعثوه فُجِعْتُ، لهني عليه	أبدًا، أو أَلْفَ في الأَكْـ
فقدته عَنُ الكرامِ وخـ سولا	نُ، وَمَنْ مِثْلُ عَنُ أو خـ سولان
ليت يُعْمِرني فذاتُ أَكْبَرِ عَمَّـ	هل يُقَدِّني الزمانُ من عيـ لَـ (٢)

إن أدنى مقابلة بين مرثية هذه الشاعرة ومرثي الفرسان السابقين يظهر الفرق ساطعاً. ففي هذه الأبيات تبرز العاطفة الانثوية العميقة بروزاً مجلياً، وفيها استشعار بهول المأساة، وهو باد في هذا التكرار للفظه بغضبة على النفس في لفظة القتل، كما يبدو هذا الاستشعار بهول الفاجعة في ألفاظ الفجعة واللطم والهم واقتاد الكرم في شخص المقتول، وفي الدموع والخزيرة المنهملة. ولم تجد الشاعرة لها عزاءً إلا بأملها أن الزمان سيقيد لها بأخذ الثأر لها من قيس عيلان.

أما مرثي ليلي، أو الفارعة، الشيبانية في أخيها الوليد، فقد روت المصادر لها في قصيدة مشهورة كردد ورائها - كما أوضحنا ذلك، من قبل - في مصادر الأدب والتاريخ، وبعض قصيدتين أخريين. وهذا المقدار الذي وصلنا من شعرها يدل على أن صاحبته شاعرة ذات تمييز واقتدار على قول الشعر الجيد، فهل يعقل أن يكون هذا عموكل ما نظمته هذه الشاعرة؟ إن المنطق يفترض أن يكون لها شعر آخر، ولكنه جرى عليه ما جرى على غيره من أشعار الخوارج. ولنا في قول ابن خلكان، وتابعه صاحب "معاهد التنصيص"، خير دليل إذ يقول: "ولليلي أخت الوليد ابن طريف فيه مرات كثيرة" (٣).

(١) تاريخ مدينة دمشق، تراجم النساء، ٥٨٨.

(٢) يقدني: يأخذ لي بشيء.

(٣) وفيات الأعيان ٦: ٣٣، معاهد التنصيص ٣: ١٦٤.

أما قصيدتها المشهورة فمظلمتها : —

بتلّ نباتي رَسْمُ قَبْرِ كَأَنَّه —————
على عِلْيَ فَوْقَ الْجِبَالِ مُيَسْفِرُ^(١)

وفي القصيدة تودع في عواطف الشاعرة التي فجعت بأخيها، فألقت من ظلال نفسها الحزينة على الكون كآبة مماثلة « واضطربت فاضطرب ————— رب : —

أيا شَجَرَ الْخَابُورِ مَا لَكَ مُورِقًا —————
كأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفٍ
ألا يا لَقُومِي لِلْجَمَامِ وَلِلْبِلَاسِ —————
وَلِلْبَدْرِ مِنْ بَيْنِ الْكَوَاكِبِ قَدْ مَسُوى
وَلِلشَّمْسِ لَمَّا أُرْمَعَتْ لِكُسُوفٍ

وبلاحظ أن الطبيعة قد انقسمت في الحزن على أخيها إلى قسمين متباينين : —

١ — الطبيعة الخضراء (ممثلة بشجر الخابور) لم تحزن .

٢ — الطبيعة السماوية (ممثلة بالبدر والشمس) شديدة الأسى لفقده .

وذلك وهذا مع أنها تقول إن الأرض عمت برجيف . فما سبب هذا الاضطراب في الفكر وفي التمييز عنه ؟ إن مأساة الشاعرة الخاصة مأساة ذات حدين : فالمقتول أخوها « وقاتله سيد من ————— قبيلتها » فلعلها إذاً رمزت بشجر الخابور الذي لم يحزن إلى فريق بني شيبان المشايخ ليزيد « وهم قلة معنويًا كثيرون عددًا » ورمزت بالأرض والسما الحزينة المتفطرة إلى بني شيبان المشايخين للوليد وهم قليلون عددًا كثيرون معنويًا « وقد أفصحَت الشاعرة عن شيء من هذا الترميز في قصيدة أخرى لامت فيها يزيد وأشياعه « ولكنها لم تتجاوز حدود اللوم » للسبب نفسه الذي جعلها مضطربة فــــــ تصوير الطبيعة منقسمة على نفسها غير حزينة وحزينة في آن واحد . تقول لائمة في هدوء يخفي حزنًا محتقنًا « وأسى مكبوتًا^(٢) : —

يا بني وائلٍ لقد فَجَعْتُكَ —————
لو سيوفٌ سوى سيوفٍ يَزِيدُ
قَاتَلَتْهُ لَأَقَتَّ خِلَالَ السَّعْوَ —————
وائلٌ بَعْضُهَا يَقْتُلُ بَعْضُهَا
مِنْ يَزِيدٍ سَيُوهُ بِالْوَلِيدِ
لا يَفْلُ الحَدِيدُ غَيْرَ الحَدِيدِ

(١) اختلف في اسم هذا التل فقليل تبتل نباتي أو تل تباثا « أو تل نهاكي وقال ابن خلكان :

تل نهاكي أظنه في بلد نصيبين وهو موقع الواقعة المذكورة .

(٢) وفيات الاعيان ٦ : ٣٢١ .

إن الحزن في قصائد الشاعرة الثلاث — على حدث وقوته — لم يتحول إلى حقد على القاتل « بسبب من إشكالية علاقة الشاعرة بالقاتل والمقتول » وكانت تحاول أن تريح أعصابها حيناً بوجودان معادل منطقي مهدى فتستنيم إليه مكابرة عندما تقول : « لا يقل الحديد غير الحديد » « وحيناً آخر بتعبيرها عن أن مأساتها في أخيها هي في الواقع مأساة قبيلة فرطت في حق نفسها إذ فرطت فيه ^(١) : —

أخاعك قومك فليطلبوا إفادة مثل الذي ضيعوا

غير أن الحزن « والدمة الحرة » وتمداد مناقب القتيل من تنى وشجاعة وفروسية وندى تظل عسى الأبرز في شعر الشيبانية « فمن مناقب أخيها تذكرني أسى : —

فتى لا يجب الزاد إلا من التقى	ولا المال إلا من قنا وسيف
ولا الذخر إلا كل جرداء صلد	معاودة للكرب بين عصف ^(٢)
حليف الندى ما عاش يرعى به الندى	فإن مات لم يرعى الندى بحليف
ألا قاتل الله الردى حيث أضمرت	فتى كان للمعروف غير عيوف

ومناقب الوليد المذكورة هي مناقب يمجح وجودها في كل قصيدة يُمدح أو يُرثى بها أي قائد مسلم « وليست وفقاً لا على الوليد باعتباره زعيماً في قبيلة « ولا عليه باعتباره رأساً من رؤوس الخوارج « ولمعل خلو القصيدة من الفكر الخارجي إننا انضاف إلى جمال القصيدة بدقها العاطفي الحار « وسبكها الرعين « من أسباب بقائها وكثرة دورانها في المصادر المتعددة الانتماءات والمناحي المذهبية .

أما رثاء القادة العسكريين الذين كانت لهم أياد في الدفاع عن الشفور الإسلامية فتبرز فيه فضائل القائد المسلم « ويظهر الحزن عليه جمعياً « وذلك فضلاً عن تعداد مناقبه « وهي اللازمة المتكررة في أشعار المراثي جمعياً غير أن أخصها به « وأبينها فيه ذكر ما يتناسب ومزايا القائد العسكري وهي : الشجاعة والإقدام وسداد الرأي « ومن أبرز القادة العسكريين الذين رثاهم شعراء الشام محمد بن يوسف الشفري فقد رثاه البحري في قصيدتين كاملتين عما القصيدتان ٧٥٤ و ٦٧٢ « ومطلع الأولى : —

- (١) بيت من قطعة وردت في الأغاني ١٢ : ١٠٠ « أسامة بن منقذ : المنازل والديار « تحقيق مصطفى حجازي « لجنة أحياء التراث « القاهرة ١٩٦٨ : ٤٧٤-٤٧٥ « وفيات الأعيان ٦ : ٢٤٣ « معاهد التنصيص ٣ : ١٦٤ .
- (٢) الصلدم : الصلب المتين « والدابة القوة الحوافر « الجرداء : الفرس القوة الجسم الأصيلية .

انْظُرْ إِلَى الْعَلْيَاءِ كَيْفَ تَضَامُ وَمَاتِمُ الْأَحْسَابِ كَيْفَ تُقَامُ

ومطلع الثانية : -

بِأَيِّ أَسَى تُتَنَّى الدَّمْعُ الْهَوَامِلُ وَيُرْجَى زِيَالٌ مِنْ جَوَى لَا يُزَايِلُ (*)

وقد لفت الشاعر نظر القارىء أو السامع منذ البيت الأول إلى عول قد وقع فابتعد عن التقريرية والإخبار إلى صيغ إنشائية مبهولة ، يقول : -

أَيْنَ السَّحَابُ الْجُودُ وَالْقَمَرُ الَّذِي يَجْلُو الدَّجَى وَالضُّيُغَمُ الضَّرْعَامُ
وَلَى وَقَدْ أَوَّلَى الْوَرَى مِنْ جُودِهِ نَعَمًا يَقُومُ بِشُكْرِهَا الْأَقْسَامُ
لَا تَهْنَى الرُّومُ اسْتِرَاحَتَهُمْ فَقَدْ عَدَّ أَوْ بَأْفَوَاهِ الدُّرُوبُ وَنَامُوا
أَمِنُوا وَمَا أَمِنُوا حَتَّى انْطَلَسُوا فِي التَّرْبِ ذَاكَ الْكُرُّ وَالْإِقْدَامُ

وعلى ذلك فإن من كانت هذه حاله وصفاته جدير به أن تبيكه عيون المسلمين ، وأن تبيكه المكرمات لعيون النساء وحسب : -

سَتَبْكِي عَيْنٌ لَا تَرَى الْجُودَ بَعْدَهُ إِذَا فَاغَى مِنْهَا عَائِلٌ عَادَ هَامِلُ
وَنَارُ بَكْتِهِ الْمُكْرَمَاتُ وَإِنَّمَا تُبْكِي عَلَى الثَّوَابِ النِّسَاءُ التَّوَاكِلُ
فَقَدْ نَاكَ فَقْدَانُ الْحَيَاةِ وَأَقْبَلَسَتْ تُلَاحِظُنَا خُزْرًا إِلَيْنَا الْقَبَائِلُ

ومثل هذا قوله في الأخرى : -

وَرَزِيئَةُ حَمَلِ الْخَلِيفَةِ شَطْرَهَا وَالْمُسْلِمُونَ ، وَشَطْرَهَا الْإِسْلَامُ

ويظل البحترى في القصيدتين جميعاً يُبْدَى ويعيد في تعداد مناقب الشفري ، وذلك راجع لسببين : الخصوصية المتميزة في الشفري القائد ، والخصوصية التي تربط الشاعر بالشفري فهم من قبيلة واحدة .

ويلتقي البحترى مع غيره من الكثرة الكاثرة من شعراء العربية في طريقة العزاء ، وهي الإيمان بحتمية الموت : -

(*) الزيال : الفراق .

والمعز يوم - لا محالة - ما لــــه غدّ وسطّ عام ما له الدّعْر قابــــل
كفانا اعتراغاً بالفناء ورقبــــة لمكروهه أن ليس للمخلّد آمــــل

كما يلتقي مع بعضهم الآخر، على الرغم من تسليمه بهذه الحتمية، بشورته على الموت، وسخطــــه
عليه :-

ما كنتُ أحسبُ أن عَزَّكَ يُرتقــــي بالنائبات، ولا جَمَاكَ يُــــرامُ
قد رعدت فيه الحسوات طَوَرَهَا وتجاوزت أقدارَهَا الأيــــامُ

والملاحظ بعد هذا الكلام كله على أشعار الرثاء الشامية أن أياً من شعراء الرثاء لم يتطرق
إلى الرثاء الجمعي، ولا إلى رثاء القرى والحصون التي أتت عليها أحداث الفتن الداخلية والحروب
الخارجية، فلم تبدع قدرات الشعراء فناً شعرياً سامياً يوازي جسامة الأحداث التي شهدتها
أرض الشام وشعورها وظلت قصائدهم تعدد المناقب، وتظهر التفجع واللوعة، كما لم يبدُ أي من
الشعراء الشاميين آفاني تجربته الشعرية إلى فكرة جدلية الموت والحياة، وإن غياب مثل هذه الرؤى
من الشعر الشامي يعود في أغلب الظن إلى جملة أسباب أبرزها القصور في الثقافة الفلسفية، والاطمئنان
إلى الفكر الديني الذي يرى الموت قدراً لا مفر منه، ويجب الرضا عنه، أو كما قال ربعة الرقي (١) :-

وكنْ مقلّ وذِي ثــــرورة فإنّ المنيّة منْ خَلْفــــه
وكما قال ديك الجن (٢) :-

على هذه كانت تدور النوائــــبُ وفي كل جَمْعٍ للذّعَابِ مَذَامِــــبُ
نزلنا على حُكْمِ الزمانِ وأمــــره وقد يقبلُ النصفُ الألدُ المُشاعِــــبُ

وقول العتاي يصور رغبته من الموت الآتــــي (٣) :-

أينا قدّمتْ صروفُ اللّيالــــي فالذي أخرتْ سريحُ اللّحــــاقِ
كم صفيّين متّعاً بِلِقــــا ثم صارا لغُرْبــــةٍ وأنــــفــــراقِ

(١) ربعة الرقي : ١٠٨ .

(٢) الحماسة البصرية ١ : ٢٢٧ (رقم ٨٣) .

(٣) الحماسة البصرية ٢ : ٤٢٥ (رقم ٤٢) .

ولدى رجوع النظر فيما أُورِدَتْ وما لم أُورِد من أشعار الشاميين في الرثاء ، فهل يمكن أن يؤمن المدارس بصحة موقف النقاد القدامى الذين ذهبوا إلى أن الفرق بين المراثية والمدحة هو الحائِئ الأولى بالماضي ، والثانية بالحاضر ، وأن ذلك فسرق شكله ؟ (١)

إن قرائد الرثاء التي تمت دراستها تفيد أن عا جس الخوف من الموت وترقبه في أشعار الرثاء أصدق بعامة من الطمع في عطايا المدوحين . أما شكلة النعوت في الغرضين جميعاً فليست تقاس أبداً بما وراءها من عواطف التوجس أو الرغبة . وإن فالبون بين المديح والرثاء كبير ، بل لا وجه للمقارنة بينهما في بناء القصيدة ، وفي ما فيها من دفق الشعور واختلاف الرؤية والبيان التصوير .

(١) انظر : قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، تحقيق كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي بمصر ١٩٦٣ : ١١١ ، أبو هلال العسكري : كتاب الصناعتين ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم ، دار احيا الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٢ : ١٣١ ، العدد ٢ : ١٤٧ .

ثالثاً : الغرض من : ...

لا خلاف في أن الغزل من أكثر الأغراض الشعرية دوراً على ألسنة الشعراء العرب، ومنهم شعراء الشام، للسبب نفسه الذي ذكره ابن قتيبة الدينوري^(١) : "لما قد جعل الله في تركيـب العباد من محبة الغزل، وإلف النساء"، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب، وضاراً فيه بهـم". وقد نظم فيه عدد كبير من شعراء الشام والجزيرة، غير أن أبرزهم فيه ربيعة الرقي، وديك الجن الحمصي، وعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي والبحري وأبو تمام. وقد تراوحت مذاعب الشاميين فيه بين الغزل العاجز، والغزل العذري، والغزل التقليدي. ويعد ديسك الجن الحمصي وربيعة الرقي إمامي شعر الغزل العاجز، في حين يعد من المشهورين بالغزل العذري عبد الملك الحارثي والبجلي الحمصي. أما إماما الغزل التقليدي فهما أبو تمام والبحري.

(-الفزل الماحسن :-

نبح شعرا' المنزل الماجن الشاميون نهج عمر بن أبي ربيعة ونهج أبي نواس . أما ربيعة
الرقبي فقد اصطنع منهج عمر في صناعة الحكايات الغزلية ، والمغامرات الغرامية ، وفي الهيام بغير
حسنا' واحدة، فشعاره في الحب قولـــــــــــــــه (٢) : —

أَنَا زَيْرٌ لِلْفُؤَادِ وَأَخُو لَيْسَ بِوَرَّاحٍ

وقد ترددت في شعره أسماء ست نساء* تفضل بهن جميعاً ، وعولا يرضى من الحب إلا ما يحقق له المتعة الحسية (٣) :-

الْحُبُّ دَأُ عِيَا لَا دَوَاءَ لَهُ
أَوْ قُبْلَةٌ مِنْ نَمٍ نِيلَتْ مُخَالَسَةً

(١) الشعر والشعراء ١ : ٢٠ - ٢١ .

(٢) من قصيدته في : شعر ربيعة الرقي ، جمع وتحقيق يوسف بكار ، ط ٢ ، دار الأندلس ، بيروت ١٩٨٤ : ٨٩ ، طبقات ابن المعتز : ١٦١ - ١٦٢ »

(٣) من تصديده في شعر ربيعة الرقي : ٥٤ - ٥٥ ، طبقات ابن المعتز ١٦٦ - ١٦٩ .

كما يصطنع ربيعة منهج عمر بن أبي ربيعة في ما ينشئ من حوار يديره بينه وبين من يحب ، وفسي تمرغه للنساء في موسم الحسج .

أما اصطناع قصص المنزل فبيد وجلياً في قصيدتين من قصائده ، وعوفي الأولى منهما يعرض نفسه مطلوباً من الحسان لا طالباً ، كما يصطنع منهج عمر فيها إذ جعل بينه وبين معشوقته رسوياً يأتيه من قبلها ، يقول : -

دَسْتُ سَعَادُ رَسُولًا غَيْرَ مَهْمَسِم	وَصِيفَةٌ فَأَنْتَ إِتْيَانُ مُنْكَبِسِم
جاء الرسولُ بقرطاسٍ بخاتِمِهِ	وفي الصحيفة سحرٌ خطٌ بالقلَمِ
قالت: تعال إذا ما شئتَ مُسْتَكِرًّا	والحكمُ حُكْمُكَ يَا رَفِيٌّ فَأَحْتَكِمِ
فَزُرْتُمَا واقِعًا طُرْفِي عَلَى قَدَمِي	وقد تلبستُ جَلْبَابَيْنِ مِنْ طُلَمِ

ويمعن ربيعة في القصيدة نفسها بتقني خطي عمر فيتم عرض لحسنائه في الكعبة ، ويظهرها مـ طبقة اجتماعية سنية فهي تطوف في حشد من القينات يُقَمَّن على تلبية حاجاتها وخدمتها ، كما يظهرها متجاهلة شأنه ، ويظهر نفسه متعلقاً بها ، وأنه ما جاء الكعبة إلا ليراعا وللقياها ، لا رغبة في أداء الشعائر الدينية ، يقول : -

لَا قِيْتُ عِنْدَ اسْتِلَامِ الرُّكْنِ غَانِيَةً	غَرَاءُ وَاضِحَةُ الْخَدَّيْنِ كَالْمَنْسَمِ
تَقُولُ قَيْنَاتُهَا وَالزُّدْفُ يُقْعِدُهَا	من خلفها ، قد أُتِيَتْ الرُّكْنَ فَاسْتَلَمِي
فَاسْتَلَمْتُ ثُمَّ قَامَتْ سَاعَةٌ فَدَعَسْتُ	فُتِمْتُ أَدْعُو وَلَوْلَا تِلْكَ لَمْ أَقْسَمِ
حَتَّى إِذَا انْصَرَفَتْ سَلِمْتُ فَالْتَفَتْتُ	فَقُلْتُ إِنَّكَ مِنْ هَمِّي وَمِنْ سَدَمِي (*)
قالت: ومن أنت؟ قلن التابعاتُ لها	هذا ربيعةُ هذا نثنتُ الأُمَمِ
هذا المعنى الذي كانت مناسبُهُ	تَأْتِيكَ فَاسْتَتْرِي بِالْبُرْدِ وَالتَّمِيمِ
قالت: أعود بربي مُلْكًا وَاسْتَشَارْتُ	بِمَادَةٍ رَخْصَةٍ الْأَطْرَافِ كَالْمَنْسَمِ
قلت: الذمامُ وعهدُ الله خُبْتُ بِهِ	لا عهدٌ للغادر الختارُ للذَمِّ
ألم تقولي: نعم؟ قالت: بلى وَهَمَسًا	مَنِّي ، وَهَلْ يُؤْخَذُ الْإِنْسَانُ بِالْوَهْمِ

(*) السدم : الولوج بالشيء ، والحرص عليه .

تُبْنَا وَصُنَا وَصَلْنَا لَخَالَتِنَا
وَلَمْ تَتُبْ أَنْتَ مِنْ ذَنْبٍ وَلَمْ تَصُفِّرْ

وإذا كانت رحلة الشاعر لم تحقق له شيئاً من المتعة التي يريد في هذه القصيدة لأن صاحبه صدفه بتوبتها ، فقد حقق هذه المتعة في القصيدة الثانية إذ أمضى ليلته مختلياً بفتاته ذات الخصر الدقيق ، والأرداف الثقيلة الضخمة :-

(١)	ذاتُ لَهْـوٍ ومِـزَاجٍ	وفتاةٌ غِيـرُ دَاحٍ
	عَوَّلَ لِيـلِي ونُبـُـسَاحٍ	قد تَجَشَّمْتُ إِلَيْهِـنَا
(٢)	غَادِيَةٌ غَرَّتِي الوَشـُـسَاحِ	فَخَلَوْنَا بَفَتَاةٍ
(٣)	ضَمِنَ الْخَوْدُ الرِّدَاحِ	فَلَبِسْتُ الْعُكْنَ الْبِيـضَ
	لَيْسَ ذَا وَقْتِ الْبَسَاحِ	قُلْتُ : صُجْ يَا دِيكَ الْفَا
	نَ لَفِي الصَّبُحِ اقْتِضَا حَاسِي	أَوْ أَرَى الصَّبُحَ وَإِنْ كَا

وربيعة في قمائد المنزل الأخرى التي لم ترد في قالب القصة متبادلات على المحاسن المادية في المرأة ، معن في تصوير مظاهر الفتنة والتدقيق فيها ، يقول في إحدى حسناواته ، واسمها عنمة (٤) :-

رَوَادِفُ لَمْ تَدْعُ لِلنَّاسِ دِينَـنَا	بَدَتْ مِنْكَ الرَوَادِفُ مُشْرِفَاتٍ
بِأَحْسَنَ مِنْكَ يَوْمَ تَبَدَّلَ لِينُنَا	فَمَا الشَّمْسُ الْمَضِيئَةُ يَوْمَ دَجَّـنِ
وَإِنْ أَدْبَرْتَ قِيَسَدَتِ الْعُيُونُنَا	إِذَا أَقْبَلْتَ رَغَبَتِ النَّاسُ حُسْنُنَا
لَخَرُّوا مِنْ جَمَالِكَ سَاجِدِينَـنَا	فَلَوْ أَنَّ الْمُلُوكَ رَأَوْكَ يَوْمُنَا
وَقَدْ حُمِّلَتْ مَا لَا تَحْمِلِينَـنَا	لَقَدْ أُعْطِيَتْ أَرْدَانَا رِقْسُنَا
يُمَانِعُكَ الْقِيَسَامُ فَتَقْعُدِينَـنَا	إِذَا رُمْتَ الْقِيَامَ تَخَالُ دِعْصُنَا
أَلَا يَا لَيْتَهَا سَجَدَتْ سَنِينُنَا	إِذَا صَلَّيْتَ نَمَّ سَجَدَتْ قُلْنُنَا

- (١) داح : اسم إحدى صواحبهنه .
(٢) غرّي الوشاح : خمصة البطن دقيقة الخصر .
(٣) العكن : الأطواء في البطن من السمن ، الخود : الفتاة الشابة ، والعكن : الأطواء في البطن من السمن ، والرداح : ذات العجيزة الثقيلة لضخامتها .
(٤) شعر ربعة : ١٢١ - ١٢٢ ، طبقات ابن المعتز : ١٦٢ - ١٦٣ .

وواضح أن هذا الشاعر مغلوب بشيوة الحسية ، فقد كان هائماً بأرداف صواحيبه ، أما حسنه — فيما سوى ذلك فلم يثر اعتمائه ، ولعل ذلك يعود إلى عماء ، نعماده للحكم على حسن المرأة حاسة اللمس . أما الثغر وأما العينان ، وأما ما سوى ذلك من مواطن الجمال الأخرى التي فتن به — الشعر — فلا وزن لها عنده .

وأما ما ورد في هذه القصيدة من رؤيته لها مقبلة ، ورؤيته لها إذ قامت تتأود ، وعينه بها تتأود بحسنها في ثياب من الخز ، فإن هذا وغيره يدل على مجرد التعبير بالإحساس بها لا أكثر من ذلك .

وأما اصطناع الشاعر للمواقف الخرامية ، والزيارات الليلية إلى بيوت الحسان ، فلم يكن في أغلب الظن إلا نعتاً من أنماط التعميش عن المعجز عن أدا ، مثل هذه الزيارات في الحقيقة والواقع ، وإن كان يوسف بكار يعد هذه الزيارات دليل إثبات على أن نظم هذه القصائد كان قبل أن يفسد الشاعر بصره ، وأنه لذلك لم يولد أكمه ^(١) . وما يرجح توجهنا بأن الشاعر كان يصطنع هذه المواقف المنزلة أن معشوقاته جميعاً كن بنات عنسه ^(٢) ، وأنه يصرح تسميحاً مباشراً في إحدى قصائده بأن طيف إحداهن هو الذي كان يأتيه ويضاجعه ، وأنه كان يتحرق شوقاً لو تتحقق أحلامه ، يقول فيس — :

زارتكَ سَعْدَى وَسَعْدَى مِنْكَ نَازِحَةً	فَارْتَقَتْ وَمَا زَارَتْكَ مِنْ أَمَمٍ
أَعْدَلُ بِطَيْفِكَ يَا سَعْدَى الْعُلَمُ بِنَا	طَيْفٌ يَسِيرُ بِلَا نَجْمٍ وَلَا عَلَمٍ
أَنْتَ الضَّجِيجُ إِذَا مَا نَعْتُ فِي حُلُمِي	وَالنَّجْمُ أَنْتَ إِذَا مَا الْعَيْنُ لَمْ تَنَمِ
مَا أَكْذَبَ الْعَيْنَ وَالْأَحْلَامَ قَاطِبَةً	أَصَادِقُ مَرَّةً فِي وَصْلِيهَا حُلُمِي ؟
قولي : نعم ، إنها ، إن قلت ، نافعة	ليست عسى ، وعسى صبر إلى نعم

فهذا الشحون الشديد لأن يفدو الحلم حقيقة دليل على حرمان الشاعر ، فكان أن لجأ إلى اصطناع هذه الحكايات والأشياء تعويضاً ، وقد أمدته قريحته الشعرية بسبب من هذا النقص بشعر يجري

(١) شعر ربيعة الرقسي : ٤٠ .

(٢) نفسه : ٥٤ — ٥٥ .

في رقة وعذوبة ما، وحيوية، كما أمدّه خياله بحسن التصوير، وجمال التخيل، والاصطناع الناجح للمواقف الغرامية وما فيها من حوار خاطف دال على ما يعتل في النفوس المحرومة بخاجة من أحاسيس العاشقين المتلهفين ودعاباتهم ———— .

أما مذهب ديك الجن المشاكل لمذهب أبي نواس في الغزل فيبدو في ثورته على المقدمة الطللية، وفي التحريض على الإقبال بدلاً منها - على الخمرة والتلذذ بها، - ومن يقدّمها من الساقيات الحسان^(١) :-

قُلْتُ : السَّلامُ عَلَى الْمُحِيلِ مُحَالُ	قَالُوا : السَّلامُ عَلَيْكِ يَا أَطْلَلُ
وَمَرَادُ عَيْنِي قُبَّةٌ وَحِجَابُ	عَاجِ الشَّقِيِّ مَرَادُ مَعْنَى الْبَلَاءِ
وَلَا تُرَقِّنَ الْبَيْتَ فِيهِ غُزَالُ	لَا غَارِيَّةَ الرَّاحِ وَهِيَ زَلَالُ
حُرْقٌ، وَحُسُوفٌ وَإِذْهُ بُلْبُلُ	وَلَا تُرَقِّنَ حَلِيلَهَا وَيَقْلِبْ
وَكَلَامَا لِي بَارِكٌ سَلَسَالُ	وَلَيْسَ قَلْبِي فَمٌ وَجَنَسَى يَكِيدُ

وعو مثل أبي نواس متنتك قليل التدين، مجاهر بالفسوق حريص على إمتاع سمعه بصوت المثنائي والمثالث، حريص على إمتاع ناظره وروحه بالكأس في كف أغيد^(٢) :-

يَقُولُونَ : تُبِّهِ وَالْكَاسُ فِي كَفِّ أَغْيَدٍ	وَصَوْتُ الْمَثَانِي وَالْمَثَالِثِ عَالٍ
نَقَلْتُ لِمَنْ : لَوْ كُنْتُ أُنْخَمَرْتُ تُوسَّئَةً	وَعَايَنْتُ هَذَا فِي الْمَنَامِ بَدَاسِي

فقد وضع نفسه أمام معادلة حدّاعا متناقضان: التوبة في جانب، والكأس في كف أغيد وصوت المثنائي والمثالث في الجانب الآخر، أو بعبارة أخرى: نعيم آجل في مقابل متع عاجلة، فانشئ أمام الإغراءات المتاحة. ويمثل هذا الانصياع لمفاتيح الحسان قوله، وعنه الأكبر أن يجتمع بمعشوقته ولا فرق بعد ذلك إن كان مكان اللقيا جهنم أو الجنة^(٣) :-

أَلَا لَيْتَنَا كُنَّا جَمِيعَيْنِ فِي الْهَوَى تُضْمُ عَلَيْنَا جَنَّةٌ أَوْ جَهَنَّمُ

(١) ديوان ديك الجن بتحقيق أحمد مطلوب، القصيدة ٣٠ .

(٢) المصدر نفسه، القطعة ٦٢ .

(٣) المصدر نفسه، القطعة ٦٦ .

ويبدو أن ديك الجن ظل رجلاً باحثاً عن المتعة الحسية يُشبعها بحسان دور الحانات قبل أن يظفر بحسنائه النصرانية التي تزوجها من بعد ، فهو القائل (١) :

مولاتنا يا غلام مبتكِـرة	فباكر الكأس لي بلا نظـره
ما دُفْتُ منها سوى مقلـة	وضم تلك الفروع منـدرة
وانتهرتني فمت من فـرق	يا حسنها في الرضا ومنتهـره
ثم اثنت سورة الخمار بنـسا	خلال تلك الغدائر الخـمـرة

فهو يؤمن أن اللذة الحقيقية تكمن في أمرين متلازمين : المرأة والخمرة ، ولا فرق بعد ذلك إن كانت المعشوقة واحدة أو ثلاثاً معاً (٢) :

بأبي الثـلاث الاتـسـات	سـات الرائعات الفانيـات
أقبلن والأصـدأ فـسي	وجناتهن من معقرـيات
الفاظن منهنـسا	ت والجفون مذكـرات
جـمـشـن وقلـست طيـسا	بـعناقـن هو الحيـسا (٣)

وظل هذا دأب ديك الجن في الاختلاف إلى الحانات بحثاً عن الحُسن والخمر ، حتى إذا ما وقع نظره على ساقية نظم فيها ، وإذا ما وقع على غلام جميل عام به (٤) :

دع البدر فليغرب فانت لنا بـدر	إذا ما تجللى من محاسنك الفجـر
إذا ما انقضى سحر الدين ببـايل	فطرفك لي سحر وريقك لي خـمر

ويبدو التشابه بين ديك الجن وأبي نواس كذلك في اعتمادهما الأوزان الخفيفة الغنائية ، وهو ما جعل شعر الديك يسير في العراق مع ما قيل إن ديك الجن لم يغادر الشام إلى أي من الأمصار الإسلامية الأخرى (٥) ، وقد أظهر أبو نواس غيرته من سريان شعر الديك في العراق حتى

-
- (١) الأغاني ١٤ : ٥٢ .
 (٢) القطعة ١٦ من ديوانه بتحقيق أحمد مطلوب ورفيقه .
 (٣) جمش النساء : غازلن بالقرص والملاعبنة .
 (٤) الأغاني ١٤ : ٦٠ - ٦١ " من قطعة في غلام اسمه بكسر " .
 (٥) انظر الأغاني ١٤ : ٥١ .

قال له لما زاره في حمص في أثنائه مروره أبو نواس بها متوجهاً إلى مصر : "فتنت أهل العراق بقولك :

موردة من كف ظبي كاتسها تناولها من خده فأدارها (١)

وهذا البيت من قصيدة تظهر مدى التوافق الكبير بين الشاعرين في المذهب ، فكلاهما قد تغزل بحسناوات الحانات ، ويتساقى الراح من أيديهن ، كما يظهر فيها تماثلهما على الخمرة ، وعلى قلة اكترائهما بالقيم الدينية ، وفيها يقول :

بها غير معذور فد أو خمارها	وصل بعشيات الغيوب ابتكارها
فقام تكاد الكأس تحرق كفسه	من الشمس أو من وجنتيه استعارها
مُسَعَّشَةً من كف ظبي كاتسها	تناولها من خده فأدارها
ظلمنا بأيدينا نتمتع روجها	وتأخذ من أقدامنا الراح نارها
ونل من عظيم الوزير كل عظيمه	إذا ذكرت خاف الحفيظان نارها

لقد وجد أبو نواس في شعر ديك الجن الحمي ما يرضي منهجة في الحياة ومنهجة في الشعر، فقال تعليقاً على هذه الأبيات : إن ديك الجن بها أشعر الجن والإنس (٢).

وتظهر الأبيات التالية ديك الجن جالساً في حانة وعيناه مصوبتان إلى حسن الساقية الجسدي فيقول في تصويرها : (٣)

فقام مختلفاً كالبدري مطلقاً	والظبي ملتفتاً والغصن منعطفاً
رفعت غلالة خده فلو رميها	باللحظ أو بالمنى عما بأن يكتها
كأن قافاً أدبرت نون وجنتيه	واختط كاتبها من فوهة ألقها

وقاد عيام الشاعر بالحسان وبالخمير إلى ضروب من التصوير ظريفة ، ومعان لطيفة ، وهذا كله ينطلق مع نفسه انطلاقاً مقتدر على نظم الشعر بلا تعمل واجهاد نفسه.

(١) انظر وفيات الأعيان ٢ : ٣٥٦ .

(٢) انظر العمدة ١ : ٢١٩ .

(٣) القطعة ٥١ من ديوانه .

وهذا التشابه الكبير بين غزل أبي نواس وغزل ديك الجن الحمصي قد يشي بأن أحدهما متأثر بالآخر . والواقع أن الحكم على هذا التصور غير متيسر ، فالشاعران متعاصران ، وضروب التراسل الثقافي بين أمصار الإسلام كانت آنذاك سهلة ميسورة . ولا بد أن يكون لبيئة الشاعرين قدر من القواسم المشتركة ، فكلاهما فارسي الأصل ^(١) ، وكلاهما نبت في بيئة حضارية منفتحة هي بغداد وحمص ، فجاء التشابه بينهما في المنزع والمذهب طبيعياً . وقد أدنى هذا التشابه بين الشاعرين إلى اختلاط أشعارهما ، فالببيتان :-

أَتَرَكُ لَذَّةَ الصَّهْبَاءِ عَمْسَداً لَمَّا وَعَدُوهُ مِنْ لَبَنِ وَخَمْسِرٍ
حياة ثم موت ثم بعْسٌ حديث خرافة يا أم عمّسِرٍ

ينسبان إلى أبي نواس حيناً ، وإلى ديك الجن حيناً آخر ^(٢) . وأما قولنا إن غزل ديك الجن نواسي المنهج ، فلا يتناقض مع الجمل بأيّ الشاعرين كان المتدع له ، وإنما كان ذلك لأن هذا اللسان من المنزل بأيّ نواس أعلق ، وهو به أشهر .

ويبدو أن أثر البيئة في بروز هذه الألوان من المنزل لم يكن محصوراً في ديك الجن وحده ، فقد كانت ظاهرة اقتصار الفلمن شائعة بسبب كثرة أسرى الروم في أيدي المسلمين . وكذلك يظلل المنزل المقرون بالخمر مؤثراً دالاً على وجود الحانات ، وعلى أن الشعراء كانوا يرتادون هذه الحانات ، وينظمون متأثرين بأجوائها شعراً عراً أشبه بالمقطعات التسجيلية العاجلة ، غير معنيين باستصفا صور بدیعة في الغالب ، لا نستثني من هذا الحكم إلا الشاعر الذي كان يتوحد في الحانة وما فيها لأنها مذمومة في الحياة . أما الشاعر الذي كان يعرج على الحانة بين الحين والآخر تمرّجاً عاجلاً ، فإن الغالب عليه ألا يحفل بشعره ، وألا يتلبث طويلاً في وصف ما يشهده . ومن هنا شاعت المقطعات الشعرية لدى شعراء عرفوا بنظم قصائد ذات نفس طويل . وفي هذه الأجواء من الانفتاح على معطيات البيئة الحضارية لم يجد حتى كبار الشعراء من عرفوا بالجد في حياتهم العامة حرجاً في أن ينظموا غزلاً ما جناً كأبي تمام وغيره ، فهو من ناحية استجابة لتقليد شعري درج عليه من قبلهم ، ومن ناحية

(١) انظر في نسب ديك الجن وعصبته على العرب : الأغاني ١٤ : ٥١ .

(٢) انظر الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، ط ٣ ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥١ : ٦٤ .

ثانية خروج إلى التفكه بالأحماض، ومن ناحية ثالثة خضوع للنواحي المادية في ما يسعى العالم السفلي من الحضارة . وما كنت لأجد حرجاً في إيراد أمثلة منه لو كانت له قيمة فنية (١) .

٢- الغزل العذري :

لم يخرج الشعر العذري الشامي في هذه الحقبة عن الإطار العام الذي اختطه شعراء الغزل العذري في العصر الأموي . فهم مولعون بشديدو التعلق بمعشوقاتهم ، متعفون لا يصورون مواطن الجمال في من أحبوا إلا قليلاً ، وعم كذلك أوفياء ، يقاسون الحرمان ، ويعانون ألم الصدود وتباريح الهوى . أما المعشوقات فهن دائماً حبيبات صواد ، متنعات لا يزن العاشقين إلا بأطيافهن ، ولذلك فالشاعر العاشق ينحل جسمه نحولاً شديداً ، ويهزل عزلاً حاداً ، وخير ما يصور عن هذا المنزع قول عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي (٢) :

سلبت عظامي لحمها فتركيتها	مجردة تُضحي إليك وتُخصر
وأخلتني من مخها فتركيتها	أنابيب في أجوائها الريح تُففر
إذا سمعت باسم الغواني تدغم	مفاحلها من هول ما تنتظر
فما حيلتي إن لم تكن لك رخصة	علي ، ولا لي عنك صبر فأصبر

ويتكرر هذا المعنى في تقرير التلهف وإظهار أثر معاناة المحب في جسد الشاعر وروحه لدى جل العذريين ، ومنهم محمد بن سلامة بن أبي زرة الدمشقي إذ يقول (٣) :

كيف يخفى نحول من ليس يخفى	هل ترى لي إلا لساناً وطرفاً
إن عيني رمت فؤادي بنار	سوف أطفأ وجرها ليس يطفأ
فستى الله كأس كل سُورور	من سقاني كأس النية صرْفاً

كما يلتقي شعراء هذا اللون من الغزل العذري من الشاميين مع نظرائهم الأولين من الغزلين العذريين في مبالغاتهم التي لا تقوم على أصول فنية في التصوير ، وإن كانت أشباه هذه المبالغات

- (١) انظر القطع ٤٥٥٩ ، ٤٥٩٠ ، ٦٢٣ ، ٦٥٨ من ديوان البحري ، ٢٤٧ ، ٢١٨ من ديوان أبي تمام .
- (٢) حماسة أبي تمام بشرح التبريزي ٣ : ١٩٦ .
- (٣) صورة تاريخ مدينة دمشق ١٥ : ٤١٦ .

قد رأت ابن طباطبا العلوي وقدامة بن جعفر^(١) . كما يلتفتون معهم في تقريرتهم المباشرة فسي نقل عواطفهم ، والحديث عن معاناتهم ، وذلك في مقابل جمال التصوير الملحوظ في أشعار الغزلين الماجنين .

وتتردد في أشعار العذريين الشامين الشكاوى من العذال ، وهم في هذا أيضاً ليسوا بدعاً ، بل إن ضيقهم بهم كضيق نظرائهم من الغزلين العذريين بعامه ، ويوضح هذا المنحصر قطع عديدة لشعراء عديدين منهم محمد بن الحسن بن الحسين الدمشقي^(٢) ، ومحمد بن أحمد ابن أبي نصر العسقلاني الكنائي^(٣) ، ومحمد بن أبي ربيع السوري^(٤) ، والبطين البجلي الحمصي^(٥) ، يقول أبو نصر العسقلاني في قطعة تتمازج فيها المبالغة الممجوجة والشكوى من العذال :

أذاب قدك أوصالي فلو خرجت نفسي لما علمت بالنفس أوصالي
قد جاء بعدك عذالي فما برحت حتى بكى لي من الباكين عذالي

ويقول السوري في تقريرية مباشرة مقارناً بين حاله في الإخلاص والوفاء ، وحال المحبوبة المتنعمة الخائنة بطاوعها لعذالهم :

حبيب تحملت إذ لآله ولم أحب الضيم إلا لآله
عصيت المواويل في حبس وخان فطاع عذال آله
لئن فاز بالصبر قلب أموري فطوى قلبي طوى لآله

ويخطو محمد بن الحسن الدمشقي النظامي خطوة أخرى في الحديث عن علاقته بمحبوبته والعذال يحاصرون العاشقين عندما يراهن على سلامة علاقته بها ، واقتدارهما معاً لذلك على

(١) انظر : عيار الشعراء : ٥١ - ٥٣ .

نقد الشعراء : ٦٥ - ٦٧ .

(٢) لم ترد له ترجمة تذكر غير سنة وفاته التي كانت في سنة ٢٨٩ هـ . انظر : مصورة تاريخ مدينته دمشق : ١٥ : ٢٢٧ ، الوافي بالوفيات ٢ : ٣٥٥ ، المحمدون من الشعراء : ٢٣٠ .

(٣) انظر : معجم الشعراء : ٤٥٨ ، الوافي بالوفيات ٢ : ٣٦ ، المحمدون من الشعراء : ٢٢ .

(٤) انظر : معجم الشعراء : ٤٥٦ .

(٥) انظر : الورقة : ١٠ - ١٢ ، طبقات ابن المعتز : ٢٤٨ .

التصدي لأولئك العذال ، يقول : -

فَإِنْ عَزَمَ الْعُذَّالُ عِنْدَ لِقَائِنَا
وَشَتُّوا عَلَى أَشْمَاعِنَا وَتَكَاثَرُوا
لِقِينَا عُمٌ مِنْ نَاطِرِيكَ وَمُهَجَّتِي
وَمَا لَهُمْ عِنْدِي وَعِنْدَكَ مِنْ شَارِ
وَقَلَّ جُنُودِي عِنْدَ ذَاكَ وَأَنْصَارِي
وَأُدْمَعْنَا بِالسِّيفِ وَالسَّيْلِ وَالنَّارِ

وقد يصف الشاعر العذري لقاءه بمحبوبته ، غير أنه يظلُّ حييًّا غفيًّا ، مترفعًا عن ذكر مشاهد من عبث الما جنين ، أو شيء من نعوت المحبوبة ، ويمثل ذلك أبيات عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي التالية التي يصور فيها بعفة ما دار بينه وبين صاحبتة من حديث خاطف في أثناء لقاءه بها ، كما يصور خوفها من هذه الزبارة (٢٨) : -

أَتَى دُونَ عِذَا الْوَعْدِ مِنْ تَكْمِ الْمَطْلُ
فَقَالَتْ ، وَأَبْدَى الْوَجْدَ مَا دُونَ صَدْرِعَا
أَأَشْعَرْتُ بِي أَهْلِي عَشِيَّةَ زُرْتِنَا
فَقُلْتُ : فَذَا قَدْ كَانَ مَا لَيْسَ رَاجِعًا
وَمَا جِئْتُمْ عُمْدًا ، وَلَكِنَّ ذَا الْهَوَى
وَأَيُّ عَمَى يَبْقَى إِذَا لَمْ يَكُنْ بِكَذَلْ
فَلَمْ يَبْقَ بَابٌ دُونَ سِرٍّ وَلَا قُفْلٍ
جَهَارًا ، وَمَا عُذْرِي إِذَا شَعَرَ الْاهْلُ
فَمِلْ عِنْدَكُمْ إِلَّا التَّحْفُظُ وَالْعَسْذَلُ ؟
إِلَى حَيْثُ يَنْوِي الْقَلْبُ تَبْوِي بِهِ الرَّجُلُ

يعلى الرغم مما ألمحنا إليه من مواطن التشابه بين قصائد هؤلاء الغزلين العذريين الشاميين وقصائد الغزل العذري ذات المنحى المعروف في العصر الأموي ، فإننا لم نظفر باسم واحد من أسماء أولئك المعشوقات ، كما أن الغالب على هذا الشعر أنه جاء في مقطوعات حظما من الإبداع لا يقاس بحال إلى مقطوعات الغزل الما جن ، ولا إلى قصائد جميل بن معمر ، وقيس بن الملهج وأغرابيما من الغزلين العذريين . ويلاحظ على وجه العموم أن لغة الغزل الما جن أرق وأعذب وحظها من التصوير أوفى . وهذا الفرق بين المذعبين نابع من التباين بين الوسطين الاجتماعيين اللذين يمثلانها . فالعذريون أغراب أو كالأغراب ، والما جنون أهل مدينة وأهل حضارة .

٣- الغزل التقليدي :-

يراد بالغزل التقليدي الغزل الذي يتصدر القصائد المنظومة في أغراض أخرى وبخاصة المدح والفخر . ويلقى الدارس المعنى في أبنية هذه القصائد شكلين من أشكال الغزل : شكلاً تنقطع فيه أبيات القصيدة اللاحقة عن هذه المقدمة انقطاعاً تاماً في البناء اللغوي والوشيجة المعنوية أو النفسية ، وهذا الشكل هو العام الغالب في قصائد الطائيين ؛ وشكلاً قد تُلاحظ فيه صلة معنوية ، أو تيار نفسي يصل بين المقدمة وما يليها ، فتكون المقدمة في القليل النادر من هذه القصائد مشحونة بهم القصيدة الأولى . والأمثلة على ضرب الأول كثيرة منها قصيدة أبي تمام^(١) في مدح أبي المغيث الرافقي التي سور فيها مغاني المحبوبة بقوة ، وصرف الدهر تعمل فعلها بالتفريق بينهما ، وقد عرض أوصاف تلك المحبوبة ، وهي أوصاف يحج أن تكون في أي حسنة ، بل هي صورة عما فسي ذهنته لصفات المرأة المثال ، فهي " رقيقة حسنة القد " ، " لها زفرة تعطي الشباة حقها " و " جيدها جيد غيدا " التثني " و " نظرتنا عليقة " و " مبتسمها بـرد " :

ومن فاجس جعدي ومن كفي نهدي ومن قمر سعي ومن نائل نعد^(٢)

وينهج أبو تمام نهجاً أوضح في الدلالة على ترسبه خطي الأقدمين من شعراء العصر الجاهلي في قصيدته التي نظمها في مدح قاضي نصيبين ورأسعين^(٣) ، إذ توزعت القصيدة في ثلاث وحدات ، جاءت الوحدة الأولى فيها لوماً لصاحبه التي هجرته ورحلت عنه دون أن يظفر منها بتحية الوداع على وفائه لها ، ثم جاءت الوحدة الثانية بوصف الرحلة والراحلة التي حملته إلى مدوحه ، وانتهت القصيدة بالوحدة الثالثة المخصصة للممدوح . وهكذا كان شأن القصائد الكثيرة في ديوانه^(٤) ، وقد جسا في قصيدته الثانية عشرة مثلاً قوله في مدح أبي سعيد الشفري :-

كل يوم تبدى صروف الليالي خلقت من أبي سعيد رغيي
طاب فيه المديح والتدحى فاق وصف الديار والتشبيبي

(١) هي القصيدة ٥٦ من ديوانه.

(٢) الشد : القليل .

(٣) هي القصيدة ٢٨ من ديوانه.

(٤) انظر أمثلة أخرى القصائد ١٢ ، ١٤ ، ٥٨ ، ٦٨ .

فقلوبه : "فان وصف الديار والتشبيها "تعبير صريح بأن المنزل الذي يقترن بوصف الديار هو منهج يألفه الشعراء" . وبعبارة أخرى هو منهج تقليدي لا يقوم على حب حقيقي لامرأة بعينها يهيم بها الشاعر ، وتتفجر لذلك طاقته الإبداعية في التعبير عن معاناته الحقة بحبها .

وكان هذا شأن البحري في كثير من قصائده . ففي قصيدته السادسة والأربعين مثلاً التي نظمها في مدح ابن بسطام^(١) ، الذي كان والياً على الشام يذكر البحري أنه كان في الخمسين من عمره . ومع ذلك نجده يقول في هذه القصيدة إنه كان مجنوناً في حب امرأتين تدعى إحداهما ليلى ، وتسمى الأخرى سعدى ، ثم تتوحد المعشوقتان في شخص امرأة ثالثة سماها زينب خشية عليها من الافتضاح : -

جُنُونِي فِي لَيْلَى وَلَيْلَى خَلِيَّةٌ	وصنوي إلى سعدى وسعدى تجنب ^(٢)
وَإِذَا لَيْسَتْ كَانَتْ جَمَالَ لِبَاسِهَا	وتسلب لبّ المجتلي حين تسلب
وَسَمِيَّتْهَا مِنْ خَشْيَةِ النَّاسِ زَيْنَبًا	وكم سترت حباً على الناس زينباً

أما القصائد التي تلحظ فيها الصلة المعنوية بين المقدمة وما يليها فخير مثل عليها قصيدة للبحري مطلعها^(٣) : -

أرى بين ملتفت الأراك منازلاً موائل لو كانت مراها موائل

فتشبيب الشاعر بالمنازل والديار وعيون المها ليس سوى مظهر من مظاهر الرغز المستكن في داخله للتحول عنها إلى "التقلد في سرايا ابن يوسف الشعرى" ، الذي حمل الشاعر على المشاركة في حرب الشنوز كرمًا ، وهو ما أفصح عنه بعض الإفصاح قوله فيها : -

لَكَ الْخَيْرُ أَنْظَرَهُمْ لِنَتْنَجِجِ الرُّبَا	منورة أو تحلب الخلف حافراً
فَقَدْ غُرَّتْ بِالْفَارَاتِ فِي وَهْدَاتِهِمْ	ولياً ووسعياً ، رذاذاً ووابلاً ^(٤)

- (١) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن بسطام . توفي في خلافة المعتدر سنة ٢٩٧هـ / ١٠٩١م . انظر: الكامل في التاريخ ٦ : ١٣٧ .
- (٢) الصغو : الميل .
- (٣) القصيدة ٦٣٠ من ديوانه .
- (٤) الولي : المطري يأتي بعد الوسي . والوسي : مطر أول الخريف لأنه يسم الأرض بالنبات .

وليس حديث البحري عن الهم الذي تلبسه بفرقة الأحاباب في القسيدة الأولى من الديوان، إلا مدخلاً
لحديث عن أحزانه بسبب رحيل أبي سعيد الثغري عن أرض الشام والجزيرة، فهو يقول في المقدمة
المحزونة : —

زَعَمَ الثُّرَابُ مَنِيَّ الْأَنْبِيَاءِ	أَنَّ الْأَجَبَةَ آذَنُوا بِتَنَسُّائِ
فَأَتْلَيْجُ بِيَرْبِ الدَّمْعِ صَدْرًا وَاعْزَاءِ	وَجَوَانِحًا مَسْجُورَةَ الرَّمْضِ نَائِ (*)
لَا تَأْمُرُنِي بِالْعَزَاءِ وَقَدْ تَسْرَى	أَثَرُ الْخَلِيطِ وَلَا تَحِينَ عَازِ

وعندما وصل إلى الحديث عن الثغري أفصح عن الهم الحقيقي الذي كان يعنيه، ومورحيل الأمير
محمد عن الجزيرة والشام : —

مَا لِلْجَزِيرَةِ وَالشَّامِ تَبَسُّدًا	بِكَ يَا بَنَ يَوْفَ ظُلْمَةٍ بِضِيَاءِ
نَضَبَ الثَّرَاتِ وَكَانَ بَحْرًا زَاخِرًا	وَاسُودَّ وَجْهُ الرُّقَّةِ الْبَيْضِ نَائِ
رَحَلَ الْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ فَتَرَحَّلَتْ	عَنْهَا غَفَارَةُ هَذِهِ النَّمَمِ نَائِ

(*) المسجورة : المتقدة • الواغرة : المتقدة غيظا .

رابعاً : الفخر :-

أسهمت عوامل عدة في شيوع الفخر في الشعر الشامي في هذه الحقبة ، فكان للتناحور القبلي بين القيسية واليمينية أثر كبير في بروز شعر الفخر بالنفس والقبيلة . ولما كان أكثر شعراء هذه الفتن القبلية فرساناً فقد غلب لذلك الفخر بالنفس على الفخر بالقبيلة .

ومحور مقطعات الفخر وقصائده هو وصف للبطولة الفردية أو الجمعية ، وهو يرد في أثنائها وصف لقطات مختزلة من المعارك التي كانت تحدث بين الطرفين . ومن أمثلة ذلك قول عبد الله ابن سعد بن عتبة الثقفي الذي كان من معدودي فرسان قيس في وصف جانب من معركة خاضها في فتنة أبي الهيثم (١) :-

ما زلتُ أُحِيلُ مُهْرِي وَسَطَ حَوْمَتِهِمْ	ونحنُ في رَمَجِ الهَيْجَاءِ نَطْوِينُ (٢)
حتى قَطَعْتُ حُسَامِي فِي رَوْسِهِمْ	وَقُلْتُ : لَا تُدْكِرَنَّ مِنْ بَعْدِهَا يَمَنُ
والخَيْلُ عَابَسَةٌ قَدْ سُرِلَتْ بَدَمٍ	يَغِيبُ فِيهَا الْأَرْسَاعُ وَالشَّنَنُ (٣)

وقوله في قطعة أخرى مهدداً متوعداً مقسماً أن يرحل اليمانية من بلاد الشام ليعودوا إلى ديارهم الأولى (٤) :-

أَقُولُ إِذْ جَعَلُونِي فِي رِمَاحِهِمْ	والسَيْفُ يَأْخُذُ مِنْهُمْ مُشْرِفَ الْهَسَامِ
أَنَا أَصْدُ وَفِي كَفِّي ذَوْ شَطَطٍ سَبَبٍ	صَمَامَةٌ تَتَعَدَّى كُلَّ صَمَامٍ
وَاللَّهِ لَا أَنْفَكُ فِيكُمْ كَذَا أَبَدًا	بِالْقَتْلِ حَتَّى تُخَلَّوْا جَانِبَ الشَّامِ
أَوْ تَلْحَقُوا بِبِلَادِ الشَّحْرِ فِي سَخَطٍ	مِنَ الْإِلَهِ ، وَفِي ذَلِكَ وَإِعْصَادُ (٥)

وقد يفخر الشاعر بنفسه مزدهياً بها أمام أفراد قبيلته ، وذاكراً بعضاً من الأيام التي برز فيها في مطاعنة الخصوم ، ومن ذلك قول محمد الكِنَانِي اللَّيْثِي (٦) :-

- (١) مصورة تاريخ مدينة دمشق ٩ : ٣٦٢ تهذيب ابن عساكر ٧ : ٤٢٩ .
- (٢) الرهج : غبار المعركة .
- (٣) الثنن : شعرات في مؤخر الحافر من اليد والرجل .
- (٤) مصورة تاريخ مدينة دمشق ٩ : ٣٦٢ .
- (٥) بلاد الشحر بكسر أوله وسكون ثانيه بين عدن وعُمان / معجم البلدان / شحر .
- (٦) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٦ : ١٥٩ .

قد علمت قيس بن عيلان أنثسي
وأني غداة العرج أول فـارس
وطاعت يوم السككيتين معلماً
وجالدت بالمضرب الحسام وتلكنهم
دعت ويلها فحطان لما جهدت لها
حملت على ذي القنوس المتخفـf

فهو يباهي بنفسه أن قتل سيده من سادات عنس «عوزيرة بن سباتك العنسي» وهو يجوي فـي فخره هذا على سنن الشعراء العرب في الفخر عندما صور - كما كانوا يصورون - الخصم فارساً معلماً ومقاتلاً شجاعاً ، ولذلك فإنه لا يُنازل إلا الأبطال ، وإنه إذا تردد فرسان قبيلته عن منازلة هؤلاء الخصوم الشجعان فإنه يسارع إلى المنازلة : -

فإن تنزل الأبطال أنزل ، وإن تحم
حذار الردى يا قيس أحمل وأعطف

أما الفخر الجمعي في أحداث فتنة أبي الهيثم فإن ما ورد منه لشعراء قيس في مصادر الدراسة قليل ، فهل معنى ذلك أن ذاتية الشعراء كانت أكبر من الاستشعار بالتوحد في القبيلة والحديث بلسانها ؟ إن الجواب فيما أرى أن بروز ذاتية الشاعر لم يكن انشعاباً عن القبيلة ، وإنما هو رائد لها ، غير أن «الآثا» في مواقف الخطر والمنازلة تتضخم على كل ما عداها ، وأن تضخيمها يظل نطقاً من أنماط رؤى اللغة الذاتية المهددة بالقتل أو الذوبان في الآخرى .

وكان أبو الهيثم نفسه وابنه خريم قد أكثرا من الفخر بقبيلتهما قيس ، فمن فخر خريم قوله في طعنه لأحد فرسان طي ، وسادتها ويدعى المعتمر بن أيوب الطائسي (١) : -

أنا أخو طي ، غـدوة
أنتنا قروء يمانية
ولاقت سويقاً معدية
فما آب منها ولم يغنم
فذاقت أمر من العلقم
يقول خريم لها : خذمي

(١) القنوس في اللغة هو مقدم الرأس وأعلى بيضة الحديد .

(٢) تهذيب ابن عساكر ٥ : ١٢٩ .

أَمِنْ حَمَضَ جِئَتْ تَقْرِي الْقَنَا
تَرْجِي أَبْنُ أَيُوبَ أَشْلَأَ نَسَا
إِلَى مَرْجٍ عَذْرَاءَ لَمْ تَخْشِ مَرْجٍ (١)
رُؤَيْدَكَ ، ذُقْ حَسْرَةَ الضَّيْنَمِ

وقد أضاف خريم إلى فخره بقبيلته ونطقه بلسانها سخريه لاذعة من خصومه فهم قروود أذاقتها السيوف المعدية لباس الخوف والحسرة والخيبة جميعاً . وعلى هذه الشاكلة من الفخر المعزج بالسخرية يقول أبو الهيثم نفسه مفتخراً بقبيلته وغلبتها على اليمانية ، معيراً إياها بفرار أحد زعمائها الذي ما كان لينجو من الهلكة لولا حصانه (٢) :-

فَلَمَّا رَأَى صَدْعَ الْخَوْفِ قَلْبَهُ
وَمَا رَدَّ وَجْهَ الْبَحْدَلِيِّ مُشْرِقًا
وَنَجَاهُ سُرُحُوبُ كَرِيمِ النَّاسِرِيبِ (٣)
لَوْ يَتَّقُهُ عُتْبَةُ مُشْرِقَةً
سَوَى بَابِ بَغْدَادٍ كَأَسْعَ هَارِبِ (٤)
لَعَا حَوْهَ كَأَسَا مُرَّةَ الطَّعْمِ لَمْ تَكُنْ
غَلَاظُ رِقَابِ الْبَاهِمِ شُؤْسِ الْخَوَاجِبِ (٥)
مُدَامَةً نَدْمَانٍ وَلَا كَأَسَ شَارِبِ

وهو إلى جانب تعبيره خصمه على فراره ، يعدد مواقع ظفر فيها القيسيون باليمنيين ، وهو إذ يفعل ذلك إنما يقصد إذلالهم بوقائع محزنة ، وأيام مشبودة ، فيقول :-

وَسَقْنَا بِنَا غَسَّانَ وَالْحَيَّ مَذْجَجَسًا
وَجَذَّتْ رِقَابُ السَّكْسَكِيِّينَ بَعْدَهُمْ
عَشِيَّةَ دَارِيَا يَلَا قُوْنَرُ كَسَاؤِيبِ (٦)
سَأَتْنِيكُمْ يَا آلَ قَحْطَانَ عُنُسُوءَ
نَأْمَسُوا وَهَمَ مَا بَيْنَ عَيْنٍ وَهَارِبِ
إِلَى الشَّخْرَاءِ أَوْ أَمْسَى بِلَادِ الْمَغَارِبِ

وهذا التهديد بإخراج اليمانية من أرض الشام كأنه غدا مطلباً قيسياً ملحقاً ، وكأن السلطة المهيمنة على الشام هي السلطة المضرة لا السلطة العباسية الحاكمة . وفي هذا تحدٍّ صريح للعباسيين ووالهم على الشام الذي كان منحازاً إلى اليمنيين في هذه الفتنة .

(١) مرج عذرا ، بغيطة دمشق ، معجم البلدان / عذرا . . تقرى القنا : تطعمها .

(٢) تاريخ مدينة دمشق (تراجم حرف العين المتلوة بالألف) : ٨٥ .

(٣) السرحوب : الطويل الحسن الجسم ، ومن الخيل العتيق الخفيف .

(٤) البحدلي هو عاصم بن بحدل الكلبي .

(٥) شؤس جمع أشوس وهو ذو الأنفة والكبرياء والعسرة .

(٦) مذحج جد ثلاثة بطون من قبائل اليمن أشهرها سعد العشيرة . انظر : جمهرة الأنساب :

ويتكرر فخر أبي الهيثام بقبيلته ، وذلك نمط لبق من أنماط التأشير في فرسانها إذ يشعرهم فيه بأنه وإياهم متوحدون في همّ القبيلة ومعاناتها ، يقول (١) :-

لَمَّا رَأَيْتُ حُمَاةَ الْقَوْمِ قَدْ دَلَفُوا	وَقَدُمُوا رَأَيْتُ عَنَسٍ وَخَوْلَانَا
وَجَالَتِ الْخَيْلُ أَمْ كَادَتْ تَجُولُ بِنَا	نَادَيْتُ مُسْتَجِدًّا : يَا قَيْسَ عَيْلَانَا
فَنَابَ جَمْعُهُمْ حَوْلِي كَأَنَّهُمْ	غَلَبُ الْأُسُودِ الَّتِي تَعْدُو بِخَفَانَا (٢)
وَقُلْتُ : لَا يَغْلِبُنْكُمْ مَعْشَرُ قُرْمٍ	صُفْرُ الْجُلُودِ ، بَنِي الشَّيْطَانِ قَحْطَانَا (٣)
فَخَذُّوهُمْ بِأَسْيَافٍ مَفْلَلَةٍ	وَرَاةً مِنْ أَيْبِنَا الشَّيْخِ عَدْنَانَا
أَرَدْتُ وَزِيرَةً فِي قَتْلَى مَعْدَدَةٍ	أَصْلَاهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْبَعْثِ نِيرَانَا

فأبو الهيثام ، مع استشعاره بمنزلته باعتباره زعيمًا يدعو فيلئى ، لم يُخَبِّ حاجته الحقيقية إلى معاضدة قومه له . ثم إن في هذه الأبيات شيئًا آخر عوفي هذا الاستحضار لصور النزال : فرسان اليمانية يتقدمون في مجموعتين ، تتقدم كل مجموعة رايتها ، والخيل تجول في الميدان متحدية ، وقوم الشاعر وقوف ، فنناداهم زعيمهم : يا قيس عيلان ، فالتف الجمع من حوله ، وخطبهم حائًا وإياهم : لا يغلبنكم معشر قمر صفر الوجوه ، أبناء الشياطين . فنادى فرسانهم من حوله مسارعين إلى تقطيع أجسام الخصوم بأسيايف مفللة لألغتها الضرب .

ويرد في إحدى مقطعات أبي الهيثام إشارة خاطفة إلى سبب هذه الفتنة بين القيسيين واليمنيين فيقول في معرض افتخاره بنسبه وبرجال قومه الشجعان (٤) :-

لَمَّا رَأَيْتُ عَدَاةَ الْمَرْجِ ظَلَمَهُمْ	أَنْهَضْتُ مِنْ جَانِبِ الْقُصْبَاءِ أَشْبَكَا (٥)
بَيْضًا بَهَا لَيْلٍ مِنْ قَيْسٍ إِذَا رَكِبُوا	لِلرَّوْعِ زُلْزَلَتِ الْأَرْضُونَ زَلْزَالَا
أَنَا ابْنُ خَيْرِ بَنِي دُبْيَانَ قَدْ عَلِمُوا	وَحَامِلُ الثَّقَلِ عَنْهُمْ بَعْدَ مَا مَالَا
لَوْلَا الْخَلِيفَةُ وَالْإِسْلَامُ مَا تَرَكْتُ	خَيْلِي بِأَرْضِ بَنِي قَحْطَانَ جَوَالَا

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم حروف العين المتلوة بالالف) : ٤١٩ .

(٢) خفان : مأسدة قرب الكونكة .

(٣) القزم : اللثام .

(٤) تاريخ مدينة دمشق (تراجم حروف العين المتلوة بالالف) : ٤١٨ .

(٥) القصباء : جماعة القصب النابت الكثير في مقصبة ، ويغلب على الظن أنه أراد موضعا بعينه كان كثير القصب .

فالشاعر يصرح بأنه لولا الخليفة ولولا حرمة الإسلام لما ترك قحطانياً في الشام حياً ، وأنه لو فعل لكان له عذره فاليمانيون ظلموا قبيلته . وهذه الأقوال لها قيمتها في كونها مؤشراً مرجحاً إلى أن الصراع في فتنة أبي الهيثم كان صراعاً قَبلياً وحسب ، وإلى أن والي الشام من قبائل العباسيين كان يتصرف في اتجاه مؤيد لليمانيين بمنعزل عن موقف الخليفة في بغداد ، وقد يكون فسيحاً لجلال الشاعر لشأن الخليفة مقصد آخر ، إذ لعله أراد أن يستميل الخليفة إلى القيسية بعد أن أظهر ولاية الشام في إبان هذه الفتنة وقبلها انحيازاً واضحاً إلى اليمانيين^(١) .

ومما تجدر ملاحظته في هذا الفخر أيضاً خفوت الفخر بالأنساب وبالجدود ، وذلك لأن الحرب لم تكن حرباً كلامية كما كان الشأن في فخر شعراء النقائض ، وإنما كانت حرباً حقيقية لاهبة ، وذلك يستدعي الفخر بالبطولة في المقام الأول .

وكان حظ الفخر من البروز في الشعر اليماني في أحداث حرب أبي الهيثم قليلاً ، وذلك يعود إلى كثرة هزائم اليمانيين ، ومن هنا لم تذكر في أشعارهم أسماء المواقع والأيام التي انتصروا فيها ، وغاية ما يرد فيها ذكر لأسماء من قتلوا من القيسيين ، ووعود بأن يلتحقوا بخصومهم المسوت في حلبات النزال القادمة ، كما يرد فيها درء عن النفس لثمة التقصير ، وهذه أمور إذا قيسست بمفاخر قيس تظهر الفرق بين الطرفين كبيراً . ومن الأمثلة على هذا النهج اليماني في الفخر قول حَجْوة بن مَدْرِك الغساني^(٢) :

قَتَلْنَا أَنَا سَا فَاسْتَقَلْنَا بِقَتْلِهِ	مَنَاتٍ أَضْعَفْنَا لَنَا أَوَّلَ الْأُمَمِ
فَلَا تُخْذَعِي يَا قَيْسَ عِيْلَانَ وَأَصْبِرِي	رُوَيْدِكَ إِنَّا سَوْفَ نَعْقِبُ بِالتَّبَبْرِ

(١) حَفَّ أَخِي لَأَبِي الْهَيْثَمِ كَانَ عَامِلًا لِلرَّشِيدِ عَلَى سَجِسْتَانَ مَسْؤُولِيَةِ أَحْدَاثِ الْفِتْنَةِ عَلَى أَخِيهِ ، وَفِي ذَلِكَ قَسَالٌ :

أَنِّي عَامِرٌ - لَا تَدَّرُ اللَّهُ عَامِرًا -	تَبَيَّتُ تَعْنِيْنِي السَّلَاسِلُ وَالْكَبَائِلُ
فَمَا غَرَمَ كَانَتْ سَجِسْتَانَ دَارُهُ	بِأَنَّ فَاتِكُ بِالشَّامِ زَلَتْ بِهِ النُّعْلُ
إِذَا نَحْنُ خَلَّيْنَا عَنِ الصَّلْحِ عَامِرًا	وَكَانَ التَّمَا فِي بَيْنِنَا الرَّمْحُ وَالنَّصْلُ
فَمَا نَحْنُ إِلَّا أَهْلُ سَمْعٍ وَطَاعَةٍ	وَهَلْ أَنْتِ إِلَّا السَّيْدُ الْحَكْمُ الْعَسْدُ
فَأَحْسِنِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ	أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَكَ الْفَضْلُ

(الورقة : ٢٥) غير أن هذا الشعر يجب أن يؤخذ بحذر ، فالشاعر ساجين ، وهو لذلك حريص كل الحرص على أن يظهر حسن النوايا ليرضى عنه سبحانه فيفك قيوده .

(٢) تهذيب ابن عساكر ٤ : ٩٠ ، بغية الطلب ، صورة فضل الله ، ترجمة حجوة .

(٣) في تهذيب ابن عساكر : فلا تجزي ، والتصويب من بغية الطلب .

سَأَتِيكُمْ مِنْ الْأُسُودِ مُغِيرَةً عَلَى كُلِّ طَيَّارٍ يَزِيدُ عَلَى الرِّجْسِ
فَإِنْ يَكُ فُرْسَانِي نَبَأٌ عَنْ قِتَالِهِمْ بِجَانِبِ حَرْلَانَ وَحَامُوا عَلَى النَّصْرِ
فَرُبَّ حُسَامٍ قَدْ نَبَأَ وَهُوَ قَاطِعٌ وَيَشْكُلُ أَحْيَانًا لَدَى مِخْلَبِ الصَّقْرِ

فعلى ما في هذه الأبيات من افتخار فإن فيها إقراراً صريحاً بتفسير اليمانيين ، واعتدأراً عن هذا التفسير "فرب حسام قد نبأ وهو قاطع" .

أما الوجوه الأخرى من الفخر اليميني فتبرز في صيحات التهديد والوعيد ، كالتى أطلقها الشاعر محرز بن مدرك الغساني ، كما تبرز في ذكر بعض أعلام القيسيين الذين كانت اليمن قتلهم ، وفي نفي صفة التفسير عن اليمانيين في حروبهم مع قيس ، يقول محرز في ذلك كله (٢) : -

سَأَسْقِي أَبَا الْبَيْدَامِ كَأْسًا مِنَ الرَّدَى يَظِلُّ إِذَا مَا ذَاتَهَا وَفُونَائِمْ
جَمَعَتْ لَنَا أَوْبَانًا كُلَّ قَبِيلَةٍ وَأَنْبَاطُ حَوْرَانٍ ، وَجَاءَ الْمَالِمْ
فَلَا تَعَجَّلَنَّ وَارْتَبُ جِيَادًا كَانَتْ سَرَّاحِينَ تَعْلُوهُمَا اللَّيْثُ الضَّرَّاعِمْ
فَنَحْنُ قَتَلْنَا فَارِسِيكَ كُلِّهِمْ فَقَامَتْ عَلَى بَدْرِ وَرَزَّ الْمَائِمْ

وقال في قطعة ثانية (٤) : -

لَقَدْ خَدَمْتُ أَسْيَافُنَا وَرَمَاحُنَا فَأَثَرَنَ بِالْأَفْصَالِ بَدْرُ بَنٍ كَامِمْ
حَمَلْنَا عَلَيْهِ حَمْلَةً يَمِينِيَّةً عَرَكَمَاهُ فِيهَا تَحْتَنَا بِالْكَلاكِمْ
فَلَسْنَا بِأَنْكَاسٍ إِذَا الْحَرْبُ شَمَّرَتْ وَلَا نَحْنُ فِيهَا بِاللَّكَامِ التَّنَابِمْ
بَأَسْيَافِنَا اللَّائِي شَهْدَنَ (٥) ذَوَاتِ الْغُلُولِ الْمُخْلِصَاتِ الْمَنَاصِمْ
نَصَرْنَا بِهَا الْإِسْلَامَ مِنْ كُلِّ فَاجِيسٍ جَحُودٍ عَتُودٍ مِنْ جَمِيعِ الْقَبَائِمْ

وأكبر الظن أن حديث الشاعر عن نصرته الإسلام في هذا المقام يراد بها نصرته القائم على أمر المسلمين ، وفي هذا ، إن صح ، دليل على مساندة اليمانيين للخليفة وولاته في الشام .

- (١) حرلان ناحية بدمشق بالخطوة فيها عدة قرى : وفي تهذيب ابن عساكر "جولان والتصويب من بغية الطلب لأنه أقرب لمواقع أحداث الفتنة" . وانظر : معجم البلدان / حرلان ، وقال محمد كرد علي : هو من القرى الدائرة . انظر : غوطة دمشق : ٢٢٩ ، وحام بمعنى قسار .
- (٢) صورة تاريخ مدينة دمشق ١٦ : ٢٧٨ .
- (٣) السراحين جمع سرحان وهو الذئب .
- (٤) صورة تاريخ مدينة دمشق ١٧ : ٢٦٩ .
- (٥) فراغ في الأصل .

غير أن الفخر بالأنساب على سنن شعراء العصر الأموي والعصر الجاهلي ظل له حضوره المتميز في شعر الطائيين الكبارين أبي تمام والبحتري . أما أبو تمام فقد عني عناية فائقة بتعداد أسماء الأعلام المشهورين من طي ، ذاكراً الخصال الحميدة التي اشتهر بها كل منهم ، وقسده أغرق في رسم صور مثلى لهم ، يقول في إحدى قصائده : معدداً أعلام قبيلته (١) :-

أنا ابنُ الذين استرضعَ الجودَ فيهمُ وسَيَ فيهم وهو كهلٌ وياقِيعُ
سمايَ أوسَ في السماءِ وحاتمُ وزيدُ القنا والأثرمانِ ورافِعُ (٢)

وقد ظل هاجس التعالي على القبائل الأخرى بارزاً في شعر أبي تمام ، مما يدل على أن رواسب القبلية الجاهلية كانت ما تزال في الصدور ، وهو في تنفج هذا كبير الشبه بالفردق ، يقول في قطعة ملخصاً هذا الشعور القبلي المتعالي (القطعة ٤٨٢) :-

عن اجتمعت علياً معدٌ ومذحرج بللتحم إلا ومننا أميرهم
بل اليمع استملت لدى كثر موطنين ومار لطي تاجها وسريرهم

وتنفج البحتري وهو في حداثة سنه بقبيلته فقال في خطابية مباشرة تكشف عن نورة الشباب ، وحمية الصبي (٣) :-

إن قومي قوم الشريف قد يمًا وحديثاً أبسوة وجودا
ذميت طيئ بسابقة المجود على العالمين بأساً وجودا
مئسراً أمسكت حلومهم الأره ضوكادت من عزهم أن نعيدا
ملكوا الأرض قبل أن تملك الأره ضوقادوا في حافتيها الجنودا

- (١) القصيدة ٤٨٢ من ديوانه .
(٢) أوس المذكور هو أوس بن حارثة بن لأم من سادة طيئ المشهورين كان لابنه جوير صحبة . انظر جهمرة ابن حزم : ٣٩٩ ديوان أبي تمام ٤ : ٥٨٥ . وزيد القنا هو زيد الخيل ، أدرك الإسلام ووفد على النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم انصرف فمات قبل أن يصل إلى أهله . أثني عليه الرسول وسماه زيد الخير . انظر جهمرة ابن حزم : ٤٠٣ ديوان أبي تمام ٤ : ٥٨٥ . والأثرمان من سادة طيئ . ورافع هو رافع بن عميرة بن جابر الطائي ، كان دليل خالد بن الوليد من العراق إلى الشام . انظر : جهمرة ابن حزم : ٤٠٢ .
(٣) القصيدة ٢٤٧ من ديوانه (تحقيق حسن كامل الصيرفي) .

وللبحتري قصيدة أخرى تنضح مغالاة في ذكر فعمال طهي^١ ورجالها^٢ وفيها فخر بالنفس وتمرد على الزمان الذي أنقره انتقاماً من بذل قومه القديم للمال - على حد قوله - (١) :-

أَنْ كَانَ قَوْمِي قَوْمًا بِفِعَالِهِمْ شَدِيدَ اعْجَاجِ الدَّهْرِ فِي سَالِفِ الْعَصْرِ
وَجَارُوا عَلَى الْأَمْوَالِ بِالْجُودِ جَوْرَهُمْ عَلَى مَعْشَرِ الْأَعْدَاءِ بِالْقَتْلِ وَالْأَشْرِ
أَيَقْتَصِرُنِي آخِرُ الدَّهْرِ ظَالِمًا جَرَّائِرَ أَجْدَادِي عَلَى أَوَّلِ الدَّعْـمِـرِ

وتستمر القصيدة بعد ذلك في أبياتنا الخمسة والأربعين تذكر كرم الطائيين وشجاعتهم واقتدارهم على خصومهم وسيادتهم على مَنْ سواهم من قبائل عدنان وقحطان^٣ ويبدو فيها الشاعر شاباً مثلكاً زعواً وخيلاً، يأياهم طهي^٤ على القبائل الأخرى والأقوام الآخرين روما وعرباً، إلى أن يقول :-

وَفِي يَوْمٍ صَفَيْنَ اتَّصَفْنَا ذُرَى الْعُـسْـلَا وَقَدْ جَعَلَ الْخَطِيءُ يَعْثُرُ بِالْكَسْرِ
لَنَا حَسَبٌ لَوْ كَانَ لِلشُّعْرَاءِ تَفَرُّبٌ وَلِلْبَدْرِ مَا اسْتَوَلَى الْحَقَّ عَلَى الْبَدْرِ
فَأَبْخَلْنَا بِالْمَالِ زِدَ لِحَاتِهِمْ وَأَجَبْنَا فِي الرَّوْعِ أَشْجَعُ مِنْ عُـسْـرِ (٢)

وعلى الرغم من أن الصراع بين المعتدلين العربي والفارسي كان على أشده في هذه الحقبة من التاريخ^٥ فإننا لم نلاحظ بنير قصيدة واحدة من قصائد الشاميين برزت فيها الشعوبية^٦ وذلك على الرغم أيضاً من أن الشاميين كانوا أكثر الناس تشبهاً بغلبة المنتصر الفارسي على العنصر العربي في شؤون السياسة^٧ ولعل من أسباب اختفاء الشعوبية والفخر بالأصول الفارسية في بلاد الشام يعود إلى قلة العناصر الفارسية التي استوطنت بلاد الشام والجزيرة في مقابل كثرة من سكن منهم في العراق^٨، وعموماً أدى إلى عدم التصادم بين الطرفين في الشام على عكس ما كانت عليه الحال في العراق :-

الـعـرـاق :-

أما الشاعر الوحيد الذي افتخر بأصوله الفارسية من الشاميين فهو ديك الجن الحمصسي^٩ فله من قصيدة يستعلي فيها على العرب^{١٠} ويعتد بفارسيته (٣) قوله :-

- (١) من القصيدة ٤٢٥ .
(٢) عمرو المذكور هو عمرو بن معدى كرب الزبيدي فارسي اليمن وصحابي معروف شهد اليرموك والقادسية . انظر الشعر والشعراء ١ : ٢٨٩ ، الأغاني ١٥ : ٢٠٨ .
(٣) القصيدة ١٥ من ديوانه .

وإن كان عُزُوفُ مَذْخُورًا لذي سَبَبٍ فاضْمُ يَدَيْكَ على حُرِّ أَخِي سَبَبٍ
 أو كُنْتَ وافقته يوماً على نَسَبٍ فاضْمُ يَدَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بالعربي
 وإني امرؤٌ بَازِلٌ في ذُرُوثِي شَرَفٍ لِقَيْصَرٍ وَلِكُثْرَى مُحْتَبِدِي وَأَبْسِي (١)

ويعود ديك الجن في القصيدة نفسها ليفخر بما يفخر به كل عربي ، ولا عجب في ذلك ،
 فالقيم التي اصطلح عليها شعراء العرب والشعراء الفرس الذين أشربوا الثقافة العربية واحدة تقريباً
 هي النخوة والكرم والشجاعة ، والصبر على نوائب الدهر الخ .

إن مجالات الافتخار متعددة تتجاوز حد الشجاعة والفروسية وكرم المحتد والجود لتشمل
 الفخر بحماية المرأة وإغاثة الملهوف ، والفخر بالقدرة على تجويد الشعر ، وفي الشعر الشامي نماذج
 لهذا كله ، ولكي أكتفي من الأمثلة بما قدمت ، لأن العجب الذاتي لا يمكن أن يخضع لمقياس تنسي
 دقيق ، فكل متحد عن ذاته إنما يشبه من يُجْري فرسه في خَلَاةٍ فيظنُّها أَحْسَنَ الخيل ، وهو لا يدخلها
 في سباق لئلا يُفْتَضَح خداعه الذاتي أمام نفسه (٢) .

(١) انظر نسبه في الأغاني ١٤ : ٥٥١ .
 (٢) انظر في افتخار البحري بشاعريته مثلاً القصيدة ٢٥٦ من ديوانه .

خامساً: النقد الاجتماعي والهجس:

سجل الشعر الشامي فيما سجل نوعين من الهدوم التي كانت تعني الناس، وهما هذان يصطدم بهما الإنسان ويعتياه على مر العصور، الهم الأول فساد الإدارة والإداريين، والثاني الشكوى من معاندة الحظ، ونكد العيش، وقد تحولت هذه الشكوى إلى سخط على الناس، والزمان، وهجساً لهم.

أما التعبير عن فساد الإدارة ومعائها فقد استحال إلى لون من الرسائل الشعرية يرفعها الشاعر إلى الخليفة يذكر فيها معائب بعض رجال الإدارة من اختلاس، وظلم، وفساد وسوء تدبير. ويمثل ذلك بعض التشيل قول البحترى في رجل اسمه نهشل كان يتولى بريد الرقة (١):

إلَيْنَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رَسَالَةً	مِنَ الْخَرْبِ تَسْتَقْرِئُ فِجَاحَ الْمُشَارِقِ
أُعِيدُكَ بِالذُّمِّ مِّنَ اللَّهِ أَنْ تُرَى	قُدَامِي جَنَاحَ الْمُسْلِمِينَ لِفَاسِقِ
أُعِيرُ بَرِيدَ الرُّقَّتَيْنِ غَضَاضَةً	بِمُضْطَرِّبِ الْكُفَّينِ رِخْوِ الْبَنَائِقِ
نَعَى الْعَدْلَ شَرْقِيَّ الْبِلَادِ بِجَوْرِهِ	عَلَيْنَا وَبَاعَ النَّاسَ ثَمَ بَدَانِقِ (٢)
لَهُ فِي الذَّنِّ اسْتَرْعِيهِ رُوحَةً فَاجِرٍ	بِسُوءِهِ الْآخَرُونَ دُلُجَةً سَارِقِ

وقال في رسالة شعرية أخرى إلى الخليفة، وقد أَسَتْ فيها إسفافاً شديداً في الطعن برجولة متولي بريد الرقة نهشل المذكور وهجاءه (٣):

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمَا غِيَاكَ	نُؤَمِّلُهُ نَقْدَ طَالِ الْقُنُوطِ
أَبَى عَمَّا لَنَا إِلَّا فُسُوقَنَا	لَكُلِّ مَنِ أَحْبَبْتَهُمْ سُورُوطُ

كانت مفاسد عمال الإدارة في الشام مصدر قلق للشاميين فكان الشعراء يشكون باسمهم أولئك الإداريين الفاسدين، وهذا ما تبدى بوضوح في هذا الشعر الذي نطق به الشاعر باسم

- (١) القصيدة: ٥٩٩ .
- (٢) الدائق سدس الدرهم .
- (٣) القصيدة ٤٩٤، ولم يسلم من الهجاء المقذع المسف فيها غير ما أوردهنا .

الجماعة الإسلامية، وهو يقول أيضاً في الطعن بسوء اختيار رجال الإدارة، والشرور التي نجمت عن وضع الرجل غير المناسب في المكان الذي لا يستأهلها (١) :-

الآن أيقنتُ أن الرزق أقسَّامُ لما تقلدَ أمرَ البريدِ حَجَّامُ
لو أن أرضاً بكت شجواً لحادِثَةً حلتْهُ إذن لَبَكَّتْ من أجلِ الشَّامِ

وتطغى القصيدة سخرية من رجل البريد الذي كان في أول أمره حجاماً إذ يعرضه في صورة مزريسة من الاعتماد بأدوات الحجامه وشؤونها والكلف بها، وما ذلك الا ليقول: كيف يتولى أمر البريد رجل بهذه حاله وعفتة ؟

وانتقد الشعراء عمال المدفوعات الذين يأتون على أموال الناس بالباطل، وانتقدوا ظلم القضاة وجورهم على الناس كما انتقدوا الولاة أنفسهم، وما قيل في انتقاد القضاة قول عمرو بن ميمون الكلبي في قاضي حلب وهجاءه (٢) :-

لا دَرْدَرُ زمانِنا المتكِّسِ الجاعلي الأذنانَ نونَ الأروُسِ
ما أنت إلا نِشْمَةٌ في نِعَمَةٍ أو أضُّ شُوكٍ في حديقة نرجسِ
من بتر أبطن مَكَّةَ آبائِهِ وجدودُهُ وكأنَّهُ من بُسْرُسِ (٣)

ووجهت سهام النقد إلى بعض القادة العسكريين مثل علي بن يحيى الأرمني الذي كان من قادة الثغور المشهورين في زمن المتوكل، وقد نظم البحترى في هجائه ثلاث قطع (٤)، غير أنه لم يرد فيها ما يدل على أن هجاءه له كان بسبب تخميره في قيادة الجيوش الإسلامية غير قوله فسي أحداه (٥) :-

سَرَقَتْ سِهَامُ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ يَوْمَ زُحْفِ الْمُشْرِكِينَ بِحَاضِرٍ

وقد قال البحترى هذا القول مع أن مصادر التاريخ أثبتت على قيادة هذا القائد، ومع أنه أيضاً قتل في إحدى غزواته في الثغور (٦). ويغلب على الظن أن خصومة ما كانت بين الشاعر والقائد، ولعل

- (١) القصيدة ٨٠٩.
- (٢) شاعر من معرثا من غياص معرة النعمان قرب حلب، كان ولي في أيام المتوكل معرة مَصْرِينَ وقتل بها، ذكر ذلك ابن العديم وقال: كان قاضي حلب في أيام الزائق رجل يدعى عبيد بن جناد الكلبي. انظر: زبدة الحلب ١: ٧٠.
- (٣) سر النسب: محضه.
- (٤) هي القطع ١٤٢، ٢٥٣، ٨٥٢.
- (٥) من القطع ٣٥٣.
- (٦) قد أشرنا إلى ذلك في الحديث عن الحياة السياسية.

خاقان والمتوكسل^(١) :-

أَيْنَ بَعْدِ وَجَدَ الْفَتْحِ بِي وَغَرَامِهِ
أَكَلْتُ مَدَحَ الْأَرْمَنِ عَلَى السَّيِّ
وَمِنْ خُلَّتِي يَسْتَكْبِكُ الْكَلْبُ أَنْ يُرَى
وَمَنْزِلَتِي مِنْ جَعْفَرٍ وَمَكَانِي
لَدَيْهِ مِنَ الْبَعْضَاءِ وَالشَّنَائِ
لَهُ جَارَ بَيْتٍ أَوْ رَضِيعَ لَبَّاسَانِ

عن حدة معاناته وقلقه — : (٣)

كَمْ دُقْتُ فِي الدَّهْرِ مِنْ عُسْرٍ وَمِنْ يُسْرٍ وَفِي بَنِي الدَّهْرِ مِنْ رَأْسٍ وَمِنْ ذَنْبٍ
أُغْضِي إِذَا صَرْنُهُ لَمْ تُغْضِرْ أَعْيُنُهُ عَنِي ، وَأَرْضَى إِذَا مَا لَجَّ فِي الْغَضَبِ
إِذَا قَعَدْتُ لَأَسْأُو خَلْتُ أَنِّي قَسَدٌ أَدْرَكُهُ ، أَدْرَكْنِي جَرْفَةُ الْأُدْبِ

— : ({)

أَلَمْ يَكُنْ لَآ أَلُمُّ سَيِّئَاتِكَ دَقًّا رَا
إِذَا أَنَا لَمْ أَكُنْ عَشْرَاتِ دَهْرٍ
وَفِي الدُّنْيَا غِنًى لَمْ أَتُبْ عَنْهُ

قَضَى لِي بِالَّذِي يَقْضِي سَعْدُومَ^(٥)
أَصِبتُ بِهَا الْغَدَاةَ فَمَنْ أَلُومُ
وَلَكِنْ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا كَرَمٌ

ويبلغ سوء الظن بالناس حده الأعلى لدى شاعر أنطاكي يدعى ابن طُليِّب الكوكبي^(٦)، فله

- (١) من القطعة ٨٥٢ من ديوانه .
- (٢) من القصيدة ٧٠ وهي في مدح طائي من أهل حمص .
- (٣) القصيدة ٤٧٧ من ديوانه .
- (٤) القصيدة ٤٧٢ من ديوانه .
- (٥) سدوم إحدى مدائن لوط ، ويذكر أنه كان بها قاض جائر ضرب المثل بجوره ، انظر: معجم البلدان / سدوم .
- (٦) ذكره ابن العديم فقال : شاعر مجيد كان في أيام المأمون وهو من قرية كوكبا من قرى أنطاكية . انظر بغية الطلب ٨ / ورقة ٢٣٠ ب / ٢٣١ أ .

قصيدة مسطحة المعنى تنضح سوداوية وهجاء للناس في زمانه ، وفيها إلى جانب ذلك دعوة صريحة إلى ضرورة تبني هذا النهج من سوء الظن بالناس وعدم الاكتراث بالقيم الدينية والمعايير الخلقية ، مما يبدو غريباً نشازاً في ذلك الزمان ، يقول : -

غَثَرَنِي آدَمُ فَكَلَّمُهُمْ	لِلَّهِ عَاصِمٌ وَكَانَ لَهُمْ دَغِيرٌ لَا (١)
وَكُلُّ بَضْرُسٍ وَطَا الْأَنَامَ بِظُلْمٍ	فِي تَأْتِ حَزْماً وَتُحَكِّمُ الْمَمَاتُ لَا
وَلَا تَقُلْ : أَحْفَظُ الذَّمَّ مَسَامٍ وَلَا	أَنْسَى فَلَاناً وَحُسْنَ مَا فَعَسَا لَا
إِنْ مُسْتَشِيرُ أَتَاكَ مُتَّصِحِ حَسَا	فَأَمْدُدْ لَهُ كَيْفَ مَا اشْتَمَى الظُّوَلَا
خَلَطَ عَلَى النَّاسِ يُسَبِّحُكَ إِلَى	الظُّرُفِ وَشَتَّ عَلَيْهِمُ السُّبُورَا لَا
قَدَمٌ وَأَخْرَجُوا شِدَّتْ بَيْنَ طُرُقَا	يَلْقَوْنَ فِيهَا الْعِشَارَ وَالزَّلَلَا لَا
وَأَسْقِيهِمُ السَّمَّ إِنْ خَفِرَتْ بِيَسَمِ	وَأَمْرٌ لَهُمْ مِنْ لِسَانِي الْعَسَا لَا
إِنَّ رَجَالَ الْوَفَاءِ قَدْ ذَعَبُوا	لَأَنْ نَجَمَ الْوَفَاءِ قَدْ أَفَلَا لَا

وهذه القصيدة ما أثبت فيها وما لم أثبت غريبة نادرة في الشعر العربي بمنحائها الأفكار القاسية على الدعوة إلى المخاتلة والخداع والتفاد والفرد ، وإن استندت إلى حجة واهية ، فيها تعميم مطلق بأن كل بني آدم عصابة لله ، وأن رجال الوفاء قد ذعبوا ، ونجم الوفاء قد أفل .

أما الهجاء بين الشعراء الشاميين فقد شاع بين أبي تمام وبعض الشعراء المغمورين بالنسبة إلينا ، ومنهم عتبة بن أبي عاصم (١) ، ومحمد بن يزيد الحصري الأموي ، وموسى بن إبراهيم الرافقي ، كما شاع بين البحري وعد آخر من الشعراء منهم ذفافة العبسي والخدمسي (٢) .

وكان سبب هجاء أبي تمام لعتبة فيما تفصح عن ذلك قصائده فيه ، منافحة أبي تمام عن بني عبد الكريم الطائيين الذين كان عتبة قد هجاهم ، فدومت عصبية أبي تمام لطى ، وإحسان بنسي عبد الكريم إليه أن يتمدى لخصمهم مشدداً عليه نسبة الوضيع ، وشاعريته الضحلة قال فيها (٤) : -

- (١) الدغل : المخاتل الذي يضر الشر لأصحابه ويحسبونه يريد لهم الخير .
- (٢) شاعر من أهل حصص هجاه أبو تمام في ثماني قصائد ومقطعات هي ٤٣٤٣ ، ٤٣٤٤ ، ٤٣٤٦ ، ٤٣٤٧ ، ٤٣٦٠ ، ٤٣٦٤ ، ٤٣٩٧ ، ٤٣٩٨ .
- (٣) شاعر من أهل الجزيرة اسمه أحمد بن محمد ويكنى أبا عبد الله ، ويقال أبا العباس . وقيل اسمه الحسن . وكان يتشيع . هجاه البحري في جملة قصائد وقطع هي : ١٠ ، ٥٤٤ ، ٥٦٢ .
- (٤) ٦٩٦ . وانظر سبط اللآلي ٢ : ٩٢١ .
- القصيدة : ٤٩٧ .

أرأى بني عبد الكريم تشاوساً ستاً عيناك ، وليك خلف من تتفوق؟ (١)
انظر فحيث ترى السيوف لوامعاً أبداً فوق رؤوسهم تتألق

وقد راح الشاعر في قصيدته بين الهجاء المقذع ، والهجاء الساخر ، والمدح الذي يعلي من شأن بني عبد الكريم إعلالاً ، والترعيب لمعتبة إذ يتناول على قوم "شوس لم يحسبوا أن النية تخلق" ؛

إني أراك خلعت أنك ساليهم من بطشهم ما كن رؤيا تشدق
إياك يعني القائلون بقولهم : إن الشقي بكن خيل يخنق

كما افتخر فيها بشاعريته التي تتطامن دونها شاعرية "لثيم يتشدق" و "عير ينطق" ، فمن قوله في شاعريته التي يوجه منها قصائده المربعة المفزعة إلى خصمه :

وقصائد تسري إليك كأنها أحلام رعب أو خطوب طـرق
من منبهضات مقعداتك خائفـاً مستوهِلاً حتى كأنك تطـرق (٢)
من شاعر وقت الكلام يبابسه واكن في كنفه ذراه المنطـرق
قد ثقت منه الشام وسلمت منه الحجاز ورقته المشـرق

وقال من قصيدة أخرى يتنقصر من قدر شاعرية عتبة (قصيدة ٢٤٤) :

نبئت عتبة شاعر النوغسـاء قد ضج من عودي ومن إبدائي
لما غضبت على القريض هجوتـه وجعلت خلقتة هجاء هجائي

ويبدو أن الذي آلم أبا تمام من هجاء عتبة لبني عبد الكريم الطائيين غير إحسانهم إليه ، وعصبية الطائية لهم ، استشعاره أيضاً بجرح إحساسه القوي بالعروبة ، وأنه لو كان عتبة من الموالي لكأن عجاوزه للعرب مثلين في الطائيين أمراً قد يسوغ ، فهو يقول (٣) :

يا ابن أبي عاصم ولا عاصيهم وليك من سطوتي ومن غضبي
لو كنت من غرة الموالي إذن لم تنت سوءاً في غرة العـرب

- (١) الخلف: ما يأخذه الحالب بكنه من ضرع الشاة ونحوها . ويتفوق : يشرب نواقاً بعد فواق ، وهو ما ينزل من اللبن بعد الحليب .
(٢) تطلق من الطلق وهو وجع الولادة .
(٣) القصيدة ٢٤٧ .

أَبِي كَرِيمٍ يَرْضَى بِشْتَمِ بَنِي سِي عَبْدُ الْكَرِيمِ الْجَحَاجِجِ النَّجُوبِ (١)
أَلَاكَ زَهْرُ النُّجُومِ لَيْسَ كَمَنْ سَنَ أَمْسَى كُوعِيًّا فِي الشُّعْرِ وَالنَّسَبِ

وعلى أية حال فإن في تخصيص أبي تمام هذا القدر كله من الشعر في هجاء هذا الشاعر الذي لم تسعنا المصادر في الوقوف على شيء من شعره ، ثم في دفاعه عن شاعريته ، وإزراءه بشاعرية هذا الخصم مرشحات كافية للحكم بأن عتبة بن أبي عاصم كان شاعراً كبيراً .

ويلفت النظر في هجاء أبي تمام لعتبة أنه لم يتيه في أي من قصائده ، بسرقة شعره ، مع أن ظاهراً اتهام الشعراء بعضهم لبعض بسرقة الشعر أمر شائع معروف حتى عند أبي تمام نفسه ، فهو يقول في هجاء محمد بن يزيد الأموي واصفاً إياه بالسطو على شعره ، وبأنه بفعله هذا قد بزر كل فرسان العرب في الجراءة والشجاعسة (٢) :

إِنَّمَا الضَّيْفُ الْمَصُورُ أَبُو الْأَشْتِ بَانَ مَنَاحُ كُلِّ خَيْسٍ وَغَسَّابِ (٣)
مَنْ غَدَتْ خَيْلُهُ عَلَى سَرَحٍ شِعْمُورِي وَهَوَّ لِلْحَيْنِ رَاتِعٌ فِي كِتَابِ سِي
يَا عَذَّارِي الْكَذْلَامِ صُرْتُ مِنْ بَعْدِ سَدِّي سَبَايَا تُبْعَنُ فِي الْأَعْرَابِ
إِنَّ نَدْمِي مُحَمَّدٌ بْنُ يَزِيدٍ فِي الَّذِي نَالَهُ لَمَيَّزُ صَوَابِ
دَعْنِي يَحْضِي لَدَى الْأَنَامِ بِشِعْمُورِي وَتَمِيدِي فَذَاتُ أَهْوَنُ بِسَبَابِ

أما هجاءه لموسى الرافقي فلم يشر إلى شيء من شعر هذا الشاعر الذي سبق له أن مدحه عندما كان يتولى أمر جند دمشق ، وغاية ما جاء في هجاءه له نعتة إياه باللوم والشج لأن قصائده فيه لم تشرع في مكافأة يكافئه عليها ، يقول نادماً على مدحه له ، نادماً إياه (٤) :

أَعْمَلْتُ فِيكَ قَصَائِدِي وَوَسَائِلِي فَحَرَمْتَنِي فَلَيْسَ أَجْرُ الْعَامِلِ
هَذَا جَزَائِي إِذَا أَدْنَسُ عَمَّتِي سِي بِكَ جَاهِلًا وَكَذَا جَزَاءُ الْجَاهِلِ

- (١) الجحاجج : السادة جمع جحججاح .
(٢) القصيدة ٣٤٨ .
(٣) الخيس : الشجر الكثير المتصف .
(٤) هي القصيدة ٤٠٧ ، وانظر القصيدة الأخرى في هجائه رقم ٣٦١ .

فقد انكأ الشاعر على نفسه متلوًّا معنًّا أن كان مدح من لا يستحق المدح ، وقد جرت معظم أبيات القصيدة على هذا النحو من جلد الذات .

أَبْلَغُ دُفَائِنِنَا رِسَالَةَ مَثَرِ
رُبَّ غَدَاةٍ لِلْقَصْفِ فِي حَلَبِ
لِلَّهِ أَزْمَانُنَا يَعْلَمُ سَوَةَ مَا
نُبْتَدِئُهَا زَوْجَاتُ أَخَا خَنْزِ
تَأَقُّ أَسْرَ الشُّكُورِ وَأَعْلَنَهَا
يَجْنِي ضَحَى وَرْدِهَا وَسَوْسَنَهَا
أَطْيَبَ أَيَّامِنَا وَأَخْسَنَهَا
أَغْنَى رَطْبِ الْأَطْرَافِ لَيْتَمَهَا

رَأَيْتُ الْخُدُمِيَّ يَقُولُ أَنْفَسًا
سَمَاعُ صُعْدًا فَقَصَّرَ كُلُّ سَامٍ
عَمَّا الْجَبَلُ الَّذِي لَوْلَا ذُرَاهُ
يَضِيحُ بِعَرْضِهِ الْبَلَدُ الْفَنَاءُ
لَهَيْتِهِ ، وَقَصَّرَ بِهِ الْهَوَاءُ
إِذَنْ وَقَعَتْ عَلَى الْأَرْضِ السَّمَاءُ

وَعَدًا ، وَلَيْسَ الْوَعْدُ مِنْ أَعْدَانِي
شَتَّى التَّجَارِ ، وَنُسْبَةُ أَفْـوَافِ

(٢) القصيدة ٥٦٢ ، وانظر القطعتين الأخريين في هجاء الخدمي : ٥٤٤ ، ٦٦٦ .

مَا إِنْ يَزَالُ يُجْرُ مِنْ أَشْعَارِهِ جَيْفَاهُ فَكَيْفَ أَقُولُ فِي الْجِيصِافِ

وقد تحول بعد اتهامه لهذا الشاعر بسرقة الشعر إلى الطعن في نسبه والإزراء بمهنته " مهنة الإسكاف " يقول في سخرية لطيفة : -

مَتَلَفْتُ الْعُثْنُونَ مِنْ أَكْبَابِهِ
فَقَدْ تَكَ أَتَدَامُ الْعُلُوجُ فَكُلُّ مَنْ
وَزَعَمْتَ أَنَّكَ خُشْعَمِي بَعْدَ مَسَا
أَسْرَقْتَ شِعْرِي ثُمَّ جِئْتَ تَذُنُّنِي
لِلخُرْزِ بَيْنَ قَوَالِبٍ وَأَشْشَافِ (١)
بِبِلَادِ "رَأْسِ الْعَيْنِ" بِمَدِّكَ حِافِ
عَرَفُوا أَبَاكَ ، فَبِعَيْنِ زَا الْإِزْجَافِ (٢)
يَا وَغْدُ ، مَا هَذَا مِنَ الْإِنْصَافِ

وإذا كانت بعض مقاييس الجودة في الشعر تقوم على حسن التصوير ، وبراعة اختيار اللفظ والمعنى ، وطرافة الفكرة ، وجلال الموسيقى ، فإن حظ أحاجي البحتري من تلك المقاييس قليل ، وهذا ما حدا بالمرزباني إلى القول في مقابلة دالة إلى بعض تلك المقاييس وهو يوازن بين أحاجي البحتري وأحاجي ابن الرومي (٣) : " ويخبر من أهل الأدب ينكر خُبْتُ لسان علي بن العباس الرومي ويظن عليه بكرة عجائه حتى جعلوه في ذلك أوحدا لا نظير له ، ويضربون عن إنصافه البحتري إليه وإلحافه به ، مع إحسان ابن الرومي في إيسائه ، وقصور البحتري عن مداه فيه ، وأنه لم ييلفهم في دقة معانيه ، وجودة ألفاظه ، وبدائع اختراعاته ، أعني الهجا ، خاصة " .

أما أن تكون بضاعة البحتري في الهجا نزرة لأنه كان أوتى ابنه أن يحرف كل شيء قاله في الهجا ، وأن الابن جمع أحاجي أبيه في الناس ثم أحرقها ، فهي رواية لا تستقيم لدى أدنسى استقراء للديوان ، ففيه مقدار كبير من قصائد الهجا ، ومقطعاته ، غير أن الجيد منه قليل بمقياس أبي الفرج الأصفهاني الذي يروقه في الهجا " التهكم باللفظ الطيب الخبيث المعاني " . وإذا كان هذا يقال من الوجهة الفنية في أحاجي البحتري ، فإن نقده لبعض رجال الإدارة ومخالفاتهم وتحيفهم يعد سابقة تسجل له ، لأنها من المظاهر القليلة الدوران في الشعر العربي حتى عصره .

- (١) العثنون : اللحية الكثيرة ، الأشافي جمع الإشافي وهو منقب الإسكاف .
(٢) خشم اسم بطن من بطون العرب ونسبه في جمهرة ابن خزم : خشم بن عمرو بن الفوث ابن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ . انظر جمهرة الأنساب : ٤٣٣ ، ٣٩٠-٣٩٢ .
(٣) الموشح : ٥١٤ .

الشمس الرابع

الشعر في نصرة المذاهب

أ - التشيع في الشعر الشامي : -

على الرغم من غياب الشعر المذهبي بوجه عام من الشعر الشامي في القرنين الثاني والثالث الهجريين، فإنه تستوقف الدارس ظاهرة تشيع بعض شعرائه، وأبرز من عرف عنه أنه كان يتشيع فسي شعره الشاعران منصور النعري وديك الجن الحمصي .

أما منصور النعري فقد تشعبت الأقوال في مذهبه وتضاربت، فقد قال ابن المعتز^(١) : " كان يدين بالإمامة سراً، ويدع آل الرسول، ويعرض في شعره بالسلف " و " أن أشعار النعري في آل الرسول - عليه السلام - كثيرة جيدة من أجود ما مدحوا به " . وقال ابن تينة الدينوري^(٢) : " وكان يظهر أنه عباسي الرأي منافر لآل علي ولغيرهم . . . وكان مع هذا شيعياً " . وقال الجاحظ فيما نقله عنه الحنري في " زهر الآداب " : " وكان - منصور النعري - يذهب مذهب الشراء، فدخـل الكوفة، وجلس إلى هشام بن الحكم الرافقي، وسمع كلامه فانتقل إلى الرضا . . . وأنه كان يضر غير ما يظهر، ويعتقد الرضا، وله في ذلك شعر كثير لم يظهر إلا بعد موته " .

وقال أبو الفرج الأصفهاني^(٤) : " عرف النعري مذهب الرشيد في الشعر، وإرادته أن يحصل مدحه إياه بنبي الإمامة عن ولد علي بن أبي طالب، والظمن عليهم، وعلم منزهه في ذلك مما كان يكـبـطـفه من تقديم مروان بن أبي حفصة وتفضيله إياه على الشعراء في الجوائز، فسلك مذهب مروان في ذلك، ولم يصرح بالهجا، والسب كما كان يفعل مروان، ولكنه حام ولم يقع، وأوماً ولم يحق، لأنه كان يتشيع " .

-
- (١) طبقات ابن المعتز: ٢٤٤، ٢٤٨ .
 (٢) الشعر والشعراء ٢: ٧٣٦ - ٧٣٧ .
 (٣) زهر الآداب، تحقيق علي محمد البجاوي، ط ١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٥٣، ٦٥٠: ٢ .
 (٤) الأغاني ١٣: ١٤٠ - ١٤١ .

وقال ابن حزم^(٢) : "وكان أول أمره خارجياً صُعْرَبًا . فدخل مدينة الرقة . . . ثم " رجع منصور من حينه إلى مذهب الإمامية من الرافضة " بعد أن سمع كلام داود الرقي الرافضي في الإمامسة " .

ولدى التأمل في هذه الأقوال جميعاً يتبين أن القاسم المشترك بينها هو أن النمري كان له وجهان : وجه يساير به ولاية أمور المسلمين من العباسيين ، فيظهر لهم في شعره ما يرضيهم بمدحه وإياهم ، وينفي الإمامة عن آل علي ، ووجه خفي يسر مدح الإمامية ، وهو وجه مقبول شائع لدى الشيعة الذين يؤمنون بذهب التقيسة .

أكبر الظن ، إذا كان ما قاله الجاحظ، وهو المعاصر للنوري ، صحيحاً أن الشاعر كان يعيش لحظات حيرة وتشكك في مذهب الشراة . فجاءت أقوال هذين الداعيتين من دعاة الشيعة في الجلستين اللتين أشار إليهما الجاحظ وابن حزم لتحسم تردداته ، ولتنتفع بالتحصيل من مذهب الشراة إلى مذهب التشيع .

- (١) أخبار شعراء الشيعة «تلخيص محسن الأمين العاملي» تحقيق محمد عادي الأميني «المطبعة الحيدرية» النجف ١٩٦٨: ٧٩.
- (٢) جعفرة أنساب العسبر: ٣٠٢.
- (٣) أنظر: معالم شعراء الشيعة «المطبعة الحيدرية» النجف ١٩٦١: ١٥٠.
- (٤) هي القصيدة ٢٤ من: شعر منصور النمرى «وانظر تخرّيج هذه القصيدة ص ١٠٤-١٠٦ من هذا المجموع». وذكر أبو الفرج الأصفهاني أن هذه القصيدة لمنصور بن بَجْرَة، وأن منصوراً النمسري استحسبها فاستوهمها من منصور بن بَجْرَة، فوعبها له. انظر ذلك في الأغاني ١٣: ١٥١.

يا ابْنَ الأَثَمَةِ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ يَا ابْنَ الدِّ
إِنْ الْخِلَافَةَ كَانَتْ إِرْثًا وَالِدِكُمْ
لَوْلَا عَدِيٌّ وَتَيْمٌ لَمْ تَكُنْ وَصَلَكْتُ
وَمَا لَأَلِ عَلِيٌّ فِي إِمَارَتِكُمْ
الْعَمُّ أَوْلَى مِنْ ابْنِ الْعَمِّ فَاسْتَمِعُوا
أَوْصِيَاءُ أَقْرَبَ النَّاسِ أَوْ دَفَعُوا
مِنْ دُونِ تَيْمٍ ، وَعَفُوُ اللَّهِ مُتَّبِعٌ
إِلَى أُمِّيَّةٍ تُعْرِبُهَا وَتَرْتَضِي
وَمَا لَهُمْ أَبَدًا فِي إِرْثِكُمْ طَمَسُ
قَوْلِ النَّصِيحَةِ ، إِنَّ الْحَقَّ مُسْتَمَعٌ

فمن لم يكن بائناً حق العباسيين بالخلافة ، وينفيها عن العلويين حسب ، بل تجاوز ذلك إلى السى
التمريض بأبي بكر وعمر ، وبالطعن في بني أمية . كما تجاوز منصور النمرى هذا الحد في قصيدة ثانية
عندما استهجن أن يطالب العلويين بحقهم في الخلافة فقال ^(١) يحاججهم : -

أَلَا لِلَّهِ دَرْتَنِيَّ عَلِيٌّ
يَسْتَوِي النَّبِيُّ أَبَا وَيَّابَسِي
وَمَا لِبَنِي بَنَاتٍ مِنْ تُسْرَاتٍ
وَدَرْتَنِيَّ مِنْ مَقَالَتِهِمْ كَيْسَرٌ
مِنَ الْأَحْزَابِ سَطْرٌ بِلِ سَطْرٍ
مَعَ الْأَعْمَامِ فِي وَرَى الزُّبُرِ

ثم يوبخ العلويين توبيخاً يصل إلى حد التفرغ والهجاء لخروجهم على العباسيين الذين أحسنوا
إليهم ، وجموعهم ، يقول : -

بَنِي حَسَنٍ وَرَقِطُ بَنِي حُسَيْنٍ
أُمِيطُوا عَنْكُمْ كَذِبُ الْأَمَانِي
أَحِينَ تَنْفُكُكُمْ مِنْ كَرٍّ وَتُسْرٍ
وَجَاءَكُمْ عَلَى ظُلْمٍ شَدِيدٍ
فَمَا كَانَ الْعُقُوبُ لَهُمْ جَزَاءً
عَلَيْكُمْ بِالسَّدَادِ مِنَ الْأُمُورِ
وَأَحْلَامًا يَعِدُنَ عِشْدَاتِ زُورٍ
وَتَتَوَكَّمُ إِلَى كَنَفٍ وَتَيْسَرٍ
تُبْقِيْتُمْ مِنْ نَوَالِي الْعَزِيسِرِ
بِفِعْلِهِمْ وَأَدَى لِلشُّرُورِ

وعو في بعض شعره الآخر علوي اللون يبكي ما حلّ بالملوك من تشريد وتقتيل وإذلال ، متعاطف
مهم ، متحوّل عن مناصرته للعباسيين ، فيقول من قصيدة ^(٥) : -

- (١) هي القصيدة ٢٠ من : شعر منصور النمرى .
(٢) في : شعر منصور النمرى : زور ، وفي الشعر والشعراء : ٢٢٧ : ودر ، وهو الصواب .
(٣) يريد قول الله تعالى في سورة الأحزاب الآية ٤٠ : " ما كان محمد أباً أحد من رجالكم " .
(٤) الثور جمع ثور ، أدى للأمر : أخذ أداته واستعد لـ .
(٥) هي القصيدة ٣١ من : شعر منصور النمرى

وَيْلَكَ يَا قَاتِلَ الْحُسَيْنِ لَقَدْ
بَأَيْتَ وَجْهَ تَلْقَى النَّبِيَّ وَقَدْ
بُوءْتَ بِجَمَلٍ يَنْوُ بِالْحَامِلِ
دَخَلْتَ فِي قَتْلِهِ مَعَ الدَّاحِلِ

ولا يقف به الحال عند هذا الحد من التعاطف مع بني علي المقتلين ، وتغيير القلوب على قاتليهم ، بل يعتبر العباسيين في صف القتلة لسكوتهم عن الأخذ لهم بالثأر ، وأن هؤلاء جميعاً لن ينالوا رضا الرسول - عليه السلام - عنهم :

هَلُمَّ فَاطْلُبْ غَدًا شَمَاعَتَكَ
مَا الشُّكُّ عِنْدِي فِي حَالِ قَاتِلِكَ
أَوْ لَا فَرِدَ حَوْضَهُ مَعَ النَّاعِمِ
لَكِنِّي قَدْ أَشْكُ فِي الْخَانِزِلِ

ثم يقول بعد هذا كله مبرراً عن حبه للمعلويين إنهم أبناء النبي ، وإنه قد ظفر بحبه لهم بحلوة الاطمان التي لم يحققها له مذحبه الأول في الدفاع عن العباسيين :

وَعَانِدِي أَنِّي أَحْسَبُ بَنِي
قَدْ دُرْتُ مَا دُرْتُمْ عَلَيْهِ فَمَا
أُحَدِّدُ ، فَالْتَرَبُّ فِي قَمِ الْعَانِزِلِ
وَمَلْتُ مِنْ دِينِكُمْ إِلَى طَائِرِ
جَانِي لَأَنَّ النَّبِيَّ كَالْوَصِيلِ
دُرْتُمْ جَفْوَةَ النَّبِيِّ وَمَا أَلْـ

وينتهي بعد إبداء كل صور التعاطف مع العلويين إلى التحريض المباشر على الانتقام والثورة على العباسيين الذين لم ينصفوا العلويين :

أَلَا مَسَالِيَتْ يُقَضَّبُونَ لِمَا
يَسْلَقُ الْبَيْتُ وَالْقَنَا الذَّاهِبِ (١)

وقد غاظ هذا البيت الرشيد ، فيروي أنه قال : "أراء يحزن علي ، ابعثوا إليه من يجي برأسه" (٢).

ويبدو أن التمري غاظه إعمال العباسيين لبني علي ، وتجاهلهم إياهم فتحول عنهم ، وذلك يلح من خلال قوله يصف حال العلويين وأنصارهم في ظل بني العباس : إنهم أذلاء يرعقهم الخوف من القتل (٣) ، حتى كان اليهود والنصارى أحسن منهم حالاً ، وأهدأ بـ : -

(١) المساليت : الأشد .

(٢) الأغاني ١٣ : ١٤٩ .

(٣) هي القطعة ٣ من شعر منصور النمري .

آل الرسول ومن يُجِبُّهُمْ
يَتَطَامُنُونَ مخافةَ القتلِ
أمنَ النصارى واليهودِ وعسَمُ
من أمةِ التوحيدِ فسي أزلُ (١)

فلعل واقعاً أليماً كان يحياه العلويون هو من وراء هذا التحول في موقف النمرى، وإن شاعراً يدعو إلى الثورة على العباسيين بهذه الصورة من الوضوح والصراحة والجراءة هو أحد اثنين بنامنا أن يكون قد ضاق صدره بما يحمل من هموم العلويين فجهر بدعوته هذه، وإما أن يكون قد أشاع هذا الشعر بين من كان يطمئن إليهم من العلويين، ثم تسرب هذا الشعر إلى الرشيد عن طريق عيونه. ولذلك قال من قال: إن أشعار النمرى في العلويين ظهرت بعد موته، أو على رواية من روى قصة بلوغ هذا الشعر التحريضي مسامع الرشيد بصورة من صور المفاجآت القصصية "الميلودرامية" إذ تروي هذه الرواية أنه لما بلغ الرشيد قول النمرى:

أَلَا مَسَامِيرَ يَغْضَبُونَ لَهَا
بَسَلَّةَ الْبَيْضِ وَالْتِنَا الذَّابِرِ

"فغضب من ذلك غضباً شديداً"، وقال للفضل بن الربيع: أحضره الساعة. فبعث الفضل في ذلك فوجده قد توفي، فأمر بنبشه ليحرقه، فلم يزل الفضل يلطف له حتى كف عنه (٢).

وقد يكون الأمر على خلاف ذلك، إذ قد يكون تقرب النمرى من الرشيد ابتداءً، إنما كان لغاية قبلية، فقد كان الربيعيون ثاروا في نصبيين، فأوقع فيهم جند الرشيد القتل، وجردوا فيهم السيف، فتقرب النمرى من الرشيد مستشفواً لقومه (٣)، فمدحه بما مدحه به، وتحدث في شعره عما يروى الخليفة ويعجبه رداً ليدل على سلفت عليه وعلى قومه، ثم جهر بمذهبه في التشيع بعد ذلك. وهذا التوجيه الأخير قد يفسر ما قيل إن النمرى بدأ صلته بالرشيد بهجاء آل علي وثلبهم (٤).

وكان ديك الجن الحمصي هو الشاعر التالي من شعراء الشام والجزيرة الذين عرف أنهم تشيعوا لآل علي، رضي الله عنه.

وفي ديوان ديك الجن، أو على الصحيح في المجموع من شعره ثمان قصائد في العلويين يكيهم بكاءً حاراً، ويصور مقاتلهم تصويراً يثير الشفقة عليهم، والحق على خصومهم.

- (١) الأزل: شدة الزمان وضيق العيش.
- (٢) الأغاني ١٣: ١٤٩.
- (٣) سبق بيان ذلك في موضع آخر من الدراسة، وانظر: الأغاني ١٣: ١٥٢.
- (٤) انظر قصة ذلك في الأغاني ١٣: ١٤٤.

وتستمر هذه الأرجوزة على هذا النحو من السرد الإغجّ الجافّي إلى أن يقول في آخرها —
العلويين : —

وَهُمْ يَدْعُونَ الَّذِي لَهُمْ قُلُوبٌ
وَهُمْ مُدَاهُ الْخُلُقِيِّ لِلرَّشَادِ

لِلنَّارِ دَعَا حَيْثُ كَانَ الْخَطْلَى
وَالْفَعْرُ فِي الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ

يا عينُ لا لافِضا ولا الكُـسـبِ
جودِي وجِدِّي بعلٌ جفـنـيـك
يا عينُ في كُـوـلٍ مـقـابـرُ قـسـدِ
تـركـنَ قـلـبي مـقـابـرَ الكـُـسـبِ
بـنـا الرِّزـا يا سـوى بـنـا الطـُـسـبِ
سـمَّ احـتـبـلي بالـدُّمـوعِ وانـسـكـبي

قَالُوا بَدَعُونَ نَبِيٌّ الْمَلَأَ غَالِبَةً وَحُجَّةٌ جَزْأَةً مِنَ الْكَذِبِ (*)

لَا تَقْلُوبُنِي بِحَدِّ السِّنِّكُمْ مَا أَرَبُ الظَّالِمِينَ مِنْ أُرْسِي

مَا أَنْتَ مِنِّي وَلَا زَعَمَ لِي وَطَرُّ
الْهَمُّ أَمْتُ بَيْعٍ وَالشَّقُّ وَالْفَكْرُ

مَا لِي قَرَأْتُ إِلَى عُثْمَانَ أُنْدَبُ بِهِ
لَكُمْ عِدَّتِي وَتَيْمَنِي بِأَزِيدِكُمْ

(*) **الجزلة :** هي القطعة ، وأرى أن الصواب في تحريك جزلة هو الرفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي جزلة .

وليس في هذا الشعر، كما هو واضح، أية إسالة إلى أي من خصوم العلويين .

وأقرب قصائد ديك الجن إليه في تمثيلها لما وسم به من اعتدال في المذهب وتدقيق في الشعاعية هي القصيدة الثامنة التي يقول فيها : —

أَجِدُ النَّسِيمَ مِنَ السَّيِّئِ سُمُومًا	أَصْبَحْتُ مُلَقًى فِي الْغِرَائِرِ سَقِيمًا
ظِلُّ لَكَانِ الْحَسِيرِ وَالْيَحْمُومَا	وَكُرَى يُرَوِّعُنِي سَرَى لَوْ أَنَّكَ هـ
فَنَسِيتُ مِنْهَا الرُّوحَ وَالتَّبْوِيمَا (١)	مَرَّتْ بَقْلِي ذِكْرِيَا بَنِي الْهُسْدَى

ومع كل ما تقدم بيانه عن مرجحات التشكيك والإثبات في قصائد ديك الجن في العلويين، فإنها تبين الإشارة كذلك إلى أن هذا الشعر لم يرد إلا في مصادر متأخرة، وأكثر تلك المصادر شيعية الميول، أما ورود هذا الشعر في الديوان، فقد ألمحنا إلى أن هذا الديوان صنعة محدثة يتيمة، لا تدفع إلى الاطمئنان بما جاء فيه، ولم تدعم كسواها من قصائد الديوان بمصادر تحقيق موثوق بها .

وقد دفع إلى إثارة هذه التساؤلات والشكوك كذلك التباين الواضح بين المستوى الفني في هذه الأشعار "العلوية الاتجاه"، وقصائد الشاعر الأخرى إن في النزل، أو في الرثاء، فإن أدنى مقارنة بين قصيدة ديك الجن في رثاء جعفر بن علي الهاشمي، وقصائده في رثاء العلويين تظهره سادقاً في الأولى أكثر من صدقه في الثانية، إنه يقول في رثاء هذا الهاشمي (٢) : —

وَفِي كُلِّ جَمْعٍ لِلدَّهَابِ مَذَاهِبُ	عَلَى هَذِهِ كَانَتْ تَدَوُّرُ النَّوَائِبُ
وَعَلَّ يَقْبَلُ النِّصْفُ الْأَلَدُ الْمُشَاغِبُ (٣)	نَزَلْنَا عَلَى حُكْمِ الزَّمَانِ وَأَمْرِهِ
وَيَرْضَى الْفَتَى عَنْ دَعْوِهِ وَهُوَ عَاتِبُ	وَيُضْحِكُ سَنَ الْمَرْءِ وَالْقَلْبُ مُوجَّسُ
عَلَيْكَ، وَغَالِبْتُ الرَّدَى وَهُوَ غَالِبُ	تَرَشَّفْتُ أَيَّامِي وَهَنَ كَوَالِبُ

- (١) الروح : الراحة، والتبويما : هز الرأس من النعاس، وقصد النوم وراحة البال والجسم .
 (٢) انظر هذه القصيدة كاملة في ديوانه ص ٧٢ - ٧٧، وهي في الأغاني ١٤ : ٦٧ .
 (٣) النصف : الإنصاف .

ودافعت في صدر الزمان ونحسره
وأني يد لي والزمان محسار

إن قارىء هذا الشعر ليشعر أن قائله عميق الفكر، مقتدر على النظم الذي يرضي الفكر والشعر،
كما توافرت له مقومات الإبداع الأخرى من جمال تصوير، وحسن تأثير.

ومثله قوله في صورة أجلس في رثاء زوجته التي قتلتها بيديها (*) :-

يا ظلمة طالم الجمام عليهما	وجئ لي شتر الردى بيديهما
رويت من دمها الثرى ولطالما	روى الهوى شفتي من شفتيهما
ما كان قتليها لاني لم أكُنْ	أبكي إذا سقط النبار عليهما
لكن غنيت على الميرون بحسنهما	وأنفعت من نخر الحسود إليهما

فنحن أمام شاعر مؤثر باللفظة الرائقة المنظومة في أدا، كلي متناسق، معبر عن تجربة فيها صدق
الإنسان النسيور، وتمزقه بين حبه وأثره وندمه.

وقد يقول قائل، إن المقايضة بين هذا الشعر الذي يعبر فيه ديك الجن عن تجارب محسنة،
ووقائع عايشها معايشة، والشعر الذي قاله في العلويين، وهم قد أفتوا منذ زمن بعيد، لا يستقيم،
والجواب: مع التسليم بنسبة هذا التوجه، فإن سكوت المصادر عن الإشارة إلى تلك القصائد التي
قيل إن ديك الجن أنشأها في العلويين في مقابل تعدد مصادر التحقير للقصائد والقطع الأخرى
يجعل التشكك في صحة نسبة القصائد العلوية، إلى ديك الجن أمراً قائماً، كما يظل التشكك
في صحة نسبة القصائد التي يتحدح فيها بالشيخين إليه أكبر.

ومما تقدم بيانه عن الشعر الشيعي الشامي والجزري في فترة الدراسة، يتضح أن نسبة
هذا الشعر بالقياس إلى أشعار الفتن الداخلية، والحروب الخارجية قليل جداً. وذلك قد يعنينا
أن التشيع لم يكن له مؤيدوه في بلاد الشام والجزيرة، كما قد يعني أيضاً أن أثر السياسة الأموية
في تنقية البيئة الشامية من أحزاب المعارضة كان فعالاً. ثم لما جاء العباسيون ساروا على النهج
نفسه الذي اختطه الأمويون، فحاربوا التشيع فكراً وسلوكاً.

(*) انظر هذه الأبيات في الديوان، ص ١٠ - ١١.

و لما كثرت على العباسيين الفتن « وتراخى حبل الأمن » ظهر القرامطة في بادية الشام .
 وإذ في أخريات سني حكم الطولونيين تعرضت كثير من مدن الشام - كما سبق أن بينا - لهجمات القرامطة
 الشرسة . وكان من المتوقع أن ينظم شعر شامي يوازي « على أقل تقدير » جسامه المآسي والهزائم
 والانتصارات التي صاحبها . غير أننا لم نعثر على غير بعض الشعر المنسوب إلى صاحب الشامة . وقد
 شكك الصولي في صحة نسبة هذا الشعر إليه « فقال - فيما نقله عنه ابن العديم : « ولعلي بن عبد الله
 وأخيه أحمد بن عبد الله شعر » أظن بعض من يعيل إليهم « ويكره السلطان عمله » أو أكثره » وحمله
 عليهما « (١) . وقال ابن العديم في موضع آخر : ويروي ليحيى بن زكريا وأخيه علي بن عبد الله
 شعر يشك في صحته « (٢) . وقال المرزباني : « وتروى لبنا أشعار » وأنا أشك في صحتهما « (٣) .

والشعر الذي روته هذه المصادر لعلي بن عبد الله القرمطي « أو لأخيه أحمد » يسير
 في طريقتين : -

الأول : يتبدد فيه هذا القرمطي المسلمين بعمامة « وأهل الشام بخاصة » كما يعلي فيه
 من حيوته بتقتيله خمسم علي بن أبي طالب من الأمويين والشاميين والجزيريين . يقول في قطعة (٤) : -

فبشّر رَحْبِي طُوقِي بِيَسْمِي	من الأيام ليركه نَظْمِي
ورافقة الضلالة ليس يفتني	إذا ما جئتُما باب وسور (٥)
ويغداد فليس بنا اعتياص	على أمري ، وليرلنا نكيـر
أصبحنا فأتركما حشيمـا	وأخوي ما حوت بنا القُـمـور (٦)

وقال في ثانية مفتخرًا بثأره من الأمويين والشاميين (٧) : -

تأرت بجدي خير من وطي الحصا وأنساره بالظن قتل بني عسـد (٨)

- (١) سهيل زكار : أخبار القرامطة : ٢٩٥ .
- (٢) العتدر نفسه : ٢٩٣ .
- (٣) معجم الشعراء ، ٢٩٤ ، مصورة تاريخ دمشق ١٢ : ٤٦٣ .
- (٤) المصدران نفسا عـما .
- (٥) في كتب البلدانيين رحبة مالك بن طوق الواقعة بين الرقة وبيغداد . ولعل الشاعر عناها وعنى
 رحبة دمشق ، وهي قرية من قراها ، لأن القرامطة اجتاحتها جميعا .
- (٦) رافقة الضلالة عنى بها مدينة الرافقة المعروفة .
- (٧) سهيل زكار : أخبار القرامطة : ٢٩٥ .
- (٨) الطائفة أرز من غاحية الكوفة كان فيما مقتل الحسين بن علي / معجم البلدان / مادة طف .

ب - الزهد والتصوف في الشعر الشامي :

عرفت لبعض زهاد الشام ومتصوفتهم أشعارٌ محورُها المواعظ الخلقية والدينية ، والدعوة إلى الزهد في الحياة والتحذير من الناس لأن مخالطتهم قد توقع في الزلل .

ومن أشهر زهاد الشام ومتصوفتهم في القرنين الثاني والثالث الهجريين من رويت لهم أشعار: أحمد بن محمد الحلبي^(١) ، وأحمد بن عاصم الأنطاكي^(٢) ، وإبراهيم بن أدهم^(٣) ، ومحمد ابن المبارك بن يعلى القرشي السوري^(٤) ، وأبو إسحاق الغزاري المصيصي^(٥) ، وزرقان بن محمد الصوفي^(٦) .

وأول ما يلاحظ على هؤلاء الزهاد أنهم كانوا يسكنون في الشوارع الشامية رغبة منهم في المجاهدة والمراقبة ، وقد استوى في ذلك من كان منهم شامي المولد والنشأ، والشامي الذي ارتحل إلى الشام واتخذها دار إقامة ، فكانهم جميعاً ترجعوا أقوالهم في الزهد في الحياة والرغبة في آجل

(١) كان من سكن في نواحي حلب ، وقد سمع السري السقطي (المتوفى سنة ٢٥١هـ / ٨٦٥م) . انظر ترجمته في بنية الطلب : ٢ : ٣١-٣٣ (نسخة مصورة عن نسخة مكتبة أحمد الثالث) .
(٢) كان أحمد من أعلام المتصوفين ومن كبار المشايخ وزهاد عم وعو من أقران السري السقطي ورأى الفضيل بن عياض (المتوفى سنة ١٨٧هـ / ٨٠٢م) . انظر ترجمته في : السلي : طبقات الصوفية : ١٣٧-١٤٠ ، حلية الأولياء : ٩ : ٢٨٠ ، ابن الجوزي : صفوة الصفوة : ٤ : ٢٥٢ .

(٣) كان من أهل بلخ بخراسان ، وسكن الشام ودخل دمشق وبيت المقدس وطبرية . ومات في الشام . وقد حدث عنه بقية بن الوليد الحمصي (المتوفى سنة ١٩٧هـ / ٨١٢م) . انظر في ترجمته : حلية الأولياء : ٧ : ٣٦٧ ، طبقات الصوفية : ٢٧ ، صفوة الصفوة : ٤ : ١٢٧ ، البداية والنهاية : ١٠ : ١٣٥ .

(٤) كان من سكان دمشق وصور ، حدث عن مالك بن أنس والوليد بن مسلم الدمشقي ، مولده بدمشق سنة ١٥٣هـ / ٧٧٠م ، وبها مات سنة ٢١٥هـ / ٨٣٠م . انظر ترجمته في : مصورة تاريخ مدينة دمشق : ١٥ : ٩٣٥ .

(٥) كان من اتخذ من ثغر المصيصة مكاناً للمراقبة . توفي سنة ١٨٨هـ / ٨٠٣م . انظر ترجمته في صفوة الصفوة : ٤ : ٢٥٩ .

(٦) كان زرقان من سكان لبنان وعو أخوذي النون المصري مؤاخاة . وتوفي ذو النون المصري سنة ٢٤٥هـ / ٨٥٩م . انظر ترجمة زرقان في : مصورة تاريخ دمشق : ٦ : ٤١١ .

الثواب الى أفعال . ومن أشعارهم في التزميد في الحياة الدنيا قول أحمد بن محمد الحلبلي (١) :

أَنْتَ فِي دَارِ شَتَاتٍ فَنَأْمَلُ لِسْتَاتِيكَ
وَأَجْعَلِ الدُّنْيَا كَيْسًا صُمْتُ عَنْ شَهَوَاتِيكَ
وَأَجْعَلِ الْيُسْرَ إِذَا مَا صُمْتُ بِسُوءِ مَنَاتِيكَ

وقد ينهج الصوفي منهج التشاؤم سبيلاً للخلاص من ضغوط الحياة ، ويصور ذلك قول أحمد ابن عاصم الأنطاكي (٢) :

هَوِّنْ عَلَيْكَ فَكُلَّ الْأُمْرِ مُنْقَطِعٌ وَخَلَّ عَنْكَ عَنَانَ الْهَمِّ يَنْدَفِعُ
فَكُلُّ هَمٍّ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ فَكَرْجٌ وَكُلُّ عَمَلٍ إِذَا مَا خَلَّى يَتَسَرِّعُ
إِنْ الْبَلَاءُ ، وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ فَالْمَوْتُ يَقْطَعُهُ أَوْ سَوْفَ يَنْقَطِعُ

ومن شعرهم الذي يرمز سوء الخلق بالناس ، وأنه حزين بالموت من لذلك أن يتنحى عنهم قول إبراهيم بن أدهم (٣) :

إِنْ دُمُورًا أَظْلَمَنِي قَدْ أَرَانِي الْمَجَانِبَ
فَلَبَّ النَّاسَ كَيْفَ مَشُؤُهُ تَجِدُ عَنْهُمْ عَقَارِيِبَ

وقوله في قتلعة أخسرى (٤) :

تَوَحَّشْ مِنَ الْإِخْوَانِ لَا تَبْعِ مُوَسَّسًا وَلَا تَتَّخِذْ خِلًا وَلَا تَبْعِ صَاحِبًا
فَقَدْ فَسَدَ الْإِخْوَانُ وَالْحُبُّ وَالْإِخَا فَلَسْتُ تَرَى إِلَّا مَذُوقًا وَكَاذِبًا (٥)

ومن أنضح أشعارهم التي تعبر عن أنظارهم غير مجرد إزجا' النصائح والمواعظ قول أحمد ابن عاصم الأنطاكي في قصيدة (٦) :

- (١) بغية الطلب ٢: ٣٣ (نسخة مصورة عن نسخة مكتبة أحمد الثالث)
- (٢) بغية الطلب ١: ١٨٦ ، البداية والنهاية ١٠: ٣١٨ .
- (٣) البداية والنهاية ١٠: ١٤٣ .
- (٤) المصدر نفسه ١٠: ١٢٦ .
- (٥) المذوق : المجرب .
- (٦) حلية الأولياء ٩: ٢٩٦ - ٢٩٧ .

وَأَنْتَ مَاخُودٌ بِمَا كُنْتَ سَاعِيًا
وَعِلْمًا يَزِيدُ الْعَقْلَ لِلصَّدْرِ شَانِيًا
سَبِيلَ هُدًى أَوْ كُنْتَ لِلْحَقِّ بَاغِيًا
فَمَنْه بِالْإِلْهَامِ وَمِنْهُ سَمَاعِيًا
وَكَيْفَ بَدَأَ الْإِسْلَامُ إِذَا كَانَ بَادِيًا
وَكَيْفَ ذَوَى إِذَا صَارَ كَالثَوْبِ بَالِيًا
يُفِيدُكَ عِلْمًا إِنْ وَعَيْتَ كَلَامِيًا
عَنِ الْقَلْبِ حَتَّى يُتْرِكَ الْقَلْبُ صَانِيًا
وَيُصْنَفُ دَلَالَاتِ الْعُقُولِ زَمَانِيًا

أَلَمْ تَرَ أَنَّ النَّفْسَ يُرِيدُ شَرْعًا
فَمَنْ ذَا يُرِيدُ الْيَوْمَ لِلنَّفْسِ حَكْمَةً
عِلْمٌ إِلَيَّ الْآنَ إِنْ كُنْتَ طَالِبًا
فَعِنْدِي مِنَ الْأَنْبَاءِ عِلْمٌ مُجَسَّرٌ
أُخْبِرْ أَخْبَارًا تَقَادَمَ عَهْدُهَا
وَكَيْفَ نَمَا حَتَّى اسْتَمَّ كَمَا لَمْ يَكُنْ
وَمِنْ بَعْدِ ذَا عِنْدِي مِنَ الْعِلْمِ جَوْهَرٌ
وَعِلْمًا غَزِيرًا جَالِي الرِّينِ وَالصَّدَا
فَأُخَوِّجُ مَا كُنَّا إِلَى وَصْفِ دِينِيَا

إن في هذا القدر من الشعر فضل كفاية للتدليل على أن شعراء التصوف الشاميين فسي
تذنين القرنين لم يزايلوا منهج شعراء الزهد الآخرين (كزبد أبي العتاهية) في المباشرة فسي
الخطاب، وفي الوضوح الذي يصل إلى درجة التسطيع في المعاني والأفكار، وفي غياب الرموز
والإشارات الصوفية التي شاعت لدى المتأخرين من شعراء التصوف كابن الفارض. وذلك كله يعنسي
أن التصوف الشامي في هذه الحقبة كان كأنه في بدايات تشكله باعتباره منهج حياة، وأسلوب تفكير
وعيش، بن قد لا تعدو الحقيقة إذا قلنا إنه كان أثرًا من آثار النكبات التي كانت تحل بالناس
بفعل الفتن الداخلية، والحروب والصراع الخارجي، وأنه لم يكن قد تشكل تشكلاً مذهبياً لـه
رموزه ومصطلحاته.

الفصل الخامس

تعريف بستة شعراء شاميّين

١ - ديك الجن الحمصي

كان عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب الملقب بديك الجن^(١) فارسي الأصل وبذلك افتخر في شعره . وقال ابن خلكان نقلاً عن كتاب " الورقة " لابن الجراح إنه مولى لطبي^(٢) ، والراجح أنه مولى لكلب ، فيها افتخر في غير موضع من شعره ، من ذلك قوله^(٣) : -

كَلْبٌ قَبِيلِي وَكَلْبٌ خَيْرٌ مِنْ وَلَسَدَتِ حَوَاءُ مِنْ عَرَبٍ غَرَّ وَمِنْ عَجَبِ

وقوله في قطعة أخرى^(٤) : -

يَا أَسْرَعَ النَّاسِ فِي حَثِّ عَلَى الْكَاسِ وَأَرْغَبَ النَّاسِ فِي زِيَّةٍ وَإِنِّي لَأَسِ
أَعَزُّ كَلْبٍ حِينَ أَشْرَبُ وَرَبُّمَا فَتَكَّتْ مِنْ فَتْكٍ جَسَّاسِ^(٥)

أما تلقيه بديك الجن فقد اختلف في سببه ، فقليل لأن عينه خضراوان^(٦) ، وقيل لأنّـه ذكر في شعره الديك^(٧) ، وقيل لأنه كان كثير الخروج إلى البساتين ومعاقرة الخمرة ، وقيل :

(١) انظر في التعريف به : الأغاني ١٤ : ٥١ - ٦٧ ، الثعالب : ثمار القلوب في المضاف والمنسوب

تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ١٩٨٥ ، ٦٥ ، ٤٧٠ ، صورة تاريخ مدينة دمشق ١٠ : ٣١٦ - ٣٢٠ ، وفيات الأعيان ٣ : ١٨٤ - ١٨٨ ، داود الأنطاكي : تزيين الأسواق

في أخبار العشاق ، منشورات حمد ومحيو ، بيروت ١٩٧٢ ، ١٤ : ٢٩٢ .

(٢) انظر : وفيات الأعيان ٣ : ١٨٤ ، ولم يرد في كتاب " الورقة " المطبوع ، وانظر أيضا : صورة تاريخ مدينة دمشق ١٠ : ٣١٦ .

(٣) من القصيدة ٢٩ من ديوانه .

(٤) ورد هذان البيتان في : المختار من قطب السرور في أوصاف الأنبياء والخمور ، اختيار علي نور الدين المسمودي ، تحقيق عبد الحفيظ منصور ، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله ، المطبعة الرسمية ، تونس ١٩٧٦ : ٣٩٤ ، ولم يرد البيتان في ديوان الشاعر .

(٥) جساس هو سيد من سادات قبيلة تغلب ، كان قتله سببا في نشوب حرب البسوس بين بكر وتغلب .

(٦) انظر : صورة تاريخ مدينة دمشق ١٠ : ٣١٧ .

(٧) القطعة ٢٧ من ديوانه .

شبه بالديك النجيب الكثير السَّفاد^(١) ، وأغلب الظن أنه لقب بذلك اللقب للون عينيه ، ولمرثيته في ديك ذبحه له أحد أصحابه ، وهذا هو الشائع المشهور في الألقاب التي يخلعها الناس على أترانهم ، إذ تكون العلامة الفارقة في الجسم أو في التعبير أو فيهما معاً سبباً في إطلاق اللقب .

ولد ديك الجن في حمص سنة ١٦١هـ / ٧٧٧ م في رواية ، وسنة ١٧١هـ في أخرى^(٢) . وقد وعم الثعالي في أمر الديك إذ بينما قال في موضع - وهو صحيح - إنه أدرك المتوكل ، قال في موضع آخر - وهو غير صحيح - هو أحد شعراء سيف الدولة بن حمدان^(٣) .

وقد نشأ ديك الجن وشب في بلدته حمص ، وكان يرتاد بعض نواحي الشام الأخرى ، فقصده سديّة لما اختلت حاله ، واتصل فيها بأحد أعيانها المشهورين أحمد بن علي الباشمي الذي كان عم وأخوه جعفر يحسنان إليه . كما قصد دمشق غير مرة كانت إحداها هروباً من السلطان الذي طلبه بدم جاريته - أو زوجته وغلامه اللذين قتلتهما في حمص بسبب ما أشيع عن خيانتها له في أثناء زيارته لأحمد بن علي الباشمي في سلمية^(٤) . وتتمدد الديك دمشق مرة أخرى في إبان ولاية أحمد ابن محمد بن المدير علينا من قبل ابن طولون^(٥) ، وقد توطدت علاقة الشاعر بالوالي كما يقول ابن عساكر .

أما عن رحلات ديك الجن إلى الأمصار الإسلامية الأخرى فقد اختلف فيها ، فبينما قال أبو الفرج الأصبهاني - وتابعه في ذلك ابن خلكان - إن ديك الجن^(٦) : " لم يرح نواحي الشام ولا وفد إلى العراق ، ولا إلى غير منتجعاً بشعره ، ولا متصدياً لأحد " ، فإن حمزة الأصبهاني يروي خبراً منسوباً إلى الديك أنه قال فيه^(٧) : " دخلت مصر بعد أبي نواس فوجدت له بها أشعراً "

- (١) انظر: ثمار القلوب : ٦٩ ، ٤٧٠ .
- (٢) انظر: وفيات الأعيان ٣ : ١٨٧ ، حياة الحيوان الكبير ١ : ٣٤٩ .
- (٣) انظر: ثمار القلوب : ٦٩ ، ٤٧٠ .
- (٤) انظر: الأغاني ١٤ : ٥٥ ، ٥٧ ، تزيين الأسواق ١ : ٢٩٢ - ٢٩٣ .
- (٥) انظر: صورة تاريخ مدينة دمشق ١٠ : ٣١٦ ، وانظر في التعريف بأحمد بن المدير: النجوم الزاهرة ٣ : ٤٣ الذي قال إن أحمد بن المدير كان حتى سنة ٢٦٧ يتولى خراج دمشق والأرب وفسطاطيين .
- (٦) الأغاني ١٤ : ٥١ ، وفيات الأعيان ٣ : ١٨٤ .
- (٧) ديوان أبي نواس ، تحقيق إيثار فاغنر ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٨ : ١٤ : ٤ .

وكان ديك الجن بإجماع من تحدثوا عنه ماجناً خليعاً منكباً على شرب الخمرة ، متلاًفاً للمال في سبيل ذلك ، قليل التدين ، شيعياً حسن المذهب ، وقيل إنه كان حسن الخنا ، بالطنبور (١) .

وقد كان لديك الجن صلات ببعض شعراء عصره من ذلك صلته بأبي تمام ، إذ يُروى في خبر أن ديك الجن كان جالساً يوماً في داره ، فدخل عليه حدث فأنشده من شعره ، فأخرج الديك من تحت مصلاه بعض شعره المكتوب ، وقال للفتى : تكسب بهذا واستعن به على قولك ، وكان ذلك الفتى هو أبا تمام . وقد مات أبو تمام وديك الجن حي فرثاه (٢) .

والتقى ديك الجن أبا نواس في حمص عندما كان أبو نواس متوجهاً إلى مصر وقد قال أبو نواس للديك في ذلك اللقاء : فتنت أهل العراق بقولك : —

موردة من كث ظبي كأنثا تناولها من خدّ فأدارعها (٣)

وهذان الخبران يدلان على أن شاعرية ديك الجن كانت قد استلكت أدواتها قبل اتصاله ببذيبن الشاعر — .

وروى ديك الجن عن دعبيل بن علي الخزاعي . وروى عنه مجاهد بن حفص الصنار الشاعر ، وعلي بن موسى الطرسوسي ، وكان راوية شعره هو سعيد بن يزيد الحمصي (٤) .

وكانت وفاة ديك الجن حسب قول ابن خلكان في حمص سنة خمس أو ست وثلاثين ومائتين في خلافة المتوكل ، وبذلك قال الدُميري أيضاً (٥) . غير أن رواية رواها ابن عساكر تذكر أن ديك الجن كان قصد أحمد بن المدبر وموعل على الشام من قبل ابن طولون ، وذلك يعني أنه كان حياً بعد سنة ٢٥٤هـ ، كما روى رواية أخرى عن راوية شعر الديك يستفاد منها أن الشاعر كان قد رد إلى أزل العمر (٦) .

(١) انظر: مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٠: ٣١٦ .

(٢) انظر: وفيات الأعيان ٣: ١٨٤ - ١٨٥ .

(٣) انظر: المصدر نفسه : ١٨٥ .

(٤) انظر: مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٠: ٣١٦ - ٣١٧ .

(٥) انظر: وفيات الأعيان ٣: ١٨٨ ، حياة الحيوان الكبرى ١٤: ٣٤٩ .

(٦) انظر: مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٠: ٣١٦ .

وقد كان عبد المعين الملوحي ومحيى الدين الدرويش الحمصيان أول من فطن من المحدثين إلى ضرورة جمع شعر الديك ، ولم يعرف حتى اليوم أن له ديواناً مروبياً ، فجمعنا ما قدرا على جمعه ، وكان مقداره تسعاً ومائة قصيدة وقطعة ، وأطلقا على هذا المجموع اسم "ديوان ديك الجن" (١). ثم تبعهما جامعان آخران هما أحمد مطلوب وعبد الله الجبوري فنشرا مجموعاً جديداً من شعر الديك بلغت عدة قصائد ومقطعات ، بما في ذلك ما سبق أن نشره الحمصيان ، إحدى وثلاثين ومائسة قطعة وقصيدة . واستدركت عليهما دار الثقافة التي نشرت لهما مجموعتهما فأضافت إليه تسع عشرة قطعة ، وصدر ذلك كله في كتاب حمل أيضاً اسم "ديوان ديك الجن" (٢).

وقد تبين لي في أثناء البحث أن للديك قصائد ومقطعات أخرى كثيرة لم يقع عليها أولئك الباحثون جميعاً . فله في "جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام" قصيدة من ستة وأربعين بيتاً (٣) . وله في "المختار من قطب السورور في أوصاف الأنبياء والخمور" خمس قطع مجموع أبياتها ستة عشر بيتاً (٤) . وله في "الأنوار ومحاسن الأشعار" قصيدة من ثلاثة عشر بيتاً ، وقطعة من ثلاثة أبيات (٥) . وله في "صورة تاريخ دمشق" قطعة من ثلاثة أبيات (٦) . وهذا غير ما أشرت إليه فسي مواضع سابقة من الدراسة .

ويتوزع شعر ديك الجن في أغراض عدة غير أن أبرزها هو النظم في المجون والمرائي والفخر ، وسيجيء الكلام مفصلاً على كل واحد منها مع إيراد شواهد من شعره لم يسبق إيرادها في مواضع سابقة من هذه الدراسة .

-
- (١) طبع في مطابع الفجر الحديثة بحمص سنة ١٩٦٠ .
 - (٢) طبع في مطبعة المثنى ونشرته دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٦٤ .
 - (٣) انظر: جمهرة الاسماء ٧٨ - ٧٩ .
 - (٤) انظر: المختار من قطب السورور : ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٨٢ ، ٣٩٤ .
 - (٥) انظر : الأنوار ١ : ٣١٧ ، ٢ : ٢٤٧ .
 - (٦) انظر : صورة تاريخ مدينة دمشق ١٠ : ٣١٩ - ٣٢٠ .

١- المجنون :-

فتن ديك الجن بالخمرة ومجالسها، وساقه افتتانه بها إلى التدقيق في أوصافها ، ونسبي
تتبع آثارها في الشارين ، وإلى التغزل بسقاتها غزلاً مكشوفاً في رقة لفظ ، وعذوبة مؤلفي ، وجمال
تصوير ، يقول منــلاً (١) :-

بها غير معذور فداو خمارها	وصل بعشيات الغبوق ابتكارها
وتم أرت فاحت كاسها غير صاغير	ولا تسق إلا خمرها وعقارها
فقام تكاد الكأس تحرق كفسه	من الشمس أو من وجنته استعارها
مشعشة من كنف ظبي كأنما	تناولها من خده فأدارها (٢)
ظللنا بأيدينا نتمتع روحها	وتأخذ من أقدامنا الراح نارها

فهذا التصوير الدقيق لإقبال جماعة الشارين على ترشف كؤوس الخمر ، ويرى مصمم على أن يتساقوا
عقارها حتى ترتعش منهم الأقدام وتضطرب ، دليل على غرام الشاعر بالخمرة ، وقد قاده هذا الغرام
كذلك إلى أن يعرض صوراً للساقي الذي كان يدور عليه ويثلى محبه بكؤوس الخمر ، يقول (٣) :-

نبته والتداعي جان مسيرهم	فقلت : قم وانقنا الهم الذي وكفنا (٤)
فقام مختللاً كالبدر مطلعنا	والظبي ملتفتاً والعن منعطفا
كان قافاً أدبرت فؤق وجنته	واختط كاتبها من فوقها ألفنا
رقت غزلة خديهم فلو رمينا	باللحظ أو بالمعنى عما بأن يكفنا

كما قاده هذا التعلق الشديد بالخمرة إلى أن يرى أن أي مظهر من مظاهر الجمال يظل غير تمام
ما لم يتوج بالتفني بالخمرة ، يقول (٥) :-

وروخة بات ظل الفيك يسجها	حتى إذا كملت أضحى يدبجها
يبكي عليها بكاء الصب فارقه	إلف فيضحكها طورا ويهيجها

- (١) القصيدة ١٧ : ص ١٠٧ من ديوانه (بتحقيق أحمد مطلوب وزميله) .
- (٢) تمتع الشيء : حركه بعنف .
- (٣) القصيدة ٢٠ ، ص ١١٢ من ديوانه .
- (٤) وكف : سال وقطر قليلاً قليلاً .
- (٥) المختار من قطب السورور : ٣٧٢ .

- ٢٧٢ -

إِذَا تَفَاحَتْ فِيهَا وَرْدٌ نَرَجِسِيهَا بَاعَى ذِكِّي خُرَامَاهَا بِنَفْسِجُمِهَا
 نَقَلْتُ فِيهَا لِسَاتِنَا وَفِي يَسَدِهِ كَأَنَّ كُشْعَلَةَ نَارٍ بَاتَ يُوهِجُهَا
 لَا تَعْرِجُهَا بِغَيْرِ الرِّقِيِّ مِنْكَ فَسَلَانِ تَبَخَّلْ بِذَاكَ فِدْمَعِي سَوْفَ يَمْرُجُهَا
 أَقْلُ مَا بِي مِنْ حَبِيكَ أَنْ يَسْدِي إِذَا سَمْتُ نَحْوَ قَلْبِي كَادَ يُنْضِجُهَا

ويبدو أن إقبال ديك الجن على الخمرة كل هذا الإقبال ، وتعلقه بها كل هذا التعلق ، كان صادراً عن مذهب خاص له في الحياة ، فقد رأى الموت يتخطف أحبائه من حوله ، فلماذا لا يسارع إلى انتهاب الملذات قبل الموت ؟ يقول بصورة صريحة لا مواربة فيها في هذا المذهب (١) : -

تَمَعَّ مِنَ الدُّنْيَا فَإِنَّكَ فَسَّانِ وَإِنَّكَ فِي أَيْدِي الْحَوَادِثِ عَسَانِ
 وَلَا تُتَخَيَّرَنَّ الْيَوْمَ لِمَوَا إِلَى غَسَدِ وَمَنْ لِمَعْدٍ مِنْ حَادِثٍ بِأَمْسَانِ
 فَإِنِّي رَأَيْتُ الدَّمْرَ يُسْرِعُ بِالْفَتْسِ وَيُنْقِلُهُ حَالِكِينَ يَخْتَلِفُ فُسَانِ
 فَأَمَّا الَّذِي يَنْضِي فَأَحْلَامُ نَائِمِ وَأَمَّا الَّذِي يُبْقَى لَهُ فَأَمَانُ سِي

ويقول ، وعنه الاستمتاع " بطيب الموجود " المتاح لا " بالمفقود " الموعود (٢) : -

اشْرَبْ عَنِيتًا عَلَى وَرْدٍ وَتَوْرِيْدِ وَلَا تَبِعْ طَيْبَ مَوْجُودٍ بِمَفْقُودِ
 نَحْنُ الشُّهُودُ وَخَفِيُّ الْعُودِ خَاطِبُهَا نَزَّوْجُ ابْنِ سَحَابٍ بِنْتُ عُنُقُودِ (٣)
 كَأَسَاءَ إِذَا أَبْصَرْتَ فِي الْقَوْمِ مُحْتَشِمًا قَالَ السُّرُورُ لَهُ : قَمِ غَيْرَ مَطْرُودِ

وإذا انضاف إلى هذه الأبيات أقواله في مواضع كثيرة من شعره مبشراً بذهبه هذا في الحياة ، اتضح أن ديك الجن كان من " الأبيقوريين " لا عن ثقافة خاصة استقاها من أنصار هذا المذهب اليوناني ، بل عن نظرة له في الحياة والأحيا ، فهو يقول حينئذ (٤) : -

أَأَتْرُكُ لَذَّةَ الصَّهْبَاءِ عَمْدًا لِمَا وَعَدُوهُ مِنْ لَبَسٍ وَخُمْرِ
 حَيَاةٍ ثُمَّ مَوْتٍ ثُمَّ بَعْدُ حَدِيثُ خُرَافَةٍ يَأْ أَمَّ عُمْرِ

(١) القطعة رقم ٢٤ ص ١١٨ من ديوانه .

(٢) المختار من قطب السُرور : ٣٧٥ .

(٣) كنى عن الماء بـابن سحاب ، وعن الخمر ببنت عنقود .

(٤) القطعة ٣٦ ص ١٧٠ من ديوانه .

ويقول حيناً آخر في معنى مقارب (١) :

يقولون: تَبُّ والكأسُ في كَفِّ أَغْيَدٍ
فَقُلْتُ لَهُمْ: لَوْ كُنْتُ أَضْمَرْتُ تَوْبَةً
وصوتُ المثاني والمثالثِ عـالٍ
وعاينتُ هذا في المنام ، بدا لي

ويندرج في هذا الاتجاه المعاند كراهيته للصيام في قوله (٢) :

صَبَّ عَلَيَّ الْكَاسُ إِنَّ لَوْلَنَسَا
مَا زَالَ مِنْ بُنْشِ الصَّيَامِ مُبْفَضَا
قد صَبَّ ثِقْمَتُهُ عَلَى الثَّقَلَيْنِ
يومُ الخَمِيسِ إِلَيَّ وَإِنْ ثَنَيْنِ

لقد تنازع الشاعر تياران متناقضان: ديني ضعيف ، وديني قوي ، فكان أن انتصر بالبداية تيار اللذة العاجلة ، فتمزق الشاعر في متع الحياة ، غير أن الإفصاح عن هذا التوزع النفسي يبدل على أن التيار الآخر كان يظل يعمر في اللاشعور ، مما يعني أن ديك الجن لم يكن منكراً للبعث والنشور ، وإنما تضخم لديه الإحساس بالرهبة من الموت تضخماً عظيماً ، جعله يعيش في قلق شديد دل عليه قوله (٣) :

يَرْقُدُ النَّاسُ آمِنِينَ وَرَيْبُ الدُّهُ
رِيَّعَاهُمْ بِمَقْلَةٍ لِسَصِّ

فهرب من هذا اللص المرعب إلى الخمرة ، وإلى ما تتيحه له الخبرة ومجالسها من التحديق والاستمتاع بشفور الساقيات وشعورهن وخدودهن ونواحي جمالهن المادي الأخرى ، وثَنَّفَ سمعه " بالمثاني والمثالث " ، ومع هذا كله فإن إحساسه بالرهبة من الموت لم يكد يفارقه .

وأما الأبيات الغائية التالية التي يظهر فيها ديك الجن منكراً للبعث فلا تعدو أن تكون ضرباً من العبت لا صدوراً عن مذهب واعتقاد ، وفيها يقول (٤) :

- (١) القطعة ٦٢ ص ١٨٥ من ديوانه .
- (٢) القطعة ٨٣ ص ١٩٥ من ديوانه .
- (٣) رقم ٤٧ ص ١٧٤ من ديوانه .
- (٤) رقم ٤٩ ص ١٧٥-١٧٦ من ديوانه ، وانظر تعليق أبي العلا المعري على هذه الأبيات في : رسالة الغفران ، تحقيق بنت الشاطئ ، ط ٤ ، دار المعارف بمصر : ١٩٤٦ ، والسواف بضم السين وفتحها : مرض المواشي وهلاكها ، ويطلق على النفوس بعامية .

- ٢٧٤ -

في الدنيا وقد نعيموا بأخري
وتسويك النفوس من السُّوافي
فإن كذبوا أميت ، وإن أصابوا
فإن المبتليك هو المعافي
وأصدق ما أبشرك أن قلبك في
بتصديق القيامة غير صاف

ويرتبط بشعر المجون عدا الحديث عن الخمرة والسقا تغزل ديك الجن بالغلطان، وبخاصة غلام له يدعى بـكراً ، وفي ديوانه مقطعات عوَّض في بعضها وصفاً لمحاسن هذا الغلام ، وليس في هذه القطع ما يحسن التمثل به غير قوله في بيتين يصف فيهما دخول هذا الغلام في ماء ، فجاء بتصوير فني بارع ومعنى طريف ، حيث يقول (١) :

دَتَّى حَتَّى حَسْبَتْ وَرَى الْبُورِ دَ جَنِيًّا يَرْفُ بَيْنَ الرَّيَاحِ
وَرَدَّ الْمَاءُ ثُمَّ رَاحَ وَقَدْ أَصْبَرُ دَرَّهَ الْمَاءُ فِي غُلَّالَةِ رَاحِ

أما ما سوى ذلك من غزل الديك بالغلطان فهو ممجوح إذ شعاره في الغزل قوله وعو يتم به مذمبه في الحيلة (٢) :

أَعْيَقُ السَّرْدَ وَالنَّكَارِيَّ وَالشَّيْبَ وَعُنْدِي مَثَلُ الْبَنِينِ الْبَنَاتِ (٣)
حَدَّ مَا يَشْتَهَى وَيُعْنَقُ عَنْدِي حَيَّوَانٌ تَحُلُّ فِيهِ الْحَيَاةُ

وللديك قصيدة طويلة رَوَّاعاً الشيزري في جمهرة الإسلام ، وهي تتوزع بين غرضين يتم الثاني منهما الأول ويتشعب عنه ، فقد خصص جزءاً من الأول للغزل الذي يقوم على وصف تباريح البهوان والوجد ، وأتى في أثناء ذلك على ذكر محاسن صاحبة التي هام بها ، حتى إذا ما انتهى إلى وصف ثناياها انخرع اتخذ من وصفه لها مدخلاً لوصف الراح وزيارة الحانة التي يقوم على الخدمة فيها "شيخ عدلسي كراعب" (٤) . وقد استطرده في وصف الخمرة فوصف رائحتها وزجاجتها ولونها ، ثم التفت ثانية إلى صاحبة التي هام بها في أول الأمر ، فعبّر عن وفائه لها ، وانشغال فكره وقلبه بها ، وكأنه أراد أن يقول : إن من كان عاشقاً لمثل هذه الحسناء الفاتنة حري به أن يقل كرى عينه ، وأن يظلم

(١) القطعة ٢١ ص ١٦١ من ديوانه .

(٢) القطعة ١٨ ص ١٦٠ من ديوانه .

(٣) النكاديش : لفظة فارسية تعني ذا اللحية .

(٤) العدلسي : المسنن .

مهموماً . وسأثبت القصيدة كاملة كما رواها الشيزري ، لأنها مذهب يقارب - لولا ذكر الخمر - مذهب
الأغراب في النزول العفيف وفي البناء الجزل الرصين وعما مظهران غير مألوفين في غزله : -

سَهْمًا لِحَاظٍ مِنْ قَسِيِّ الْحَوَاجِبِ
غَدَاةَ كِتْبِنَا فِي الْخُدُودِ رَسَائِلًا
تَلُوحُ عَلَى لَبَاتِنَا وَتُحَوِّرُنَا
وَالسُّنَنُ خُرُسٌ كَأَنَّ خَلَائِفًا
كَفَتْنَا النَّوَى عَذْلَ الْمُعْنَى فَأَقْصِرِي
جَنَاهُ الْهَوَى بِالشَّوْقِ حَتَّى كَانَمَا
يَبِيتُ عَلَى فَرْشِ النَّفْسِ مُتَعَلِّمًا
فَرِيسَةً أَشْجَانٍ طَرِيحًا بِكَفِّمَا
خَلِيلِي خَانَ الْمَبِيزُ وَانْقَطَعَ الْكَرَى
خَلِيلِي عَنْ عَيْنِي سَلَا أَنْجَمَ الدُّجَى
خَلِيلِي كَمْ مِنْ لَوْعَةٍ قَدْ كَتَمْتُمَا
وَعَتْنَا سِتْرًا فِي الْحِشَا كَانَ مُسَبَّلًا
فَمَا أَتَصَحَّ الدَّمْعُ السَّكُوبَ إِذَا جَرَى
سَأَكْجَلُ عَيْنِي مِنْ بَعِيدٍ بِنَظَرَةٍ
وَعَلَّ يُنَمِّنِي نَظْرَةً إِنْ بَلَّغْتُمَا
وَقَلَّ لِعَيْنِي مِنْ بَعِيدٍ تَأَمَّلْ
فَعَلَّلْتُ نَفْسِي بِالَّذِي هُوَ مُقْنِعِي
صَفَاءً وَإِخْلَاصًا وَبُقَا مَسْوَدَةٍ
وَفِي النَّفْسِ مَنِي قَدْ طَوَيْتُ مَارِيَا
لَهَا مِنْ مَبَاةِ الرَّمْلِ عَيْنٌ كَحِيلَانَةٍ
كَأَنَّ غُلَامًا حَازَنًا خَطْبَةً لَهَا
أَنَاتَلْتِي أَمَّا أَنَا فَمُسَالِمٌ
وَلَكِنْ لِقَوْمِي عِنْدَ قَوْمِكَ بَغِيَّةٌ

نَظْمُنَ الْأَسَى فِي الْقَلْبِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
بِأَطْرَافِ أَتْلَامِ الدَّمْعِ السَّوَاكِيرِ
وَتَبْمُثُهَا أَجْفَانُنَا لِلنَّوَى
حَكِيمٌ ، وَهَاجًا لِلْحِسَانِ الْكَوَاعِبِ
بِمَا رُمَتْ فِيهِ مِنْ فِرَاقِ الْحَبَائِبِ
بِأَحْسَائِهِ لِلشَّوْقِ لِدُعَا الْعُقُوبِ
قَلِيلًا تَشْكِيهِ كَثِيرُ الْمَسَائِبِ
وَمَا بَيْنَ نَابِيٍّ سَبْعِيهَا وَالْمَخَالِبِ
وَقَدْ أَحْكَمْتُ عَيْنَايَ رَعَى الْكَوَاكِبِ
تَخَبَّرْتُ بِتَشْنِيدِ عَرِيضِ الْمَنَاكِبِ
فَأَعْلَنَّا دُمْعِي لِمُعَلِّقِ صَاحِبِي
عَلَى الشَّوْقِ حَتَّى عَنَفْتَنِي أَقَارِبِي
وَأُظْهِرُهُ لُطْفًا لَهَا فِي الْمَنَائِبِ
إِلَى نَارِمَا بِالرَّغْمِ مِنْ أَنْتِ رَاغِبِ
وَلَوْ زَهَقَتْ نَفْسُ الْغَيُورِ الْمَحَابِبِ
وَلَمْ أَرْضَ إِلَّا حِينَ عَزَّتْ مَطَالِبِي
وَأَعْرَضَتْ إِعْرَاضَ الْبَغِيضِ الْمُجَانِبِ
بِعَهْدِ كَرِيمٍ وَاصِلٍ غَيْرِ قَاضِي
إِلَى مَنْ إِلَيْهَا حَاجَتِي وَمَآرِبِي
وَمِنْ خُضْرَةِ الرِّيحَانِ خُضْرَةُ شَرَابِ
فَجَاءَ كَيْفَ الصَّادِ مِنْ خَطِّ كَاتِبِ
وَأَرْضِي بِمَا تُرَضِّينَ غَيْرُ مُحَرَّابِ
وَبَيْنَهُمْ فِيهَا قِرَاعُ الْكَتَائِبِ

فإن تقتليني تبعني الحرب جُدَّةً
فإن يخل لي وجه الحبيب فإنني
ولا فإن الشر عند مكني
لئلا يرى الواشون قرة أعين
وقد زعموا أني بنفسيك مفسر
ولا والشيا الدمر من فيك إنهما
تمج مداما عتقت فدفست
على فرد رجل قائم غير قاعيد
تمزق عنها الدر من طول لبثها
بجلباب قار قد تجسد جسمها
وينشأها ثوب رقيق سداوة
طرقنا أباها في جيوش من الدجى
فقام إلينا مسرعاً لسرورنا
فقلت له : عات المدام فإننا
فشمردني وقام بيادراً
فشد على الأقصى فصرخ خضرة
وأقبل يسعى بالزجاجة ضاحكاً
كان سحيق المسك في جنباتها
كان نسيم الكأس عند ردها
كان دموع العاشقين ترفرفت
لما كنت إلا مقيداً بك متمرماً
إذا فرماني البين عن قوس مجرهم
فقل كرى عيني لهم مسهد

لقد عني الشاعر في هذه القصيدة بتناغم الأصوات كما عني

عليها فروي وأنظري في العواقب
سأنشر ما أضمرت بين الحقائق
دفين على مر الليالي الدواهب
ولا يجدوا فينا معاباً لعائب
وعنك عزوف كالصدوف الموارب
لكالغيث أدته أكف السحاب
باحشاء شبح عذلي كراهيب (١)
له برنس يعتده في المناسيب
ولم يتعرق في بلائ جلابيب
وآخر من طين وليس بـلازب (٢)
رقيق الحواشي من نسيج العناكب
وأيدي الثريا في نواصي المغارب
يفدي ويحمينا كبعض الأقباب
عكفنا عليها من صدور الركائب
إلى وقف شعك قيام نواصب
بمثلي جناح من دم الجوف شاخب
مد لا بها مستبشراً غير خائب
إذا التمتت تفري رداء الدنيا عاب
تنسم عود في صدور المحارب
بأكوسنا تجري على كل شارب
ولست إلى شيء سواك براغب
بأشبه ذات السحول الصوائب (٣)
وفكر طويل الذيل بالقلب لاعب
بالإكثار من الصور والتشبيهات، ولكنه ظل

في هذا كله بحتري الصياغة والتشبيه بعيداً عن مذهب أبي تمام في البديع وتوليد المعاني.

(١) تمج : تلفظ . تمنست : كناية عن عتق الخمرة .

(٢) اللازب : المتعاسك اللزق .

(٣) ذات السحول : ذات الانصباب .

على هذه كانت تدور النوائبُ
نزلنا على حُكْمِ الزمانِ وأمره
ويضحك سن المرء والقلب موجج

وفي كلِّ جَمْعٍ للذَّعابِ مذاعبُ
وعلى يَقْبِلُ النصفَ الألدَّ المشاغِبُ
ويرضى الفتى عن دعره وعوعاتب

أَلَا أَيُّهَا الرُّكْبَانُ وَالرُّدُّ وَاجِبٌ
إِلَى أَيِّ فِتْيَانِ النَّدَى قَصْدُ السَّرْدَى
فِيَا لَأَيِّ الْعَبَاسِ كَمْ رُدُّ رَاغِبٌ
تَقُولُوا حَدِّثُونَا مَا تَقُولُ النَّوَادِبُ
وَأَيُّهُمْ نَابَتْ جِمَاهُ النَّوَائِبُ ؟
لِفَقْدِكَ لَمُوهَا وَكَمْ جُبَّ غَارِبُ

(٢) القصيدة رقم ٢ ص ٧٢ من ديوانه .

ويا قبره جُدُّكُ قَبْرٍ بِجُودِهِ فَيْتُكَ لَوْ تَذَرِي بَعْدَ فَيْتِكَ مِنْ عُمَلَا
فَيْتُكَ لَوْ تَذَرِي بَعْدَ فَيْتِكَ مِنْ عُمَلَا وَفِي جَانِبٍ مِنْهُ وَأُسْقِمَ جَانِبُ

والقصيدة كلها على هذا النحو من الحزن واللوعة الصادقة ، وهي كلها كذلك على هذا النحو من الإشراق والجزالة والفصاحة والتصوير الجميل . وقد بلغ قوله التالي درجة عالية من الفنية إذ يشخص الموت في صورة رجل عات يتصدى له الشاعر محاولاً نحره ، غير أن المنازلة تنتهي بانهزام الشاعر :

تَرَشَّفْتُ أَيَّامِي وَمِنْ كَوَالِيهِجٍّ عَلَيْكَ وَغَالِبْتُ الرَّدَى وَعُوْغَالِيهِجٍّ
وَدَافَعْتُ فِي صَدْرِ الزَّمَانِ وَنَحْرِهِ وَأَيُّ يَكْدٍ لِي وَالزَّمَانِ مُحَارِبٍ؟ وَقَتْلَتْ لَهُ : خَيْتُ الْجَوَادَ لِقَوْمِهِ
وَمَا أَتَا أَنْذَا فَاَزْدَدُ فَإِنَّا عَمَائِرُهِجٍّ

وعذبة العرئية والعرئية التي تطلبها ، إضافة إلى مراثي الديك في زوجته التي قتلتها ، هي التي جعلت ابن رشيقي القيرواني يقول في موازنة دالة بين مراثي الديك ومراثي أبي تمام : " وأبو تمام من المعدودين في إجادة الرثاء " ، ومثله عبد السلام بن رغبان ديك الجن ، وهو أشهر في عذبة من حبیب (١) .

وأما مراثيه في زوجته التي تطلبها بيديه ففيها زغرات حرة يصعد عما من قلبه مكلوم حباً وندماً في آن ، يقول في إحداها (٢) :

أَسَاكِنُ حُفْرَةٍ وَقَرَارٍ لِحُجْرٍ مُنَارِقَ خُلَّةٍ مِنْ بَعْدِ عَهْدٍ
أُجْبِنِي إِنْ قَدَّرْتَ عَلَى جَوَابِي بِحَقِّ الْوَدِّ كَيْفَ ظَلَلْتَ بَعْدِي
أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ عَايَنْتَ وَجْهِي إِذَا اسْتَعْبَرْتُ فِي الظُّلُمَاءِ وَحْدِي
إِذَا لَعَلَّمْتَ أَنِّي عَنْ قَرِيبٍ سَتُحْفَرُ حُفْرَتِي وَيُشَقُّ لِحْجِي

ويقول في أخرى في صورة أرق وأجمل معبراً عن حزنه وحبه وندمه في آن (٣) :

- (١) العمدة ٢ : ١٤٩ .
(٢) القصيدة ٩ ص ٩٤ - ٩٥ من ديوانه .
(٣) القطعة ٨ ص ٩٢ - ٩٣ .

عَبْدِي بِهِ مَيْتًا كَأَحْسَنِ نَائِمٍ وَالْحَزَنُ يَسْفَحُ عَبْرَتِي فِي نَحْوِهِ
لو كان يَذْري المَيْتُ ماذا بعدَهُ بِالْحَيِّ حَلَّ مَكَانَهُ فِي قَبْرِهِ
عُصْصُ تَكَادُ تَفِيضُ مِنْهَا نَفْسُهُ وَتَكَادُ تُخْرِجُ قَلْبَهُ مِنْ صَدْرِهِ

٢- الفخر :-

وفي ديوان ديك الجن قصيدتا فخر، أشاد في إحداهما بقبيلة كلب^(١)، وأشاد فـسـى الأخرى بأصوله الفارسية^(٢). أما إشادته بكلب فلأنه كان يدين لها بالولاء، ويبدو أنه يحكم إقامته في حمص التي كانت مقراً لكلب، كان مضطراً إلى هذا الولاء، وإلى هذا الفخر. فقد فضلها على المرم وعلی سائر قبائل العرب، وهذا على الرغم من ترفعه في القصيدة الأخرى على العرب، فهو بينما يقول في الأولی :-

كَلْبٌ تَبِيلِي وَكَلْبٌ خَيْرٌ مِنْ وَلَسَدَتْ حَوَاءُ مِنْ عَرَبٍ غَرَّ وَمِنْ عَجَاسٍ

يقول في الثانية "فإني لست بالعربي" و :-

إِنِّي امْرُؤٌ بَازِلٌ فِي ذُرِّيَّتِي شَرَفٍ لِقَيْمِرٍ وَلِكُسْرَى مُحْتَدِي وَأَبْسِي

أما كيف يستوى هذان الأمران اللذان يبدوان متناقضين، فأكبر الظن أنه كانت ثمة ظروف خاصة وملابس معينة دفعت الشاعر في موقف إلى أن يفخر بكلب، ودفعته في موقف آخر إلى الفخر بفارسيته .

لقد أشاد ديك الجن بأيادي كلب على الإسلام فذكر فضلها في معركة مؤتة، وانحيازها في معركة صفين إلى صف علي، ومناصرتها في يوم الطف^(٣) للحسين بن علي، وبين مقدار تضحياتها في ذلك كله في صورة جميلة إذ يقول :-

(١) هي القصيدة ٢٩ ص ١٢٩ .

(٢) هي القصيدة ١٥ ص ١٥٦ (من ملحن الديسوان) .

(٣) الطف: أرض من ضاحية الكوفة في طريق البرية فيها كان مقتل الحسين بن علي، رضي الله عنهما في زمن معاوية بن أبي سفيان . انظر : معجم البلدان / الطف .

غداة مؤتة والإشراك مكبر
وبوم صفين من بعد الحربة كم
وفي الفرات فداء السبط قد تركت
غداة مالت من التوى نعماتها

ولا تخرج أبيات القصيدة الباقية عن هذا الإطار من الإشادة بشجاعة كلب وتقواها ومناصرتها
للحق . أما القصيدة الأخرى فكان الفخر فيها فرديًا يقوم على الزهو بصفات الجراءة ورجاحة السراي
والشجاعة والعفة . وما تجدر ملاحظته أن أسلوب ديك الجن في فخره يشاكل أسلوبه في مراثيه
في جعفر بن علي البهاشمي وزوجته ، وفي ما صح لنا من مراثيه في آل البيت ، وهو يختلف عن أسلوبه
في المعجون والنزل ورناء صاحبه ورد ، فنسوي الأولى صاحب أسلوب جزل رصين ، يعتمد الإشارة
بقوة الجرس ، واستطكاك اللفظ ، في حين ، عوئي الثانية رقيق عذب اللفظ ، تنساب موسيقاء انسيابًا
ناعماً في نظم ذوات أوزان قصيرة في الغالب الأعجم .

ومن اللائق للنظر في شعرك الجبن أن المديح فيه نزر وتليل الذنوب ، ولعل ذلك محسوس
الذي حدا بأبي الفرج إلى القول إنه - المديح - لم ينتج بشعره ولم يتصد لأحد مادحاً . أما لماذا
قل شعر المدح عنده ، فعمل ذلك راجع إلى مذهبه في عدم إذلال المرء نفسه بعرض حاله على
أصحاب المال والنفوذ ، فهو القائل (٢) : -

لا تَقِفْ لِلزَّمَانِ فِي مَنْزِلِ الضُّيُوفِ ————— وَلَا تَسْتَكِنْ لِرُقْسَةِ حَسَالٍ
وَإِذَا رِخَفَتْ أَنْ يُرَاهِقَكَ الْعُدُوُّ ————— مُنْعَذٌ بِالْمُنْقَاتِ الْعَوَالِي (٣)
وَأَعِنْ نَفْسَكَ الْكَرِيمَةَ لِلْمُسُوِّ ————— وَتَحَسَّمْ بِهَا عَلَى الْأَعْوَالِ
فَلَعَمْرِي لِلْمَوْتِ أَزِينُ لِلْحَسْبِ ————— مِنْ الضَّرْضِ ضَارِعًا لِلرَّجَالِ
أَيُّ مَا يَدُورُ فِي وَجْهِكَ الْحُورِ ————— مَا امْتَنَنْتَ بِهِ بِالسُّوَالِ
لَا أَحِبُّ الْفَتَى أَرَاهُ إِذَا مَا ————— عَضَّهِ الدَّعْمُ جَائِعًا فِي الضَّلَالِ
مُسْتَكِنًا لِذِي الدَّنْسِ خَاشِعٍ الطَّرْفِ ————— ذَلِيلَ الْإِدْبَارِ وَالْإِقْبَالِ

(1) شالت نعمانہا: غصبت .

(٤) من القصيدة ٢٥ ص ١٢٠ - ١٢٣ من ديوانه .

(٣٢) المثقات العوالى : الرماح التى أحسن تشذيبها وإعدادها .

فهذه الأبيات تكشف عن رجل صاحب نفس عزيزة تأبى الذل ، وترفض الغنى بامتثال ما
الوجه ، وتفضل الفقر والفاقة ، بل تفضل الموت على خشوع الطرف للأغنيا . وشاعر هذه نفسية يصدق
أن يقال عنه إنه لم ينتجع بشعره أحداً . ويبدو أن مذهب الديك هذا في عدم إذلال النفس في
طلب الغنى من أصحاب المال والنفوذ يلتقي مع مذهبه في الإقبال على متع الحياة المتاحة ، لأنه
فيهما جميعاً يؤمن بحتمية الموت ، إذ يبصر شبحه المرعب يدق أبواب الحياة في كل حين ، فليست
إذناً جمع المال ؟ ولم الحرص عليه ؟ يقول في قصيدة فيها حسرة بن العبد بالموت والحياة (١) :-

لَأَعَادِيَنَّ الرَّاحَ وَعُـسِّي زَلَالُ وَلَا تُرَقِّنَ الْبَيْتَ فِيهِ غَسَّالُ
وَلَيْشْفِيَنَّ قَلْبِي فَمَ وَجْنِي يَسِيدُ وَكَلَامِي بَارِدٌ سَلَسَالُ
يَا ذَا الْغِنَى وَالْبُخْلَ مَا لَكَ مِنْ غَسِي وَكَذَاكَ يَا ذَا الْمَالِ مَا لَكَ مَسَالُ
أَطْلِقْ يَدَيْكَ فَإِنَّ بَيْنَ يَدَيْكَ مَا يُرْدِيْنِمَا ، وَوَرَاءَ حَالِكَ حَسَالُ

ونظم الديك في الهجاء ، وخير ما يميز الهجاء عنده الأبيات التي هجأ فيها أحد أقربائه ،
لأنه كان ينهيه عن المجون والخلاعة ، وقد سخر في هذه القصيدة من هذا القريب سخيرة لاذعة
فصوره في رسم "كاريكاتوري" صاحب رأس ضخم صلب تعجز المعاول والصخور التلدة عن تحطيمه ،
كما تعجز البغال عن الصعود عليه ، بل إن حجارة المجانيق لو سقطت عليه لكنت عن تحطيمه ، أما
شعره فإن قصه يدمي أكتف حذائق الحلاقين ، ويحطم في أيديهم أدوات القصر ، ولم يكن الديك الجسن
بنذا الحد من السخيرة من هذا الرجل الغريب الرأس والشعر وحسب ، بل جعل من الآيات الدالة
على عظمة الخالق إمساكه السماء على الأرض وفيها أخلاق هذا الرجل القذرة (٢) :-

رَقُفُوا عَلَى رَحْلِهِ تَرَوْا عَجَبًا بِالْجَهْلِ يَحْكِي طَرَائِفَ الْبُصْرَةِ (٣)
سَبْحَانَ مَنْ يُمَسِّكُ السَّمَاءَ عَلَى الْأَرْضِ وَفِيهَا أَخْلَقُكَ الْقَذَرَةَ

- (١) من القصيدة ٣٠ ص ١٣٢ - ١٣٣ . وانظر أبيات طرفة التي في هذا المعنى :-
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عفيفة مال الفاحش المتشدد
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطول المرخي وثنيه في اليد
الزوزني : شرح المعلقات السبع ، ضبطه محمد علي حمد الله ، المطبعة التعاونية ، دمشق ، ١٩٦٣ - ١٦٠٦ - ١٦١ .
(٢) من القصيدة ٣ ص ٧٨ - ٨٤ .
(٣) البصيرة : ذوو الفراسة والنظر البعي .

وزيادة في النكاية في هذا الناصح اللائم جعل لديك الجن نصف القصيدة الأول في المجون والخلاعة تحدياً ، ولأن للشاعر مذعباً يغاير مذهبه ، ورؤية وموقفاً من الطرب يخالف موقفه ورؤيته ، إذ كيف هيات له نفسه أن يحاول منعه من الاستمتاع بملذات الحياة : -

كَمْ طَرَبَاتٍ أَفْسَدَتْهُنَّ وَكَمْ
صَفْوَةٍ عَيْثُ غَادَرَتْهَا كُودَرُهُ

ونظم لديك الجن في الطرد ، فقد روى الشمشاطي أن لديك الجن أبياتاً يصف فيها كلاب الصيد ، ويبدو أن وصف الطرد عند لديك الجن كان لوناً من الترف الفني ، أو كأنه لون من الترف في الحياة ، ولذلك عني بوضف أشكال كلاب الصيد وألوانها ومهارتها في صيد الطير والوحش ، وحرص حرصاً شديداً على تشبيهاته وصوره ، يقول (١) : -

(٢)	تَشْرِفُهُ حَبَابُ النَّفْسِ	وُغْضًا يَنْتَظِنُ الْأَرْضَ نَظْمًا
(٣)	وَدَاعِيَةً كَدَاعِيَةِ الْبَسُوسِ	لَهَا فِي كَلَامٍ مُرَكَّبَةٍ ضَجَّاجٌ
(٤)	أَشْبَهَهُ بِشَيْخَةٍ جُلُوسِ	وَسَرَّبَ حَبَابَاتٍ فَوْقَ جَلُوسِ
(٥)	بَارُوسِيَا بِحَسْرَةٍ أَوْ حَسِيْسِ	تَرَامَا فِي بُرَامَا مُنْفِضَاتِ
(٦)	وَأَمُّ الْوَحْشِ فِي يَوْمٍ عَبُوسِ	فَأَمُّ الْخَيْلِ فِي شَرِّ عَبُوسِ
	وَالِي الْحَادِثِينَ كَالْقَصَبِ الْمَلْبُوسِ	وَأَبْخَرَا مَا احْتَمَانِ مِنَ الذَّنَابِ
(٧)	وَأَزْرَقَ مِنْسِرٍ أَقْنَى نَهْوسِ	وَأَسَوَدَ لَهْذَمِ السَّيْرِ جَسُونِ
(٨)	فَتَحَسَّبَهُ تَكْحَلٌ مِنْ رُوسِ	وَأَصْفَرَقَتِهِ وَحَجَّاجِ عَيْسِنِ
	وَجَهْمُورَةٍ كَجَهْمُورَةِ الْقُسُوسِ	إِذَا بُعِثَتْ سَمِعَتْ لَهَا زُهْمًا
(٩)	أَعَارَتْهَا النَّفْسُ يَدَا عَرُوسِ	كَأَنَّ جَاجِيًا مِنْهَا وَهَامًا

- (١) الأثوار ٢ : ٢٤٧ ، ولم ترد هذه القصيدة في الديوان .
- (٢) الغضف : الكلاب المسترخية الآذان .
- (٣) الضجاج : القسور والقهر .
- (٤) الجلوس : الغليظ المرتفع والطويل من كل شيء .
- (٥) المنفضات : المحركات في اضطراب ، والبُرَّة : كل حلقة من سوار وقرط وخلخال وما أشبهه .
- (٦) العر : العيب والشر والجرب .
- (٧) أقنى : مرتفع وسط قصبة الأنف ضيق المنخرين . النهوس : الغضوض .
- (٨) الحججاج : عظم الحاجب .
- (٩) الجاجى : جمع جوجو وهو مجتمع رؤوس عظام الصدر .

ويلاحظ أن الشاعر أغرب في لفظه ، وسمة الغرابة في وصف
الطرد صفة عامة عند معظم شعراء العربية ، وليست خصيصة من خصائص
ديك الجن وحده .

٢ — عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي

هو أبو الوليد عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي الكلاعي^(١)، لقبه — على ما يقول صاحب الزهرة — اللجلج^(٢)، وينسب إلى بني الحارث بن كعب^(٣)، وهم بطن من مذحج من العرب القحطانية، ومنهم بنو الدَّيَّان^(٤) قبيلة عبد الملك التي سكنت بالفلجة من أرض دمشق التي يطل عليها جبل عامل —^(٥).

كان عبد الملك شاعراً شامياً من فحول الشعراء، عاش في صدر الدولة العباسية، ولا يعرف عنه اتصاله بأحد من أعيان أهل زمانه من خلفاء ووزراء وعلماء، ويبدو أنه كان قصد بغداد في خلافة الرشيد، وأن الرشيد سجنه فيها لسبب غير معلوم، فقد ذكر أنه كتب^(٦) "يعاتب أخاه وهو في حبس الرشيد —

فلو يك ما بي، لا يك بك، لاغتدى،
واليت وراح اليربي والتقرب

كما كتب إليه في قصيدة أخرى —

فاني إذ أتيت يقيك مني — فلا تسبق به — علق نغيس^(٧)

كما لا يعرف شيء من بيئة الحارثي الخاصة التي ولد فيها، وغاية ما تقدمه المصادر عنه قولها إنه كان له ولد شاعر اسمه الوليد^(٨)، وأخ اسمه سعيد، وقد مات هذا الأخ في حياة الشاعر فرثاه بقصائد عديدة.

(١) انظر في التعريف به: طبقات ابن المعتز: ٢٢٦، حماسة أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، القاهرة ٢٥: ١٣٤٤، الاصفهاني محمد بن داود: الزهرة، تحقيق إبراهيم السامرائي، ط ٢، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن ١٩٨٥، ٢: ٦٤٣، الهمداني أبو محمد الحسن، صفة جزيرة العرب، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٨، ١٣٠: ١٣٢.

(٢) انظر: الزهرة ٢: ٦٤٣.

(٣) صفة جزيرة العرب: ١٣٠.

(٤) المصدر نفسه، وفي ابن خلدون ٤: ٤٨٧، "بنو الريان" وهو تصحيف.

(٥) صفة جزيرة العرب: ١٣٠: ١٣٢.

(٦) رسائل البلغاء: ٤٤٨.

(٧) العلق: النغيس من كل شيء ما يعلق به القلب.

(٨) انظر: حماسة ابن الشجري ٢: ٦٥٠.

وقد وردت في ديوان البحترى عدة قطع شعرية مدحا بها البحترى شاعراً يدعى الحارثي^(١)
وكنيته أبو الحسن ، فمما قاله في إحداها^(٢) : -

أبا حَسَنٍ أَنْتَ وَمَنْكَ الْأَجْـلُ وَتَكُلُّ الْغَنَى وَانْتَقَالُ السُّدُولِ
زَعَمْتَ بِأَنَّكَ لَسْتَ الدَّمَارُ وَلَسْتَ الْعِتَارُ وَلَسْتَ الزَّلْـلُ

وقال له في أخرى^(٣) : -

يا حارثي وما العِتَابُ بِجَانِبِ لك عن مُعَانَذَةِ الصديقِ العَاتِبِ^(٤)
مَا إِنَّ تَزَالَ تَكِيدُهُ مِنْ جَانِبِ أَبَدًا ، وَتُسْرِقُ شِعْرَهُ مِنْ جَانِبِ

وقال في ثالثة ، ويبدو أنها قيلت قبل أن تفسد العلاقة بين الشاعرين فهو يماثبه فيها ولا يهجوّه
وقد ذكر فيها "الديان" قبيلة الشاعر الحارثي^(٥) : -

أَخَا عَلَةَ سَارَ الْإِخَاءُ فَأَوْغَمَ وَأَوْشَكَ بَاقِيَ الْوُدِّ أَنْ يَتَقَطَعَ^(٦)
بَدَأَتْ وَيَادِي الظُّلَمِ أَظْلَمُ ، فَانْتَحَى بِكَ الْقَوْلُ شَأْوًا رَدَّ مِنْكَ فَأَسْرَعَ
أَغَارُ عَلَى مَا بَيْنَنَا أَنْ يَنَالَ لِسَانُ عَدُوٍّ لَمْ يَجِدْ فِيكَ مَطْمَعًا
وَأَنْتَ لِلدِّيَانِ أَنْ تَرْتَمِيَ بِهِ غَضَابُ قَوَانِي الشَّعْرِ خُصًّا وَأَرْبَعًا

ويستفاد من قطع البحترى الأخرى في هذا الحارثي ، غير نسبه وشاعريته وكنيته ، أنه عاصر من
الخلفاء الواثق والمتوكل ، وقد نعته البحترى في جل هذه القطع بأنه كان طالع نحس على كل من
عرفهم من الوزراء ، ولذلك يمكن أن يقال ، إن تكيته له بأبي الحسن إنما كانت من باب السخرية
والاستهزاء .

وأكبر الظن أن هذا الحارثي المذكور في شعر البحترى هو ابن الشاعر ، أما الحارثي عبـد
الملك فلا يعقل وهو المعاصر للرشيـد أن يكون معاصراً أيضاً للمتوكل ، فعبد الملك يسلك في عداد

(١) انظر القطم : ٤٠ ، ٤٢٧ ، ٤٣٠ ، ٤٣٣ ، ٥١٣ ، ٥٦٦ ، ٨٢٢ في ديوان البحترى .

(٢) القطم : ٦٦٣ .

(٣) من القطم : ٤٠ .

(٤) المعانذة : المعاتبة .

(٥) القصيدة : ٥١٣ .

(٦) علة : هو علة بن جلد بن مالك ومن ولده بنو الحارث بن كعب الذين ينتسب إليهم الحارثي
الشاعر . انظر : جمهرة ابن حزم : ٤١٢ - ٤١٣ .

شعراء صدر الدولة العباسية ، بل يبدو أنه كان من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، والدليل على ذلك أن البكري يقول في شرح الأمازي : هو شاعر شامي إسلامي^(١) .

بينما يروي ابن المعتز أخباره عنه في الطبقات في سند من حلقتين إذ يقول^(٢) : "حدثنا أبو مالك الأنصاري قال : حدثني أبو الأسود الشاعر قال : كان الحارثي ٠٠٠ في حين أن دأب ابن المعتز في الحديث عن الشعراء القريبين العهد منه أن يقول عنهم : "حدثني فلان قال "أويقنول عن أحدهم : "وهو اليوم شاعر أهل زمانه " . وإذا كان ذلك كذلك فإن عبد الملك يكون قد عاش في زمن سبق زمن ابن المعتز الذي توفي سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٨م ، والذي أنجز كتابه الطبقات في حدود سنة ٢٨٠هـ / ٨٩٢م^(٣) .

وقد أسبغ ابن المعتز على الحارثي صفات تدل كلها على تفوق هذا الشاعر ، وإن كان ما تبقى من شعره قليل ، فهو يقول مثلاً^(٤) : "كان الحارثي شاعراً مفلحاً مفوهاً مقتدرًا مطبوعاً ٠٠٠ ولمّا قال قصيدته المعروفة العجيبة انتقاد الشعراء ، وأذعنوا ، وهو أحد من نسخ شعره بما الذهب^(٥) .
والقصيدة المعروفة هي التي مطلعها : —

عما أنذا يا طالب ساعسي مُحْتَضِرٌ بَرِّي إلى الداعسي

وقال في أعقاب ذلك : "ولمّري إنه لكلام مع فصاحته وقوته يقدر من يسمعه أنه سيأتي بمثله ، فإذا راحه وجده أبعد من الثريا ، وكذلك الشعر المتناهي الذي ليس قبله في الجودة غاية " . وقال في موعى آخر^(٦) : "ومن جيد شعره ، وإن كان كل شعره جيّداً " . وقال في أعقاب بيت راقه^(٧) :
"هذا البيت سجدة للشعراء ، ولو لم يكن في كتابنا إلا شعر الحارثي لكان جليلاً " .

وعلى الرغم من هذا الشطط في أحكام ابن المعتز ، فإنه يظل فيها مؤشرات دالة على جودة شعر هذا الشاعر ، وعلى المقدار الكبير الذي فقد من شعره ، فغاية ما وقفنا عليه منه هو عينيته

(١) انظر : سبط اللائسي ١ : ٥٩٥ .

(٢) طبقات ابن المعتز : ٢٧٦ .

(٣) انظر مقدمة التحقيق : ١٣ وما بعده .

(٤) طبقات ابن المعتز : ٢٧٦ .

(٥) المصدر نفسه : ٢٧٧ .

(٦) المصدر نفسه : ٢٨٠ .

(٧) المصدر نفسه : ٢٨٠ .

المطولة التي عارض بها عينية متم بن نويرة المشهورة ، ثم بعض مقطعات أخرى في الرثاء والغزل والفخر ، وهذا فضلاً عن القصيدة التي منها البيت المشهور : -

إذا المرء لم يُدْنَسْ من اللؤمِ عَرُضْهُ فكلُّ رداءٍ يَرْتَدِيهِ جِيسِلٌ

وهي قصيدة تعزى له في بعض المصادر ، وتعزى للسموأل بن عادي ، اليهودي في بعضها الآخر ، مما سيتبين في دراسة هذه القصيدة .

وقد تضافرت عوامل عديدة أدت إلى ضياع شعر الحارثي ، وأولها أن شعره كان مشهوراً شائعاً بين الناس حتى أيام ابن المعتز ، فاقصر في كتابه الطبقات على تدوين بعض أبيات مسن قصائد الشاعر ، وحجته في ذلك ٠٠٠ كما يقول (١) : " وإنما نشبت ٠٠٠ ما لم يكن موجوداً عند أكثر الناس ، وأما الموجود المشهور فلا نورد ما طال منه ، وإنما نقصر من كل قصيدة على هذه الأبيات اليسيرة ، بل ربما اقتصرنا على ذكر القصيدة وبيت واحد منها فقط ٠٠٠ ، وإنما سمينا أهمها قصائد " . وثانيها أن غرابة شعر الحارثي أدت في فترة لاحقة إلى عدم إقبال الناس عليه ، فضاع ما كان محفوظاً بالمشافهة .

ويتسم شعر الحارثي كله ، ما كان منه في فخر أو غزل أو رثاء ، بميسم الغرابة في اللفظ ، والبداءة في الصورة ، ولعل ذلك راجع إلى شعوره بالاعتراب في الزمان ، فظل لذلك مشدوداً إلى البادين من شعراء العصرين الجاهلي والأموي ، غرباً عن عصر بني العباس الذي عاش فيه . وهذا ما يفسر عدم اقتران اسمه بأسماء أي من ولادة بني العباس أو خلفائهم (٢) .

ويتبين من القدر اليسير الذي وصل من شعر الحارثي أنه نظم في الرثاء والغزل والفخر . وله تفاريق أخرى في وصف الأطلال والفراب وشهر رمضان (٣) .

والقيم التي يعرضها فخر الحارثي قيم بدوية خالصة وهي النجدة وحماية ذمار القبيلة والثبات في الحرب ساعة اللقاء ، واليقظة الدائمة والقوة ، والقدرة على النعم والضر (بحسب متطلبات الموقف) ، يقول (٤) في ذلك في القصيدة التي أعجبت ابن المعتز فقال فيها إنها قصيدة معروفة

(١) طبقات ابن المعتز : ٢٧٨ .

(٢) انظر : الشعراء الشاميون : ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٣) انظر : الزمخشري : ربيع الأبرار ، تحقيق سليم النعيمي ، مطبعة العاني ، بغداد ١٩٨٢ .

(٤) ٤٤٨ : ٤ أبو هلال العسكري : ديوان المعاني : ٢ : ٢٣٤ .

(٤) ابن المعتز : ٢٧٦ .

عجبية أذعن لها الشعراء وانقـــادوا : —

- | | | |
|-----|---------------------------------|--|
| (١) | مُحْتَضِرٌ بَرَى إِلَى الدَاعِي | هَـا أَنْدَا يَا طَالِي سَاعِي |
| | وَيَحْدُ الشَّاهِدُ إِيْقَاعِي | أُحْيِي حَتَّى مَنْ غَابَ عَنْ مَذْجِي |
| (٢) | رُتِّي فِيهَا كُلَّ هَلْوَاعٍ | لَا تَهْلِعْ فِي الْحَرْبِ هَلْوَاعٍ إِذَا |
| | ضُرَّارِ أَقْشَوَامٍ وَنَفَّاعٍ | مُسْتَحْمِلِ الْمِيرَةِ ذِي عَمَّةٍ |
| (٣) | هَيْجَ بِهِ هَيْجَ بُمَنْصَاعٍ | لَا تُؤْخِذْ الْغِرَّةَ مِنْهُ وَإِنْ |

ويقول في أخرى تجوز مجرى سابقتهما في الإلحاح على الافتخار بقيم بدوية محببة من كرم وغفلة
وشرف (٤) : —

- | | | |
|-----|---|--|
| | لَيْشَبَعَ وَالْجِيرَانُ يَشُونَ جُوعِيَا | وَلَا يَسْتَخِصُّ الْقَدْرَ مِنْ دُونِ جَسَارِهِ |
| (٥) | وَأُخْرَى لِمَنْ عَادَى بِهَا السَّمَّ نَاقِمَا | لَهُ رَاحَةٌ فِيهَا الْحَبَا لِيَصْدِيقِيَا |
| | وَنَزْهَةً عَنْ أَنْ يُقَالَ فَيَسْمَعَا | أَجَلٌ عَنِ السُّمُورِ الْهَوَاجِرِ سَمْعَا |
| | سَمَا طَالِبَا مِنْ تِلْكَ أَسْنَى وَأَرْفَعَا | إِذَا نَالَ مِنْ أَقْصَى ذُرَا الْمَجْدِ غَايَةً |

وأما القصيدة التي كثر الاختلاف فيها فهي قصيدة تتميز من حيث الشكل بالسهولة والسلاسة،
فليس فيها جفاوة البداوة التي ألفت في شعر الحارثي ، فهي أدخل لذلك في شعر شعراء الحواضر
منها في شعر شعراء البوادي ، وهي من حيث المضمون تعللي من قيم أهل البوادي كالكرم والقوة
على قلة العدد ، والعزة ، والافتدال ٠٠٠٠٠ الخ ، يقول فيها : —

- | | |
|---|---|
| تَعَزَّيْنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا | فَقُلْتُ لَهَا إِنْ الْكَرَامَ قَلِيلُنَا |
| وَمَا قُلٌّ مَنْ كَانَتْ بَقَايَاهُ يَثْلُنَا | شَبَابٌ تَسَامَى لِلْعُلَا وَكُهُولُنَا |
| وَمَا ضَرْنَا أَنَا قَلِيلٌ وَجَارُنَا | عَزِيزٌ وَجَارُ الْكَثَرِينَ ذَلِيلُنَا |

- | | |
|-----|--|
| (١) | البز: السلاح ، وفي الأصل "برى" ولا معنى لها في هذا السياق . |
| (٢) | الهلع: الجزع هو هلع وهلع وهلوع وهلوع ، الهاع: الصائح جزعا "رقيق: شد بالرباق وهو الوثاق . |
| (٣) | المَنْصَاع: المنفلت الراجع سريعاً . |
| (٤) | ابن المعتز: ٢٧٩ — ٢٨٠ . |
| (٥) | الحبا: ما يحبوه الرجل صاحبه ويكرمه به . |

لنا جَبَلٌ يَحْتَلُهُ مَنْ نُجِيبُهُ
رَسَا أَصْلُهُ تَحْتَ الثَّرَى وَسَمَا بِهِ
مَنْعٌ يَرُدُّ الطَّرْفَ وَهُوَ كَلِيلُ
إِلَى النَّجْمِ فَرْعٌ لَا يُنَالُ طَوِيلُ
وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ
وَلَا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلُ

وقد اختلف القدماء في نسبة هذه القصيدة إلى قائلها، فنسبها فريق إلى السموأل بن عادي، ونسبها آخرون إلى عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي، ونسبها فريق ثالث إلى غيرهما، فكان هؤلاء وأولئك يقولون مثلاً^(١) : "قال السموأل بن عادي، أو عبد الرحمن القينسي أو عبد الملك الحارثي المعروف بالجلال" أو يقولون^(٢) : "قال عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي"، ويقال إنها للسموأل بن عادي، وانفرد ابن طباطبغا الملوحي بنسبة هذه القصيدة إلى عبد الملك الحارثي عندما أورد منها أربعة عشر بيتاً اتخذها - فيما اتخذ - مثلاً على الأشعار المحكمة المتقنة المستوفاة المعاني، الحسنة الرصف، السلسة الألفاظ، دون استكراه في قوافيها ولا تكلف في معانيها^(٣).

ومن وقف على هذا المشكل في نسبة هذه القصيدة إلى قائلها من المحدثين خليل مردم بك في كتابه "الشعراء الشاميون"، فحاول أن يثبت أن هذه القصيدة لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي، واعتمد في ذلك على دليلين هما : -

١- قول الشاعر في هذه القصيدة : -

وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ
وَلَا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلُ

فقال^(٤) : "قال العزروقي : "وقوله : مات حتف أنفه... يقال : إن أول من تكلم به

(١) الزهرة ٢ : ٦٤٣، وانظر : سبط اللاتي ١ : ٥٩٥، الحماسة البصرية ١ : ٤٥، العبيدي، محمد بن عبد الرحمن بن عبد المجيد : التذكرة السعدية في الأشعار العربية، تحقيق عبد الله الجبوري، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس : ٣٦.

(٢) عز الدين الخزرجي : شرح المصنوع به على غير أهله، شرح عبيد الله الكافي العبيدي، مكتبة دار البيان، بغداد، ودار صعب، بيروت : ٣٧، وانظر : الصولي : أخبار أبي تمام : ١٤٠، حماسة أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ١ : ٥٦٠، بروكلمان : تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجار، ط ٢، دار المعارف بمصر ١ : ١٢١، ١٢٢.

(٣) انظر : عيار الشعر، تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٥٦، ٦٦.

(٤) خليل مردم بك : الشعراء الشاميون، ٢٨٧.

— ٢١٠ —

النبي — صلى الله عليه وسلم . . . فلا يمكن والحالة هذه أن يقال هذا فـ
الجاهلية

٢- قول الشاعر فيها : —

فإن بني الديان قُطِبَ لِقَوْمِهِم
تدور رحاهم حولها وتجسول

نقال (*) : "وبنو الديان أجداد عبد الملك الحارثي ."

غير أن أدنى نظري أسلوب هذه القصيدة مقارناً بأسلوب الحارثي في قصائده ومقطعاته التي درست والتي لم تدرس بين عن فرق كبير بين الأسلوبين ، فأسلوب هذه القصيدة سهل قريب من أساليب أهل الحضرة ، وأسلوب الحارثي بدوي فيه جفاوة الأعراب وقساوتهم . ثم إن الحكم على عبارة " مات حتف أمته " بأنها من أقوال الرسول عليه السلام ، وأنه لم يسبق أن نطق بها أحد من أهل الجاهلية ، حكم لا يستند إلى دليل . وفي القصيدة ، فضلاً عن ذلك ، مؤشرات راجحة تدل على الصورة العامة للأمن المنتزع الذي كان شائعاً في العصر الجاهلي ، وأبين ما يوضح هذه الصورة من اضطراب جبل الأمن والاستقرار هو قوله : —

وما غرنا أنا قليل وجارنا
عزيز ، وجارنا الكثير ذليل

وعندي أن هذه القصيدة من نظم شاعر جاهلي ، ولو كانت من نظم الحارثي لاثبت ابن المعتز منها أبياتاً كدأبه في إثبات بعض أبيات من قصائد الحارثي الأخرى المشهورة .

(*) خليل مردم بك : الشعراء الشاميون : ٢٨٧ .

٣ - محمد بن يزيد الحِصْنِي السُّلَمِي (١)

لا تقدم مصادر الدراسة الأدبية المعتمدة معلومات كافية عن حياة هذا الشاعر ، فليس فيها ذكر لمكان ولادته وتاريخها ، ولا ذكر لتفاصيل أخرى عن حياته وأسرته ومماته ، وغاية ما تورده عنه قولها إنه من ولد بشر بن مروان بن الحكم ، أو من ولد سُلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، ولذلك قيل فيه حيناً إنه محمد بن يزيد البشري الأموي ، وحيناً آخر إنه محمد بن يزيد السلمي ، وشهرته بالسلمي أشيع وأكثر دوراناً في كتب التراجم . وأما تلقيبه بالحصني فهو نسبة إلى حصن كان مسلمة ابن عبد الملك بناء بالجزيرة بين رأس عين والرقّة ، وتوارثه أبناؤه وأحفاده من بعده (٢) ، وكنيته أبو الأصم كما ذكر ذلك المرزبانسي (٣) .

عاصر المسلمي من الخلفاء العباسيين المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل ، واتصل بعدد من أعيان أعمل زمانه منهم عبد الله بن طاهر ، والحسن بن وعب (٤) ، وعيسى بن فرخان شاه (٥) ، وعثمان بن الهيثم الغنوي الذي كان المعتصم ولّاه ديار مضمر (٦) .

- (١) انظر في التعريف به : طبقات الشعراء المحدثين : ٢٩٩-٣٠١ ، الأغاني ١٢ : ١٠٣ ، ١٠٦ ، معجم الشعراء : ٤٤٥ (بتصحيح كركو) ، القاسمي التنوخي : الفرج بعد الشدة ، تحقيق عبود الشالجي ، دار صادر ، بيروت ١٩٧٨ ، ١٠٦ : ٣٢٩-٣٥٣ ، مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٦ : ١٢١ ، الوافي بالوفيات ٥ : ٢١٥ ، النجوم الزاهرة ٢ : ١٩٦ .
- (٢) انظر التعريف بهذا الحصن : معجم البلدان (حصن مسلمة) .
- (٣) معجم الشعراء : ٢٧٥ .
- (٤) الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو كان كاتباً شاعراً ، عاصر أبا تمام والبحتري ، استكتبه الخلفاء ، وكان قد تولى الخراج في بعض نواحي الشام والجزيرة ، مدحه أبو تمام والبحتري ، ولحقات في حدود سنة ٢٥٠ هـ / ٨٦٥ م رثاه البحتري . انظر : تهذيب ابن عساكر ٤ : ٢٥٥ .
- (٥) عيسى بن فرخان شاه كاتب من كتاب الدولة العباسية ، ولي في حياته ديوان الضياع فسي عهد المتوكل ، والخراج في عهد المستعين ، وولي مصرفي عهد المعتز . انظر في التعريف به : الطبري ١ : ٢١٦ ، ٢٦٤ ، ٢٤٤ ، ٣٤٩ ، الفرج بعد الشدة ١ : ٣٩٩ .
- (٦) انظر : معجم الشعراء : ٢٥٧ . (ترجمة عثمان بن الهيثم الغنوي) .

ويبدو أن الشاعر لم يتمل بغير المتوكل من الخلفاء العباسيين ، فقد ذكر العزباني أن له فيه مرثي . أما صلته بعبد الله بن طاهر فقد ابتدأت بخصوصية افتعلها المسلمي عندما بلغه افتخار عبد الله بن طاهر بأجداده من الفرس ويقتل أبيه طاهر بن الحسين للأُميين^(١) ، وكان ابن طاهر قد قال في افتخاره :-

وَأَبِي مَنْ لَا كَفَّاءَ لـــــــه مَنْ يُسَامِي مَجْدُهُ ؟ قُولُوا
طَعَنَ الْمُخْلُوعَ كُلَّكَـــــــلِّه وحواليه المناويل^(٢)

فتصدى له المسلمي بقصيدة هجاء فيها عبد الله بن طاهر وأجداده من الفرس ، ويبدو واضحاً أن تصدي المسلمي لعبد الله بن طاهر كان ضرباً من الانتصار للعنصر العربي مثلاً في الأُميين ، وانتقاصاً من التوجه الذي سار عليه المأمون في إعلاء شأن الفرس على حساب العنصر العربي ، فقد روي عنه أنه قال عن سبب تعرضه لعبد الله بن طاهر^(٣) ، « كنت لما بلغتني القصيدة امتعضت للعريضة » وأنفت أن يفخر عليها رجل من العجم ، « لأنه قتل ملكاً من ملوكنا بسيف أخيه » لا بسيفه ، فيفخر عليها هذا الفخر . . . فرددت على قصيدته »

ولما سار عبد الله بن طاهر إلى متروالياً عليها من قبل المأمون في سنة ٢١٠هـ / ٨٢٥ م ، مر في طريقه بحصن مسلمة ، والتقى فيه محمد بن يزيد الذي أكرم وفادة الأمير إليه ، واعتذر عن هجائه القديم له . فعفا عنه ابن طاهر ، وأسبغ عليه ، ورغب في صحبته بإياه إلى مصر^(٤) .

ويجدر الوقوف هنا عند قضية عفو ابن طاهر عن الحصني ، فبينما ردت معظم المصادر هذا العفو إلى سعة حلم ابن طاهر وتجاوزه عن سيئات المسيئين ، ورد في رواية أنبتبها القاضي التنوخي أن ابن طاهر قصد المسلمي وفي نيته أن يحصل منه على معلومات تتعلق بنصر بن شبث العقيلسي الخارج على المأمون بنواحي الجزيرة ، فأخبره الحصني بما حضره^(٥) . ويبدو إذن أن عفو ابن طاهر عن المسلمي كان تقديراً منه لهذه الخدمة التي قدمها المسلمي لـــــــه .

(١) كان طاهر بن الحسين من كبار الوزراء والقواد ، وهو الذي قاد جيش المأمون إلى بغداد ،

فتفتحها وقتل الأُميين في سنة ١٩٨هـ / ٨١٣ م ، انظر: وفيات الأعيان ٢ : ٥١٧ - ٥٢٣ .

(٢) المخلوع هو الخليفة الأُميين ، المغاويل : كذا في الفرج بعد الشدة ١ : ٢٤٣ ، وفي طبقات ابن المعتز : المغاويل .

(٣) الفرج بعد الشدة ١ : ٢٤٣ ، النجوم الزاهرة ٢ : ١٩٦ .

(٤) انظر: الأغاني ١٢ : ١٠٥ - ١٠٦ .

(٥) انظر: الفرج بعد الشدة ١ : ٣٤٨ .

وأما صلة المسلمي بالحسن بن وعب فقد جاءت من تولي الحسن للخراج في بعض نواحي الشام^(١)، فمدحه المسلمي طمعاً في إسقاط الخراج عنه . في حين نشأت صلته بعيسى بن قُرخسان شاه بعد مقدم المسلمي إلى سر من رأى وإقامته فيها دُعراً ، في رواية^(٢) ، ومبادرة من عيسى نفسه في أخرى ، إذ يروي عنه عيسى أنه قال^(٣) : " لما وليت ديار مصر ، لم يزل وجوعها يصفون لي محمد ابن يزيد الأموي الحسني بالفضل . . . فلما خرجت لتصفح كور عملي وأحوال الرعية والعمال بالنواحي ، وردت الكورة التي فيها حصن محمد بن يزيد في ناحية منها ، فخرج مستقبلاً لي ، وراغباً إليّ فسي النزول عليه . . . " وقد أكرم المسلمي ضيفه إكراماً كانت مكافأته أن أسقط عنه جميع خراج تلك السنة^(٤) .

وأما صلته بالخنوي فقد كانت صلة صداقة ، إذ كان محمد بن يزيد المسلمي صديقاً منادماً للمهيشم الخنوي يوم كان هذا والياً على ديار مصر في زمن المعتصم^(٥) .

ويستفاد من الأخبار اليسيرة التي وردت في المصادر عن المسلمي أنه ظل الشطر الأكبر من عمره في بلده حصن مسلمة ، وأنه لم يغادرها إلا مرتين كانت الأولى في صحبته لعبد الله بن طاهر في خروجه إلى مصر للقضاء على حركة عبّيد الله بن السري الخراج في مصر في إبان خلافة المأمون ، ولكنه لم يلبث في مصر طويلاً ، إذ عندما رجع ابن طاهر إلى الشام رجع الشاعر معه ، ولما قصد ابن طاهر العراق ، انصرف عنه المسلمي إلى بلده^(٦) ، في حين كانت الثانية في زمن المتوكل إذ قدم سر من رأى ، وأقام بها زمناً لم تحدده المصادر^(٧) .

وقد نظم المسلمي الشعر في أغراض عديدة ، غير أن الكثير من أشعاره لم يصلنا من ذلك مدائح في عبد الله بن طاهر ، ومراثيه في المتوكل ، فقد ذكر أنه بعد أن غنا عبد الله بن طاهر

-
- (١) انظر: معجم الشعراء : ٤٤٥ ، الوافي بالوفيات ٥ : ٢١٥ .
 (٢) المصدران السابقان .
 (٣) في الفرج بعد الشدة ١ : ٣٣٩ - ٣٤٠ " لما وليت ديار مصر " ولعل الصواب ديار مصر .
 (٤) المصدر نفسه ١ : ٣٥٠ .
 (٥) انظر: معجم الشعراء : ٢٥٧ .
 (٦) انظر: الأغاني ١٢ : ١٠٥ - ١٠٦ .
 (٧) انظر: معجم الشعراء : ٤٤٥ ، الوافي بالوفيات ٥ : ٢١٥ .

- ٢٩٤ - (١)

عنه بسبب مناقضته إياه ، وهدجائه لأجداده من الفرس ، اختص به ، ونظم فيه مدائح كثيرة (١) ،
وأما مرثيته التي نظمها في المتوكل - على ما يقول المزياني (٢) ، فلم تقع على شيء منها ، وعلى الرغم من هذا كله فقد توافر لنا مقدار صالح من شعنته في أغراض شعريّة
عدة ، ودراسة هذه الأشعار كافية للحكم على منزلته بين شعراء الشام في تلك الحقبة ، وأبرز الأغراض
التي نظم فيها المسلمي هي الهجاء ، والعتاب ، والمرائي ، ووصف النجوم .

١- الهجاء والعتاب :-

تعتبر قصيدة المسلمي في هجاء عبد الله بن طاهر وأجداده من حيث الشكل نقيضة مسن
النقائض التي غادت إليها الحياة في بلاد الشام بفعل الفتن الداخلية (٣) ، والصراع بين العرب
والفرس ، كما تعتبر من حيث المضمون نمطاً من أنماط الصراع السياسي بين حزب الأمين الذي حاول
أن يتألف الانتصار من العناصر العربية وحزب المأمون الذي عول على العناصر الفارسية في محاربة
أخيه الأمين . وقد قال صاحب الأغاني عن هذه القصيدة إنها قصيدة طويلة ، غير أنه لم يورد منها
إلا بضعة عشر بيتاً (٤) ، وهي في "الفرج بعد الشدة" وفي "العقد" واحد وخمسون
بيتاً (٥) .

أما قصيدة عبد الله بن طاهر التي ناقضها المسلمي فهي اثنتان وثلاثون بيتاً موزعة فسي
محورين ، أولهما مجموعة من الروايات الفكرية والحكم ، وثانيهما فخر بأجداده من الفرس ، وبخاصة

(١) انظر : طبقات ابن المعتز : ٣٠١ ، النجوم الزاهرة ٢ : ١٩٦ - ٢٠٠ .

(٢) انظر : معجم الشعراء : ٤٤٥ .

(٣) انظر أبياتاً من نقيضة محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمي لقصيدة افتخر بها أبو
الأصبغ الحصني بأبيه المروانيين : معجم الشعراء : ٤١٩ ، ومعارضة الهيثم
الخنوي لقصيدة أخرى للحصني : معجم الشعراء : ٢٥٧ .

(٤) الأغاني ١٢ : ١٠٤ .

(٥) الفرج بعد الشدة ١ : ٣٤٤ - ٣٤٧ ، ابن عبد ربه : العقد ، تحقيق محمد سعيد

العريان ، دار الفكر ١٩٤٠ : ٢٦ : ٥٨ - ٥٩ . (والبيتان اللذان قبل الأخير في الفرج
بعد الشدة تكرر للبيتين ٢٨ ، ٢٩ فيه نفسهما) .

من كانت له يد في الدعوة العباسية ، ثم فخر بأبيه وبصنيعه في توطيد أركان حكم المأمون بالقضاء
على الأميين (١) .

أما قصيدة المسلمي فإن جزءاً مما الأول غزل يقوم على بيان مدى إخلاصه في حبه ، لأن الوفا
مذمومة في الحياة ، تبع ذلك تصوير مشيد "يوم الوداع" الذي خصمه الشاعر للتدقيق في وصف
محاسن صاحبه حين بكت حرقة على صاحبها الذي تنارقه كرهاً . ويتحول الشاعر بعد ذلك في جزء
القصيدة الثاني ، وبلا أدنى تمهيد إلى ابن أبي طاهر فيبخسه نسبه ، ويذري بأجداده مذكراً
بمجوسيتهم ، وينقش على عبد الله قوله في أحد أجداده الذي كان أحد دعاة الدعوة العباسية : -

مُصْعَبٌ جَدِّي نَقِيبٌ بَنَسِي عَاشِمٌ ، وَالْأُمُرُ مَجْهُولُ

وقوله في الجند الخراسانيين الذين كانوا تحت إمرة أبيه طاهر : -

"وَعَبُّوا لِلَّهِ أَنْفُسَهُمْ" فقال المسلمي : -

يَا ابْنَ بَيْتِ النَّارِ مَوْقِدَ هَمَامَا مَا لِحَاذِيْهِ سَرَاوِيْلُ (٢)

(١) وما جاء فيها قوله : (الفرح بعد الشدة ١ : ٣٤١-٣٤٢ ، العقد ٢ : ٥٧-٦٨) : -

مُدَّيْنِ الْأَعْضَاءُ مَوْصِلُ
وَمُدَّيْنِ الْبَيْضِ فِي تَمَـ
وَأَخُو الْوَجْهِينِ حَيْثُ رَمَى
مِنْ بَنَاتِ الرُّومِ لِي سَكَنُ
عَتِيبَةٍ ، وَالْعَتِيبُ مِنْ سَكَنِ
أَقْصَرَى عَمَّا لَهْجَتِ بَنِي
أَنَا مَنْ تَعْرِفِينَ نَسَبَتَهُ
مُصْعَبٌ جَدِّي نَقِيبٌ بَنَسِي
وَحُسَيْنِ رَأْسِ دَعْوَتِهِمْ
سَلَّ بِهَمْ تَنْبِيكَ نَجْدَتَهُمْ
وَأَبِي مَنْ لَا كَفَاءَ لَنَسَبِهِ
سَلَّ بِهِ وَالْخَيْلُ سَاعِمَتُهُ
طَعَنَ الْمَخْلُوعَ كُلَّكَ
فَتَوَى وَالسُّتْرُ بُمُضْجَتِهِ
قَادَ جَيْشًا نَحْوَ قَاتِلِهِ
وَعَبُّوا لِلَّهِ أَنْفُسَهُمْ

(٢) الحاذان : ما وقع عليه الذنب من أدبار الفخذين في الدابة ، والمراد الفخذان .

ثم سخر من طامر بن الحسين « فبينما قال عبد الله في أبيه مفتخرًا : —

وَأَبِي مَنْ لَا كَفَّاءَ لَهُ . مِنْ يُسَامِي مَجْدَهُ ؟ قَوْلُوا
سَلِّ بِهِ وَالْخَيْلَ سَارِعَةً حَوْلَهُ جُسُودُ أَبَابِيْسَلْ

قال المسلمي طاعنًا في أبيه وفي أجداده الأوليين : —

مَنْ حُسَيْنٍ مِنْ أَبُوكَ وَمَنْ مَضَعَبٌ غَالَتْهُمْ غُـ
وَزُرِّيٌّ إِذْ تُخَلِّقُ نَسَبٌ عَمِيرُكَ مَجْهُـ
تِلْكَ دَعْوَى لَا تُنَاقِشُهَا وَأَبُـ بَوَاتٍ مَرَادِيـ
أُسْرَةٌ لَيْسَتْ مَبَارَكَةً غَيْرُهَا الشُّمُّ الْبِهَالِيـ
مَا جَرَى فِي عَوْدِ أَثْلِكَ مَا مَجْدٍ فَعَسَوْا مَدْخُـ
قَدَحَتْ فِيهِ أَسَافُ وَأَعَالِيهِ مَجَاعِيـ

ثم بينما انتخر عبد الله بأيادي أبيه على المأمون يقتل الأمين « عد المسلمي هذا الفعل نقيصة «
ويشتر القاتل بالقتل « وإذ قال عبد الله في تلك الحادثة : —

طَمَعِ الْمَخْلُوعُ كُلَّكَ وَحَوَالِيَهُ الْمَغَاوِيـ
فَنَوَى وَالتُّرْبُ مَضْجَعُ غَالٍ عَنْهُ مُلْكُهُ غُـ

فقال المسلمي : —

قَاتِلُ الْمَخْلُوعِ مُقْتُلُ وَدُمُ الْقَاتِلِ مُطْلُـ
وَمَدِينُ الْقَتْلِ مُرْتَبِـ بَدْمَا الْقِسْمِ مُقْتُلُـ

ثم قال بعد في إشارة فيها غمز بالمأمون الذي مكّن الفرس من قتل أخيه بسيفه « مسقطًا في الوقت
نفسه عن طامر جد ارته في فعل ما فعل : —

بِأَخِي الْمَخْلُوعِ طُلْتُ يَدًا لَمْ يَكُنْ فِي بَاعِهَا طُـ
وَبُنْعَاهُ السَّتِي سَلَفَتْ فَعِلْتُ تِلْكَ الْأَفَاعِيـ
وَبِرَاعٍ غَيْرِ ذِي شَفَقٍ جَالِسَتِ الْخَيْلُ الْإِبَابِيـ

وقد وزع الشاعر في ثنايا هذا الجزء مجموعة من الحكم ذات الارتباط الوثيق بما كان ينسزع عنه من سهام حقدته على عبد الله وأبيه وأجداده من الفرس الذين قوضوا حكم الأمويين من قبله ، والأميين من بعده ، ومن ذلك قوله في موضع : —

قد يَخُونُ الرَّمْجُ عَامِلُهُ وَسِنَانُ الرَّمْجِ مَضْفُـوْلُـ
وَيَنَالُ الْوَيْسَرَ طَالِبُهُ بَعْدَ مَا تَسْلُو الْمَكَائِلُ
سَارًا أَوْ حَلَّ فَعَتَبَتُهُمْ بِالتِّي يُكْبِرُ لَهَا الْفَيْلُ

وقوله في موضع آخر : —

إِنَّ لِلْأَصْمَادِ مُنَحَـدَرًا فِيهِ لِلْهَوَايِ أَعْيَـوِيـ
وَلِرَبِّ الدَّهْرِ عَنَـرَـغِيـ بِالرَّدَى عَمَلٌ وَتَنِيـ

وإن هذا الإيمان باحتمالية التفسير إذ تملق على عاتق القدر مظهر استشعار باليأس ولكن خيطاً من نور الأمل — على ضعفه — يظل بارقاً باحتمال سقوط عبد الله بن طاهر وممن وراءه من الفرس .

وعلى وجه الإجمال فإن المسلمي في هذه النقيضة لم ينفارق النبع العام في بناء النقائض في الشعر العربي ، ولم يطورها إلى لون من التصوير ، بل غلبت عليها النزعة العقلية ، وخلت من النخر بالنفس وبالقبيلة ، وفيها تيار خفي يعمد توتراً إلى خليفة عربي لا ينماع للفرس . وكان المسلمي قد أفصح عن هذا التيار في قصيدة أخرى ناقض فيها طاهر بن الحسين نفسه عندما افتخر هذا في قصيدة بقتله للأميين إذ قال (*) : —

قَتَلْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِنَّمَا بَقِيتُ عَنْهُ بَعْدَهُ لِلْخَلَائِفِ
وَأَصْبَحْتُ فِي دَارٍ مُقِيمًا كَمَا تَرَى كَأَنِّي فِيهَا مِنْ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ
وَقَدْ بَقِيتُ فِي أَمِّ رَأْسِي فَتَكَـةٌ فَإِنَّمَا لِرُشْدٍ أَوْ لِرَأْيٍ مُخَالِفِ

فسرد عليه المسلمي ساخرًا متهددًا : —

وَمَنْ أَنْتَ أَوْ مَا أَنْتَ يَا فَعَّعَ قَرَقَرٍ
فَنَحْنُ بِأَيْدِينَا هَرَقْنَا دَمًا نَسَا
سَتَعْلَمُ مَا تَجْنِي عَلَيْكَ وَمَا جَنَسْتَ
وَقَدْ بَقِيَتْ فِي أَمِّ رَأْسِكَ فَتَكْنَسُ
(١) إِذَا أَنْتَ مَنَا لَمْ تَعْلَقْ بِكَانِيفٍ
كَكَوْلٍ تَهَادَى الْمَوْتُ عِنْدَ التَّرَاخُفِ
يَدَاكَ فَلَا تَفْخَرْ بِقَتْلِ الْخَلَائِفِ
سُخِّرْجَهَا مِنْهُ بِأَسْمَرٍ رَاعِيَفٍ
(٢)

إن إحساس الشاعر بالجرم الذي ارتكبه المأمون كبير ، وإن الأداة المنفذة - طاهر - لتلك الجريمة ستلقى القتل ، بل إن الإحساس بالذنب تضخم لدى الشاعر حتى عد ما حدث للأمين مسوء ولياسة العرب جميعاً ، وهم ، لذلك ، مطالبون جميعاً أيضاً بأخذ القصاص من قاتله : " فنحن بأيدينا هرقنا دماً ، ولذا " سنخرجها بأسمر راعياف " .

ولمحمد بن يزيد المسلمي قصيدة في عتاب عيسى بن فرخان شاء ، وهي تجري على منوال قصيدته في هجاء عبد الله بن طاهر في البعد عن الغربة ، وفي خفة موسيقاها . وقد أقامها بذكاء على التناظر المعجب بين موقفه من صديقه وموقف هذا الصديق السلبي منه ، يقول (٣) : -

أَبَا مُوسَى سَقَى أَرْضَ — كَ دَانٍ مُسْبِلُ الْقَطْرِ
وَزَادَ اللَّهُ فِي قَسْدٍ — كَ مَا أَخْمَلْتُ مِنْ قَسْدٍ
لَقَدْ كُنْتُ أَرْجِيكَ — لَمَّا أَخْشَى مِنَ الدَّمَارِ
نَفْدٍ أَصْبَحْتَ مِنْ أَوْكَ — دِ اسْبَابِي إِلَى الْفَقْرِ
أَتَرْضَى لِي بِأَنْ أَرْضَى — بِتَقْصِيرِكَ فِي أَمْرِ
وَقَدْ أَفْنَيْتُ مَا أَفْنَيْتُ — فِي شُكْرِكَ مِنْ عُمْرِي
مَوَاعِيدُ كَمَا أَخْبَرْتُ — سَرَابُ الْمَهْمَةِ الْقَفْرِ

واختتم قصيدته بعتاب لاذع إذ بلغ اليأس فيه كل مبلغ من إمكان صلاح صاحبه بالعطف عليه : -

لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَضَنَّ — لِي مِنْ حَيْثُ لَا أُدْرِي
فَالْقَاكَ بِسَلَا شُكْرِي — وَتَلْقَانِي بِسَلَا عُدْرِي

- (١) الفع من الكلمة أروأ أنواعها ، وفي المثل " ففعه قرقر " يضرب للدليل . والقرقر من الأرض : المنخفضة اللينة . والكانيف : الحامسي .
(٢) الثول : جماعة النحل أو الدبر ولا واحد له من لفظه ، وقيل هو : الذكر من النحل .
(٣) العمدة ٢ : ١٥٩ .

ولا أرجوك في الحالين
ن لا العسر ولا اليسر

وعلى الرغم من ندرة ما في القصيدتين من ألوان التصوير العثير فإن القصيدة الثانية بخاصة تعالج عملاً إنسانياً عاماً هو تنكر الأصدقاء لأصدقائهم بأسلوب سهل سائغ، يوصي، إلى شاعريته أصيلة .

٢- المراثي :-

كان قد ورد في الحديث عن الرثاء في الشعر الشامي أبيات من مرثية محمد بن يزيد الحنصلي في ابنه قطام . والقصيدة نمط فريد من الحزن الأبوي الصادق ، والتصوير الدقيق لفجعة أبوين يموت لهما طفلهما الذي كانا يحلمان بأن يريا فيه امتدادهما في الحياة ، وفيها أيضاً استسلام عاجز عن مجاهدة الموت الذي يكدر صفو الحياة ، ويتخطف أمانى الناس وأحلامهم ، وقد انتظمت هذه الأفكار في خيط واحد من الوجد والهم . وظل الشاعر حريصاً على اختيار الوزن الموسيقي الخفيف ، كأن يرى فيه مواثع لنشيج نفس تفتطرت حزناً وأسى ، يقول (١) :-

وَجَدَتْ أُمُّ قَطَامٍ	مَنْ وَجَدَنِي بِقَطَامٍ
فَنَسِيَ تَكْلِسِي تَخْمِشُ الْـ	وَجْهَ بَعَثُولٍ وَالتَّيْدَامِ (٢)
وَكَلَانَا مَوْجَمُ الْحُرِّ	قِيَّةً مِنْهُ نَاضُ الْعِظَامِ (٣)
كَلِمَا أُنْفِغْتُ سَجْجُولا	عَارِضَتْهُ بِسَجْجَا (٤)
لَوْضِي الْوَجْهَ غَطْرِيسِي	فِغْطَارِي حَفِي كَسْرَامِ (٥)
لِلذَّرَى نَمِ الذَّرَى مِمَّنْ	أَلِ مِروَانَ الْهُمَامِ
فَرَحٌ بِبَارِئِي صَيُودِ	لِلْعَلِيَّاتِ الْجِسَامِ
لَوْ تَوَافَقَى رِيشُهُ	جَلَّ عَنْ الطَّيْرِ الْعِظَامِ
غَالَهُ صَرَفُ مِنَ الدَّهَامِ	رَغَاوُولُ لِلْأَنَامِ

- (١) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٦ : ١٣١ .
- (٢) التدمت المرأة التداما : ضربت صدرها ووجهها ، وفي الأصل : بقول ، ولا معنى لها
- (٣) منهاض : منكسر .
- (٤) السجل : الدلو العظيمة ، السجام من سجم الدمع والمطر : سال سيلاناً .
- (٥) الغطريف : السيد الكريم ، وفي الأصل : غطريف من .

فَنَقَلْنَاهُ بِأَيْدِيهِ	نَا إِلَى دَارِ الْعُقُومِ
مِثْلُ غَضَنِ الْبَانِ لَمْ يَكُنْ	نَسْ وَلَمْ يَعْرِفْ بِإِذَا
أَيُّ مَرْمُوسٍ مَسْنُونٍ	(١) مِنْهُ فِي التُّرْبِ الْهَيَّامِ
بَيْنَ أَطْبَاقِ الثَّرَى الْجَعْدِ	(٢) دَرَوْضِ رَاضِ السَّهْلِ
يَا شَقِيقَ النَّفْسِ آذَنْ	تَ وَشَيْكَاً بَانَصْرَامِ
لَمْ تَكُنْ إِلَّا كَهْفِي الظُّنْ	لَمْ تَكُنْ إِلَّا كَهْفِي الظُّنْ
لَمْ تَعْمُنَا اللَّيَالِي	مِنْكَ إِلَّا عُشْرَ عَامِ
لَا وَلَمْ تَرَوْا مَنَ السُّدْرِ	إِلَى وَتَمَتَّ الْفَطَامِ
فَتَنَاقِي مَنْ يَنَاقِي	كَ بِنَقُوصِ الْكَلَامِ
لَوْ يُفَادِنُ الْمَوْتَ أَوْ كَمَا	نَ فُتَوَاتٍ بِالسَّهَامِ
لَقَدْ يَنْبَاكَ بِالْأَلْفِ	(٣) مِنْ رِجَالٍ وَسَوَامِ
وَلَقَاتَلْنَا الْمَنَابِي	عَنْكَ بِالْجَيْشِ الْهَامِ
غَيْرَ أَنْ الْمَوْتَ خَطَّ	لَا يَسَامِيهِ مُسَامِ
كُلُّ حَيٍّ فَلَهُ مَنَ	حَوْغِيهِ كَأَسْ جِمَامِ
لَا اسْتَهْلَيْتَ بِيُولَادِ	ذَاتُ كَمَلٍ بِتَمَامِ
بِفِضْلِهِ أَخْبَرَ الدَّمْعَ	رَوَا غَيْرَ غُفَامِ
بَدَلَتْ كُتْلَى وَلَسُودِ	بَعْدَ عُقْرِ بَعْقَامِ
وَعَلَى شَلْوٍ بِذَلِكَ السَّ	قَبْرَ أَعْصَفِ السَّلَامِ
كَلِمَا لَاحَ صَبَّاحُ	أَوْ دَجَا دَاجِي الظَّلَامِ
وَإِذَا مَا لَا مَعَ الْبِزْرِ	قُ بَمُزْجِ الْغَمَامِ
جَلْبَتُهُ الرِّيحُ مِنْ أَعْنُ	رَأَى نَجْدٍ بِتَمَامِ
يَقْلَسُ الْمَاءَ فَمُقِيَا	(٤) لَصَدَى نَسَمِ وَهَامِ

(١) الْحَيَّامُ : هَيَّامُ الرَّمْلِ : مَا كَانَ تَرَابًا دَقَاقًا يَابِسًا .

(٢) الرِّضَا : الْحَصَى الصَّغَارِي مَجَارِي الْمَاءِ . السَّلَام : الْحَجَّارَةُ .

(٣) السَّوَامِ : الْمَاشِيَةُ جَمْعُ سَائِمَةٍ .

(٤) قَلَسَ الْمَاءَ : قَاضَ .

- ٣٠١ -

وقد أثبت القصيدة كاملة لسببين ، لأنها غير منشورة أولاً ، ولأنه يتوافر فيها مقدار صالح من مقومات نجاح الشعر ثانياً ، فهي تعرض صورة لأبوين يجلسان نائحين أمام جدث رضيعة ، ثم هي تعرض صورة للطفولة البريئة المسجاة التي كان أبوانا يحلمان بأن يكون لها شأن في قايصل الأيام ، ثم هي تصور انعطافاً حاداً في مسار الهواجر والروى بالارتداد إلى الواقع المحزن عندما تعرض لمعجز الإنسان عن تحقيق أمانيه بمعجزه عن رد غائلة الموت ، ثم هي أخيراً تصور لحظة من لحظات الضعف البشري الذي يجعل الإنسان أحياناً ضيق النظرة أنانياً ، فيتمنى أن يعم الشر الناس جميعاً ، لا كراعية للناس ، بل هروياً من معاناة فردية ، ولذلك تمنى الشاعر أن لو تصبح نساء الأرض جميعاً عواقر .

وللمسلي قصيدة رثاء أخرى قائمة على الترميز ، إذ يتخذ لنفسه مثلاً من قمة حماة كانت آمنة مطمئنة على غصن مائس ، وكان لها الفلم تكن تفارقه ، ثم قيس لها " رام بصفرا " نبيعة " فراححت بعده " بهم لو تضمن مثله حساً آدمي ما استطاع يريم " ، ولهذا التوافق بين حاله وحالها فقد راقه غناؤها أو بكائها الذي يذكره بأحباب فقد عم بالموت أو بالنأي عنهم ، يقول في هذه الاستجابة لننائهم (١) :

فطوراً أَسِيمُ الْبَرْقِ أَيْنَ مَصَابُهُ	وطوراً إلى أحوال تلك أهيم (٢)
غناءً يَرُوعُ النُّصَمَيْنِ وَتَسَارَةً	بكاءً كما يبكي الحميم حميم
إِذَا مَا اسْتَمَلْتُ بِالْغِنَاءِ تَطَلَّعْتُ	وأصغى لها طَبَّ بذاك عليهم
فَإِنْ دُونَ ذَا يَشْتَأِقُ مَنْ كَانَ ذَا هَوَى	ويعزُّبُ عنه الحِلْمُ وهو حليم

وهذا النهج من الترميز المكشوف شائع مشهور في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي عندما يتخذ الشاعر من الطير أو الحيوان مشجياً يعلق عليه عموم في الحنين أو الرثاء .

- (١) أبو العباس التيفاشي : سرور النفس بمدارك الحواس الخمس ، تحقيق إحسان عباس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٠ : ١٦ - ١٧ ، الحماسة البصرية ٢ : ١٥٠ .
- (٢) شام البرق : نظر إليه يتحقق أين يكون مطره . مصابه : مكان انصباب مطره .

٣- وصف النجوم :-

من الموضوعات الشعرية التي شاعت في عصر دون عصر في الشعر العربي موضوع وصف النجوم . وكان محمد بن يزيد المسلمي من الشعراء المبرزين في هذا الموضوع كما يقول التيفاشي في "سرور النفس" ^(١) ، وقد أورد له في مؤلفه هذا قصيدتين وقطعة ، عدة أبيات القصيدة الأولى (٣٨) بيتاً ، وعدة القصيدة الثانية (٤٩) بيتاً ، والقطعة خمسة أبيات ^(٢) .

ويلاحظ في أوصاف المسلمي لحركات النجوم معرفته بأسمائها مفردات ومجموعات ، فهو يذكر مثلاً زحل ، والنسر ، وسعد الذابح ، وسعد بلع ، والعقرب ، والدلو ، والحوت ، والكبش ويتقرن بهذه المعرفة معرفة أخرى تتمثل بمواقيت ظهورها وأمكنة ، يقول في ذلك مثلاً ^(٣) :-

فخرجت حين بدا سُفيلُ طالِعِها	يُسرى المصلى قائماً يتنقّلُ
والجدى كالفرس الحصان شدّدته	بالسرج إلا أنه لا يصهل
والنور في جوّ السماء محلّقٌ	خلّت الثريا حائرٌ متعلّمٌ
وامتدّ للجوزاء نظم قطارها	وتلاحقت نقطارها مستعمس

كما يلاحظ أن مادة تشبيهات الشاعر مستقاة من البيئة "فزحل لحق النسر بالخيّل السدّع" ^(٤) ، والعقرب لها مصابيح في الدجى "تحكي مصابيح البع" ، وهي - إذا جد بها - السير - تطلع ، ثم هي تجري متابعه :-

تتابع الخيّل جَـرّت	منها مسيرٌ وجَـذَعٌ
---------------------	---------------------

وقد وقع في تشبيهاته على بعض الصور الحية المتحركة ، من ذلك قوله وهو يصور انبلاج الفجر :-

واثبَرت خيّلُ الدُجَى	تركض من غير فَرَعٍ
والضوء في عِراضها	يخبّ طوراً ويضَعُ ^(٥)

(١) سرور النفس : ١٤٦ .

(٢) انظر المصدر نفسه ١٤٦ - ١٥٠ .

(٣) المصدر نفسه : ١٥٠ .

(٤) الخيل الدرع : التي اسود مقدمها وابيض مؤخرها أو العكس .

(٥) يخب ويضع : يسرع في سيره .

وليس يعرف سر اعتمام هذا الشاعر بوصف النجوم ، إذ يلاحظ كأنه كان — بحكم إقامته فسي بلدة نائية عن الحواضر — يظل يراقب في ليليه حركات الأفلاك في السماء مراقبة دقيقة فأناحست له تلك المراقبة أن يأتي على أوصافها المنظورة . وقد راقته هذه الدقائق في الوصف الخليفة العامون الذي كان معنياً عموماً بالآخر بها حتى أنشأ لها مرصداً في سفح جبل قاسيون بدمشق ، فقال معلناً عن إعجابه بشعر المسلمي^(١) : " هذا شعر رجل كأنه صعد الفلك فعلم ما فيه " . ويغلب على الظن أن اعتمام المسلمي بالنجوم كان نابعاً من هموم خاصة بيني أمية الذين زالت دولتهم ، وذو سبب عزهم ، فظل أحفادهم يحملون بعزيم الدائر الذي قد يعود . وبيان ذلك في شعر المسلمي هذا هو قوله في صدر القصيدة الثانية : —

يَرْتَاحُ فِيهِ الْعَمِيدُ ^(٢)	يَا لَيْلُ مَا لَكَ صَبْحُ
تَنْجَابُ عَنْهُمْ سُودُ ^(٣)	طَالَ انْتِظَارِي لِبُلْبُلِي
كَأَنَّيَ مَرُورُودُ ^(٤)	فَبَاتَ هَمِّي قَرِينِي
غَوَارِبٌ وَرُكُودُ	أَرَى النُّجُومَ فَعْنِي

فمرّض حال الشاعر على هذه الصورة من الثأمة والضجر المقيم نابعاً بلا شك من معاناة كابوسية ، فلجأ إلى السماء يسترشد بها التملة والسلوان ، فهام بنجومها وصفاً مدقّقاً ، حتى إذا ما أثنى على الخاية قال في بوح مباشر : —

وَمَا يَكُرُّ جَدِيدُ	مَا لِلظَّلَامِ أَنْجَسَ سَارُ
رِمَ شَرْقِيّاً يَعُودُ	وَلَا أَرَى سَاطِعَ الْفَجْرِ
إِنِّي إِذَا السَّعِيدُ	لَكِنْ أَنَسَابَ لِعَيْنِي
رُمْتُ قَبْ حَمِيدُ ^(٥)	فَلَمْ يَرْعُنِي وَلِلصَّبْرِ
يَلُوحُ فِيهِ الْعَمُودُ ^(٦)	إِلَّا وَغْفَرُ الزَّيَانِي
تَبْغُو عَلَيْهِ الْبَنُودُ	كَأَنَّكَ قُرْشِي

(١) سرور النفس : ١٤٦ .

(٢) العميد : المريض لا يستطيع الجلوس حتى يعتمد من جوانبه بالوسائد .

(٣) البلق : جمع أبلق من الفحل ونحوه ، وهو ما كان فيه سواد وبياض .

(٤) مرود : مصاب بالحمى ، والورد اسم من أسماء النساء .

(٥) مستغيب : غائب .

(٦) غفر الزباني : ما ستر منها ، والزباني أحد نجمين في الميزان وهما الفلّ السّادس عشر من منازل القمر .

فهذه الفجائية بنوال عاتبة الصبر تظهر بما لاح له من آمال ، قواها ظهور ما استتر من "غفر الزباني" ، وذلك بعد أن ادلهمت كل الآفاق في ناظره ، فتراءى ظهور هذا المستور لعيني الشاعر المأزوم بأوجاع الأميين وأحلامهم "كأنه قرشي تهفو عليه البنود" . وإن هذا التفتن لصورة القرشي الذي تهفو عليه البنود ، ختام هذا المخاض من الأرق الذي لازمه فجعله - وهو ابـن البرية كما قال له ابن أبي طاهر^(١) - دائم المراقبة للنجوم وحركاتها . وهو الشعور نفسه الذي حدا به إلى أن يقول لساحبه وهو يحاوره في القصيدة الأخرى وعما يترقبان بلهفة نافذة طلوع الفجر - فجر الأميين - :

ليس المذكَى سُنْهُ في الصُّبر كالنَّعْمِ الضُّعْفِ^(٢)

وإذا انضاف إلى ذلك استشعار المسلمي بأموته وعروته اللتين عبر عنهما في مرثيته في ابنه قطاس ، وفي هجائه لعبد الله بن طاهر ، وفي مناقشته محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمي أمكن الاطمئنان إلى أن هذا الحكم الأخير الذي ارتأيناه في سبب تمييزه بوصف النجوم فيه مقدار كبير من الصحة .

ويلاحظ أخيراً على شعر المسلمي في النجوم ما لوحظ من قبل على مجمل أشعاره الأخرى ، وهو تخيره للأوزان القصيرة في النظم ، كأن ذلك كان مذهبه في موسيقى الشعر .

(١) انظر: الفرج بعد الشدة ١: ٣٤٧ .
(٢) النعم : غير المجرب . الضعف : الجبان . المذكى : المجرب .

٤ - الحسين بن علي التميمي الأنطاكي

الحسين بن علي أبو طالب النقاش شاعر من أهل أنطاكية ، عاش في زمن متقدم على عصر سيف الدولة . وكذلك قال ابن العديم في التعريف به ^(١) ووصفه بأنه شاعر محسن مجيد . وعلى الرغم من هذا التعريف الوجيز فقد أورد له ابن العديم والشمشاطي أشعاراً كثيرة . وقد عرف أن لــــه علاقة بثلاثة نفر هم : أبو القاسم علي بن الحسين بن جعفر العلوي ، وأبو الحسين الحراني المعروف بالكُمدي ، وأبو حفص عمر بن موسى الكاتب . والأولان روى عنه الشعر ، والثالث يبدو أنه كان صديقاً للشاعر ، فقد روى الشمشاطي أبياتاً للأنطاكي أرسلها إلى أبي حفص المذكور ^(٢) .

والراجع أن هذا الشاعر كان يسكن في أنطاكية ، فرقة شعره رقعة تمتد بين نهر الفرات ونهر الأرند ، وهو نهر العاصي ، وأما عصره فهو أواخر القرن الثالث الهجري ، والدليل على ذلك أن ابن العديم قال عنه إنه متقدم على عصر سيف الدولة ، ومعلوم أن سيف الدولة عاش في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، ثم إن الثعالبي الذي ترجم في البيعة لشعراء القرن الرابع لم يذكر هذا الشاعر ، كما أن الشمشاطي - وهو من أعلام القرن الرابع - يروي عنه في " الأنوار " هكذا ^(٣) : أنشدنا أبو القاسم العلوي قال : وأنشدني الأنطاكي

وكل ما وصلنا من شعر الأنطاكي إنما هو في الوصف ، وهو شعر رقيق اللفظ سلسله ، اعتمد فيه الأوزان القصيرة ، وأكثر فيه من الصور المنتزعة من بيئة ثرة الماء ، فوقع لذلك على كثير من المعاني الطريفة ، من ذلك قوله في أرجوزة يصف فيها رحي ، وكان مع جماعة يشربون على نهر الأرند ^(٤) :

ومنزل رَقَّ به الهَـوَاُ
وطاب للشرب به الثَّـوَاُ

- (١) بغية الطلب ٨ ورقة ٢٥٩ .
- (٢) انظر: الأنوار ومحاسن الأشعار ٨ : ٢ - ٩ ، ١٠ - ١٦ ، ٨٨ ، ٢٨٢ - ٢٨٣ ، بغية الطلب ٨ ورقة ٢٥٩ - ٢٦١ .
- (٣) انظر: الأنوار ٢ : ١٣ .
- (٤) الأنوار ومحاسن الأشعار ٢ : ١٦ .

بَنِيَّةً مَا حَوْلَهَا بِنَاءً
 كَمَا أَقِيمَ فِي يَدِ إِنْشَاءً
 تَرَكُضُ فِيهِ فَرَسٌ دَهْمَاءُ
 تَكْنُفُهَا عَجَاجَةٌ بَيْضَاءُ
 تَجْرِي وَإِنْ أُعْزِمَهَا الْفَضَاءُ
 مِيدَانُهَا وَجَسْمُهَا سَوَاءُ
 يَحْفَظُهَا جَارٌ لَهُ ضَوْضَاءُ
 وَلَيْلَةٌ مُسْفُورَةٌ غَمَاءُ
 رَحَاوُهَا إِنْ دَرَجَتْ رَحَاءُ
 تَبْرُدُ مِنْ نَسِيمِهَا الْإِحْشَاءُ
 غُرَّةٌ دَعَّرَ كُلَّهُ ظَلَمَاءُ

وفي أرجوزة أخرى وصف الشبك المتخذ لصيد السمك (*) ، وهو من الموضوعات الطريفة النادرة في الشعر العربي ، وأتى فيها على وصف السمك وتصوير البهجة بالظفر به رزقاً حلالاً : -

وشاحِبِ اللَّبْسَةِ وَالْأَعْضَاءِ
 أَشْعَثَ نَائِي الْعَهْدِ بِالرَّجَاءِ
 أَنْضَى بِهِ الْعُدْمُ إِلَى النَّضَاءِ
 فَوَجَّهَهُ لِلضُّجِّ وَالْهَوَاءِ
 أَغْبَرُ يَحْوِي الزُّرْقَ مِنْ غَبْرَاءِ
 خَفِيفَةٍ ثَقِيلَةٍ الْأَرْجَاءِ
 كَأَنَّمَا هَلْهَلَةُ السَّرْدَاءِ
 كَلَّفَهَا لِحْظَ بَنَاتِ الْمَاءِ
 بِأَعْيُنٍ لَمْ تُؤْتِ مِنْ إِعْضَاءِ
 كَثِيرَةٍ تُرَبِّي عَلَى الْإِحْصَاءِ

فَأَتْبَلَّتْ تَمْلَأُ عَيْنَ الرَّائِي
بِكُلِّ صَافِيِ الْمُنِّ وَالْأَحْشَاءِ
أَبْيَضَ مِثْلِ الْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ
أَوْ كَذِرَاعِ الْكَاعِبِ الْحَسْنَاءِ
رِزْقًا رِزْقَانَهُ بِلَا عَنَاءِ
نَعْدُهُ مِنْ سَابِغِ التَّعْمَاءِ

وكرر الشاعر هذا المعنى في أرجوزة أخرى معلناً فيها عن ابتهاجه كأبي صياد يعود من صيده
مستلغ اليدين ، يقول فيها (١) : —

وَجَدُولٍ بَيْنَ حَدِّ يَتَقَنَّيْنِ
مُطَرِدٍ مِثْلَ حُسَامِ الْقِيَّاسِ
تَنْظُرُ فِي الْمَاءِ بِالْفَبْعِيَّةِ
رَاصِدَةً كُلَّ قَرِيبِ الْحَيَّاسِ
تُبْرِزُهُ مَجْنَحَ الْجَنَّبِيَّةِ
كَمْدِيَّةٍ مَضْطَوِّلَةِ الْمُتَنِيَّةِ
كَأَنَّمَا صَيَّغَ مِنَ اللَّجْجِيَّةِ
رِزْقًا هَنِئًا يَمْلَأُ الْيَدِيَّةِ
بَغِيرِ كَدٍّ وَبَغَيْرِ أَيْدِيَّةِ (٢)

ومن أشعاره النابعة من البيئة ذات الأمواه النخزية قوله في وصف الدولاب المستعمل لسري
أشجار الفاكهة ، وقد وفق في تصويره وفي تفتيق معانيه (٣) : —

-
- (١) الأنوار ومحاسن الأشعار ٢ : ٢٨٣ .
(٢) الأيمن : التعريب .
(٣) الأنوار ومحاسن الأشعار ٢ : ٨ .

- ٣٠٨ -

يسري فيمنعه السرى أن يئعدا
حتى حسبناه مشوقاً مكمعدا
وجه الثرى أكرم به مسترفعدا
أرج وبرد يشفيان من الصعدى
وفواكه توجنى وظل يرتعدى

بمشتر في السير إلا أنعدا
وصل الحنين بعبرة مشفوحية
مسترفد ماء الفرات ورافعدا
ينفي الصدى عن روضة نفحاتها
كملت محاسنها فنشر يرتعدى

وقال في أخرى في الموضوع نفسه ، وقد راقته حركة الدولاب السريعة وإن كان يراوح موضعه (١) :

ناء يجن إلى أوطانه طربدا
من العمام غدا فيه أبا حدبدا
عن المحل ولا يئدى له تعبدا
للبر حتى ارتدى النوار والعشبدا

كان دولابها إذ حن مغتربدا
باك إذا عنى زعم الروض والكعدا
مشتر في مسير ليس يئعدا
ما زال يطلب رقد البحر مجتهدا

ومن طريف تشبيهاته قوله في وصف السفن في الفسرات (٢) :

شم الهضاب لبسن ليلاً أرعدا
مولى فشد وثاقها وتشعددا
بالماء تمنحه عناقاً سرمعدا
يوماً تحير دونها وتبلعدا

وتواطنا في الماء تحسب أنهدا
مثل الإماء السود خاف إباقتهدا
نصبت حيازيماً لها مشغوفعدا
بدع إذا الفکر حاول وصفهدا

وقال في أخرى (٣) يصف سفينة بحريسة :

فمن كل وجه لها حابعدا
على من أقام بها الساجعدا
إليه كما حنت الناكعدا
شباب وشيئهم شامعدا

وسوداً أبقة قيتعدا
توسطت البحر حتى نكعدا
وحنت إلى البر مشتاقعدا
فكأنها الدهر من نفعهدا

(١) الأندوار ومحاسن الأشعار ٢ : ٨ .

(٢) المصدر نفسه ٢ : ١٥ .

(٣) نفسه ٢ : ١٤ - ١٥ .

كسرى في تلميح خفي إلى وصف البحري له ، وفي إحساسه بفضل العرب على الفرس : -

والقصرُ يُبْسِمُ في وجهِ الضحى فتَـرى
يبيتُ أعلاه بالجِزْءِ مُنْطِقَةً
تطامنت نحوهُ الإيوانُ حينَ سَمَا
إذا القصورُ إلى أربابها انتَسَبَت
فصله لا وصلتك الحادِثاتُ ولا
برٍّ وبحرٍ وكتابٍ مَدْبَجَةٌ
ومنزِلٍ لا تزانُ الدهرُ عِوَتُهُ
حُصَاوَهُ لوْ لوْ نُثِرَ وتُرِيَتْ
وكنْ ناحيةً منه زبرجُدةٌ

الفتنة من حولها (٣) :-

بِالْيَمِينِ قَدْ رَفَعَ الْأَمِيرُ وَشَيْئًا دَا
 قَمَرًا أَنَا فِى عَلَى التَّصَوُّرِ يَحُلُّهُ
 قَلْنَا وَقَدْ أَعْلَاهُ جَدِّ صَائِعًا دَا
 أَنْبِيَاءَ بَيْنَاهُمَا فَضَحَ الْبِنَاسِ
 غَرَفًا تَالِقًا فِي الظَّلَامِ فَلَوْ سَكَّرَى
 عُنِي الرَّبِيعُ بِهَا فَتَشَرَّ حَوْلَهَا
 وَكَأَنَّمَا تُزَجِّسِي السَّحَابُ فَوْقَهَا
 وَكَأَنَّمَا نَشْرُ الْهَوَا بِجَوْهَهَا

(٢) العقوبة : الموضع المتسع أمام الدار أو المحلة أو حولهما جمع عَقْصًا .

(۳) الأنوار ومحاسن الأشعار ۲ : ۸۸ .

ومن شعره في وصف الدواة والقلم ، وقد أقام القطعة كلها على التشبيهات المنتزعة من حياة الناس وعلاقاتهم (١) :-

يُسْطُو بِخَطَّارٍ كَانَ خَاطِرِي	مُسَلَّطٌ فِي جِسْمِهِ فَهُوَ سَلِيطٌ (٢)
يَكْتُبُ فِي زُنْجِيَةٍ كَأَنَّمَا كَيَانُهُ	مِنَ الْفِطَامِ مُنْخَرِطٌ
كَأَنَّمَا سَوَادُهَا وَحَلِيٌّ	تَأْلِيفُ ضِدِّ يَنْ شَبَابٍ وَشَمَّاطٌ
كَأَنَّمَا يَقْطَعُهَا مَهْنَتُهُ	مُحْتَبَسٌ فِي غَمْدِهِ لَمْ يُنْفِضْ قَبْطٌ (٣)
كَأَنَّمَا يَسْكُنُهَا صُدُوعُ عِلْمِي	خَدَّ مَهَاءٍ بَفْتِيَتِ الْمَسَاكِ لِسَطٌ

إن السمة الغالبة على شعر الأنطاكي هي سمة العفوية في النظم وفي التصوير ، فكان شعره مثل قوله " يرد بغير كد وبغير أين " ، وكان كثيراً ما يكرر معاني القصيدة الواحدة وصورها في قصائد أخرى ، كأنه كان يعجز عن تفتيق أفكار وصور جديدة .

(١) بغية الطلب ٨ : ٢٥٩ .
 (٢) السلط: النصل لا نتوء في وسطه جمع سلاط ، والخطار عنى به رأس القلم .
 (٣) المقط: ما يقطع الكاتب عليه أطراف أقلامه .

٥ - محمد بن سلامة بن أبي زُرعة الدمشقي

هو محمد بن سلامة بن أبي زُرعة الكثاني الدمشقي ، وقيل بل اسمه المَعْلَى ، غير أن الراجح أن اسمه محمد ، وعلى ذلك أجمع من ترجموه له ^(١) . ويبدو أن هذا الشاعر لم يكن معروفاً لدى جل من تحدثوا عنه بأكثر من المعلومات التي كان عمادهم الأول فيها على كتاب " الورقة " لابن الجراح ^(٢) . ثم أخذ اللاحق منهم ينقل عن السابق نقلاً حرفياً في الأغم الأغلب دونما إضافة تذكر . ومما تناقلته هذه المصادر قولها عنه : هو شاعر دمشقي محسن ، وهو والديك شاعرا الشام ^(٣) .

ويبدو أن هذا الشاعر كان من شعراء القرن الثالث الهجري ، فهو معاصر لـديك الجـبن وأبي تمام والبحري ، فقد روى ابن عساكر عن ابن الجراح في كتاب " الورقة " أنه قال عنه ^(٤) : أنشدني أحمد بن أبي طاهر ومحمد بن أبي مسهر لأبي زُرعة ٠٠٠ في أبي الجهم أحمد بن سيف ٠٠٠٠ . ولما كان أحمد بن أبي طاهر ^(٥) قد توفي سنة ٢٨٠هـ / ٨٩٣م فيكون هذا الشاعر من معاصريه .

ويستفاد من بعض شعر ابن أبي زُرعة أنه دخل العراق ، فله في " سر من رأى " هجاء قال فيه معلناً عن ضيق ذات يده وفقره فيها ^(٦) : -

لَعَنَ اللَّهُ سُرَّ مَنْ رَأَى بِـــــــلَادًا ورماعا بالشُّومِ والطَّاعــــونِ
بُعْتُ فِي الصَّيْفِ بَيْنَهُمْ قُبَّةَ الْخَيْشِ وَبُعْتُ الْكَانُونَ فِي كَانــــونِ

- (١) انظر معجم الشعراء : ٤٢٨ ، سمط اللآلئ : ١ : ٥١٧ ، مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٥ : ٤١٥ ، المحمدون من الشعراء : ٣٤٨ ، الوافي بالوفيات ٣ : ١١٦ .
- (٢) لم ترد له ترجمة في كتاب " الورقة " المطبوع .
- (٣) انظر مثلاً : معجم الشعراء : ٤٢٨ ، سمط اللآلئ : ١ : ٥١٧ ، المحمدون من الشعراء : ٣٤٨ .
- (٤) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٥ : ٤١٥ .
- (٥) انظر في التعريف بأحمد بن أبي طاهر صاحب " تاريخ بغداد " و " بلاغات النساء " ، معجم الأدباء ١ : ١٥٦ ، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٤ : ٢١١ .
- (٦) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٥ : ٦٠٠ .

ويبدو من المقطعات القليلة التي عثرنا عليها في مصادر الدراسة أن ابن أبي زرعة نظم في الهجاء، والوصف، والغزل، ولم يرد له شيء في المدح. ويبدو أن الشاعر لم يتصل بأي من أعيان أهل زمانه المشهورين من الخلفاء والولاة، ويبدو أن عدم اتصاله بهم كان سبباً من أسباب ندرة المعلومات عنه. وسأورد في دراستي هذه جل ما وقعت عليه من شعره لسببين: الأول لأن هذا الجمع يضع بين يدي دارسي الشعر الشامي في فترة تكاد تكون مجهولة أو كالمجهولة - مقداراً صالحاً من هذا الشعر الذي تناثر في مصادر ليس من اليسور الوصول إليها، وبخاصة أن بعضها ما زال مخطوطاً. الثاني لأن في شعر هذا الشاعر ما يروق ويعجب وبخاصة ما جاء منه في الوصف.

١- ما جاء في الهجاء :-

قال ابن أبي زرعة في رجل يدعى أبا الجهم أحمد بن سيف (١) :-

أَيَا سَلَّمَ أَخْتَبَنِي رَاسِيب	أَتَلِّي عَنَابِي أَوْ عَاتِبِي
فَلَسْتُ بِصَارِفٍ صَرَفَ الزَّمَانِ	وَلَا غَالِبٍ الْقَدَرِ الْغَالِبِ
وَإِنْ يَكُ صَرَفٌ مِنَ الدَّمْعِ جَبَّ سَنَامِي	وَأُسْرَعُ فِي غَارِي
فَلَمْ يُنْسِنِي ذَاكَ بِذُلِّي التَّلَا	دَ لِلضَّيْفِ وَالْجَارِ وَالصَّاحِبِ
وَلَكِنْ أَبُو الْجَهْمِ إِنْ جُنَّتْ	لَهِيْفًا حُجِبَتْ عَنِ الْحَاجِبِ
وَإِنْ جُنَّتْ عَائِذًا هَارِبًا	إِلَيْهِ دُفِعَتْ إِلَى الطَّالِبِ
وَإِنْ جُنَّتْ رَاغِبًا مَادِحًا	رَجَعَتْ بِجَائِزَةِ الْخَائِبِ
وَلَيْسَ بَذِي مَوْعِدٍ صَادِقٍ	وَيَبْخُلُ بِالْمَوْعِدِ الْكَاذِبِ
فَيَا لَكَ مِنْ مَنَظَرٍ شَاجِرٍ	هَنَّاكَ وَمِنْ خُلُقٍ شَاجِرٍ (٢)
وَلَسْتُ أَرَى رَاغِبًا فِي سَوَاك	فَتَى لَيْسَ فِي الْمَجْدِ بِالرَّاغِبِ

وقد توزعت القصيدة في منحيين : فخر بالنفس على الرغم من معاندة الحظ، وهجاء للصفات الخلقية والنفسية في شخص أبي الجهم، وتجريده من كل محمدة أو مزية يحسن أن تكون في الرجال

(١) مصورة تاريخ مدينة دمشق ١٥ : ٤١٦ ، المحمدون من الشعراء : ٣٤٨ .

(٢) الشاجب : الهنذا ، المكسار .

- ٢١٣ -

وأكبر الظن أن الشاعر كان معسراً ، فقصداً أبا الجهم هذا لعله ينال منه شيئاً من العطاء ، ولكنه
فيما يبدو عاد خائباً ، فصب عليه غضبه وهو غضب يكافئ مقدار ما كان قد أمل فيــــه .

ويبدو أن القطعة التالية قيلت في أبي الجهم أيضاً ، ففيها أيضاً مقابلة بين حاله وحال من
يخاطب ، وهما بعد غير منسجمين ، يقول فيها مفصلاً عن ضيقه (١) بــــه : -

وَأُظَنُّهَا سَتَعُودُ لَا تَسْتَأْذِنُ	إِنَّ الْقَوَانِي عِنْدَكَ أَخْسَرُ إِذْنُهَا
مُسْتَنْفِرًا جَاشِي وَجَاشُكَ سَاكِنُ	وَإِخَالُهَا تَأْتِي وَتَأْنِفُ أَنْ تَسْرِي
كَمْ ضِحْكَةٍ فِيهَا عُبُوسٌ كَامِرٌ	لَا يُوَسِّنُكَ أَنْ تَرَانِي ضَاحِكًا

٢- الغــــزل :-

شعر ابن أبي زُرَّة الغزل شعر يقوم على وصف تباريح الهوى والوجد ، غير أن الصــــور
فيه قليلة ، يقول في إحداها (٢) :-

لَجَّ الْهَوَى بِي فِي الْجَمْعِ رَاحِ	يَا صَاحِبِ قَلْبِي غَيْرُ صَاحِ
وَقِيَ الْمُبْرَحِ مِنْ بَرَاحِ	بَرَحَ الْعِزَّاءُ وَلَيْسَ لِلشَّيْءِ رَاحِ
فَالسُّرُوحُ مِنْهُ عَلَى رَوَاحِ	بَدَنٌ يَكْفِيهِ الضَّنَّ رَاحِ
وَالْقَتْلُ لَيْسَ مِنَ السُّمُوحِ	قَالَتْ مَرْحَلَتُ بِهِ جَرَّاحِ

وقال في ثانيه (٣) :-

هَلْ تَرَى لِي إِلَّا لِسَانًا وَطَرْفَا	كَيْفَ يَخْفَى نُحُولُ مَنْ لَيْسَ يَخْفَى
سَوْفَ أَطْفَأُ وَجْهَهَا لَيْسَ يُطْفَأُ	إِنَّ عَيْنِي رَمَتْ فَوَادِي بَنَارِ
كُلَّ يَوْمٍ وَالنَّفْسُ تَزْدَادُ ضَعْفَا	كَيْفَ أَبْقَى وَالشَّوْقُ يَزْدَادُ ضَعْفَا

- (١) معجم الشعراء : ٣٧٠ ، المحمدون من الشعراء : ٣٤٨ ، الواسي بالوفيات ٣ : ١١٦ .
(٢) صورة تاريخ مدينة دمشق ١٥ : ٤١٦ - ٤١٧ .
(٣) المصدر نفسه ١٥ : ٤١٧ .

() لَهْفًا عَلَيْكَ وَلَهْفًا
مَنْ سَقَانِي كَأْسَ الْمَنِيَّةِ صُرْفًا

ليس لهفًا إذا هَلَكْتُ ولكن
فسق الله كأس كل سُـرورٍ

وقال في الثالثة (١) :

لا صدودٌ مقصولا إشعاف
ل تناعا عما أريد العفاف
مُخَنَّى مُقَامُهُ الْأَعْيُورَاف
في مُقَامِي بَيْنَ الْجَنَانِ وَيُنَى السِّنَّارِ أَرْجُو طَوْرًا وَطَوْرًا أَخَصَفُ

إِنْ حَظِي مَنَّ أَحِبُّ كَفَافُ
كَلِمَا قُلْتُ قَدْ أَنَابْتُ إِلَى الْوَصْفِ
فَكَانِي بَيْنَ الْوَصَالِ وَبَيْنَ الصَّدِّ م

وقال في قطعة أخرى يصف فيها حسن امرأة تعشقها (٢) :

تحت الظلام به فما نطقنا
ملا العبير بسيرها الطرُقنا

اسْتَكَمْتُ خَلْخَالَهَا وَمَشَّتْ
حَتَّى إِذَا رِيحُ الصَّبَا نَسَمَتْ

وقال في أخرى يصف حاله بعد رحيل محبوبته ، وهي أبيات غزبية اللفظ حسنة الائتلاف والنسج ، مطعمة بمطابق طريف غير مجتلسب (٣) :

فَأَوْرَطَنِي فِي مُوَبِقَاتِ الْمَهَالِيكَ
فَمِنْ بَيْنِ مُوَفٍّ بِالْعُهُودِ وَتَسَارِكِ
شَمْسٍ تَضِي فِي الْأَرْضِ غَيْرَ دَوَالِيكَ
بِهِنَّ لَآلٍ مِثْلُهَا فِي الْمَضَاحِيكَ

نَوَائِبُ دُعْرِ بَرَحَتْ بِي صُرُوفُهُ
رَحَلَنْ فَمَيَّجَنْ الْجَوَى دَاخِلَ الْحَشَا
وَقَضْبَانِ بَانٍ فَوَقَمَنْ إِذَا امْشَتْ
تَقَلَّدَنْ أَبْكَارَ اللَّالِي فَأَشْرَقَتْ

٣- الوصف :

قال محمد بن أبي زرعة الدمشقي يصف سيفاً (٤) :

مَسْتَبْطِنٌ صَارِمًا كَالْمَوْتِ سَلْتُهُ
مَا يَلْقَى مِنْ لَيْثٍ فَهُوَ قَاطِعُهُ

(١) صورة تاريخ مدينة دمشق ٤١٦: ١٥ ، سطر اللآلي ٥١٧: ١

(٢) زهر الآداب : ٣١٣

(٣) العميدى : الإبانة عن سرقات المتنبي ، تحقيق إبراهيم الدسوقي البساطي ، دار المعارف
بمصر ١٩٦١ : ١٣٦

(٤) الأنوار ومحاسن الأشعار ١ : ٣٥ - ٣٦

- ٣١٥ -

(*) وديف فيه من الديفانِ ناقصه
 ستيان حاسره عندي ودارعه
 ورقاً نسج أجاد السرد صانع
 لم ينب عنه ولم تدم مجاشعه

تري المنايا القواضي في مزارعه
 واني اذا ما نبا سيف بمعه ترك
 ما كان يحصن منه خالداً بيدي
 لو الفرزدق يوم العليج صال به

(*) ديف الديفان : خلط السّم

- ٣١٧ -

- (١) وَكَيْتَ وَرْدٍ كَأَنَّكَ الْقَيْءُ — تَعْلِيهِ ثَوْبًا مِنَ الْأَرْجُوانِ
(٢) أَعُوجِي يَنَاسِبُ الْبَرْقَ لَا يَسْلُ — هُوَ أَمَضِي فِي السَّبْقِ يَوْمَ الرَّهْمَانِ
(٣) مُصَمَّتِ الظُّهْرَ أَجُوفِ الشَّجَرِ مَنَاسَا يَنْفُكُ ضَنْكَ النُّسُورِ رُخْبِ الْعِجَانِ
(٤) لَاحِقِ الْإِطْلَاقِ عِبْلِ الدَّرَاعِينَ تَقِيلُ الصَّلَا خَفِيفِ اللَّبَانِ
(٥) وَرَقِيقِ الْخَذَّيْنِ ضَخْمِ الْمَعْدِيَّاتِ شَدِيدِ الْمَتْنِ رُخْبِ الْعِجَانِ
وَكَأَنَّ الْعَيْنِينَ حَيْثُ يُدِيرُ اللَّحْظَ يَاقُوتَتَانِ تَأْتِلِقَانِ
وَتَرَاهُ مِثْلَ الْهَدْيِ إِذَا أَتْبَلَ يَخْطُرُ فِي سَرْجِيهِ وَالْعَيْنَانِ
فَعَلَيْهِ يَفْرِي الْفَتَى طِيلَسَانِ اللَّيْلِ وَاللَّيْلِ مُسِيلُ الطَّيْلَسَانِ
وَبِهِ تَبْلُغُ الْمُنَى حِينَ لَا تَأْمُلُ مِنْ غَيْرِهِ بِلُغَةِ الْأَمَانِيِّ

ويلاحظ أن الشاعر كان يُدير في ذهنه وهو يصوغ هذه القصيدة أبيات امرئ القيس المشهورة في حصانها (٦) * وله في وصف السفن وتفرقها بين الأبحاب الذين يرتحلون عليها قوله :-

إِنَّمَا فُرْقَةٌ تَذِيبُ الْقُلُوبَ — وَتُرْدُ الشَّبَانَ لَا شَكَّ شَيْئًا
سَلَبَتْ قَلْبِي الْعِزَّاءَ فَقَسَدَ أَضْحَى وَأَمْسَى مِنَ الْعِزَّاءِ سَلِيًّا
مَا تَرَى السُّفْنَ كَيْفَ تَعْلُو حَبَابَ الْمَاءِ مِثْلَ الْمَطِيِّ تَعْلُو الْكُتَيْبَا
وَكَأَنَّ الْمَلَّاحَ إِذَا حَثَّ أَوْلَاهُ عَيْنَ حَادٍ غَدَا يَحُثُّ نَجِيًّا

وقال في أخرى في وصف السفن أيضاً (٧) :-

- (١) الورد من الخيل ما بين الكمي (ما كان لونه بين الأسود والأحمر) والأشقر .
(٢) الأعوجي : ضرب من جياذ الخيل تنسب إلى أعوج وهو حصان لبني هلال .
(٣) المصمت : الجامد ، الشجر : جوف الفم بين سقف الحنك واللسان وهو الذقن أيضا ، المعجان : قيل هو الدبر أو ما بين القبل والدبر وهو بلغة أهل اليمن : العنشق .
(٤) الايطل : الخاصرة والجمع أياطل وأطال ، العبل : الممتلئ ، الضخم ، الصلا : جانب الذنب عن يمينه وشماله وقيل هو وسط الظهر . اللبان : الصدر .
(٥) المعدان : الجنبان .
(٦) انظر هذه الأبيات في معلقته بشرح الزوزني .
(٧) الأنوار ومحاسن الأشعار ١ : ٣٨٨ .

- ويا نغم العُروب إذا توالست
وموقنا بصفئها كأنَّـبا
طيور واقعات طائـرات
بأجنحة لها في الصَّحْو نـو
ويا سفن الفرات بحيث تهـوي
تطارِدُ مَقِيلاتٍ مـدبـرات
قَوَّلت بين طيب النغمـين (١)
لدى صفى نعام واقـعين
فيا لك منظرًا ذا منظرين
يقصر عنه نـو المرزـمين (٢)
هوي الطير بين الجلمتين (٣)
على عجل تطارد عسكرين

وقال الحلبي في الطرد في أرجوزة (٤) :-

- يا روضة صاغ لها
خيط عليها حلال
كأنما غدرانها
للوحش في أرجائها
وافقت كما توافي
فناظر من سبـح
ومتقى بمـدرى
غاديتها ولم يقـم
بأكليب لو لم تطـر
في ساعة لا تمـرع الـ
فجئن والطـل على
قد نحفت أوساطها
حليها الأشـراط
ما خاطها خيـاط
من حولها ريـاط (٥)
قبائل أخـلاط
لعيدعها الأنـباط
أحكـمه الخـراط (٦)
كأنـه خيـاط (٧)
أعلامه العـطـاط (٨)
أطارها النـشـاط
مـزن بها انـخطـاط
آذنها أقـراط
فألهـا أوـسـاط

- (١) العروب : ضرب من السفين .
(٢) المرزم : اسم لعدد من النجوم أشهرها العبور والغميصاء ، والنوى : النغم إذا مال للفرح .
(٣) الجلمة : إحدى حافتي الوادي وعما بمنزلة الشطين .
(٤) الأنوار ومحاسن الأشعار ٢ : ١٤٠ - ١٤٢ .
(٥) الرياط : جمع الرائطة وهي الملاة كلها نسج واحد وقطعة واحدة .
(٦) السبـح : خرز أسود (دخيل معرب وأصله سبـحه) .
(٧) المـدرى : القرن ، الخياط : آلة الخياطة كالإبرة ونحوها .
(٨) العـطـاط : اختلاط ظلام آخر الليل بضياء أول النهار .

تَأْلَفُ مِنْ ضِدِّينَ ضِدِّينَ رَانِيَاً بَعِيْنٌ صَحِيْحٌ فِي جُفُونِ سَقِيْمٍ
لَهُ لَيْلٌ شَعْرٌ فِي صَبَاحٍ جَبِيْنٍ وَنِرَانٌ خَذٌ فِي مِيَاهِ أَدِيْمٍ
وَخَصْرٌ حَكَى عَرْضَ الْبَخِيلِ نَحَافَةً وَرَدُّ فُحْكِي فِي الثُّبُلِ عَرْضَ كَرِيْمٍ

وله في الأخوان (١) مما أنبته ابن العديم نقلا عن "الأنوار" للشمشاطي :-

وَفِي الْإِخْوَانِ لِلْإِخْوَانِ عِزٌّ وَمَا تُغْنِي السَّهَامُ بِلَا قِسِيٍّ
وَمِثْلُكَ مَنْ أَطَاعَتْهُ الْمَعَالِي وَأَدَّتْهُ إِلَى الشَّرَفِ الْعَلِيِّ
مَتَى يَمْزُزُكَ ذُو شَرَفٍ تُصَادِفُ مَضَاكَ مِنْ مَضَاءِ الْمُشْرِفِيٍّ
سُبُلِي فِي هَوَاكَ سَبِيلُ قَصْدٍ يُوَدِّيهِ إِلَى الْيُودِ النَّقِيٍّ
فَتَقِ مَنْسِي بَسِيْوَدٍ أَخٍ وَدُودٍ تَوَقَّى الْوُدَّ إِلَّا مِنْ تَقِيٍّ

وقال في رثاء أبي تمام (٢) :-

سَأَلْتُكُمَا أَنْ تُعَقِّبَا سَقَمِي سَقَمًا وَأَنْ تَتْرَكَا قَلْبِي عَلَى دَمِيهِ يَنْفَلِي
دَعَانِي وَفَكْرًا لَوْ بَشَّتْ شُجُونَنِي عَلَى رَدَمٍ يَا جَوْجَ هَتَكَتْ بِهِ الرَّدَمَا
فَمَا أَلَمِيَّتْ أَبْكِي بَلْ حِجًّا وَمَرْوَةً وَعَلَّمَا أَرَى فِيهِ الْمَذَلَّةَ وَالْيَتَمَا
فِيَا لَحَبِيبِ دَعْوَةٍ لَوْ تَفَرَّغَتْ فَرَّتْ بَسْمَعُ آجَالٍ إِذَا لَعَدَتْ صَمَا
تَشَتَّ رَأْيِي كَثَّتْ فِي عَيْنِيهِ قَلْدَى وَفِي أَذْنِهِ وَقَرًّا وَفِي فَمِهِ سَمَا
وَمَا كَدْتُ دُونَ النَّاسِ أَشْرَفَ مَنْصِبًا وَنَرَعًا وَلَكِنْ كَثَّتْ أَشْرَفُهُمْ عِلْمَا

(١) بغية الطلب ٨: ٢٦٣ ، وهي ليست في نسخة الأنوار المطبوعة .
(٢) المصدر نفسه ، وقال ابن العديم وتروى هذه الأبيات لديك الجن فسي
أبي تمام .

خاتمة

هل يمكن بناء مذهب شامي في الشعر ؟

يقول الثعالبي وهو يتحدث عن فضل شعراء الشام على شعراء سائر البلدان ^(١) : "لم يزل شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها في الجاهلية والإسلام . والكلام يطول في ذكر المتقدمين منهم ، فأما المحدثون فنحن إليك منهم العتابي ومنصور النعمري والأشجع السلمي ، ومحمد بن زُرعة الدمشقي ، وربيعة الرقي . على أن في الطائيين اللذين انتهت إليهما الرئاسة في هذه الصناعة كفاية ، وهما عمسا ."

ثم قال الثعالبي ^(٢) : "والسبب في تبرز القوم قديماً وحديثاً على من سواهم في الشعر قرئهم من خطط العرب ولا سيما أهل الحجاز ، وبعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق لمجاورتهم للفرس والنبط ، ولعدم اختلاطهم بإياهم ،" ثم أبان بعد ذلك عن مذهب الشاميين في الشعر بقوله ^(٣) : "وطريقتهم المثلى هي طريقة البحري في الجزالة والحذوبة والفصاحة والسلاسة ."

وقبل الثعالبي قال أبو الفرج الأصبهاني في معرض حديثه عن ديك الجن الحمصي ^(٤) : "وهو شاعر مجيد ، يذهب مذهب أبي تمام والشاميين في شعره ،" وفسر أبو الفرج مذهب أبي تمام بقوله ^(٥) : "له مذهب في المطابق عموماً كالسابق إليه جميع الشعراء ، وإن كانوا قد فتحوه قبله ، وقالوا القليل منه ، فإن له فضل الإكثار فيه ، والسلوك في جميع طرقه ،" وأبو تمام "شاعر مطبوع ، لطيف الفطنة دقيق المعاني ، غواص على ما يستصعب منها ، ويعسر متناوله على غيره ،" وقال عن البحري وشعره ^(٦) :

- (١) بيتية الدهر ١ : ١٢ .
- (٢) المصدر نفسه .
- (٣) المصدر نفسه ١ : ١٣ .
- (٤) الأغاني ١٤ : ٥١ .
- (٥) الأغاني ١٦ : ٢٨٣ .
- (٦) الأغاني ٢١ : ٣٧ .

القرب أو البعد من طريقة البحترى . وأي اطلاع على شعر ديك الجن أو منصور النعري أو غيرهما يمكن أن يدل على مميزات لا تبرز كثيراً في شعر البحترى . ثم إن أبا تمام على كونه أستاذ البحترى فإن مجال التشابه بينه وبين تلميذه أضال من مجال الاختلاف . وقد أبرز النقاد كالأمدى وغيره تباعد ما بين الطائيين في الطريقة الشعرية ، ولهذا يمكن أن يقال إن الطريقة الشامية - إذا رصدنا مميزات كل من أبي تمام والبحترى - تقع في دائرة هي أقرب إلى البحترى منها إلى أبي تمام . وعلى الرغم من أن هذا التحديد غير قادر على إظهار التمييز الحاسم في الطريقة الشامية ، فإنه يمنح الشعر الشامي صبغة عامة ، ويحفظ في الوقت نفسه لكل شاعر تميزه الخاص به . ومن أهم معالم تلك الصبغة العامة :

- ١- المراوحة بين سلاسة اللفظ وجزالة
 - ٢- الابتعاد عن التكلف ، والميل إلى ما يبرز مسحة من الطبع .
 - ٣- تجنب وحشي الكلام .
 - ٤- الاقتصاد في استعمال البديع .
- ولاستجلاء هذه الخصائص في الشعر الشامي لا بد من استخلاص المعالم الفنية في شعر أعظم شعراء الشام في ذلك العصر .

أولاً : في شعر أبي تمام قبل رحيله إلى العراق :

وإن الصور الثقافية في قصائد أبي تمام الشامية هي صور مستمدة من ثقافته الدينية على الجملة ، من ذلك قوله مصوراً عكوفه على الطلل كأنه عكوف في مسجد (١) :

طَلُّ عَكْفُ عَلَيْهِ أَسْأَلُهُ إِلَى أَنْ كَادَ يَصْبُحُ رُبْعُهُ لِي مُسْجِدًا

وقوله في كرم المأمون إنه فجّر متونَ الجَلْدِ عِيُونًا (٢) :

وَطَلَّتْ حُزُونُ الْأَرْضِ حَتَّى خَلَّتْهَا فَجَرَتْ عِيُونًا فِي مُتُونِ الْجَلْمِ

(١) ديوانه ٢ : ١٠١ .

(٢) ديوانه ٢ : ٥١ .

وقوله في إشارة إلى قوله تعالى "ولسليمان الريح" (الأنبياء: ٨١) ، وهو يمدح
المؤمنون (١) : —

إِلا تَكُنْ أَرْوَاحُهَا لَكَ سُخَّرَتْ فَالْعَزْمُ طَوْعُ يَدَيْكَ وَالْإِجْدَامُ

وينو عبد الكريم الطائيون (٢) "قد هُذوا في كل مجد إلى نهج الصراط المستقيم" ، ودار
بؤسها حسنهما التصابي فصارت (٣) "جنت النعيم" ، ومدوحه من بني عبد الكريم "نظير لقمان
الحكيم" في أيام السلم ، "شيطان رجيم" حين تغلي مراحل الحرب (٤) . والمؤمن وذووه أهل
مكارم سُجِّلَتْ مكارمهم في "اللوح المحفوظ" (٥) : —

كَبِيتَ لَهُ وَلِأَوَّلِيهِ وَرِائِثَةً فِي اللَّوْحِ حَتَّى جَعَلْتَ الْأَنْثَى لَامٌ

وجنود الروم إذ تساقطت عنهم ملابسهم كأنهم في إحرام (٦) ، والجِئَامُ مَطْرُفٌ في ذلك المعترك بين
المسلمين والروم والكفاءة صيام (٧) .

ولم يظهر في قصائد أبي تمام في هذه المرحلة شيء من أثر علم الكلام أو الفلسفة غير قوله
في إشارة خاطفة إلى مذعب الحلولية وهو يعبر عن محبته الكبيرة للمؤمن والعباسيين (٨) :

حَتَّى لَقَدْ ظَنَّ النُّسْوَةَ وَبَاطِلٌ أَنْ قَدْ تَجَسَّدَ فِي رُوحِ السَّيِّدِ

نقد قال الخطيب التبريزي في شرح هذا البيت : "أي لفرط ميلي إلى آل الرسول — صلى الله عليه
عليه وسلم — ظن أهل التناسخ أن روح السيد بن محمد الشاعر (٩) قد انتقلت إلى جسمي"

(١) ديوانه ٣ : ١٥٣ — ١٥٤ . والإجدام : الإسراع في السير ، والأرواح جمع ريح .

(٢) ديوانه ٣ : ١٦٣ .

(٣) ديوانه ٣ : ١٦٠ .

(٤) ديوانه ٣ : ١٦٢ .

(٥) المصدر نفسه ٣ : ١٥٨ .

(٦) المصدر نفسه ٣ : ١٥٧ .

(٧) المصدر نفسه ٣ : ١٥٦ .

(٨) نفسه ٢ : ١٥٦ .

(٩) السيد الحميري شاعر بصري من غلاة الشيعة من مخضرمي الدولتين ، توفي في خلافة الرشيد .
انظر ترجمته في : الأغاني ٧ : ٢١٩ — ٢٧٨ .

- ٣٢٦ -

- يَوْمَ أَفَانَسَ جَوَى أَغَاظَ تَعَزَّيًّا
خَاضَ الْهَوَى بِحَرِيٍّ حِجَاهُ الْمُرِيدِ (١)
عَظُّوا الْخُدُورَ عَلَى الْبُدُورِ وَوَكَّلُوا
ظَلَمَ السُّتُورَ بِحُورٍ عَيْنٍ نَمِيدِ
وَتَنُوا عَلَى وَشْيِ الْخُدُودِ صَيَانَةً
وَشْيَ الْبُرُودِ بِمُسْجَفٍ وَمَهْدِ (٢)

وليس أصدق من هذه الأبيات تشبيهاً على مذهب أبي تمام الشامي ، فاللفظ سهل عذب يعرض صورة رائعة مستلحة طريفة في وشي من الخدود والبرود وعطف الخدود على البدور وذوات العيون الساحرة . وقد وظف التجنيس في هذه الأبيات توظيفاً رائعاً أضفى على الصورة جمالاً وموسيقى داخلية حالمية .

ومن الطباق أيضاً قوله في تلك القصائد : -

- عَبَثَ الْفَرَاغُ بَدْمَعِهِ وَبَقْلَبِيهِ
عَبَثَ يَرُوحُ الْحَدِّ فِيهِ وَيَغْتَنِيهِ
يَا يَوْمَ شَرَدَ يَوْمَ لَهْوِي لَهْوُهُ
بِصَبَابَتِي وَأَذَلَّ عِزَّ تَجَلُّدِي

جاء التلوين العقلي وبخاصة في أمداحه ، فمن ذلك قوله في أحمد بن عبد الكريم الطائسي : -

- كَمْ أَنْجَمُوا قَمَرًا حَتَّى يَفْوَا لِيهِ
قَمَرًا وَمَكْرَمَةً تُنَاغِي الْفَرْقَسِدَا (٣)
مَنْ كَانَ أَحْمَدُ مَرْثَعًا أَوْ ذَمًّا
فَاللَّهُ أَحْمَدُ ثُمَّ أَحْمَدُ أَحْمَسِدَا
أَضْحَى عَدُوًّا لِلصَّدِيقِ إِذَا غَسِدَا
فِي الْحَمْدِ يَعْدُلُهُ صَدِيقًا لِلْعَدَا
عَضَّبَ الْعَزِيمَةَ فِي الْمَكَارِمِ لَمْ يَكْدَعْ
فِي يَوْمِهِ شَرْقًا يَطْلُبُهُ غَسِدَا

فهو أراد أن يحصر صفات المكارم كلها في مدوحه فصيره حريصاً أشد الحرص على أن يحصلها في يومه هذا قبل غده ، حريصاً على أن لا يعذل في سعيه لكسب الحمد بالفعل .

- (١) قال الصولي في شرحه : هذا اليوم أبان دأق بقلبي من الهوى فذهب الجوى بعزائي . وانظر الاختلاف في شرح هذا البيت : ديوان أبي تمام ٤٦ : ٢ والحاشية ٣ .
(٢) المسجف : السبيل .
(٣) أنجموا : أطلعوا . أي هم يلدون أولاداً كأنهم يطلعون بهم أقماراً ، وتناغي من مناغاة الصبي أي عورضه الفرقد ، والقمر الثاني أبو القمر الأول . (شرح الخطيب) ١٠٣ : ٢ - ١٠٤ .

ولا بد من الإقرار هنا أن قصيدته في المأمون تشكّلان طفرة فنية كبيرة بالقياس إلى قصائده في بني عبد الكريم الطائيين وفي أمّاجيه في عتبة ، وذلك يعني أن قصائده في هؤلاء الحمصيين جميعاً كانت من بواكير شعره ، وأن خصائص شعره الذي شاغ وصار فيه علماً كانت خيوطها قد أخذت تتشكل وهو ما يزال في الشام ، فقد أخذ يميل إلى أعمال الفكر في صناعة الشعر ، وأخذ يعنسى بالتجنيس والمطابق عناية أكبر ، وأخذ يغرب في لفظه ، وصار بسبب من هذا كله يعسر فهمه فاضطرب الشراح في تفسير بعض أبياته . يقول في مقطع تتمثل فيه هذه المعالم في مدحته الأولى في المأمون : -

فإذا بنيت بجود يومك مُخْـرَا	عَصَفَتْ به أرواحُ جودِكَ في غَسَدِ (١)
وبلغتُ مجهودَ الخلائقِ أَخِـذَا	فيها بشأوَ خلائقٍ لم تُجْهِـدِ (٢)
فلوئتُ بالموعود أعناقَ النُـسُورِ	وحطمتُ بالإنجازِ ظُـهُرَ المُوْعِدِ (٣)
ومزحزحتني عن ذراك عوائق	أَصْحَرَنِي لِلْعَنْقِيرِ المُوَيِّـدِ (٤)
ومنى يخيم في اللقاءِ عناوُها	فَعْنَاوُها يَطْوِي المراحلُ في اليُسْرِ (٥)

فالتعبير عن جود المأمون ووفائه لموعده ، والتعبير عن العوائق التي تعترض سبيله هو إلى مدوحه المأمون ، جاء غير مألوف النسخ ولا معهود الصورة ، وقد غدت هذه المعاني بعيدة القراء عسيـرة على الفهم بسبب من هذه العلاقات اللفظية الغريبة ، والشائج المبتدعة . وقد نتج عن هذه العلاقات اللفظية الجديدة طرافة في التصوير عند أبي تمام في هذه المرحلة من نتاجه الشعري .

- (١) معنى البيت : إن ما جمعته اليوم من مفاخر تبذله رياح كرمك في اليوم التالي .
- (٢) معنى البيت : إنك بلغت من أخلاق الناس ما لا يبلغونه إلا بجهد ومشقة وأنت وادع لهم تتعب فيه . شرح الخطيب التبريزي ٥٣ : ٢ .
- (٣) "يريد أنك عطف أعناق الناس إليك بما وعدتهم من الإحسان ، ثم عجلت الإنجاز وأزلفت الموعد" . شرح الخطيب التبريزي ٥٣ : ٢ .
- (٤) أصحرن : دخلن في الصحراء ، والعنقير : الداهية ، والمويد : صفات الداهية والأمر العظيم ، ومعنى البيت : إن التي زحزحتني عن ذراك عوائق أوغلت بي دواهيها الشديدة .
- (٥) يخيم : يقيم ، والها : من عناوها مردودة إلى العوائق ، وعناوها أي كفايتها . أي أن التي زحزحتني عن ذراك عوائق قد أقام عناوها في القلب فلا يتعدى إلى غيره من الأعضاء التي يسافر بها . شرح التبريزي . وانظر اضطراب الشراح في شرح هذين البيتين ، الديوان ٥٧ : ٢ - ٥٨ ، والحاشية ٣ في صفحة ٥٧ منه .

يَتَجَنَّبُ الْإِنَامَ ثُمَّ يَخَافُهُ
يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْهُمَامُ ، وَعَدُّ لَهُ
أَسْرَتْ لَكَ الْإِقَائِي عَزْمُهُ
إِلَّا تَكُنْ أَرْوَاحُهَا لَكَ سُخَّرَتْ

فَكَأَنَّمَا حَسَنَاتُهُ آتِيَامُ
مَلِكٌ عَلَيْهِ فِي الْقَضَاءِ هُمَامُ
جِيلَتْ عَلَى أَنْ الْمَسِيرُ مَقْسَامُ
فَالْعَزْمُ طَوْعٌ يُدِينُكَ وَالْإِجْدَامُ

(١)

(٢)

ثانيًا: في شعر البحتري قبل رحيله إلى العراق :-

١- عنايته الكبيرة بتخير اللفظ، وحرصه على حسن استواء النسخ وتلاعبه بحروفه تلاعباً يبدو فيه اقتداره على المناوئة بين حروف الذال والdal والراء في قصيدته العينية (رقم ٥٠٢) ، فهو ————— يقول : —

عَذَلُوا فَمَا عَذَلُوا بِقُلُوبِي عَنْ هَوَايَ
وَدَعَوْا فَمَا وَجَدُوا الشَّجَنِي سَمِيْعَا
يَا دَارُغَيْرَهَا الزَّمَانُ وَفَرَقَسَتْ
عَنْهَا الْحَوَادِثُ شُعْلَهَا الْمَحْمُوعَا

(١) يقول : همته جعلته في إسمارك آفاق الأرض ومن فيها ، فأنت تسوسهم برأيك ، وعسى
مجبولة على اعتبار المسير بمنزلة الإقامة (شرح التبريزي) ٣ : ١٥٣ .

(٢) يقول : إن لم تكن كسليمان الذي سخرت له الرياح فقد جعل العز والإسراع في السير
مسخرين لك تبلغ بهما ما أردت .

ضُحْمُ الدَّسَائِعِ لِلْمَكَارِمِ حَافِظًا يَنْدَى يَدَيْهِ ، وَلِلثَّلَادِ مُضِيعًا (١)

إن الدليل على براعة البحري ماثل في هذه الأبيات التي وظفت فيها الحروف المتشابهة والكلمات المتجانسة ، والتقابل غير المصطنع ، وقد اختلفت هذه المظاهر الأسلوبية جميعاً ائتلافاً أكسب القصيدة زخماً موسيقية عذبة .

٤- الإكثار من التصوير الرائق الذي لم يخالف فيه سنن التصوير لدى شعراء العرب ، ولم يخرج فيه إلى ما خرج إليه أبو تمام في "طوره العراقي" ، فظل شعره قريباً من الأفهام ، غير مستغلق المعاني ، وقد عني بتصوير الحركة الخارجية ، والخلجات النفسية كما عني بتلوين صوره . يقول في العينية :-

لَمَّا رَمَيْتِ الرُّومَ فِيهِ بُضْمًا	تُعْطِي الْفَوَارِسَ جُرْهَا الْمَرْوَعًا
كُنْتُ السَّبِيلَ إِلَى الرَّدَى إِذْ كُنْتُ فِي	قَبْضِ النُّفُوسِ إِلَى الْيَحْمَامِ شَفِيعًا
فِي وَقْعَةٍ أَبْقَى عَلَيْهِمْ غَيْبًا	رَخِمَ الْغِيَانِي وَالنَّسُورُ وَقُوعًا (٢)
هَذَا ، وَأَيَّ مَعَانِدٍ نَاهَضْتَهُ	لَمْ تُجَرِّ مِنْ أَوْدَاجِهِ يُنْبِئُوعًا

فمدوحه رمى الروم بخيول متميزة جسوماً وسرعة ، ثم صار شفيعاً لدى الموت وإن كان السبب فيسه ، وأرض المعركة غصت بجثث القتلى الذين صاروا طعاماً لكواسر الطير ، والذين تفجرت جسومهم ينابيع من الدم .

وقوله في تصوير ساخر من أبي عمرو الشاري عدو ومدوحه :-

جَانَدَيْتَهُ فَضَّلَ الْحَيَاةَ فَأَقْلَسَتْ	مَنْ كَفَّ قِمْنَا بِذَاكَ حَقِيقًا (٣)
فَرَدَّتْ مَدَجَّتَهُ وَقَدْ كَرَعَ السَّرْدَى	لِيُخَفَّ مِنْهَا مِنْهُنَّ لَا مَطْرُوقًا
لَبَسَ الْحَدِيدَ خَلَاخِلًا وَأَسَاوَرًا	فَكَفَّيْنَهُ التَّسْوِيرَ وَالتَّطْوِيقَ

- (١) الدسائع مفردا الدسيعة وهي الجفنة الكبيرة كناية عن ضخامة عطايها .
 (٢) الغب من كل شيء : عاقبه وآخره . والرخم نوع من النسور .
 (٣) الفضل : الثوب الذي يبتدل في الشغل أو للنوم . قننا : خليقا جديرا .

فعلما في هذا التصوير من طرافة في المعنى إلا أن إدراكه لا يعمي الناظر فيه بإمعان ،
فهذا الشاري الذي كانت تتنازعه عوامل الفناء والبقاء قد رد المدح إليه روحه بعد أن كاد يكرع
كأس المنية ، ولكنه إذ أفلت من الموت ، عاد يلبس لباس الذل والأُسْر .

٥- ابتعاده عن الألفاظ الغربية ، وهذا أمر يلح لدى أدنى نظر في القصيدتين جميعاً ، كما
يلحظ اعتناؤه بحسن الموازنة بين اللفظ والمضمون ، ففي حين يرقى ويعذب في النسيب نراه يجرى
في المدح وفي تصوير المعارك .

ولو أننا عدنا إلى مقاييس المزوقي في عمود الشعر العربي ^(١) لأفينا تلك المقاييس ظاهرة
على وجه الإجمال في هاتين القصيدتين ، وينضاف إلى ذلك ما في القصيدتين أيضاً من تجنيس ومطابق .
وبذلك تتسجم هذه الخصائص في شعر البحترين مع خصائص مذهب أهل الشام في الشعر التي استخلصت
من أقوال أبي الفرج الأصبهاني والشالمبي في صدر هذا الحديث .

ثالثاً : في شعر منصور النميري :-

مع أن المعلومات عن مسار حياة منصور النميري في نواحي الجزيرة والعراق غير محدودة ،
فإنه يمكن الترجيح بأن القصائد ذوات الأرقام : ١٧٠ ، ٢٠٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣٩ ، ٢٥٦ في ديوانه
هي قصائد نظمها الشاعر وهو في الجزيرة أو في نواحي
الشام ، وذلك اعتماداً على الأجواء التي نظمت فيها تلك القصائد . وذلك فضلاً عما قيل
في ترجمته من أنه كان منقطعاً للبرامكة في الرقة ، وأن زيارته إلى العراق كانت لماماً . وتلتقي أبرز
الملامح الفنية في هذه القصائد مع السمات العامة للشعر الشامي التي سبق بيانها . فهو يراوح بين
الجزالة والرصانة والسلاسة والعدوبة ، فحيناً يقول بأسلوب جزل رصين متين التركيب في مدح الرشيد ،
ووصف حصانه بعد قفوله إلى الرقة من غزاة غزاه ^(٢) :-

(١) انظر هذه المقاييس في شرح ديوان الحماسة ، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ، ط ١ ،
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ٩٠ .

(٢) القصيدة رقم ١٧ ص ٨٢ من " شعر منصور النميري " .

- ٣٣٢ -

مُضِرٌّ عَلَى فَأْسِ اللَّجَامِ كَانَتْهُ إِذَا مَا أَشْتَكَّتْ أَيْدِي الْجِيَادِ يَطِيرُ (١)
فَظَلَّ عَلَى الصَّفْصَافِ يَوْمَ تَبَاشَّرَتْ رِضْبًا وَدُوبَانٌ بِهِ وَنَسْرٌ
إِذَا الْغَيْثُ أَكْدَى وَاتَّشَعَرَتْ نَجُومُهُ فَعَيْثُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَطِيرٌ

ويقول في الرشيد في قصيدة أخرى مصوراً عنا رحلته إليه ، كعادة غيره من الشعراء العرب ، ففي
تصوير المشاق التي تجتهد فيها في طريقه إلى الممدوح (٢) :-

أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ خُضْنَا رِغَارَ الْمَوْتِ مِنْ بَلَدِ شَطِيرِ (٣)
بِخُوصٍ كَالْأَهْلَةِ جَانِفَاتٍ تَمِيلُ عَلَى السُّرَى وَعَلَى الْهَجِيرِ (٤)

وحيثما آخر يقول في أسلوب سهل خالٍ من اللفظ الغريب والصور البعيدة المنال في رثاء
يزيد بن يزيد الشيباني (٥) :-

مَتَى يُرِيدُ الْحُزْنَ الَّذِي فِي فَوَادِيَا أَبَا خَالِدٍ مِنْ بَعْدِ أَنْ لَا تَلَاقِيَا
أَبَا خَالِدٍ مَا كَانَ أَدْعَى مُصِيبَةً أَصَابَتْ مَعْدَأَ يَوْمِ أَصْبَحْتَ ثَاوِيَا
أَعْيَنِي جُودًا بِالْدموعِ وَأَسْعِدَا بَعْبُرَةً مُحْزُونٍ بَكَى لِبُكَائِيَا

ووظف النمري في بعض شعره المطابق توظيفاً مسخراً لتوضيح الفكرة واستجلائها لا للتصنع
والتعمية . وأوضح ما يبين ذلك في قصيدته التي نظمها في مدح جعفر بن يحيى البرمكي لتسويته
النزاع بين القيسية واليمانية بعد احتراهم الطويل المبر ، يقول فيها (٦) :-

-
- (١) أضْرَ الْفَرَسَ عَلَى فَأْسِ اللَّجَامِ أَيِ أَنْ عَلَيْهِ وَعَضَهُ بِشِدَّةٍ بَغْمَهُ كُلِّهِ .
(٢) من القصيدة ٢٠ ص ٨٥ .
(٣) الشطير: النائي البعيد .
(٤) الخوص جمع أخوص وخصا ، والأخوص ما كانت إحدى عينيه أصفر
من الأخرى .
(٥) من القصيدة رقم ٥٦ .
(٦) من القصيدة ٢٣ ص ٩٢ .

لقد أوقدت بالشام نيران فتسقية
 وإذا يَاشَ موجُ البحر من آلِ برمك
 رماها أمير المؤمنين بجعفر
 فقولوا لأهل الشام لا يسلبنكم
 لقد نشأت بالشام منك غمامة
 فطوبى لأهل الشام أم ويل أمها
 فإن سألوا كانت غمامة نائيل
 فهذا أوان الشام تخذ نارها
 عليها خبت شهبانها وشرارها
 وفيه تلافى صدعها وأنجبارها
 حياكم طويلات النوى وقصارها
 يؤمل جدواها ويخشى دمارها
 أتاها حياها أم أتاها بوارها
 وغيب ولا فالذما تطارها

فجل القصيدة يقوم على هذا التناظر أو التضاد بين "الاتقاد - والإخماد" والجيشان - والخبو، والصدع - والانجبار، وجدوى النعمة - ودمارها ١٠٠٠٠ الخ، كأنه حرص على نجاتهم بعد أن بصرهم بسبيلين: أحدهما يقود إلى السلامة والهناء، والآخـر يقود إلى الهلكة والدمار، وكان عماده في إيصال ما أراد هو المطابق .

ومن الملامح الفنية البارزة في شعر النمرى هو حسن التأني للصورة الشعرية، ودقة اللمح إلى الفكرة، مما يدل على صدور الشاعر في شعره عن طبع مصقول، وبديهة مديرة . يقول في وصف السيف (١) :-

يُكفِّيك من قلع السماء مَنَنٌ
 صافي الحديد قد أضرب جسمه
 وتراه معتماً إذا جردتــه
 وكان وقعته بججمة الفتى
 فوق الدراع ودون بوع البائع (٢)
 طول الدياس ويطن طير جائع (٣)
 بدم الرجال على الأديم الفاقع
 خدر المدامة أو نعاس الهاجع

وقد اتضح في الحديث عن شعر ديك الجن الحمصي مدى توافق مذهبه مع مذهب البحري، وبخاصة في اعتناؤه بموسيقاه الداخلية، وفي صياغته وسهولة لفظه وعذوبته .

(١) من القصيدة ٢٦، ص ١٠٨ .

(٢) البوع هو البائع .

(٣) الدياس: الصقل .

وإذا انضاف إلى كل ما سبق بيانه حديث أصحاب كتب التراجم عن علاقة
التلميذ والأستاذية بين أبرز شعراء الشام في هذه الحقبة كتلميذ منصور النمري
على العتابي ، وتلميذ أبي تمام على دينك الجن ، وتلميذ البحتري على أبي
تمام ، اتضح أن تلك الخصائص العامة المشتركة للشعر الشامي كانت وليدة تلك
العلاقة ، وإن ظل بعد ذلك لكل شاعر منهم ملامحه وخصائصه خارج إطار
هذه السمات العامة المشتركة .

ثبت المصادر والمراجع

أولا : الكتب :-

- الآمدي ، أبو القاسم الحسن بن بشر :
الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري ، تحقيق أحمد صقر ، دار المعارف
بمصر ، ١٩٦١ م .
- ابن الأثير ، علي بن محمد :-
الكامل في التاريخ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٨ م .
- ابن الأثير ، نصر الله بن محمد :-
المثل السائر ، تحقيق د . أحمد الحوفي ود . بدوي طبانة ، ط ١ ،
مكتبة نهضة مصر ومطبعته .
- إحيان عباس :-
هدد الحميد الكاتب وما تبقى من رسائله ، دار الشروق للنشر والتوزيع
عمان ١٩٨٨ م .
- أحمد زكي صفوت :-
جمهرة رسائل العرب ، ط ١ ، مطبعة البابي الحلبي ، ١٩٣٧ م .
- الإدريسي :-
نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، نشر معهد اللغات الشرقية ،
نابلي .
- الأزدي :-
تاريخ الموصل ، تحقيق د . علي حبيبة ، نشر لجنة إحياء التراث
الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .

- أسامة بن منقذ : —
 المنازل والديار ، تحقيق د . مصطفى حجازي ، لجنة إحياء التراث ، القاهرة ، ١٩٦٨ م .
- الإصطخري : —
 مسالك الممالك ، نسخة مصورة عن مطبعة بريسل ، ليدن ، ١٩٦٧ م .
- الأصفهاني ، محمد بن داود : —
 الزهراء ، تحقيق د . إبراهيم السامرائي ، ط ٢ ، مكتبة المنار ، الزرقاء ، الأردن ، ١٩٨٥ م .
- الأضيبي : —
 الأضيبيات ، تحقيق أحمد محمد شاکر وعبد السلام هارون ، ط ٥ ، بيروت ، لبنان ، ١٩٦٧ م .
- ابن أعثم الكوفي : —
 الفتح ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٦ م .
- د. أمينة البيطار : —
 الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، ١٩٨٠ م .
- الأنطاكي ، داود : —
 تزيين الأسواق في أخبار العشاق ، منشورات حمد ومحيو ، بيروت ، ١٩٧٢ م .
- البحتري : —
 ديوان البحتري ، تحقيق حسن كامل الصوفي ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٢ م .
- حماسة البحتري ، تعليق كمال مصطفى ، المطبعة الرحمانية ، مصر ، ١٩٢٩ م .

- البخاري :-
التاريخ الكبير ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- بروكلمان :-
تاريخ الأدب العربي ، ترجمة عبد الحليم النجار ، دار المعارف
بمصر ، ١٩٦١ م .
- البستاني ، محمد بن حسان :-
شاهير علماء الأنصار ، تصحيح م . فلايشمر ، مطبعة لجنة
التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٥٩ م .
- البسيوي :-
المعرفة والتاريخ ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، ط ٢ ، مؤسسة
الرسالة ، ١٩٨١ م .
- البصري ، أبو الفرج :-
الحماسة البصرية ، نشره د . مختار الدين أحمد ، طبعة مجلس
دائرة المعارف العثمانية ، حيدرآباد الدكن ، الهند ، ١٩٦٤ م .
- البكري ، أبو عبيد :-
معجم ما استعجم ، تحقيق مصطفى السقا ، مطبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥١ م .
- سمط اللاكس ، تحقيق عبد العزيز الميني الراجكوتي ، مطبعة
لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .
- بلاندي :-
فتح البلدان ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع ،
دار النشر للجامعيين ، بيروت ، ١٩٥٨ م .

- البلسوي ، أبو محمد المديني : -
سيرة أحمد بن طولون ، حققها محمد كرد علي ، مطبعة الترقسي ،
دمشق ١٩٢٩ م .
- ابن تغري بردي ، جمال الدين أبو المحاسن : -
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب
المصرية .
- التمحيري : -
التاريخ المنسوب لديانيسوس ، ترجمة إسحاق يوسف متسي ، رسالة دكتوراة
غير منشورة ، الجامعة الأمريكية ، بيروت ١٩٨٢ م .
- أبوتمام : -
ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق د . محمد عبده عزام ، ط ٤ ،
دار المعارف بمصر ١٩٧٦ م .
- الوحشيات (الحماسة الصغرى) ، تحقيق عبد العزيز المينسي ،
دار المعارف ، مصر ١٩٨٢ م .
- حماسة أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد محيي الدين
عبد الحميد ، مطبعة حجازي ، القاهرة .
- التوخسي ، القاضي أبو علي المحسن : -
الفرج بعد الشدة ، تحقيق عبود الشالجي ، دار صادر ، بيروت ،
١٩٧٨ م .
- التيفاشي ، أبو العباس : -
سرور النفس بمدارك الحواس الخمس ، تحقيق د . إحسان عباس ،
المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٠ م .

— الثعالبي : —

« بئمة الدهر في محاسن أهل العصر » تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ٢ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٣ م .

— ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨٥ م .

— الجاحظ : —

« البيان والتهيين » تحقيق عبد السلام هارون ، ط ٢ ، مكتبة الخانجي ، بصرى والثنى ببغداد ، ١٩٦٠ - ١٩٦١ م .

— ابن الجراح : —

« الورقة » تحقيق د . عبد الوهاب عزام وعبد الستار أحمد فراج ، ط ٢ ، دار المعارف بمصر .

— ابن الجوزي : —

« غاية النهاية في طبقات القراء » شرح . برجستراسر ، ط ٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٠ م .

— « النشرفي القراءات العشر » تصحيح علي محمد الضباع ، مطبعة مصطفى محمد .

— الجهمشاري : —

« السوزا » والكتاب ، حققه مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٣٨ م .

— الجواليقي ، أبو منصور : —

« المعرب من الكلام الأعجمي » تحقيق أحمد محمد شاكر ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٦١ هـ .

ابن الجوزي :-

صفة الصفوة ، تحقيق محمود فاخوري ، ومحمد رواس ، قلعة جبي ، ط ٢ ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٨٥ م .

ابن أبي الحديد :-

شرح نهج البلاغة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .

ابن حزم :-

جمهرة أنساب العرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٣ م .

الحصري :-

زهر الآداب ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط ١ ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٣ م .

ابن حوقل :-

صورة الأرض ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت .

الخريمي :-

ديوان الخريمي ، تحقيق علي جواد الطاهر ومحمد المعبيد ، دار الكتاب الجديد ، ١٩٧١ م .

الخرجي ، عز الدين :-

شرح المضمون به على غير أهلله ، شرح عبيد الله الكافي العبيدي ، مكتبة دار البيان ، بغداد ، دار صعب ، بيروت .

الخطيب البغدادي :-

تاريخ بغداد ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٣١ م .

- ابن خلدون : —
 كتاب العبر ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، بيروت .
- ابن خلكان ، أبو العباس : —
 وفيات الأعيان وأنبا' أبناء الزمان ، تحقيق د . إحسان عباس ،
 دار الثقافة ، بيروت ، لبنان .
- خليل مردم بك : —
 الشعراء الشاميون ، تحقيق عدنان مردم بك ، دار صادر ،
 بيروت .
- دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة أحمد الشنتناوي ومحمد ثابت الغندي ، وعبد
 الحميد يونس ، وإبراهيم زكي خورشيد ، مصر ، ١٩٢٣ م .
- الداودي ، شمس الدين محمد بن علي : —
 طبقات المفسرين ، تحقيق د . علي محمد عمر ، مكتبة وهبة ،
 القاهرة ، ١٩٧٢ م .
- ابن الدانسي : —
 التيسير في القراءات السبع ، تصحيح أوتوبرتزل ، مطبعة الدولة ،
 إستانبول ، ١٩٣٠ م .
- ابن دريد ، أبو بكر محمد بن الحسن : —
 الاشتقاق ، ط ٢ ، تحقيق عبد السلام هارون ، منشورات مكتبة
 التنسي ، بغداد ، ١٩٧٩ م .
- الدميـري : —
 حياة الحيسوان الكبرى ، يليه عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزويني ،
 ط ٣ ، مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٥٦ م .

- ديك الجن الحمصي :-
- ديوان ديك الجن الحمصي ، جمعه عبد المعين الطوحي ومحيي الدين الدرويش ، مطابع الفجر الحديثة ، حـ ١٦٠ م .
- ديوان ديك الجن ، جمعه د . أحمد مطلوب ود . عبد الله الجبوري ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٦٤ م .
- الذهبي ، شمس الدين الذهبي :-
- سير أعلام النبلاء ، (الأجزاء من ٨ - ١٦) حققها شعيب الأرنؤوط ، وكامل الخراط ، ومحمد نعيم العرقسوسي وآخرون ، ط ٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٢ - ١٩٨٣ م .
- العهرقي خبر من غبر ، تحقيق د . فؤاد سعد ، الكويت ١٩٦١ م
- ميزان الاعتدال ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦٤ م
- الإمام السرازي :-
- الجرح والتعديل ، ط ١ ، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدرآباد الدكن ، الهند .
- ابن رشيقي القيرواني :-
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨١ م .
- ابن الرومي :-
- ديوان ابن الرومي ، تحقيق د . حسين نصار ، المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨١ م .
- الزبيدي :-
- تاج العروس ، دار ليبيا للنشر والتوزيع ، بنغازي .

- أبو زرعة الدمشقي : —
تاريخ أبي زرعة الدمشقي ، دراسة د . شكر الله بن نعمة الله القوجاني
وتحقيقه ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، القاهرة .
- د. زكي المحاسني : —
شعر الحرب في أدب العرب ، دار الفكر العربي ، القاهرة .
١٩٤٧ م .
- الزمخشري : —
ربيع الأبرار ونصوص الأخبار ، تحقيق د . سليم النعيمي ، مطبعة
العاني ، بغداد ، ١٩٨٢ م .
- ابن زنجلة : —
حجة القسرات ، تحقيق سعيد الأفغاني ، منشورات جامعة
بنغازي ، ١٩٧٤ م .
- الزوزني : —
شرح المعلقات السبع ، ضبطه محمد علي حمد الله ، المطبعة التعاونية ،
دمشق ، ١٩٦٣ م .
- ابن سعد : —
الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت .
- ابن سعيد الأندلسي : —
المغرب في حلى المغرب (الجزء الخاص بمصر) ، تحقيق زكي محمـ
حسن ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، ١٩٥٣ م .
- ابن سلام الجمحي ، محمد بن سلام : —
طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مطبعة
المدني ، القاهرة ، ١٩٧٤ م .

السلمي :-

طبقات الصوفية ، تحقيق د . نور الدين شريعة ، دار الكتاب
النفس ، حلب ، ١٩٨٦ م .

السمعاني ، أبو سعد :-

الأنساب ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدرآباد
الدكن ، الهند ، ١٩٨١ م .

د. سهيل زكار :-

أخبار القرامطة ، (مستل من كتاب بغية الطلب لابن العديم) ، ط ٢ ،
دار حسبان ، ١٩٨٢ م .

د. سيده كاشف :-

أحمد بن طولسون ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ، القاهرة .

السيوطي :-

طبقات الحفاظ ، تحقيق علي محمد عمر ، مطبعة الاستقلال ، القاهرة ، ١٩٧٣ م .

تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة
بمصر ، ١٩٥٢ م .

الإتقان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة
المشهد الحسيني ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .

بغية الوعاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي
الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٤ م .

المزهر في علوم اللغة ، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي
ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة .

د. شاكرا مصطفى :-

التاريخ العربي والمؤرخون ، ط ١ ، دار العلم للملايين ، بيروت ،

١٩٧٩ م .

- ابن شاكِر الكُتَيْبِي : -
لغات الوُفِيَّات ، تحقيق د . إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت .
- ابن الشَّجَرِي : -
الحِمْيَرِيَّة ، تحقيق عبد المعين الملوحي وأسماء الحمصي ،
منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٧٠ م .
- ابن الشَّحْنَة الحلبِي : -
الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، علق عليه يوسف إلياس سركييس ،
المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٠٩ م .
- ابن شَدَاد : -
الأغلاقي الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق د . سامي
الدهان ، دمشق ، ١٩٥٦ م .
- الشَّطَّاطِي : -
الأَنوار ومُحاسِن الأشعار ، تحقيق د . محمد يوسف ، وزارة الإِعْـلام
الكويتية ، ١٩٧٧ م .
- ابن شهرآشوب المازندراني : -
معالم شعراء الشيعة ، المطبعة الحيدرية ، النجف ، ١٩٦١ م .
- الشَّهْرَسْتَانِي : -
البل والنحل ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة ، بيروت ،
١٩٨٤ م .
- دُشُوقِي ضِيَف : -
الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ط٤ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٠ م .
- الشَّيْخُ زَيْ : -
جُمُهرة الإسلام ذات النثر والنظام ، طبع بالتصوير عن المخطوطة رقم
٢٨٧ بمكتبة ليدن ، هولندا ، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية الإسلامية ، جامعة
فرانكفورت ، ألمانيا الاتحادية .

- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيه —
 — الوافي بالوفيات (الأجزاء ٢ — ٥) ، نشرت باعتماد هلموت ريتير، وس .
 ديدرنغ، ط٢ ، دار النشر فرانز شتاينر، فيسبادن ، ١٩٥٩ ، ١٩٧٠ م .
- تمام المتن في شرح رسالة ابن زيدون ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ،
 مصر ، ١٩٥٩ م .
- نكت الهميان في نكت العميان ، وقف على طبعه أحمد زكي بك ، المطبعة
 الجبالية ، القاهرة ، ١٩١١ م .
- الصولي ، أبو بكر محمد بن يحيى : —
 — أخبار أبي تمام ، شرح د . خليل محمود عساكر ، ومحمد عبده عزام ، نظير
 الإسلام الهندي ، ط١ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٧ م .
- أخبار البحري ، تحقيق د . صالح الأشر ، ط٢ ، دار الفكر ،
 دمشق ، ١٩٦٤ م .
- (أخبار الشعراء المحدثين ، نشره ج . هيورث دن . ط٢ ، دار المسيرة ،
 بيروت ، ١٩٧٩ م .
- (أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم ، نشره ج . هيورث دن . مطبعة الصاوي ،
 مصر ، ١٩٣٦ م .
- الأوراق ، تحقيق ج . هيورث دن ، دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٧٩ م .
- ابن طباطبا الملوحي : —
 — عيار الشعر ، تحقيق د . طه الحاجوي ، ود . محمد زغلـول
 سلام ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، ١٩٥٦ م .
- الطبري ، محمد بن جريـر : —
 — تفسير الطبري ، طبعة المطبعة الكبرى الأميرية ، بولاق ، ١٣٢٩ هـ .
- تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ،
 مصر ، ١٩٦٦ م .

- ابن طولون : —
الشعر البسام في ذكر من ولي القضاء بالشام ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٩٦٠ م .
- ابن طيف — : —
كتاب بغداد ، نشر عزت العطار الحسيني ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٤٩ م .
- ابن عبد رب — : —
العقد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، مصر ، ١٩٤٠ م .
- عبد الرحيم العباسي أبو الفتح : —
معاهد التنصيص ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٤٧ م .
- عبد القادر البغدادي : —
خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٨ م .
- د. عبد القادر الرباعي : —
الصورة الفنية في شعر أبي تمام ، ط ١ ، جامعة اليرموك ، إربد ، ١٩٨٠ م .
- العبيدي ، محمد بن عبد الرحمن : —
التذكرة السعدية في الأشعار العربية ، تحقيق د. عبد الله الجبوري ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، تونس .
- ابن العديم : —
بغية الطلب (الجزء الأول) ، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية الإسلامية ، طبعة مصورة عن نسخة آيا صوفيا ، فرانكفورت .

- بغية الطلب (الأجزاء : ٢ ، ٤ ، ٨) مصورة الجامعة الأردنية .
- زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق د . سامي الدعان ، دمشق ، ١٩٥١ م .
- ابن عساكر : -
- تاريخ مدينة دمشق (تراجم حرف العين المتلوة بالألف) ، تحقيق د . شكري فيصل ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق .
- (تراجم النساء) ، تحقيق سكينه الشهابي ، ط ١ ، دمشق ، ١٩٨٢ م .
- (الجزء الأول) ، تحقيق د . صلاح الدين المنجد ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق .
- (الجزء السابع) ، تحقيق د . عبد الغني الدقر ، ومطاع الطرابيشي ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق .
- (تراجم حرف العين عبد الله بن جابر - عبد الله بن زيد) ، تحقيق سكينه الشهابي ، ومطاع الطرابيشي ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٨١ م .
- مصورة تاريخ مدينة دمشق (٢ - ١٨) ، دار البشير للنشر والتوزيع ، ١٩٨٩ م .
- تهذيب تاريخ مدينة دمشق ، عمده عبد القادر بدران ، مطبعة روضة الشام ، ١٣٣٢ هـ .
- ابن العماد الحنبلي : -
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ط ٢ ، دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٧٩ م .
- عمر رضا كحالة : -
- معجم قبائل العرب ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ، ١٩٤٩ م .

- د. عمر موسى باشا : —
الأدب في بلاد الشام والجزيرة في العصر الإسلامي وحتى نهاية العصر
العباسي ، ط ١ ، طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ، ١٩٨٦ م .
- عمر بن يوسف بن رسول : —
طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب ، حققه ك . و . سترستين ، مطبوعات
المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٩٤٩ م .
- العميد : —
الإبانة عن سرقات المتنبي ، تحقيق د . إبراهيم الدسوقي البساطي ،
دار المعارف بمصر ، ١٩٦١ م .
- فازلي : —
العرب والسرور ، ترجمة د . محمد عبد الهادي شعيرة ، دار الفكر
العربي ، القاهرة .
- د. فتحي عثمان : —
الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري ،
دار الكاتب العربي ، القاهرة .
- أبو الفدا : —
المختصر في تاريخ البشر ، دار المعرفة ، بيروت .
- أبو الفرج الأصفهاني : —
الأغانيسي ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، مؤسسة جمال للطباعة
والنشر ، بيروت .
- مقاتل الطالبين ، شرحه وحققه أحمد صقر ، دار إحياء الكتب
العربية ، القاهرة ، ١٩٤٦ م .
- فيليب حتي : —
تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة كمال اليازجي ، دار الثقافة ، بيروت .

- القاضي الجرجاني «علي بن عبد العزيز»:-
- الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلي محمد
البجاوي ، ط ٢ ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة -
- قدامة بن جعفر:-
- نقد الشعر ، تحقيق كمال مصطفى ، ط ٢ ، منشورات مكتبة الخانجي
بمصر ، ومكتبة المتنبي ببغداد ، ١٩٦٣ م .
- الخراج وصناعة الكتابة ، شرحه وحققه د . محمد حسين الزبيدي ، دار
الرشيد للنشر ، وزارة الإعلام العراقية ، بغداد ، ١٩٨١ م .
- القشيري ، أبو علي محمد بن سعيد :-
- تاريخ الرقة ، تحقيق طاهر النعسلبي ، مكتبة صبحي المصري ، حماة .
- القفطي ، جمال الدين :-
- إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، تصحيح محمد أمين الخانجي ، مطبعة
السعادة ، القاهرة ، ١٣٢٦ هـ .
- المحمدون من الشعراء ، تحقيق د . حسن معمر ، منشورات دار اليمامة
للبحث والترجمة ، الرياض ، ١٩٧٠ م .
- القلقشندي :-
- قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، تحقيق إبراهيم الأبياري ،
ط ٢ ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة ، بيروت ، ١٩٨٢ م .
- ابن كثير:-
- الهداية والنهاية ، مكتبة المعارف ، بيروت ، مكتبة النصير ،
الرياض ، ١٩٦٦ م .
- تفسير القرآن العظيم ، دار المعرفة ، بيروت .

- الكندي ، محمد بن يوسف : -
- ولاية مصر ، تحقيق د . حسين نصار ، دار بيروت ، دار صادر ،
بيروت ١٩٥٩ م .
الولاية وكتاب القضاء ، هذبة رفن كست ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ،
لسترنج : - ١٩٠٨
- بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة وتعليق بشير فرانسيس وكوركيس عواد ،
ط ٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٥ م .
- ابن ماکولا : -
- الإكمال في رفع الارتباب عن المؤلف والمختلف من الأسماء والكنى والألقاب ،
صححه عبد الرحمن بن يحيى العلي ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر
آباد الدكن ، الهند ١٩٦٢ م .
- المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد : -
- الكامل في اللغة والأدب ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، والسيد شحاتة ،
دار نهضة مصر للطبع والنشر .
- متر ، آدم : -
- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة د . محمد عبد الهادي
أبوريدة ، ط ٢ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٧ م .
- (مجهول) : -
- محاسن المساعي في مناقب الإمام الأوزاعي ، نقحه وعلق عليه الأمير شبيب
أرسلان ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، مصر .
- محمد كرد علي : -
- رسائل البلغاء ، ط ٢ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ،
القاهرة ١٩٤٨ م .

- خطط الشام ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٦٩ م .
- فوطه دمشق ، ط٢ ، مطبعة المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٩٥٢ م .
- العزبانسي :-
- معجم الشعراء ، تصحيح روف كرنكو ، ط٢ ، مكتبة القدسي ، بيروت ، ١٩٨٢ م .
- معجم الشعراء ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .
- الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار نهضة مصر ، ١٩٦٥ م .
- أخبار شعراء الشيعة ، تلخيص محسن الأمين العاملي ، تحقيق محمد عادي الأميني ، المطبعة الحيدرية ، النجف ، ١٩٦٨ م .
- العزوقسي :-
- شرح ديوان الحماسة ، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ، ط١ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥١ م .
- مروان بن أبي حفصه :-
- شعر مروان بن أبي حفصه ، جمعه وحققه د حسين عطوان ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٧٣ م .
- المسعودي :-
- التنبيه والإشعار ، مكتبة خياط ، بيروت ، ١٩٦٥ م .
- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط٢ ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٥٨ م .

- المسعودي ، علي نور الدين : —
المختار من قطب السرور في أوصاف الأئمة والخمور ، تحقيق د . عبد الحفيظ منصور ، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله ، المطبعة الرسمية ، تونس ، ١٩٧٦ م .
- مسلم بن الوليد : —
ديوان مسلم بن الوليد ، صريح الخواني ، تحقيق د . سامي الدهان ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٨ م .
- ابن المعتز : —
طبقات الشعراء المحدثين ، تحقيق عبد الستار فراج ، ط ٣ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٦ م .
- المعري ، أبو العلاء أحمد بن الحسين التنوخي : —
هيك الوليد ، تحقيق د . ناديا علي الدولة ، دمشق ، ١٩٧٨ م .
- رسالة الغفران ، تحقيق د . بنت الشاطئ ، ط ٤ ، دار المعارف بمصر .
- ابن معين ، أبو زكريا يحيى بن معين : —
معرفة الرجال ، تحقيق د . محمد كامل القصار ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٨٥ م .
- الفضل الضبي : —
الفضليات ، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، ط ٣ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٤ م .
- المقدسي ، شمس الدين أبو عبد الله : —
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، نسخة مصورة عن الطبعة الثانية ، بريل ، ١٩٠٦ ، مكتبة خياط ، بيروت .

- المقدسي ، مطهر بن طاهر —
البد ، والتاريخ ، نشر كلان عوار ، باريز ١١٦٦ م .
- المقري : —
نسخ الطيب ، تحقيق د . إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ،
١٩٦٨ م .
- د. ملكة أبي —
التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة
الأولى للهجرة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٠ م .
- المنبجي ، أغا بيوس : —
المنتخب من تاريخ المنبجي ، حققه د . عمر عبد السلام تدمري ، دار
النصور ، طرابلس ، لبنان ، ١٩٨٦ م .
- منصور النمري : —
شعر منصور النمري ، جمعه الطيب العشاش ، دار المعارف للطباعة ،
دمشق ، ١٩٨١ م .
- ابن منظور : —
لسان العرب .
- نجيب محمد البهيتي : —
أبو تمام الطائي حياته وحياة شعره ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ،
المغرب ، ١٩٨٢ م .
- ابن النديم : —
الفهرست ، نسخة مصورة عن طبعة دار المعارف بمصر .

- نصرت عبد الرحمن : —
شعر المراع مع الروم في ضوء التاريخ ، مكتبة الأقصى ، ط ١ ، عمان ،
١٩٧٧ م .
- أبو نعيم الأصبهاني : —
حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- النعماني : —
فضاء دمشق ، مطبوع مع الثغر البسام في ذكر من ولي قضا الشام ،
تحقيق د . صلاح الدين المنجد ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٩٥٦ م .
- أبو نواس : —
ديوان أبي نواس ، تحقيق إيفالد فاغنز ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة
والنشر ، مصر ١٩٥٨ م .
- أبو هلال العسكري : —
ديوان المعاني ، مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٣٥٢ هـ .
- كتاب الصنائع ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل
إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٢ م .
- الهمداني : —
صفة جزيرة العرب ، مطبعة بريل ، لندن ، ١٩٦٨ م .
- وكيع بن الجراح : —
أخبار القضاة ، نسخة مصورة عن طبعة القاهرة ١٢٦٦-١٢٦٩ هـ .
- اليافعي : —
مرآة الجنان وهرة اليقظان ، ط ٢ ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ،
بيروت ، ١٩٧٠ م .

- ياقوت الحموي :-
- معجم الأديباء ، نسخة مصورة عن نسخة عيسى البايي الحلبي ، دار
إحياء التراث العربي ، بيروت .
- معجم البلدان .
- اليعقوبي :-
- تاريخ اليعقوبي ، دار صادر ، بيروت .
- ابن أبي يعلى :-
- طبقات الخنابلة ، دار المعرفة ، بيروت .
- ديوسف بكار :-
- شعر ربيعة الرقي ، جمع وتحقيق ودراسة ، ط ٢ ، دار الأندلس
بيروت ، ١٩٨٤ م .
- أبو يوسف (القاضي) :-
- الرد على سيرا الأوزاعي ، تصحيح أبي الوفاء الأتقاني ، لجنة إحياء
المعارف النعمانية ، حيدرآباد الدكن ، الهند .
- الخسراج ، تحقيق د . إحسان عباس ، دار الشروق ، بيروت .
- ١٩٨٥ م .

ثانياً: المجلات :-

(١) د. إحسان عباس :

عهد الملك بن مروان ودوره في ثقافة عصره ، مجلة دراسات ، المجلد
١٣ ، العدد الأول ، الجامعة الأردنية ، عمان ، ١٩٨٦ م .

(٢) خليل مردم بك :-

شعراء الشام في القرن الثالث الهجري ، مجلة المجمع العلمي العربي ،
المجلد الخامس ، دمشق ، ١٩٢٥ م .

(٣) د. ناصر حـلاوي :-

العتابي حياته وما تبقى من شعوره ، مجلة الميسر ، السنة
الثانية ، العدد الثالث ، جامعة البصرة ، ١٩٦٩ م .

(٤) لؤيس شيخو :-

تحقيق تاريخ بيروت لمالك بن يحيى ، مجلة المشرق ،
المجلد الأول ، ١٨٩٨ م .

- 1) Poetry and the Civil wars .
- 2) Poetry and the Muslim-Byzantine Wars .
- 3) Emotional (Lyrical) trends, i.e. Ghazal(Love-Poetry),
Eulogy , Elegy etc .
- 4) The Study of six Syrian-Mesopotamian representative
Poets .

In the Epilogue the question of the distinguishing traits of a ' Syrian Poetical School ' was attempted. In fact no independent qualities were discovered . In general the poetry of that period has almost the same traits of Arabic Poetry elsewhere. Yet it is not worthy that most of the poetry was the product of cities such as Damascus, Emesa, Antioch and Raqqa and not of the provincial areas. Further discoveries may clarify more aspects of that poetry; but this means to wait new hitherto unknown poetical and historical works .

٢٩٧٢٥٢